تمهيد لعلم النفس



د. محمد حسن غانم

تمهيد

لعلم النفس

دكتـــور

محمد حسن غانم

جامعة حلوان – قسم علم النفس

٢٠٠٤ م



فهرس





مقدمة

حاولنا قدر الجهد والوقت أن نتناول في كتاب: مدخل لعلم النفس العام عشرين موضوعًا متنوعًا ومتداخلاً ومتشابكًا ولا غنى لدارسي علم النفس – وحتى القارئ العادي المهتم بعلم يتناول نفسيته واهتماماته ودوافعه – من ضرورة الإلمام به .

وقد حاولنا قدر الجهد أن لا نغوص في الفنيات الدقيقة التي قد يجد القارئ فيها صعوبة ومحاولين قدر الإمكان التبسيط ودون إخلال بقوانين وقواعد هذا العلم. والذي يعد الأساس والمنطلق والشجرة التي تضم بين جنباتها كافة فروع علم النفس الأخرى.

ونعلم مقدمًا – أيضًا – أن هذه الموضوعات العشرين لا تشبع نهم القارئ والباحث بيد أننا مقيدين بالعديد من الأمور، آخذين في الاعتبار أيضًا العديد من العوامل والأسباب التي تحتم ذكر أو حذف بعض الفصول والموضوعات، وإن كان – كل ما سبق – لا يمنع من إضافة أو تعديل أو تنقيح أو حتى حذف بعض الموضوعات ووفقًا لما يسفر عنه الحوار مع الذات والآخر، وما يستجد في الساحة العلمية من اكتشافات جديدة تعمق رؤانا أو ربما تطيح بما كنا نسلم به ابتداء بأنه من القوانين.

.. وما زال الباب متسع وعلى مصراعيه لامتداد الحوار الديالكتيكي الذي لا ينتهي.

والله من وراء القصد

د. محمد حسن غانم

عضو هيئة التدريس جامعة حلوان

ومعالج نفسي

٢٠٠٤



الفصل الأول

نظرة إلى واقع الإنسان المعاصر



الفصل الأول

نظرة إلى واقع الإنسان المعاصر

مقدمة :

يتفق الكثير من المؤرخين على أن القرن العشرين يوصف بأنه عصر القلق والاكتئاب. فرغم التقدم الهائل في جميع الوسائل المعيشية والتي وفرت للإنسان طرق ووسائل لم تكن موجودة للأجداد من قبل. إلا أن هذا التقدم لم يواكبه وبنفس القدر درجة من الراحة والأمان والاطمئنان والسكينة النفسية. فلقد قطع الإنسان شوطًا لا بأس به في سبيل فهم الطبيعة المحيطة به، وتمكن من تسخير كثير من قواها لحساب راحته، وأصبح الإنسان سيد الطبيعة بلا منازع، رغم أنه ليس أقوى الكائنات الحية. وقد تمكن الإنسان من ذلك بفضل ما زودته به من عقل وقدرة على التفكير. وبفضل استخدام الإنسان لعقله وقدرته على التفكير استطاع أن يصل إلى معرفة كثير من القوانين التي تحكم حركة العالم الطبيعي. لكن الإنسان لم يتقدم في اكتشاف القوانين التي تحكم عالمه الخارجي بنفس القدر.. وقد عرفت هذه المشكلة بين المفكرين وفلاسفة الأخلاق "بأزمة الإنسان المعاصر" وتتمثل هذه الأزمة في أن تقدم الإنسان الروحي والخلقي لم يواكب – وبنفس الدرجة – تقدمه المادي والنفسي (علاء الدين كنفاني، ١٩٩٧: ٩).

ونستطيع في عجالة أن نحصر البانوراما التي شهدتها واكتوت بنارها الإنسانية خلال القرون وهي:

أولاً : الحروب WARS:

لقد اكتوت الإنسانية بحربين عالميتين في مدى ثلاثين عامًا. الحرب العالمية الأولى (١٩١٤–١٩١٨) والحرب العالمية الثانية (١٩٣٦–١٩٤٤): وتبين للإنسان أنه لم يعجز فقط عن فهم نفسه بل عن التنبه إلى هذه الطاقة العدوانية الهائلة والكامنة في أعماقه. وفيما عدا الحربين العالميتين لم تنقطع الحروب العالمية والإقليمية في أماكن كثيرة من العالم ولأسباب مختلفة سوف نذكرها فيما بعد، وسوف نورد ثلاثة أمثلة للحروب الأهلية والتي شهدتها منطقتنا العربية في الآونة الأخيرة.

أ– قضية فلسطين :

لعل قضية فلسطين تعد أهم بؤرة اشتعال في عالمنا العربي، حيث تعكس الصراع العربي الإسرائيلي، والذي وضعت اللبنات الأولى له في نهاية القرن السابق وبالتحديد في عام



١٨٩٧، حينما عقد في بازل بسويسرا المؤتمر الصهيوني الأول برئاسة تيودور هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية، وانتهى المؤتمر إلى تحديد أهداف الصهيونيين في:

- إقامة استعمار يهودي في فلسطين .
- إنشاء منظمة تربط يهود العالم من خلال مؤسسات في كل دولة تضم يهودها.
- تقوية الشعور القومي لليهود .
- الحصول على موافقة دولية لتحقيق أهداف الصهيونية.

وشرع الصهيونيون في إقامة المستوطنات على أرض فلسطين بالاستعانة بنقود القنصليات الأوربية هناك، وارتفع عدد المستوطنات من ٤٧ مستوطنة عام ١٩١٤ إلى ٢٧٤ مستوطنة عام ١٩٤٩، واستمر عدد المستوطنات في الارتفاع بالرغم من كل المحاولات بما في ذلك اتفاقية كامب ديفيد والتي لم تمنع النشاط التوسعي الصهيوني؛ لأن هذا الصراع لم يأخذ شهادة ميلاده الرسمية إلا بعد وعد بلفور وزير خارجية بريطانيا – والذي أصدر وعده بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين عام ١٩١٧. وفي ديسمبر عام ١٩٤٧ قامت الحرب بين الفلسطينيين والصهاينة بعد ما أعلنت الأمم المتحدة موافقتها على قرار تقسيم فلسطين، وما إن أعلنت بريطانيا إنهاء الانتداب البريطاني وسحبت جيوشها من المنطقة حتى أعلنت إسرائيل في اليوم التالي قيام دولتها، وغني عن البيان أن الصراع العربي الإسرائيلي قد تطور وأخذ أشكال عدة بدءًا من حرب ١٩٥٦، ثم حرب حزيران ١٩٦٧، حيث احتلت إسرائيل أجزاء من أراضي ثلاث دول عربية هي مصر وسوريا والأردن، ثم حرب الاستنزاف حتى حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣، ثم معاهدة السلام (كامب ديفيد) والموقعة في مارس ١٩٧٨. وما تلاه من انقسام في الرأي العربي بين مؤيد ومعارض، وما زالت حتى هذه اللحظة مثلاً تقع مصادمات بين الفلسطينيين واليهود، أو الفلسطينيين وبعضهم من جراء تغيير المواقع أو المصالح والسياسات (السلطة الوطنية، حماس مثلاً)،. وهكذا يعد الصراع العربي الإسرائيلي ممتد ومتشعب وله العديد من الأخطار سنشير لها فيما بعد.

ب – الحرب الأهلية في لبنان:

اهتم محمد أحمد النابلسي بمشكلات الحرب الأهلية في لبنان، وقد أجرى العديد من التجارب على هذه الأحداث وما ترتب عليها من اضطرابات في نفوس وعقول اللبنانيين، وعمومًا فإنه يجمل آثار الحرب على نفوس الشباب الذين كانوا منضمين إلى ميليشيات حزبية الآثار النفسية الآتية:

١- شباب متمرد، يجد صعوبات قصوى في اتخاذ القرارات والمبادرة.



٢- شباب ضعيف الثقة بالنفس.

٣- شباب يتقبل الإجراءات وخاصة المتطرفة فيها.

٤- شباب غير قادر على العمل المنظم.

٥- شباب يعاني حالة فراغ كبير في حياته.

٦- حالة ركود وإحساس باليأس من أنه أضاع سنوات عمره هباء.

٧- شباب يعاني من أوبئة اجتماعية ونفسية خطيرة مثل الإدمان والقمار والميول العدائية والتي تصل عند البعض إلى حد الإجرام.

٨- خائف من المجتمع ومن القانون بشكل خاص.

٩- متطرف، صعب وغير مرن، وبالتالي يجد صعوبات جمة في التوافق والتكيف.

١٠- يعاني من مشاعر الذنب.

١١- شباب يعاني من مجموعة وساوس قهرية أهمها حمل السلاح. (محمد أحمد عبد النابلسي ١٩٩١، ٢٩: ٣٠)، كما لاحظ النابلسي (١٩٩٢) أن معظم اللبنانيين يعانون من الاضطرابات النفسية والجسدية الناجمة عن الحرب اللبنانية الأهلية وخاصة عصاب الحرب وما يفجره من اضطرابات شتى تطيح بالأمن النفسي للأفراد. (النابلسي، ١٩٩٢).

ج- احتلال العراق للكويت :

في الثاني من أغسطس (آب) ١٩٩٢ قامت القوات العراقية باحتلال الكويت وما تمخض عن ذلك من تحالفات دولية، ثم انسحاب العراق، ثم فرض شروط عليه لتخليصه من أسلحة الدمار الشامل.. وهكذا ظلت الأزمة حتى الآن قائمة ويكتوي بنارها الكويتيون والعراقيون (الذين فرض عليهم الحصار الدولي) وكذا جيران هاتين الدولتين، ووجود القوات الأجنبية في المنطقة والرعب الذي يتنفسونه صباحًا ومساءً ليس فقط أصحاب المشكلة بل جيرانهم، والأمة العربية جمعاء. وقد أجريت العديد من الدراسات على الكويتيين بعد الأزمة منها دراسة أميرة الديب (١٩٩٢) ودراسة حامد الفقي (١٩٩٣)، ودراسة عويد سلطان وفريج عويد (١٩٩٦) وقد توصلت هذه الدراسات إلى وجود اضطراب نفسي يعاني منه الكويتيون. فمثلاً الدراسة الثالثة تناولت (٧٩) أسرة عاشت خارج الكويت أثناء احتلال العراق (٥٨) أسرة عاشت داخل الكويت ولم يكن فيها أسرى أو شهداء، (٥٥) أسرة بها شهيد (٥٧) أسرة بها أسير وطبق عليهم عدة مقاييس وقد توصلت النتائج إلى عدم وجود فرق بين الأسر التي



كانت خارج الكويت والتي كانت داخلها أثناء العدوان من حيث ارتفاع درجات القلق والاكتئاب والعديد من الاضطرابات النفسية.

وتقودنا الأمثلة الثلاث القليلة من الحروب في عالمنا العربي إلى الحديث عن الآثار النفسية للحروب والكوارث بصفة عامة. وقد اهتم علم النفس بهذا الأمر وصك مصطلح عصاب الحرب WAR NERVES حيث تتفاوت التأثيرات النفسية في موقف الحرب أو الصدمة وقد أجريت العديد من الدراسات على الدول والأفراد التي عانت من ويلات الحروب، وأن المرور بخبرة معايشة الحرب المؤلمة (مثل الخوف من القتل أو التعذيب النفسي والجسدي) أو مشاهدة عمليات القتل والإعدام أو التعرض للاعتقال والتهديد أو سماع تلك الأحداث أو مشاهدتها عبر وسائل الإعلام، كل ذلك يترك آثاره النفسية السيئة بل وتتضاعف مع مرور الزمن.

كما أكدت العديد من الدراسات (منذ الحرب العالمية الثانية) أن الحروب بأشكالها تترك وراءها مشكلات وأزمات نفسية واجتماعية تؤدي إلى ارتفاع معدلات الاضطرابات النفسية لدى الأسر. وقد وجد "مارش ١٩٩١" مثلاً أن معظم الصفات التي يخبرها الأفراد عقب صدمة الحرب تتمثل في الأذى البدني وفقدان السند والعزيز، والأعمال الوحشية التي يتعرضون لها، والتعرض للموت البشع وكل هذه الأشياء وغيرها تترك ترسبات نفسية تتفاعل وتقود إلى العديد من الاضطرابات (Monch 1991).

ثانيًا : الإدمان Addiction

على الرغم من أن الإدمان معروف منذ القدم إلا أنه قد استجدت العديد من الظروف والعوامل التي حولته إلى ظاهرة عالمية في العديد من دول العالم في الوقت الراهن. فلم يعد الإدمان قاصرًا على عقار دون آخر، ولم يعد يقبل على الإدمان فئة دون أخرى. بل إن الضغوط والمغريات أو الرغبة في الهروب، وأحيانًا التمرد على كثير من الأوضاع قد يدفع الشباب إلى الإقدام على المخدرات.

حجم المشكلة ومدى انتشارها عالميًا:

ذكر تقرير وزارة العدل الأمريكية عن وجود علاقة بين تعاطي المخدرات والاتجاه نحو ارتكاب جرائم العنف. وأن العودة إلى ارتكاب جرائم السرقة البسيطة وجرائم البغاء (من أجل توفير مصدر مالي لشراء المخدرات يعد نتيجة حتمية للتعاطي U.S Department of Justic Drug and Arrest Changes, 1981, p: 8). كذلك فقد وصف تقرير الأمم المتحدة لعام ١٩٨٥م مشكلة المخدرات بأنها من المفاسد الاجتماعية الهائلة التي تدمر حياة ملايين لا تحصى من البشر، وتهدد بتقويض الكيان الإداري والاقتصادي لبعض دول العالم



النامي، وتحرص التقارير الصادرة عن أجهزة هيئة الأمم المتحدة المعنية بمشكلة المخدرات على تأكيد الصلة بين جرائم الاتجار غير المشروع والمخدرات من ناحية، وجرائم العنف والإرهاب والاتجار في الأسلحة والمفرقعات من ناحية أخرى. وتشير وثائق اجتماعات لجنة المخدرات العادية والخاصة إلى التصاعد المستمر والخطر في حجم مضبوطات العالم من جميع أنواع المخدرات. وبالرغم من الحجم الكبير للمضبوطات في السنوات الأخيرة إلا أن حجم المتاح منها للمتعاطين لم يتأثر، الأمر الذي يشير إلى الحجم الرهيب للإنتاج غير المشروع منها، وهذا الحجم طبقًا لمعيار الإنتربول يعادل (١٠) أمثال المضبوط من المخدرات. (محمد فتحي عيد ١٤١٠ هـ ١٦٠).

بل إن التقرير السنوي الصادر عن الإدارة العامة لمكافحة المخدرات في مصر نجده يخصص فصلاً بعنوان "الاتجاهات العالمية للاتجار غير المشروع بالمخدرات وإساءة استعمالها" حيث يتم استقصاء مادة هذا الفصل وفق أحدث المعلومات والبيانات الصادرة عن الهيئة الدولية للرقابة على المخدرات في مختلف أنحاء العالم سنويًا في تقريره. فعلى سبيل المثال وفي وصف خريطة المخدرات في العالم – عام ١٩٩٣ مثلاً– ومن خلال المعلومات المستدل عليها من الحكومات وأجهزة الأمم المتحدة والوكالات والمنظمات الدولية المختصة بمكافحة المخدرات، والذي يقسم مختلف العالم إلى خمس مناطق هي على الترتيب : آسيا، أفريقيا، أوروبا، أمريكا، الدول الأوقيانوسية، نجد من خلال التصفح لبيانات خريطة المخدرات في أنحاء العالم أنه قد باتت بالفعل مشكلة مؤرقة، حيث يعقد الاتفاقيات بين الدول للحد من الإتجار بالمخدرات، ورغم ذلك ما زالت المشكلة ملحة وقائمة وخطيرة في مناطق متعددة من أنحاء العالم. (التقرير السنوي، ١٩٩٤، ١٢٧: ١٦٠).

ولذلك فإنه بعد أن تم استعراض أهم الاتجاهات العالمية لتعاطي المخدرات والاتجاه غير المشروع بها في كافة دول العالم فإننا نجد أن مشكلة إساءة استعمال المخدرات والإتجار غير المشروع بها في كافة دول العالم يثير أمرين:

الأول: على الرغم من كمية المضبوطات فإن حجم المتاح من المخدرات بمختلف أنواعها في تزايد مستمر.

الثاني: إن الإحصاءات الواردة عن كمية المضبوطات، وكذا عدد المدمنين لا يمكن أن تعبر أبدًا عن الحجم الحقيقي لإنتاج المخدرات، إضافة إلى زيادة عدد المدمنين لهذه المواد، ولذلك يجب أن يتم النظر إلى هذه الإحصاءات والأرقام بحذر.



حجم مشكلة الإدمان في مصر:

تعتبر مصر جزءًا حيويًا من هذا العالم حيث تقع في ملتقى مواصلاته البرية والبحرية والجوية، وتتوسط مناطق الإنتاج الشهيرة في الشرق، وأسواق الاستهلاك في الغــرب، بمــا يجعلها في تماس مباشر ومستمر مع مشكلة المخدرات التي تؤثر فيها وتتـــأثر بهـــا: إنتاجًـــا وعبورًا واستهلاكًا (عصام الترساوي ، ١٩٩٤ ، ١٩٢). ولعل مشكلة الإدمان في مصر أنهـــا تعد من المشاكل المستفحلة والتي تتحد كافة أجهزة المجتمع وقد استبان من ندوة علمية (نـــدوة الأهرام عام ١٩٨٢) أن المخدرات وبخاصة الحشيش والأفيون تعتبر غـــولاً يفتـــرس تنميـــة المجتمع المصري، إذ إن ما تدفعه مصر ثمنًا للمخدرات المهربة إليها من الخـــارج بالعملـــة الصعبة يقدر بسبعمائة مليون جنيه، وهذا الرقم في ذلك الوقت ١٩٨٢ يساوي :

- نصف ثمن الصادرات المصرية، صناعية وزراعية وغيرها فيما عدا البترول.
- كل عائدات مصر العالمية من قناة السويس .
- كل دخل مصر من السياحة .
- ثلث مجموع ما تدفعه الدولة من دعم للسلع الغذائية الأساسية.
- نصف مجموع مرتبات كل العاملين في القطاع العام.
- أكثر من مجموع ما تحصل عليه الدولة من ضرائب على الإيراد العـــام وعلـــى الدخول.

هذا بجانب ما تدفعه الدولة من ميزانيتها في الإنفاق على أجهزة مكافحـــة المخـــدرات والعلاج، بالإضافة على ما يدفعه المدمنون في مصر ثمنًا لشرائها، بجانب الضرر الذي ينزل بمتعاطي المخدرات وبأسرهم والنقص في قدراتهم على العمل والإنتاج (جمال أبـــو العـــزائم، ١٩٩٤، ٢٢). ومن خلال تتبع خريطة المخدرات وأنواعها في مصر والذي قدمـــه المجلـــس القومي لمكافحة وعلاج الإدمان – لجنة المستشارين العلميين في التقرير التمهيـــدي (١٩٩١م) "يتضح دخول الهيروين ضمن قائمة المخدرات المعروضة في مصر في أوائـــل الثمانينـــات وكذلك الكوكايين ولكن بنسبة أقل كثيرًا هذا بالإضافة إلى المواد النفسية الدوائيـــة، وانتـــشار الماكستون فورت، وفي الوقت نفسه زاد المعروض من الحشيش زيادة كبيرة، وبقى الأفيـــون على ما هو عليه" (المجلس القومي لمكافحة وعلاج الإدمان، ١٩٩١، ٥٦). وقد اتـــضح فـــي أطروحة الماجستير لماجدة طه (١٩٨٩) "أن إدمان الهيروين في مـــصر أظهـــر أن متوســـط الاستهلاك المادي (المالي) للفرد المدمن للهيروين في الشهر هو (٣٠٠٠) جنيه مصري، وهذا يشكل عبئًا (ماديًا) رهيبًا على الأفراد، وبالتالي يظهر بصورة غير مباشرة علـــى المجتمـــع،



ولذلك فإن الإدمان يدفع بالفرد المدمن للحصول على المال اللازم لشراء الهيروين" (ماجدة طه فهمي، ١٩٨٩، ٣٨٣: ٣٨٤). وإذا كانت مصر دولة مستهلكة للمخدرات، إلا أن التطورات التي طرأت في السنوات الأخيرة جعلت من مصر دولة ترانزيت تمر المخدرات عبرها من الشرق إلى الغرب، وذلك من خلال قناة السويس وميناء القاهرة الجوي"، كما أن الأرقام التقريبية التي توصل إليها الباحثون تؤكد أن شباب مصر على حافة الهاوية فالأرقام تقول:

- ٢١ مليار دولار حجم ما يصرف على المخدرات.
- ٢ مليون مدمن.
- ١٥ شابًا يموتون يوميًا تقريبًا نتيجة تعاطي جرعات زائدة (ماجدة حسين محمود، ١٠٠١، ٦: ٧).

وقبل أن نتعرض لحجم الإدمان والمخدرات في مصر فإننا نتفق مع محمد فتحي عيد (١٩٩٨م) في حقيقة "أنه لا يوجد إحصاء دقيق لعدد متعاطي المخدرات في أية دولة من دول العالم مهما كانت درجة تقدمها، وذلك بسبب الطبيعة الاجتماعية والجنائية لتعاطي المخدرات، ومعظم البيانات الإحصائية عن المتعاطين بيانات تقريبية، وربما كان أقربها إلى الواقع البيانات الإحصائية التي تعتمد على أنواع وكميات المخدرات التي ضبطتها أجهزة المكافحة. وقد اعتبرت منظمة الشرطة الجنائية الدولية، وأجهزة هيئة الأمم المتحدة أن كميات المخدرات المضبوطة في بلد تراوح بين ١٥: ١٠% من كمية المخدرات التي تستهلك في هذا البلد" (محمد فتحي عيد، ١٩٨٨، ١٩٩) وبالرغم من ذلك، فإن الإحصاءات الواردة في تقارير الإدارة العامة لمكافحة المخدرات في مصر "تشير إلى الزيادة المستمرة في انتشار المخدرات، كما تؤكد أيضًا الارتفاع المتزايد في نسب أعداد الذين يتم ضبطهم سواء في جرائم الإتجار أو التعاطي بالرغم من أن الإحصاءات تشير إلى ازدياد نسبة الضبط من المواد المخدرة. ولعل نظرة إلى خريطة المخدرات في مصر من خلال المقارنة خلال أحد عشرة عامًا مركزين فقط على إحصاءات عامي ١٩٨٣م، ١٩٩٣م، حتى تتضح لنا حجم المشكلة بجلاء من خلال التركيز على المحاور الثلاث الآتية في الإحصاءات:

١- عدد القضايا.

٢- عدد المهتمين.

٣- أنوع المخدرات التي تم ضبطها.



جدول يوضح خريطة الإدمان في مصر مقارنة بين عامي ١٩٨٣م، ١٩٩٣م

البيان	**عام ١٩٨٣م**			**عام ١٩٩٣م**		
عدد القضايا	٨١٩٧			١٣٧٨٢		
عدد المتهمين	٧٩٦٨			١٥١١٠		
	س	ج	ك	س	ج	ك
حشيش بالكجم	–	٥٢٨	٦٥٨٢١	٧٥	٥٢٨	٤٢٦٩
أفيون بالكجم	–	٣٦١	٢٥٢	٨	٢٢٥	٩٥
أفيون سائل	–	–	–	–	١١١ سم	–
مورفين سائل	–	–	–	–	–	–
هيروين بالكجم	–	٧٨٩	٢٤٢	١٧	٩١٨	١٩١
هيروين سائل	–	–	–	–	٣٩ سم	–
كوكايين بالكجم	–	٥	٥	٥	٣٥٨	١
خشخاش	٢٤٦٣١٨٤ شجرة			٧٣	٣٨٥	٥٩٩
كبسولة خشخاش	–			٩٣١٣٨٩٤٣ شجرة ٣٠٨		
القنب	٢١٠١٤ شجرة			١٦٧٢٣٧٣ شجرة + ١٥ بذرة + ٨٢ حبة ثمرة		
المواد المؤثرة على الحالة				٨٣	٨١٥	١١
				١٥٩٣٧٥		
بالكجم	٢٠٦,٣٨٨ كجم			٣٩سم٣ هيروين		
بالعدد	٧٨٠٠٤٠ سم ٢ من مادة			٤٩٠٣ سم٣ كودايين		
بالسم	الماكستون فورت			١١١ سم٣ أفيون		

التقرير السنوي لسنة ١٩٩٣ – الإدارة العامة لمكافحة المخدرات، ١٩٩٤، ٣٧٠

ويتضح من الجدول الحقائق التالية:

أولاً : فيما يتعلق بعدد القضايا :



بلغ عدد القضايا المضبوطة خلال عام ١٩٨٣م (٧١٩٧) قضية في حين بلغ عدد القضايا عام ١٩٩٣م (١٣٧٨٢) أي بزيادة قدرها (٦٥٨٥) قضية أي ما يعادل ٣٩% مما يؤكد أمرين:

الأول : مقدار الجهود الجادة التي تبذلها مكافحة المخدرات.

الثاني : تزايد كميات المخدرات التي ترد إلى البلاد أو تصنع داخليًا.

وهذا مؤشر يعكس كم المعروض من المواد المخدرة داخل جمهورية مصر العربية.

ثانيًا : فيما يتعلق بعدد المتهمين:

حيث بلغ عدد المتهمين في قضايا المخدرات عام ١٩٨٣م (٧٩٦٨) متهمًا في حين بلغ عددهم عام ١٩٩٣م (١٥١١٠) أي بزيادة قدرها (٧١٤٣) أي ما يعادل ٣٠,٩٥% ولنا على الإحصاءات الواردة خلال عشر سنوات وتحديدًا خلال عامي ١٩٨٣م، ١٩٩٣م الملاحظات الآتية:

١- أن هناك علاقة بين عدد القضايا وعدد المتهمين بمعنى آخر أننا نجد تقاربًا في العدد بين القضايا وأعداد المتهمين.

٢- أن انخفاض عدد المتهمين والقضايا في بعض السنوات لا يؤثر على حجم المعروض من المخدرات؛ لأن هذا العدد لا يعني كل المتهمين بل هو "رقم" ما تم القبض عليه فقط وليس عدد مروجي وتجار المخدرات في مصر.

٣- إن الانخفاض الذي شهدته إحصاءات الإدارة العامة لمكافحة المخدرات، وتحديدًا عام ١٩٨٩م مقارنة بالسنوات السابقة أو اللاحقة إنما يعود إلى إصدار القانون رقم ١٣٢ لسنة ١٩٨٩م.

وقد نص على توقيع أقصى العقوبة في مجال المخدرات وبمعنى آخر "قد استنفذ أقصى ما يملك من آليات موضوعية أو إجرائية التشدد في جرائم المخدرات" (عبد العزيز الجندي، ١٩٩٤، ١٦٩).

٤- إن العديد من الباحثين لا يعتد أبدًا بالإحصاءات الخاصة بعدد القضايا وعدد المتهمين لأن هذه الإحصاءات – على حد زعمهم – مضللة ولكن يقومون بحساب متوسط ما تم ضبطه من مادة مخدرة معينة، ويقوم بتحديد متوسط التعاطي لدى الفرد ثم يقوم بضرب هذا المتوسط في (١٠) مع متوسط ما يستهلكه الفرد من المادة المخدرة على مدار السنة وهنا نصل إلى عدد المتهمين أو المدمنين بصورة قريبة جدًا من الواقع. (المجلس القومي لمكافحة وعلاج الإدمان، التقرير التمهيدي ١٩٩١، ٧٦: ٧٧).



ثالثًا : المواد المخدرة التي تم ضبطها:

يتضح من الجدول أن الأرقام عام ١٩٩٣م مقارنة بما قبله من أعوام خاصة عام ١٩٨٣م قد انخفضت ويلخص لنا التقرير السنوي لإدارة مكافحة المخدرات (١٩٩٣م) وضع المضبوطات من المواد المخدرة كالآتي: "انخفضت كمية الحشيش المضبوطة عام ١٩٩٣ إلى ما يقرب من (٤٢٧٠ كجم بينما زادت كمية الحشيش في العام السابق إلى (٧٩٨٥ كجم) بنقص قدره ٤٦,٥٢%، والعكس من ذلك فقد ارتفعت كميات المضبوطات من المخدرات الأخرى، حيث بلغت الكمية المضبوطة من الهيروين حوالي (١٩٢) كجم مقابل حوالي (٥٢) كجم في العام السابق بزيادة تقترب من ٢٦٩%. (التقرير السنوي لإدارة مكافحة المخدرات. ١٩٩٤، ١٢). وبالرغم من أنه لا توجد إحصائية دقيقة يمكن أن نعول عليها في الوقوف على الحجم الحقيقي لعدد المدمنين في مصر إلا أن تقارير الإدارة العامة لمكافحة المخدرات (١٩٩٤م) تقدم لنا إحصائية لمن تقدم للعلاج من الإدمان بالمستشفيات الحكومية وأندية الدفاع الاجتماعي، والجمعية المركزية لمنع المسكرات والمخدرات بالقاهرة، حيث بلغ عدد من تقدم للعلاج من الإدمان ١٩٨٩م (٣٢٤٩) مدمنًا ثم انخفض عام ١٩٩٠م إلى (٢٢٧٧)، وفي عام ١٩٩١م بلغ (٢٣١٨) ثم ارتفع عام ١٩٩٢ (٤١٧٣) ثم انخفض عام ١٩٩٣ إلى (٣٣١٨). (التقرير السنوي لعام ١٩٩٣، ١٩٩٤، ٣٧١)، ورغم أن كافة التقارير الرسمية لا تذكر كم المضبوط من الكحوليات إلا أن الدراسات الميدانية التي يجريها مصطفى سويف وزملاؤه على قطاعات متعددة من المجتمع المصري تشير نتائجها إلى زيادة التعاطي خاصة فيما يتعلق بتناول الكحوليات والحبوب المنشطة والمهلوسات (مصطفى سويف وآخرون، ١٩٨٥، ٩: ٧٧).

ولعل كل ما سبق قد جعل قضية الإدمان تتحرك من الصفوف الخلفية لقضايا مصر المصيرية خلال السنوات الأخيرة لتمثل المرتبة الثانية في حياتنا بعد مشكلة الزيادة السكانية (إبراهيم نافع، ١٩٨٩، ٨). كذلك لقد أكدت شعبة المخدرات لهيئة الأمم المتحدة أن مصر تمثل المركز الثاني في الإدمان بعد الولايات المتحدة الأمريكية ذلك لأنه منذ سنوات قليلة مضت كانت إساءة استعمال العقاقير ترتبط بفئات تمثل شرائح الدخول الدنيا. أما الآن فقد امتد خطر الإدمان ليشمل كل الطبقات الاقتصادية والاجتماعية وخصوصًا تلك الفئات الأصغر سنًا سواء كانت من الطلبة أو من العمال (إيمان محمد صبري إسماعيل، ١٩٩٠، ٧). إضافة إلى أن المؤشرات الحديثة تؤكد أن الاقتصاد القومي المصري يخسر كل عام بسبب تجارة المخدرات قرابة الـ ٣٠ مليار جنيه، في حين لو أضيف (٥) مليارات دولار منها إلى خزينة الدولة



لارتفع سعر الجنية المصري (عزة حجازي ١٩٩١، ٣١). ونكتفي بهذا القدر من بيان لحجم الإدمان والمخدرات في مصر (محمد حسن غانم، ١٩٩٦، ٢: ٨).

ثالثًا : الأمراض النفسية والعقلية :

نتيجة للعديد من العوامل تزايدت الإصابة بالأمراض النفسية والعقلية رغم الحصول على بيانات دقيقة في هذا الشأن إلا أن هناك العديد من الحقائق نذكرها كالتالي:

- توضح لنا بعض التقارير أن حوالي ٤٠% من المرضى الذين يترددون على الأطباء يعانون من مرض العصاب.
- أن عدد المصابين بالأمراض العصابية يتراوح بين ٣٠: ٣٥% من عدد سكان أي دولة.
- يقرر مركز الخدمات الصحية في إحدى الجامعات الإنجليزية أن ٤% من الرجال و٥% من النساء يعانون من أمراض نفسية أثناء حياتهم الدراسية.
- في دراسة مسحية على خمسة آلاف أمريكي وجد أن ٤% منهم كانوا يعانون من الاضطراب المزمن، ١١% يشعرون بالاكتئاب النفسي، ١٩% تتملكهم مخاوف من الانهيار العصبي بين لحظة وأخرى و ٢٣% صادفتهم مشكلات احتاجت لتدخل أخصائيين نفسيين أو اجتماعيين. أما نسبة الذهان فهي تصل إلى أكثر من ١% في المجتمع، والنساء أكثر عرضة للإصابة بالأمراض النفسية من الرجال، وكبار السن يرتفعون أيضًا مقارنة بالصغار إلى جوانب معينة من الاضطرابات النفسية كالاكتئاب وفقدان الأمل واليأس.

وفي مصر وجد عكاشة وزملاؤه الحقائق الآتية:

- إن نسبة العصابيين الذين يترددون على التخصصات الأخرى تكون كالآتي:
- حوالي ٤٠-٦٠% بين أطباء القلب، ٣٠-٤٠% بين أطباء الصدر، ٥٠-٦٠% بين أطباء الجهاز الهضمي، ٣٠-٤٠% بين الممارس العام، ٦٠-٦٥% بين أطباء الجلدية، ٤٠-٦٠% بين أطباء الأمراض التناسلية، ٢٠-٣٠% بين أطباء أمراض النساء، ١٠-١٥% بين أطباء الجراحة، ٧٠% بين أطباء الأعصاب وذلك لعدم وعي الفرد في مصر بين طب الجهاز العصبي والطب النفسي والعصبي، ولذا يلجأ هؤلاء المرضى إلى كافة الأطباء لشكوى من أعراض عامة مثل الأرق، سخونة في الجسم، الدوران، من أمراض الدرن .. إلخ.



- كما وجدت الدراسات أن الأمراض العصابية تعد تهديدًا لاقتصاد البلد، حيث وجد أن ٤٠ – ٦٠% من عمال المصانع يتغيبون عن عملهم لأسباب نفسية وعقلية.
- كما كشفت دراسات المتابعة أن حوالي من ٤–٧% من مرضى العصاب ينتهون بمرض ذهاني إذا أخذنا في الاعتبار أن نسبة الذهان بين المجموع حوالي ٥–١٠% تبين لنا على الفور أن كل فرد مهيأ للأمراض النفسية حسب تعرضه للشدائد والضغوط وأن نسبة العصاب بين المجموع العام تتراوح بين ١٠–٢٥% (أحمد عكاشة، ط٤، ١٩٨٠، ٢١، ٢٣).
- كذلك وجدت العديد من الدراسات التي تمت في عالمنا العربي حقيقة ازدياد الإصابة بهذه الاضطرابات. فقد قارن عبد الستار إبراهيم بين ثلاثة مجموعات من الطلاب في أمريكا وبريطانيا ومصر فتبين أن نسبة العصاب والقلق تزداد بين الطلاب المصريين يتلوها الأمريكان ثم الإنجليز وقد وجد غالي من خلال دراسته على الكويتيين المقيمين فتبين شيوع القلق وعدم الاستقرار والانفصال داخل المجتمع الكويتي، كذلك دراسات عبد الستار إبراهيم لقياس أبعاد عدم توكيد الذات والخجل لدى الطلاب.. وجود عدم توكيد الذات، وشيوع سمات الخجل والاستياء الاجتماعي من مواقف التفاعل مع الآخرين، وينتهي إلى القول بأننا عرضة – كغيرنا– من الدول للإصابة بالأمراض النفسية بنسب مقاربة أو أعلى من الدول الأخرى. (عبد الستار إبراهيم، ٩٣، ٣٥: ٣٩).

إضافة إلى ما تورده الحقائق العلمية من نسب متزايدة بالإصابات فيبلغ مثلاً – مرض القلق نحو خمسين بالمائة من السكان في أي وقت، وهو يصيب واحد بالمائة تقريبًا إلى درجة العجز، وأغلب المصابين (ثمانون في المائة) من النساء، والغالبية من هؤلاء في سنوات القدرة على الإنجاب (دافيد ف. شيهان، ١٩٩٨، ٢٠). كما يذكر (سيلفانواريتي، ٩١) أن مرضى الفصام يبلغون حوالي ٤٠ مليون مصاب في العالم. وأن هذا القدر الضخم من الضحايا لم يحدث أن زلزالاً أو كارثة أرضية سببت خسائر بهذا الحجم (ص١٤).

وعلى المستوى العالمي تبين دراسات "منظمة الصحة الدولية" في دراستها المسحية للاكتئاب في العالم أن هناك على الأقل أكثر من (١٠٠) مليون شخص يعانون من الاكتئاب، وأن هؤلاء الـ ١٠٠ مليون يؤثرون تأثيرات غير سلبية خلاف مرضهم – على المحيطين بهم تأثيرًا سلبيًا. (Sartarius, 1993, 1979)

ولسنا في معرض ذكر الأسباب والعوامل التي تقود إلى ازدياد عدد المصابين بالأمراض النفسية. كذلك يجدر الإشارة إلى وجود العوامل النفسية التي تكمن خلف الإصابة



بالعديد من الأمراض العضوية مثل السرطان، ونظرًا لتداخل العوامل النفسية مع العضوية يطلق على هذه الفئة اسم المرضى السيكوسوماتين، ويسمونهم أحيانًا أصحاب الملف السميك Thick File لكثرة ما به من فحوص وروشتات خاصة بالتشخيص والعلاج. كما يسمونهم أيضًا بحالات أعراض الوجه المألوف Familiar Face وقد وجدت العديد من الدراسات ذلك (انظر مثلاً محمود أبو النيل، ١٩٩٧، ٦: ٢٩).

رابعًا : انتشار الإرهاب والعنف :

بالرغم من أن العنف خاصية بشرية طبيعية، مارسه البشر ويمارسونه منذ وجدت البشرية سواء على المستوى الفردي أو المستوى الجماعي بل إن له أنواعًا تعد بمثابة ضرورة حياة بالنسبة للفرد، عليه أن يمارسها دفاعًا عن حياته إذا ما تعرضت للتهديد، إلا أن العنف – بمختلف صوره قد أخذ عدة أشكال.

فالعنف كما يعرفه الباحث هو ذلك السلوك العدائي التدميري الموجه ضد السلطة السياسية ورموزها بقصد زعزعة الأمن والاستقرار وخلق حالة من الفوضى تعم البلاد. ولذا فإن صور العنف عديدة ومتنوعة ويمكن حصرها في :

العنف السياسي، العنف الاقتصادي، العنف العقائدي أو الديني، العنف الأسري وغيره. وفي العنف السياسي مثلاً يسود ملامح الصورة طرف عن الطرف الآخر إلى حد التطابق وتتمثل في:

١- أن الآخر إما عميل أو مأجور أو ساذج أو جاهل، فليس من المنطقي أن يوجد شخص عاقل نزيه يمكن أن يقبل بتلك الترهات التي يقوم بها الجانب الآخر.

٢- لم يعد الحوار مع الآخرين مجديًا، لقد استنزفنا معه كافة إمكانيات الحوار. إلا أنه لا يفهم إلا لغة القوة. إنه البادئ بالعدوان، وأن التفاهم معه لا يعني سوى الضعف والتخاذل.

٣- الآخر هو الخارج على الأصول الصحيحة الشرعية والقانونية للإسلام الصحيح والاشتراكية الصحيحة، المسيحية الأرثوذوكسية .. إلخ، المهم أنه هو الخارج دومًا بتلك الأصول.

٤- الآخر لا يملك إلا أقلية. أما الغالبية فإنها تتعاطف معنا بكل تأكيد، وأي مؤشرات تشير إلى غير ذلك فإنها – أيًا كانت مجرد زيف.

٥- مهما قال الآخرون أو حتى فعل لكي يوهموننا بأنه قد تغير فإنه يظل في جوهره كما هو.



٦- الآخر يريد لنا الاغتراب عن الواقع نفسه اندفاعًا إلى مستقبل غريب عنا أو انسحابًا إلى ماض سحيق لم تعد لنا علاقة به.

٧- لا ينبغي أن نفرق في مواجهتنا لهم بين المفكرين والمستفيدين أو بين الموافقين والمعارضين في صفوفهم فكلهم أعداء بل ولعل ما يبدونه من تنوع في المواقف ليس سوى نوع من الخديعة.

٨- ينبغي أن ننقي صفوفنا من أولئك المتخاذلين الذين يدعون إلى حوار مع أعدائنا، إنهم إما سذج مضللون أو عملاء مندسون أو ضعاف ترعبهم المواجهة الشاملة. (قدري حفني، ١٩٩٥، ص ٥٤: ٥٥).

وإذا كانت أرقام ضحايا إرهاب العنف كثيرة ومتنوعة وتكاد نجدها في العديد من دول العالم (ناميها ومثقفيها) فإن ذلك يوضح بلا شك مقدار العنف وضحاياه وما يخلفه من آثار مدمرة على بني المجتمع وعلى نفوس الأفراد لفترات زمنية كبيرة.

خامسًا: التعصب:

بالرغم من أن التعصب قديم قدم الإنسانية حيث تشتق الكلمة من العصبية، أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته والتألب معهم على من يناوئونهم، ظالمين كانوا أو مظلومين. وقد تعصبوا عليهم إذ تجمعوا. وإذا تجمعوا على فريق آخر قيل: تعصبوا، وفي الحديث: العصبي من يعين قومه على الظلم والعصبي هو الذي يغضب لعصبته ويحامي عنهم. والعصبية هم الأقارب من جهة الأب، يعصبونه، ويتعصب بهم، وفي الحديث: ليس منا من دعا إلى عصبته أو قاتل عصبته، أو حديث: انصر أخاك ظالمًا كان أو مظلومًا، فقالوا ننصره مظلومًا فكيف ننصره ظالمًا، فقال الرسول – صلى الله عليه وسلم- أن تمنعوه عن الظلم.

(ابن منظور، ١٩٨٠، ٢٩٦).

لذا فقد أولى علماء النفس وغيرهم موضوع التعصب Paraeijudicim أهمية قصوى لما له من آثار مدمرة على جوانب عديدة من حياتنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتي تنعكس آثارها بشكل مباشر على أفراد المجتمع، ذلك لأنه إذا وصل التعصب السياسي إلى درجة معينة من الحدة يصبح عاملاً من العوامل التي تقوض وحدة المجتمع، واختلال الصحة النفسية والاجتماعية لأفراده مما يهدد كيان المجتمع وتماسكه ويعوق تقدمه. كما أن التعصب له العديد من الخصائص نجملها فيما يلي:

١- إنه اتجاه نفسي وبالتالي له مكونات معرفية وانفعالية وسلوكية.

٢- أنه يتضمن حكمًا مسبقًا لا أساس له ولا يوجد سند منطقي يدعمه.



٣- إنه يؤدي وظيفته لمتبني الاتجاه التعصبي، أي يوفي بغرض ما يكفل الإرضاء الذاتي له.

٤- إن المجاراة تلعب دورها في تبني مواقف التعصب والاستجابة وفقًا لها، فالشخص المتعصب يجاري الجماعة التي ينتمي إليها مجاراة عمياء (معتز عبد الله، ١٩٨٩، ص٥٣). وغني عن البيان أن التعصب له العديد من المجالات والتي قد تكون دينية أو سياسية أو رياضية أو طبقية، أو التفرقة على أساس الجنس أو اللون.. إلخ، ونعلم جميعًا ما يحدثه التعصب من مشاكل واضطرابات تهدد أمن واستقرار الأفراد والمجتمعات.

سادسًا : الاغتراب Alienation:

بالرغم من أن الاغتراب ظاهرة قديمة عرفتها الإنسانية، إلا أنه في ظروف محددة ومتشابكة وراهنة تزايد حدة الشعور بالاغتراب، ووصل إلى أقصاه في شعور الإنسان بالعزلة والغربة عن نفسه وعن وطنه وعن أقرانه وعن دينه.

ويصف أحد العلماء شعور المغترب بهذه الحقيقة، ها نحن سجناء في الغرفة المظلمة، غرفة الوجود، وجود محكم لا نافذة منه ولا مخرج – وجود كله جحيم – حيث تواجه الذات ذاتها وتوجه للآخرين، ويرى "بول بليك" أن الوجود للإنسان انفصال فبرغم أن الإنسان في العالم، لكنه منفصل عن هذا العالم، وأيضًا عن نفسه، بل وانفصاله ليكون ضد نفسه.

وبرغم هذا الانفصال يحاول أن يظل إنسانًا، فرغم أنه مغترب عن أساس وجوده وعن نفسه وعن عالمه لا يزال إنسانًا (أحمد سعد جلال، ١٩٩٣: ٧٧) ولذا فقد تعددت وتنوعت صور الاغتراب ومجالاته مثل: الاغتراب السياسي Political Alienation والاغتراب النفسي Psyolagical Alienation والذي تناوله بالدراسة والإشارة العديد من الفلاسفة والمفكرين وعلماء النفس أبرزهم إريك فرام والذي تناول قضايا التغير الاجتماعي وتأثيرها في شخصية الإنسان؛ لأنه عندما يتغير أي جانب في المجتمع فإنه يحدث اضطرابات في الجوانب الأخرى للأشخاص ويجعلهم غرباء عن أنفسهم وعن الآخرين. ولذا فقد أجريت العديد من الدراسات التي تناولت الاغتراب منها دراسة أحمد خيري حافظ عن الاغتراب لدى طلاب الجامعة (١٩٨٠) ودراسة محمد مختار (١٩٩٦) عن دينامية العلاقة بين الاغتراب والتطرف نحو العنف – لدى شرائح من المجتمع المصري.

وغيرها من الدراسات التي أكدت بما لا يدع مجالاً للشك أن الشعور بالاغتراب يقودنا إلى العديد من الاضطرابات أو سلوكيات للعنف موجه سواء ضد الذات أو ضد الآخرين فلقد أشار مثلاً –عبد المنعم بدر ١٩٩٣، إلى حقائق عن الاغتراب من المجتمع الخليجي تمثل في



ترك الصغار للخادمات الأجنبيات مما ينعكس بلا شك سلبًا في نفوس الصغار خاصة أن الغالبية الكاسحة من الخادمات والمربيات (٩٧,٥%) يمارسون الطقوس الدينية طبقًا لعقائدهم، وأن ٢٥% من أطفال الأسر التي لديها مربيات أجنبيات يقلدون المربيات، كما أن ما يقرب من ٤٠% منهم تشوب لغتهم لكنة أجنبية، وبل وجدت الدراسات أيضًا أن ١٤% من الخادمات يستقبلن أصدقاءهم في البيوت التي يعملن بها، وأن ٨,٧% يقمن بزيارة أصدقائهم في مساكنهم، وأن ٧,٢% يدمن، ٤,٣% يشربون الخمور.. وكان نتيجة الاغتراب أن زاد التسرب الدراسي، إضافة إلى العديد من الظواهر الأخرى والتي تدمر الأفراد وتدمر مجتمعاتهم (عبد المنعم بدر، ١٩٩٣، ٩٨: ١٠١).

سابعًا : زيادة الجريمة :

بالرغم من أن الجريمة – هي أيضًا قدر قد لازم الإنسانية منذ وجودها على سطح الأرض. إلا أن المؤشرات في الوقت الراهن تشير إلى أن ازدياد أعداد الجرائم بل وميلها إلى العنف. والجريمة في التعريف النفسي والاجتماعي سلوك ينتهك القواعد الأخلاقية التي وصفتها الجماعة، ولذا فقد وضعت الجماعة أيضًا جزاءات تقع على من يرتكب هذه الجرائم، وقد تكون هذه الجرائم فردية (حيث يقوم بها فرد) وقد تكون جرائم منظمة Organized Crime، حيث يشترك مجموعة من الخارجين على القانون في التخطيط والتنفيذ لجريمة ما من خلال تقسيم العمل وتحديد الأدوار وتسلسل للمكانة والسلطة. ونسق المعايير وولاء تنظيمي واضح، وقد تمارس هذه العصابات الإجرامية أعمالها داخل المجتمع أو تمتد خارج المجتمع. ونظرة سريعة على إحصاءات مصلحة الأمن في مصر نجد تزايد في ارتفاع ضحايا القتل، كذلك نجد انتشار للعنف والعدوان داخل أفراد الأسرة الواحدة (مثل قتل المرأة لزوجها) أو قتل الولد لوالده أو والدته وهكذا. إضافة إلى أن المتتبع لجرائم المرأة المصرية مثلا نجد أن القتل لديها قد أخذ أشكالاً أكثر عنفًا، فبعد أن كان أسلوب دس السم للخصم هو الأسلوب السائد نجد أن القتل بالسكينة ثم تقطيع الجسد إلى أشلاء هو السائد، إضافة إلى ظهور جرائم جديدة مثل النصب للإيداع وإيهام الآخرين أنه قادر على تسفيرهم إلى الخارج. واللعب بمستويات الطموح وغيرها من الجرائم. كذلك زادت جرائم الأطفال أو ما يسمونه بجنوح الأحداث، إضافة إلى ضرورة الأخذ في الاعتبار الخصوصية الحضارية لبعض المجتمعات مثل انتشار الثأر مثلاً في الصعيد والذي يعني تخلي الأفراد عن توكيل السلطة لأخذ حقوقهم وقيامهم بأنفسهم بأخذ ثأرهم.

والخلاصة: أن هناك العديد من العوامل التي تفاعلت في القرن العشرين وأدت إلى وجود واقع مأساوي للوجود الإنساني على سطح الأرض. وإذا كنا في الصفحات القليلة



السابقة قد حددنا بعض النقاط إلا أن هذا التحديد بهدف التوضيح فقط؛ لأن الظواهر لا توجد في الكون مصنفة بل التصنيف عملية ذاتية نقوم بها. إضافة إلى حقيقة أن الظواهر متشابكة. فقد يقود القلق إلى الإدمان أو الانتحار أو الاضطراب النفسي وكذا التعصب قد يقود إلى العنف تجاه الآخرين الذين يخالفون ما يعتقد هو به، وقد يكون المتعصب متحجرًا بفكرة لا هوية ولا تفردية.

ولعل هذه البانوراما الإنسانية قد دفعت بالإنسان إلى الاهتمام بعلم النفس في محاولة لفهم نفسه وفهم الآخرين الذين يتعامل معهم. وهذا هو موضوع الفصل الثاني.



الفصل الثاني

دوافع الاهتمام بعلم النفس



الفصل الثاني

دوافع الاهتمام بعلم النفس

مقدمة :

لقد أدت الأحداث السابق ذكرها إلى شعور الإنسان بأنه لم يعد يفهم نفسه وأن قول سقراط "أيها الإنسان اعرف نفسك بنفسك" حقيقة تؤكدها الأحداث فقد تقدم الإنسان علميًا وتقنيًا وتخلف بنفس القدر عن فهم نفسه والآخرين مما جره إلى مشاكل مع ذاته ومع الآخرين. صحيح أن هذه الرغبة في الفهم قد دفعت البعض إلى ضرورة أن يستقل علم النفس عن الفلسفة (على أساس أنها أم العلوم). وصحيح أن هذا الاستقلال والذي تم في نهاية القرن التاسع عشر قد زاد إلى العديد من الملامح نبرزها في الآتي:

١- أحرز علم النفس منذ استقلاله تقدمًا ملموسًا في الكشف عن الكثير من القوانين التي تحكم بعض العمليات العقلية كالفهم والإدراك، وبعض ديناميات السلوك الانفعالي والاجتماعي.

٢- تمت الاستفادة من هذه المعرفة في كثير من المجالات التطبيقية في مختلف نواحي النشاط الإنساني.

٣- تأيدت مكانة علم النفس حين انفتح وتفاعل واستفاد وحاور العديد من العلوم الإنسانية الأخرى مثل: الاجتماع/ الفلسفة/ الفسيولوجيا/ الاقتصاد/ الطب/ القانون/ السياسة/ التربية الدين.. إلخ.

٤- ضرورة الخصوصية الحضارية، بمعنى أننا قد نستخدم أدوات الغرب ونستفيد من الآفاق التي يدرسونها لكن الخصوصية الحضارية (أي المشكلات الخاصة بنا) يجب دراستها وتغييرها في إطار بيئتنا وليس في هذا انغلاق بقدر ما هو دعوة إلى الموضوعية.

٥- تنوع مجالات ومناهج البحث في الظاهرة الإنسانية حتى نصل إلى فهم علمي دقيق موضوعي للظاهرة موضع الدراسة.

٦- تأكيد حقيقة التفاعل بين الجسم والنفس قد استقل عن الفلسفة. وإذا كانت هناك علوم تدرس الجسد بتخصصاته المختلفة فإن هذا لا يعني الانفصال بل الانفتاح والتحاور وصولاً إلى فهم أعمق لديناميات معاناة الإنسان.



والخلاصة أن علم النفس قد استقل عن الفلسفة، وهلل الكثير لهذا الاستقلال إلا أنه من الواضح أن علم النفس وعلماؤه لو ظلوا مبهورين بهذا الاستقلال فسوف يحكمون على أنفسهم بالفناء، وعلى علمهم بالتخلف، ولذا ظهرت الدعوة إلى ضرورة الانفتاح على مختلف العلــوم التي تدرس الإنسان ومن منطلقات مختلفة.

ولبيان ذلك سوف نتعرض لبعض الدراسات التي اهتمت بالعلاقة بــين علــم الــنفس وبعض المتغيرات:



الدراسة الأولى

١- دوافع الاتجاه نحو دراسة علم النفس:

دراسة كشفية قامت بها كل من (انشراح الدسوقي، مايسة المفتـــي، ١٩٨٨) بدراســـة مجموعتين من الطلاب الملتحقين بدراسة علم النفس (جامعتي عين شمس وبيروت) مستخدمين الشريحة الطولية (طلاب من الفرقة الأولى وطلاب من الفرقة الرابعة) ومن خـــلال الإجابـــة على أسئلة الاستبيان توصلا إلى العديد من الحقائق والتي تكمن خلف الرغبة في التخـــصص في دراسة علم النفس لدى الجنسين، حيث رأت مجموعة من الإناث أن دراستها لعلم الـــنفس تمكنها من فهم نفسها وأن العمل في مجال علم النفس يحقق مكانة اجتماعية مرموقة، إضـــافة إلى اكتساب القدرة على فهم الآخرين والتعامل معهم بكفاءة، وكذا حل المشاكل التي تـــواجههم أو تواجه الآخرين، إضافة إلى ضرورة توفر مجموعة من الخصائص التي يجب توافرها في دارسي علم النفس مثل: الثقافة والمعرفة/ الأمانة العلمية/ فهم الآخرين/ دراسة علـــم الـــنفس كهواية/ الذكاء الاجتماعي/ الصحة النفسية والتوافق النفسي/ الثقة بالنفس/ الـــصبر/ الاتـــزان الانفعالي/ المرونة/ الطلاقة اللفظية/ ... إلخ (مايسه المفتي ، انشراح الدســـوقي ١٩٨٨، ٥٠: ٨٢)



الدراسة الثانية

صورة علم النفس لدى الجمهور العام في مصر "لعبد الحليم محمود السيد، وآخرون (١٩٩٠) (وفي محاولة للكشف عن الصورة الشائعة لدى عينة من الجمهور في مصر عن علم النفس الحديث قام كل من (السيد أ.م، خليفة، ١٩٨٩) بإجراء استفتاء على عينة مكونة من ١٢٤٦ شخصًا، نصفهم من الذكور (ن = ٦٤١) والنصف الآخر من الإناث (ن = ٦١٢) ونتراوح متوسط أعمارهم بين ٢٥ عامًا و ٤٠ عامًا (بمدى عمري امتد بين ١٨ عامًا و ٦٥ عامًا) واشتملت العينة على مختلف الفئات المهنية (العمال والموظفين والطلاب بالمدارس الثانوية وكليات الجامعات النظرية والعملية ممن يقطنون أنحاء مختلفة بمدينة القاهرة الكبرى، تمثل مناطق حضرية أو شبه ريفية، كما روعي تمثيل مختلف مستويات التعليم، حيث اشتملت العينة على ٢٨٣ شخصًا بنسبة ٢٣% من الأميين وذوي مستوى التعليم الأقل من المتوسط، ٥٠٤ أشخاص بنسبة ٤٠% من مستوى التعليم المتوسط، ٤٥٩ شخصًا بنسبة ٣٧% (من مستوى التعليم الجامعي) وكلهم لم يدرس علم النفس في دراسته، كدراسة منظمة، وقد وُجه إليهم عدد من الأسئلة، تدور حول ثلاث موضوعات أساسية هي:

موضوع علم النفس، وطبيعة الدراسة فيه، أهم الخدمات العلمية التطبيقية التي حققها هذا العلم أو مجالات الاستفادة منه في الحياة العلمية، وأشهر أسماء علماء النفس دون التقيد بأي قيد، سواء علماء مصريين أو عرب أو أجانب، الأحياء أم الأموات .. إلخ. ويمكن تلخيص إجابات عينة البحث عن هذه الأسئلة كما يلي: نظرًا لوجود فروق واضحة من أفراد العينة الأدنى تعليمًا (الأميين ومن يقرءون ويكتبون والحاصلون على شهادة أقل من المتوسط)، وبين الأفراد الأعلى تعليمًا (ممن حصلوا على شهادة متوسطة أو جامعية) سوف نعرض نتائج الاستفتاء بالنسبة لكل من المستويين التعليميين.

وقد تمثلت أهم نتائج هذا الاستفتاء في كل من: بالنسبة لموضوع علم النفس وطبيعة الدراسة فيه:

(أ) أقر ٣٨,٥% من (أفراد العينة الأدنى تعليمًا) أنهم لا يعرفون شيئًا عن علم النفس بينما كانت هذه النسبة لدى المستوى الأعلى تعليمًا ١١%.

(ب) كانت أهم موضوعات علم النفس في رأي من أجاب من أفراد العينة الأدنى تعليمًا كالتالي:

- دراسة "الجنون" والأعصاب والأمراض النفسية والعصبية (٢٠%).
- التحليل النفسي والعقل الباطن (١١%).



- المشكلات الخاصة بالأفراد وعلاجها (١٠%).
- الحالة النفسية والروح البشرية وظروفها (٩%).
- سلوك الأفراد وتصرفاتهم (٧%).
- دراسة موضوعات محددة خاصة بالشخصية (٢%)، أو الذكاء (١%).
- دراسة موضوعات تنتمي لعلوم أخرى مثل: عادات المجتمع وتقاليده.

(ج)أما أفراد العينة الأعلى تعليمًا، فقد رأوا أن أهم موضوعات علم النفس هي:

- دراسة سلوك الأفراد وتصرفاتهم (٢٩%).
- التحليل النفسي والعقل الباطن (٢٤%).
- الحالة النفسية والروح البشرية (٢٠%).
- موضوعات نفسية محددة وخاصة :
  - الشخصية (٩%).
  - نمو الأطفال وتنشئتهم (٣,٢%)
  - الذكاء (١,٥%).
  - الاتجاهات والميول (١,٣%).
- دراسة الجنون والأعصاب والأمراض النفسية والعقلية (٥,٥%).
- مشكلات خاصة بالأفراد وعلاجها (٥%).
- موضوعات لا تنتمي إلى علم النفس مثل:
  - عادات المجتمع وتقاليده (٣%).
  - المنطق والفلسفة (٠,٣%).
  - كل مجالات الحياة (١,٩%).

ومن الواضح أن هذه الصورة لعلم النفس أفضل من سابقتها، ولكنها ما زالت بعيدة جدًا عن صورة علم النفس كما يمارسه علماء النفس فعلاً. فمعظم الموضوعات التي تصور أفراد الجمهور (المتعلم) أنها تنتمي لعلم النفس لا يمثل موضوعات الاهتمام الأساسية في علم النفس، وإنما هي تمثل الصورة الشعبية لعلم النفس، ولا ينتمي إلى علم النفس الحديث فعلاً إلا كل من:

دراسة سلوك الأفراد (الذي حصل على ٢٨% في المجموعة الأعلى تعليمًا، في مقابل ٧% في المجموعة الأدنى تعليمًا).



موضوعات محددة في علم النفس التي ما زالت تشغل نسبة ضئيلة (وإن زاد الالتفات لموضوع الشخصية) ، (فأصبح ٩% بدلاً من ٢% لدى المجموعة الأدنى منها)، مع التفات ضئيل إلى موضوعات أخرى مثل مجال تنشئة الأبناء ونموهم.

وسوف نرى في فقرة تالية إلى أي حد تبتعد هذه الصورة لدى المتعلمين في مصر، عن علم النفس كما يمارسه العلماء فعلاً، ويكفي أنها لا تتضمن أية إشارة إلى الجانب المنهجي والقياس النفسي، ولا إلى أي تمييز بين فروع أساسية وفروع تطبيقية .. إلخ

أما أهم موضوعات الخدمة التطبيقية في علم النفس فقد كانت كما يلي:

(أ) تمثلت هذه الموضوعات، لدى العينة الأدنى تعليمًا في كل من :

- الأمراض العقلية والنفسية والمشكلات الخاصة (٣٥%).
- الشخصية والإنسانية (٩%).
- نمو الأفراد وتنشئتهم (٨,٥%).
- العقل الباطن واللاشعور (٣,٥%)
- التوافق النفسي وعلاج الأمراض (٣,١%).
- تطبيقات علم النفس في مجال الصناعة والإدارة (٢,٨%).

(ب) أما عينة الأفراد الأعلى تعليمًا : فقد كانت موضوعات تطبيق علم النفس لديهم كما يلي:

- الأمراض العقلية والنفسية (٢٦%).
- نمو الأفراد وتنشئتهم (٢٣%).
- الشخصية الإنسانية (١٤%)
- العقل الباطن واللاشعور والتحليل النفسي (١٣,٥%).
- التوافق والعلاج النفسي (٣,٥%).

موضوعات خاصة بعلم النفس، لم ترد تقريبًا لدى العينة الأدنى تعليمًا وهي:

- الانفعالات والغرائز والعواطف (٦%).
- التعليم وطرق اكتساب العادات والمعلومات (٥,٦%).
- الدوافع (٠,٥%).
- الاتجاهات والميول والاهتمامات (٣,٣%).
- الانتباه والإدراك الحسي (١,٨%).



- التفكير وحل المشكلات (١,٥%).
- التذكر والنسيان (١%).
- الإحساس (٠,٩%).

وهكذا نجد في هذه الصورة ملامح باهتة لتطبيقات علم النفس الحديث، مختلطة بصورة قديمة لم تعد معاصرة، أي غير ممثلة لعلم النفس المعاصر (مثل العقل الباطن واللاشعور).. مما سيتضح عند عرض الفروع التطبيقية لعلم النفس في فترة تالية.

بالنسبة لأسماء علماء النفس:

١- لم تتجاوز أسماء علماء النفس المصريين أو العرب المعاصرين:

١١% لدى العينة الأدنى تعليمًا.

١٤% لدى العينة الأعلى تعليمًا.

٢- بلغ عدد الأطباء النفسيين المصريين ممن ظن أنهم علماء نفس:

١٣% لدى العينة الأدنى تعليمًا.

٢٦% لدى العينة الأعلى تعليمًا.

من الأسماء التي ذكرت الدكاترة: أحمد عكاشة، عادل صادق، عمر شاهين، يحيى الرخاوي، محمد شعلان. كما ذكرت من أطباء الأعصاب: كل من الدكاترة أسامة علوان وخيري السمرة.

ونظرًا لأن الطب النفسي والعصبي يعني بعلاج الأمراض النفسية والعصبية بطريقة الأطباء في العلاج، فإنه لا مجال للخلط بين الأطباء النفسيين وبين علماء النفس؛ لأن علم النفس يهتم بموضوعات تتجاوز الاهتمام بالمرض النفسي، وإن كان بعض علماء النفس يهتم بتشخيص الأمراض وتقديم علاجات نفسية تقوم على أساس غير علمي ويعمل كعضو في الفريق العلاجي الذي يقوده الطبيب النفسي أو العصبي.

٣- أما علماء النفس الأجانب فلم ترد لهم أسماء لدى العينة الأقل تعليمًا بينما ورد لدى العينة الأعلى تعليمًا ٣٧ اسمًا لعلماء نفس أجانب، لم تزد نسبة من ذكر كل منهم عن ١%، إلا في حالة ثلاث علماء هم:

(أ) "فرويد" ذكره (٣٧%) أي (٣٥٧) شخصًا، من العينة الأعلى تعليمًا.

(ب) كما ذكر "بافلوف" (وهو عالم فسيولوجي روسي كان لبحوثه أثر كبير على علم النفس) (٣,٣%) من أفراد العينة.

(ج) وذكر "ماكدوجل" (٢,٥%) من هذه العينة.



وطبعًا ليست هذه عينة تمثل أسماء علماء علم النفس المعاصرين فعلاً وإنما هي أقرب ما تكون لأشهر العلماء في أوائل القرن العشرين.

٤- ذكر (٢٦٣) شخصًا أي (١٧%) من العينة الأعلى تعليمًا، أسماء فلاسفة وأطباء علماء مسلمين قدماء (مثل ابن سينا والرازي وابن النفيس، وابن خلدون) على أنهم علماء نفس، وأضاف البعض أسماء عدد من أساتذة الفلسفة المعاصرين مثل: د. زكي نجيب محمود، وتوفيق الطويل، ولم يتجاوز عدد من اختار كل اسم أو اثنين إلا بالنسبة لكل من: ابن سينا ٦٨ (٧%) وابن خلدون ٣٧ شخصًا (٣,٨%)، وابن رشيد ١٩ شخصًا (٢%) والغزالي ١٦ شخصًا (١,٧%) والفارابي.

٥- ذكر (٢٢٩) شخصًا بنسبة (٢٤%)، أسماء عشرين من الفلاسفة الأجانب وكانت أكثر التكرارات لكل من

أرسطو ٦٢ شخصًا (٦,٤%)

أفلاطون ٥٠ شخصًا (٥.!%).

سقراط ٤٥ شخصًا (٤,٧%).

ديكارت ٢٣ شخصًا (٢,٤%).

أما باقي الأسماء فلم يعتد من اختيارها واحد أو اثنين.

وردت أسماء بعض المفكرين الدينيين أو الدعاة مثل د. مصطفى محمود وفضيلة الشيخ الشعراوي، على أنهم علماء نفس.

الخلاصة، أن الصورة الشائعة عن علم النفس لدى الجمهور العام من المستوى الأدنى تعليمًا. غامضة يختلط فيها علم النفس مع الخرافة ومع أفكار مختلفة عن الروح البشرية والجنون والعقل الباطن. أما الجمهور العام الأعلى تعليمًا (أي مستوى التعليم المتوسط والجامعي) فيختلط لديه صورة علم النفس وتتداخل مع الطب النفسي والأدب والفلسفة، بطريقة تجعله غير مطابق لواقع الاهتمامات العلمية لهذا العلم الحديث. التي سنعرض لأهم ملامحها فيما يلي من فقرات:

(٢) التعريف العلمي لعلم النفس:

علم النفس هو الدراسة العلمية لسلوك الكائنات الحية بما في ذلك الإنسان بهدف التوصل إلى فهم هذا السلوك أو تفسيره (أي التوصل إلى المبادئ والقوانين العلمية التي تفسره) إلى التنبؤ به، والتحكم فيه (أي حسن التخطيط لتوجيهه).



وموضوع الدراسة النفسية للسلوك الإنساني هو "الإنسان ككل" لا من حيث كتلة خاضعة لقانون الجاذبية، ولا من حيث هو مركب من كائن حي مكون من خلايا وأنسجة وأعضاء يولد وينمو ويتكاثر ويموت ويرد على المؤثرات المادية بالحركة أو الكف عن الحركة، ويعيش في وسط جغرافي ملائم له إما منفردًا أو مندمجًا في قطيع – بل من حيث هو كائن حي يعيش في مجتمع يستجيب أفراده للتنبيهات الداخلية (الفسيولوجية والسيكولوجية) والخارجية (الفيزيائية والاجتماعية) من حيث هي علامات أو إشارات أو معادن أو رموز لها بطانتها الوجدانية، وتندمج في إطار ذهني (وترتيب قيمي) لدى الشخص الذي يستجيب لها (يوسف مراد ١٩٦٦، ص ٧). وعلى هذا الأساس، نستطيع أن نفهم كيف أن صوتًا خفيفًا لابن يستغيث، يكون أكثر إثارة لأمه التي تبحث عنه، من صوت انفجار شديد يقع بالقرب من هذه الأم.

ويبرز التعريف السابق أهمية تحديد معنى بعض المصطلحات التي وردت فيه، إذ يساعد هذا التحديد على عدم اختلاط دلالتها ببعض الكلمات التي تستخدم في مواقف الحياة اليومية، وكذلك عدم التدخل مع بعض المصطلحات التي تستخدمها علوم أخرى غير علم النفس (مثل علم الطبيعة أو علم الحياة) أو فروع أخرى للنشاط الإنساني مثل الأدب والفنون أو الفلسفة التقليدية فلدينا كل من المصطلحات التالية:

(أ) تعريف العلم أو الدراسة العلمية.

(ب) الكائن الحي.

(ج) التنبيه .

(د) الاستجابة.



- تعريف العلم وأهم خصائصه :

وكون علم النفس دراسة علمية، يعني أنه تنطبق على دراسات علم النفس مواصفات أو خصائص النشاط الإنساني الذي يطلق عليه اسم العلم، والي يوجزها بعض الباحثين في أن العلم عبارة عن: سلسلة مترابطة من المفاهيم والقوانين والإطارات النظرية التي نشأت نتيجة للتجريب أو المشاهدات المنتظمة" ويتضمن هذا أن العلم يتضمن جانبين الأول هو: مضمون المعرفة أو المعلومات التي تتراكم وتتكامل عن أحد مجالات الاهتمام. أما الجانب الثاني فهو المنهج العلمي الذي يتمثل في الأساليب المنتظمة التي يتبعها العلماء سعيًا لاكتشاف المتغيرات في الطبيعة (في الدراسات الاستكشافية) أو الربط بينها (في الدراسات الوصفية أو الارتباطية) أو محاولة تفسيرها (في الدراسات التجريبية).

ولمزيد من التحديد والتمييز لخصائص العلم، عن أنواع النشاط المعرفي الأخرى للإنسان، نستطيع أن نتصور مجالات الدراسة أو المباحث التي يطرقها الإنسان، على شكل دائرة تتضمن ثلاث حلقات أو مجموعات "وتستبعد هنا العلوم الصورية مثل الرياضيات والمنطق لأنها تتناول القوالب الصورية للتفكير ولا تضيف علمًا بالعالم الخارجي" (عبد الحليم محمود السيد وآخرون، ١٩٩٠، ط٣، ١٣: ١٩).



الدراسة الثالثة

دراسة **مصطفى سويف** (٦٧) حيث أراد التعرف على مفهوم علم النفس لدى الآخرين وقد لاحظ الآتي:

فيما يتعلق بموضوع علم النفس ومجالات تطبيقه: تبين أن نسبة ٢١% تصورت علم النفس بشكل غير علمي، فهو في رأيهم يدرس كنية النفس، وماهية النفس، وأسرار النفس، واختلطت المسألة عند البعض بما يشبه السحر، والشعوذة وقراءة الكف، وتصور البعض علماء النفس كما لو كانت لديهم قدرات خارقة على التصرف في نفوس العباد. وفيما يختص بأسماء علماء النفس بين أن ٤٧% من العينة أجابوا بأنهم لا يعرفون أي اسم في هذا الميدان، ٤٠% ذكروا اسم "فرويد" فقط، أما بقية المجيبين فقد أوردوا (٢٩) اسمًا أصحابها ينتمون إلى الفلسفة والأدب والصحافة .. إلخ. وبالنسبة لقراءة شيء في علم النفس أجاب ٥٣% من المجموعة كلها بأنهم لم يقرءوا شيئًا في هذا العلم ولكنهم سمعوا أو شاهدوا في السينما، ١٨% قرءوا بعض ما ينشر في الصحف أو الكتب مثل (كتاب كيف تكسب الأصدقاء) أو (دع القلق وابدأ الحياة لكارنجي)، ١٠% قرءوا لفرويد أو عنه (مصطفى سويف ١٩٦٨).

وواضح من هذه الدراسة كم الصورة الخاطئة عن علم النفس.



الدراسة الرابعة

دراسة (عبد الستار إبراهيم ١٩٨٥) : حيث قام بدراسة الاعتقادات الشائعة عن علم النفس لدى عينة من الطلاب الجامعيين في إحدى البلاد العربية في كليتين أحدهما للعلوم (ن=٣٩) والأخرى للآداب (ن = ٤٦) وقد أوضحت النتائج الحقائق التالية:

١- أن نسبة الاعتقادات الخاطئة عن علم النفس أكثر انتشارًا من الاعتقادات الصحيحة حيث تبين أن ٧٠% أقروا أن سلوك المرضى العقليين تحكمه الأرواح والشياطين، و ٦٩% يعتقدون في وجود غرائز تفسر الانحرافات الشائعة، ٤٩% يعتقدون في أن علم النفس يرتبط بقراءة الكف.

٢- لا يوجد إلا عدد قليل من أفراد العينة هو الذي يعرف أن علم النفس ميدان يختلف عن الفلسفة والتحليل النفسي الفرويدي.

٣- لا يوجد تمييز بين الأسماء الكبرى في علم النفس واتجاهاتها النظرية، والخلافات الجوهرية بينها فإن الخطأ يزداد.

٤- يزداد الخطأ والجهل ببعض الحقائق الرئيسية والمفاهيم العلمية المرتبطة بعلم النفس.

وقد أشار عبد الستار في تفسيره لذلك بأن هذه الصورة ليست قاصرة فقط على البلدان العربية، بل تمتد لتشمل أكثر الدول تقدمًا في العالم مثل الولايات المتحدة الأمريكية. فهناك بوجه عام أخطاء في التصورات الشائعة عن علم النفس، بعضها يمس موضوعات ونطاق بحث، وبعضها يمس مناهج في الدراسة والتفكير، والبعض الثالث يمس نظرياته الأساسية (عبد الستار إبراهيم ١٩٨٥).



الدراسة الخامسة

دراسة (**فؤاد أبو حطب وآخرون ١٩٨٩**) حيث تم تناول صورة علم النفس لدى الشباب العماني، وتكونت عينة الدراسة من (٢٣٠) طالب وطالبة بجامعة السلطان قابوس، من كليات عملية ونظرية مختلفة، فهم ٣٦,٨% لم يسبق لهم دراسة شيء في علم النفس، في حين أن ٦٣,١٨% سبق لهم دراسة بعض مواد علم النفس. وقد كشفت الدراسة عن الحقائق الآتية:

١- أن الفكرة السائدة لدى الشباب العماني، عن علم النفس تقترب في بعض جوانبها من الصورة الصحيحة لهذا العلم، وذلك من حيث موضوعاته أو تطبيقاته، أما من حيث أسماء الأعلام فجاءت بعيدة عن الصورة الصحيحة.

٢- أن الطابع الغالب للقراءات الحرة هو طابع الكتابات الخفيفة، وقد وردت الإشارة إلى بعض الكتابات الأكاديمية بشكل عابر، لكن يغلب عليها عدم الدقة في ذكر أسماء الكتب أو اسم مؤلفيها.

٣- أن نسبة كبيرة من المفحوصين اتفقت إجاباتهم على أسئلة الفهم العام مع الإجابة الصحيحة كما يقرها الفهم العلمي لعلم النفس، مما يعني أن الوعي العلمي بهذا العلم ليس منخفضًا وذلك لدور الإعلام.

٤- هناك اختلاف بين الفكرة السائدة عن علم النفس لدى الشباب العماني وبين الصورة الواقعة الحقيقية لهذا العلم كما تقدمها مجلة الملخصات النفسية.

٥- إن اتجاه الشباب العماني نحو علم النفس يحكمه أربعة عوامل مستقلة هي: الرغبة في الدراسة المنظمة لعلم النفس، الاستمتاع العام بعلم النفس، إدراك أهمية علم النفس، استخدام علم النفس وفائدته في الحياة. كما اتضح أن الاتجاهات نحو دراسة علم النفس من الإناث أكثر إيجابية من اتجاهات الذكور (فؤاد حطب وآخرون ١٩٨٩).

كذلك ارتبطت الصورة السلبية عن علم النفس بالعديد من المعتقدات والاتجاهات الشائعة نحو العديد من القضايا النفسية فقد وجد محمد أمين مثلاً "أن هناك اتجاهًا سلبيًا لدى طلاب الجامعة عن العلاج النفسي، وأن هذه الاتجاهات غير علمية، وأنها تسود بين طلاب الكليات النظرية أكثر منها لدى طلاب الكليات العملية. والمشكلة أن هذه الصورة السلبية لا تجدها فقط لدى العرب بل تجدها أيضًا في الدراسات الأجنبية. ففي دراسة "لبنتز" وآخرين على عينة من المدرسين والجمهور العام تبين وجود العديد من المعلومات والمعارف الخاطئة عن المرض النفسي إضافة إلى وجود أخطاء وتشوهات في المعلومات التي تقدم إلى الجمهور عبر وسائل الإعلام المختلفة، وقد أرجع الباحثون ذلك إلى التخلف الثقافي (Cultural log)



في تصور الجمهور لطبيعة المرض وأسبابه، إضافة إلى إظهار أفراد مجموعتي الدراسة اتجاهًا سلبيًا نحو مستشفيات الأمراض النفسية وطرق العلاج (Bents etel. 1971). كما كشفت نتائج الدراسة التي أجراها "تونانللي" في الخمسينات عن وجود معلومات وأفكار الجمهور العام عن المرض النفسي أو المرضى النفسيين غير دقيقة ومتناقضة، بل أوضحت الدراسات وجود فروق وتصورات كل من الأطباء النفسيين والأخصائيين النفسيين حول العديد من الجوانب بعضها يتعلق بأسباب المرض وبعضها الآخر بطرق علاجه (Nurnally, 1996).

أما عن دراسة المعتقدات لدى عينات من مصر، فقد درس "**أحمد عبد الخالق ١٩٨٢**" الاتجاه نحو المرض العقلي لدى عينة من طالبات علم النفس حيث طبق مقياسًا للاتجاه نحو المرض العقلي على عينة قوامها (٣٧٤) طالبة تمثل الصفوف الدراسية الأربعة بقسم علم النفس بكلية البنات جامعة الأزهر، وقد أشارت النتائج إلى أن المشكلات النفسية والعقلية هي السبب الأساسي لتردد أكثر من نصف المرضى على الأطباء (٥٥%). (أحمد عبد الخالق ١٩٨٢، ٩٧-١١٨).

كذلك "دراسة عبد اللطيف خليفة ١٩٨٩" عن العلاقة بين المعتقدات والاتجاهات نحو المرضى النفسيين بمركز التحكم على عينة قوامها (٢٧٤) تلميذاً بالصف الثالث الثانوي العام من القسمين الأدبي والعلمي، وقد توصل إلى العديد من النتائج التي تثبت خطأ النظرة إلى الأمراض النفسية فيما يتعلق مثلاً بالمعتقدات حول المرض النفسي اتضح اتفاق أفراد العينتين بأن المرضى النفسين هم أخطر فئات المجتمع، ومن الأسباب تراوحت بين أسباب علمية وأخرى غير علمية وإن كانت الأخيرة بنسبة عالية بين الاعتقاد بوجود أزمات وتعاطي مخدرات وحولها إلى مس من الشياطين والعفاريت. وأما عن العلاج فقد تراوح الاعتقاد بأن العلاج النفسي مفيد وحولها إلى قراءة الكتب الدينية وعمل حفلات الزار لطرد الجان. (عبد اللطيف خليفة، ١٩٨٩، ١٠٢: ١١٤).

كذلك دراسة "**زايد عجير الحارثي**" اتجاهات الشباب الجامعي السعودي نحو علم النفس ١٩٩٣. حيث بلغت عينته من الذكور (١٢٢) طالب والإناث (١٤٧) طالبة من كليات مختلفة. وبمتوسط عمري ٢١,٦ سنة. وقد أجرى العديد من التعديلات على المقياس الذي استخدمه "أبو حطب وزملاؤه ١٩٨٩" في دراستهم عن صورة علم النفس لدى الشباب العماني. وقد توصل إلى العديد من النتائج منها أن اتجاهات الشباب الجامعي السعودي نحو علم النفس لا يزال يخيم ظلالاً من الشك على علم النفس وقيمته في الحياة، ووجد العديد من الاتجاهات السلبية لذا فإن الباحث في نهاية دراسته يؤكد على ضرورة إجراء العديد من الدراسات التحليلية للكشف



عن الأسباب الدقيقة والمحددة التي ساهمت وشاركت في تقتيم صورة علم النفس لدى الشباب الجامعي (زايد عجير الحارثي، ١٩٩٣، ٥٣: ٨٨).

أما عن الدراسات الأجنبية في هذا الصدد فكثيرة، وإن كانت الصورة إيجابية بعض الشيء (نتيجة للعديد من العوامل أهمها انتشار الوعي والتعليم والمتطلبات الثقافية) ولعل من أشهر الدراسات دراسة وود وزملائه Wood Fetal, 1986، حيث أجريت الدراسة بهدف التعرف على الاتجاهات نحو علم النفس، وكذا التمييز بين علم النفس والطب النفسي. وأجريت الدراسة على (٢٠١) شخصًا من مناطق متعددة ومختلفة في الولايات المتحدة الأمريكية.

وقد توصلت الدراسة إلى العديد من النتائج أبرزها وجود اتجاهات إيجابية نحو علم النفس حيث أجاب نحو ٩١,٣٥% من أفراد العينة، إضافة إلى التوصل على اتجاه إيجابي نحو علم النفس تمثل في نظرتهم إلى علم النفس بأنه أقرب إلى العلوم السلوكية، بينما يرون أن الطب النفسي أقرب إلى أصحاب المرض، إضافة إلى معرفة صائبة بالعديد من القضايا التي يدرسها علم النفس، وأن هذه الاتجاهات الإيجابية تتزايد كلما درس أفراد العينة أو قرءوا في مجال علم النفس (Wood Fetal, 1986).

في دراسة **ليوسف عبد الفتاح محمد** عن الاضطرابات الوجدانية والسيكوسوماتية وعلاقتها بالاتجاه نحو المرض النفسي لدى عينة من المسنين في دولة الإمارات (١٩٩٤) توصل إلى سيادة الجانب غير العلمي في النظر إلى الأمراض النفسية مثل الاعتقاد بأن المرض النفسي مس من الجان، وأن يعالج بالسحر، وأن زيارة قبور الصالحين تشفي من المرض النفسي... وهكذا (يوسف عبد الفتاح ١٩٩٤، ١٧٠: ٢٠٩).

والخلاصة أنه بالرغم من حاجة الإنسان إلى فهم نفسه وفهم الآخرين إلا أن الأفكار والمعتقدات الخاطئة حول هذا العلم ما زالت تتفاعل في العديد من المجتمعات مما يحتم التعرض لمشكلة أن الرغبة في فض مجهلة النفس مع الرغبة في إبقاء الجهل بالنفس كما هو إنما يمثل ذلك قمة التحدي والصراع، وحتى لو نظرنا إلى ميزانيات الدول لنرى كم ينفق على أبحاث الفضاء والأسلحة والعلوم الطبيعية، وكم يرصد من ميزانيات هذه الدول للأبحاث في مجال الأمراض فسوف نصدم بالحقائق، ولعل وصول الإنسان إلى القمر وإجراء التجارب في الفضاء الخارجي وعجزه حتى الآن عن فهم نفسه أو حتى السيطرة على العديد من الأمراض (لعل مرض الأنفلونزا خير مثال على ذلك حيث ما نتناوله هو عبارة عن مسكنات وليست أدوية فعالة لمواجهة هذا المرض). وهذا يقود إلى تساؤل هام مؤداه: لماذا تتقدم العلوم الطبيعية وتتخلف العلوم الإنسانية؟ ويمكن تفسير إجمال الآراء التي تقدم تصورات حول أسباب تقدم العلوم الطبيعية أو نموها في:



١- تبعًا لتتالي الأحداث الذي لا يحكمه أي اطراد عام فإنه لا يمكن تفسير تقــدم العلــوم الطبيعية، يمكن فقط وصفه وهذا هو تصور الوضعيين المناطقة على الخصوص.

٢- تقدم العلوم يتم كسلسلة من التحولات أو الثورات التي ربما تحدث بغير رابطة داخلية (Internal Link) هذه هي النظرية الثورية.

٣- وكنقيض للرأي السابق نجد الرأي التراكمي الذي يؤكد علــى اســتمرارية المعرفــة العلمية.

٤- التصور الجدلي (الديالكتيكي) لهيجل وماركس وإنجلز وأشياعهم، وتبعًا له يؤدي التقدم الكمي التدريجي أي التراكمي إلى قفزات كيفية أو ثورية تصبح بدورها نقطة البــدء لتراكم كمي جديد، يؤدي عند نقطة معينة إلى قفزة كيفية وهكذا دواليك (يمنى الخولي ١٩٩٦، ٢٠: ٢١). في حين أن التفسيرات التي تقدم لتخلف العلوم الإنــسانية نــسبيًا تتعدد ما بين عدم تحديد الأهداف، ووجود تفسيرات غير علمية، إضــافة إلــى عــدم الإلمام الكافي بكافة المعلومات عن الظاهرة الإنسانية المقاسة مما يجعل وجود فجــوة بين التفسير والتنبؤ، إضافة إلى أن التفسير في العلوم الطبيعية يضطرد تقدمه لقيامــه على قاعدة صلبة متماسكة تتمثل في اتفاق العلماء على تخوم واضحة وداخلهــا قــد يتلاقى الرأي مع الرأي الآخر تلاقي التكافؤ والتآزر، لكن نجد العكــس فــي العلــوم الإنسانية حيث ما زالوا مختلفين حول موضوع الدراسة وكذا المنهج (يمنى الخــولي من ٨٩: ٩١). وقد حرصنا على تلخيص وجهة نظر فلاسفة العلم في هذه القــضية، بالرغم من أن هناك وجهة نظر أخرى يقدمها علماء النفس سنوردها في حينها والرد عليها.



الفصل الثالث

علم النفس بين فكي العلم والفلسفة



الفصل الثالث

علم النفس بين فكي العلم والفلسفة

مقدمة :

طرحت الدراسات التي أشرنا إلى بعضها في الفصل السابق إلى حقيقة مؤداها الخلط بين علم النفس كعلم وتيار مستقل في تاريخ العلوم وبين كونه نوعًا من الدروشة والالتجاء إلى الخرافات والتعامل مع الكثير من المعطيات الإنسانية ووفقًا للفهلوة والشطارة وقدرات خاصة.

ويطرح ما سبق ثلاث تساؤلات هي:

الأول: هل علم النفس علمًا له أسس وقوانين؟

الثاني: هل تغلب علم النفس على الصعوبات التي واجهته أو تواجهه ؟

الثالث: أسباب تأخر انفصال علم النفس عن الفلسفة.

ونبدأ الإجابة على التساؤل الثالث لنرى أن البعض يؤمن بحقيقة أن علم النفس أقل من العلوم الأخرى، وأنه قد تأخر انفصاله عن الفلسفة والعمليات النفسية؛ ولذا فقد حول علم النفس من مجرد اجتهادات ووجهات نظر إلى علم له قوانينه وتجاربه، ويرى البعض أنه من غير الممكن أن يقف الإنسان على دراسة نفسه ومشاعره وأحاسيسه وانفعالاته دون أن يكون لديه قدر من المعرفة التي تمكنه من الحصول على طعامه وشرابه ومسكنه وملبسه ووسائل مواصلاته وأن هذه الاعتبارات العلمية تدفع بالعلماء إلى المضي قدمًا في تطوير العلوم التي تهدف إلى تحقيق مثل هذا القدر من المعرفة المقرونة بالاحتياجات العلمية الحياتية إلا أن هناك فريق يرد على أصحاب هذه القضية محاولين لفت الانتباه إلى أن طرح القضية بصورتها السابقة ما هو إلا من قبيل وضع العربة أمام الحصان وليس العكس انطلاقًا من الفكرة القائلة بأن ما يدفع المرء إلى التفكير والتطوير في كل فروع العلوم الأخرى إنما هو نوع من المعرفة بالنفس وإمكاناتها وقدرتها على الخلق والابتكار والإبداع ومن ثم لا سبيل للتطوير دون توفر هذا الحد من الدوافع والبواعث والتي تمثل أحد أركان علم النفس بصورته الراهنة.

أيضًا هناك قضية أخرى مؤداها أنه لا يجب أن نغفل المستوى المادي المشتمل على أدوات الإنتاج ووسائله والتي تعد أحد الشروط الضرورية للارتقاء الاجتماعي والنفسي بعد ذلك. ولكنها ليست شرطًا ضروريًا لتقسيم النفس من خلالها تفسيرًا آليًا ميكانيكًا فالإنسان في الحاجة إلى أدوات صناعية ومن ثم فإن الانتقال بالصناعة سيكون نفسية تختلف بلا شك عمن سيعمل في الزراعة أو الرعي أو الصيد ومن ثم فإن الثورة الصناعية التي حدثت في أوروبا قد أحدثت نوعًا من التسابق تجاه السيطرة على الطبيعة بكافة مفرداتها. ولا شك أن التسابق



وما وفره الإنتاج الصناعي من طفرات قد جعلت العديد من أصحاب المصانع يستغنون عن الأيدي العاملة ولا شك أن هذا العامل قد ساهم في تخلف علم النفس ولو بصورة متعمدة. فهل كل هذه الاختراعات والتسابق في التسليح وامتلاك القنبلة الذرية تهدف إلى سعادة البشرية أم بهدف التحكم والسيطرة ؟

لا شك أن الهدف السامي هو الشائع (ولو من قبيل التهديد) وبما أن علم النفس هو علم الوعي – أي يعي الإنسان ذاته ويعي أبعاد الآخر – كل ذلك سيفسد بهجة إخفاء الدوافع عن الآخرين. ولنضرب لذلك مثالاً من واقع أحد فروع علم النفس التطبيقية ألا وهو علم النفس الصناعي، إذ ظل هذا العلم لفترات طويلة معصوم برحمة الرأسمالية وزيادة الإنتاج لصاحب العمل فقط بغض النظر عن إمكانية تحقيق أهداف واحتياجات العامل. ولذلك نجد أن فرعًا واحدا يسعى إلى ثلاث سبل.

الأول: خدمة أصحاب رؤوس الأموال، **والثاني** خدمة العمال، **والثالث** تحقيق مصالح القطبين معًا. كذلك دراسة الطابع القومي لشعب من الشعوب مثلما فعلت الولايات المتحدة الأمريكية لفهم شخصية اليابانيين كانت هذه الدراسات بهدف الفهم ثم استغلال هذا الفهم لتوجيه ضربات إليهم وقس على ذلك اختبارات الذكاء التي تجري في الولايات المتحدة الأمريكية حيث يقوم بكافة خطواتها البيض على السود. ثم يستنتجون أو مستندين في ذلك إلى العلم وخطواته بأن السود أقل ذكاء أو هذا يؤدي إلى استنتاج قاعدة أخرى مؤداها : أن استغلال مثل هذه الفئات لم يتم من واقع أيديولوجي عقائدي بل يتم من واقع عمل يتمثل في نقص ذكائهم وبالتالي يثبت الأوضاع. في حين أن علم النفس (الحقيقي الموضوعي) سيكشف مثل هذه الأساليب من الزيف ويفضح كافة الممارسات وأساليب الحياة المعاشة لاستغلال طبقة لطبقة أخرى ويرى البعض أن تأخر انفصال علم النفس عن الفلسفة إنما يرجع إلى طبيعة هذا العلم والذي يعد بحق أصعب العلوم من حيث طبيعة الموضوعية التي يقدم على دراستها أو من حيث أدواته ووسائله التي يعي إليها في دراسته لهذه الموضوعات.

في حين يرى البعض أن مشكلة علم النفس تكمن في أن من يتصدى لدراسة علم النفس إنما هو إنسان لا بد أن يكون له موقف مما يدرسه مما يجعل التشوهات الذاتية تتداخل مع الخصائص الموضوعية فتمنحها رأيا آخر يرى أن كافة موضوعات علم النفس يتم تناولها بطريق غير مباشر، فلا أحد منا قد رأى الذكاء أو القدرات أو العواطف أو الأفكار.. الخ. ولا شك أن ذلك سيتيح قدرًا من الاختلافات بين من يتصدى لدراسة مثل هذه الموضوعات. بل ومن الطريف أن أجرت مجلة علم النفس التربوي الأمريكية منذ أكثر من (٥٠) عامًا دراسة حول تعريف أساتذة القياس النفسي لمفهوم الذكاء وكانت النتيجة أن تلقى المحرر عددًا من



الإجابات بقدر عدد العلماء الذين اشتركوا في هذا الاستفتاء مما يؤكد حقيقة اختلاف من يدرس الذكاء لمفهوم الذكاء.

وهكذا ساعدت العديد من الأسباب والعوامل والظروف (القصدية وغير القصدية) إلى تأخر انفصال علم النفس عن الفلسفة. وما زلنا في خضم طرح التساؤلات ونجيب عن السؤال الأول: هل علم النفس علمًا بالمعنى المتعارف عليه ؟

وللإجابة على هذا السؤال يجب أن نُعَرف العلم ونشير إلى بعض الحقائق التي تتلخص في الآتي:

أولاً: أن العلم لم يتخذ معناه ويصبح مهنة وعملاً يحترمه البعض إلا منذ زمن قريب.

ثانيًا: إن مسألة الحداثة النسبية للعلم وتنوع التخصصات العامة بين علوم طبيعية وإنسانية ونظرية وتطبيقية ووصفية وتجريبية وما إلى ذلك من تنوعات عبر تاريخ الفكر العلمي.

ثالثًا : ظروف كل مجتمع وما أحرزه من تقدم حضاري يعد إطارًا عامًا يحيط بالمشتغلين بالعلم ويؤثر في جهودهم وأعمالهم بما في ذلك تحديد معنى العلم نفسه .

ورغم تعدد التعريفات التي قدمت لكلمة العلم Science أي أن حصر الخصائص يكون أفيد لأن العلم:

١- أمبريقي، بمعنى أن يركز على المعلومات الواقعية دون أن يعني ذلك استبعاد المعرفة الاستنتاجية والمفهومات المجردة.

٢- يتناول القضايا أي العبارات التي تقرر علاقة بين شيئيين يتبعهما حكم صدق أو كذب.

٣- منطقي، ومع أن المنطق ليس علمًا إلا أنه لا غنى الأخير والأول.

٤- إجرائي بمعنى أن يحدد العلم إجراءات التعرف على الظاهرة في الواقع.

٥- عام بمعنى أنه مشترك بين الباحثين من خلال تواصل المعرفة العلمية فيما بينهم.

٦- يسعى إلى حل المشكلات .

٧- به ميل إلى التجريد .

٨- أن المعرفة العلمية تتخذ شكل النسق من خلال تحقيق مبدأ الاتساق.

٩- أنه يتميز بالاستمرار وتلك صفة يطلق عليها البعض لفظة التراكم (عبد الباسط عبد المعطي، ١٩٨٤، ١٧).

إذا قمنا بتطبيق خصائص العلم السابق على ما يسمى (بعلم النفس) فسوف نجد أنها تنطبق على علم النفس مما يجعله علمًا بالمعنى المتعارف عليه؛ لأن علم النفس قد انتهج



المنهج العلمي، وأصبح يقف في مصاف العلوم الطبيعية الأخرى كعلم الطب وعلم وظائف الأعضاء وعلم التشريح وإن كنا لا ننكر أن الظواهر التي يتصدى علم النفس لدراستها أكثر صعوبة وأكثر غموضًا باعتبارها نابعة من الإنسان الذي تتولى دراسته فهي خبرة ذاتية شخصية أو بحكم تأثرها بالعوامل الذاتية لدى من يقوم بدارستها بل إنها أكثر صعوبة لأنها في كثير من الأحيان عوامل عاطفة الإنسان واتجاهاته وميول مشاعره وآلامه الداخلية، كانت المشكلة: كيف نقيس كميًا مثل هذه الأمور المعنوية إلا أن علم النفس قد تغلب على هذه المعضلة بأن ترك المفاهيم المجردة ودرس آثارها أو نتائجها أو علاقاتها كما تظهر في سلوك الإنسان وبذلك نجح علم النفس في دراسة ظواهر ومفاهيم مجردة مثل الذكاء أو التعلم أو الإدراك أو القدرات الدالة على ذلك من خلال الدراسة غير المباشرة وذلك عن طريق دراسة السلوك الدال عليه. ولذلك فإننا نجد في علم النفس تياران للقياس أحدهما **التيار الكمي** والذي يهتم بالضبط والتنقية بطرقه المختلفة وصولاً إلى الدرجة الكمية التي تحسم الأمور **والتيار الكيفي** والذي يرى أننا لا يجب أن نهلل للأرقام في حد ذاتها وأن الكائن الإنساني أعقد من ذلك بكثير ومن ثم يجب اللجوء إلى وسائل بعيدة عن الأرقام والكم – حتى نستطيع الإمساك بالشخصية وفهمها وسبر أغوارها وصولاً إلى الديناميات العميقة والتي تتخفى عن السطح الخارجي البراق. وصحيح أنه يوجد تصارع بين التيارين في علم النفس فأصحاب التيار الكمي يفتخرون بالأرقام والضوابط والنتائج التي يتم التوصل إليها إلا أن أصحاب التيار الثاني يشككون في هذه الأرقام وأن مجرد (رص) الأرقام بجوار بعضها البعض قد يعطي شكلاً علميًا براقًا ولكنه لا يجعلنا نفهم الإنسان بما هو إنسان.

وفي هذا يسوق صلاح مخيمر مثلاً على بطلان التيار الكمي حيث حدث عند تطبيق مقياس المهارة اليدوية على واحد من أشهر الجراحين فكشف المقياس عن انعدام المهارة اليدوية. ولما كان واقع حياته كجراح ناجح يقدم الدليل على كذب المقياس فقد ابتدع الباحث لتفسير هذه الظاهرة بما أسموه (بحشد القدرة) بمعنى أن الجراح قد حشد مهاراته اليدوية في مجال الجراحة فخلت من هذه المهارة والمجالات الأخرى وفي هذا ما يرينا ضرورة النظر إلى الشخصية كوحدة كلية يتحتم علينا أن نستطلع مجالاتها المختلفة والوظائف المختلفة في صلتها ببعضها البعض وصلتها بالوحدة الكلية للشخصية (صلاح مخيمر، ب ت ٢٣٤).

ولا نرى أن الأقرب إلى الصواب في دراسة الإنسان هو اتباع المنهجين معًا الكمي وبريق الأرقام والإحصاءات والدلالات والكيفي بتقديم رؤية تفسيرية شاملة تأخذ في اعتبارها تفاعل الجوانب مع بعضها البعض مما يذكرنا بمقولة جماع الأطروحة وهكذا تكون النظرة إلى الإنسان مستمرة وديالكتيكة متفاعلة في التعبير عما يشعر به .



أما السؤال الأول فيتمثل في ضرورة الإجابة عن هذا السؤال: ما هي الصعوبات التي يواجهها علم النفس وكيف تغلب عليها؟ وهل ما زالت قائمة؟

ويجمل أصحاب علم النفس هذه الصعوبات في فئتين:

أولاً : صعوبات متعلقة بموضوع علم النفس وتتلخص في:

أ- التفرد: ويعني به أهل الاختصاص خاصية يرون أنها لا تواجه سوى المشتغلين في مجال السلوك الإنساني وهي عدم تشابه موضوع وحدات البحث بدعوى أن الباحث في مجال العلوم الطبيعية مثلا – مثل دراسة تمدد الحديد بالحرارة مثلاً – يتعامل مع مواد تتصف وحداتها بالتطابق والتكرار وبالتالي فإنه يستطيع أن يسلم ابتداء أن ما تخلص إليه دراسته لوحدة مفردة إنما يمكن أن يعمم ليشمل بقية المادة جميعًا. لكن التعميم في مجال العلوم الإنسانية صعب جدًّا، إن لم يكن مستحيلاً.

والرد على هذه الصعوبة : نقول بأن كل إنسان هو كائن فريد يختلف عن غيره من الناس صعوبة حقيقية ولكن السؤال هو هل هذه الصعوبة خاصة بعلم النفس أم أنها تشمل جميع العلوم؟ يبدو للوهلة الأولى أن بقية العلوم لا تواجه هذه المشكلة والحقيقة فيما نرى ليست على هذه الصورة فقطعة الحديد تختلف عن قطعة أخرى موضوعة في ظروف مختلفة، بل كلما تقدمنا في طرق القياس المعملي اتضح لنا أن الحصول على قطعتين متماثلتين يكتنفه العديد من الصعاب؛ لأن التماثل المطلق إنما يعني التماثل في كل شيء: الوزن والحجم والنقاء.

وهذا أمر بالغ الصعوبة ولذا فإن التفرد قائم في العلوم جميعًا. ويتحقق تقدم أي علم بمقدار نجاحه في تجاوز هذا التفرد وصولاً إلى القوانين العامة التي يمكن أن تفسر الجزئيات من خلالها. ألم يكن الجمع بين الأميبا والإنسان وبين الديناصورات والنمل وبين النسور والحيتان باعتبارها جميعًا كائنات حية أمر تعترضه صعوبات شتى وعلى رأسها تعدد أوجه الخلاف والتفرد؟ حتى توصل العلم إلى اكتشاف الخلية وتركيبها وقوانينها باعتبارها الوحدة الأساسية التي يتكون منها أو بواسطتها كافة الأنسجة والأعضاء. وهذا ما يهدف إليه أي علم.

ب- **التغير:** والمقصود بها أن موضوع البحث وهو الإنسان وسلوكه متغير بل يتخذ في تغيره مسارات متشعبة ومسالك شتى ويمكن حصر هذه الصعوبات في المناحي الآتية:

١- **تغير الزمن** : ونقصد به أن ما كان مقبولاً في فترة زمنية معينة في المجتمع الواحد أصبح غير مقبول وشاذ ومنحرف في نفس المجتمع في فترة زمنية تالية. والأمثلة كثيرة مثلاً: قضية خروج المرأة إلى العمل والعلاقة بين الرئيس والمرؤوس في المصالح الحكومية، والبدانة والنحافة؛ حيث كان ينظر إلى المرأة البدينة على أساس أنها (قمة



الرشاقة والجمال). لأن البدانة تدل على العز والراحة، في حين أن المرأة (النحيفة) ينظر إليها نظرة احتقار على أساس أنها تعاني سوء التغذية، وغني عن البيان أن هذا المعيار قد تغير الآن.

٢- **تغير المكان:** كذلك سلوك معين يكون مقبولاً في مكان ما يصبح شاذًا في مكان آخر وفي نفس الزمان. مثال: العلاقة بين الولد والبنت ممكن أن تكون مقبولة في بعض المجتمعات الغربية وغير مقبولة في المجتمعات الشرقية، بل في المجتمع الواحد يمكن أن تتغير وفقًا لبعدي الحضر / الريف.

٣- **السن** : من المؤكد أن لكل مرحلة عمرية ملامحها الخاصة بها، وبالتالي فإن سلوك كل مرحلة يكون مقبولاً طالما تم في هذه المرحلة، فإذا استمر سلوك ما لمرحلة سابقة إلى مرحلة تالية نجده أسلوبًا مرضيًا يجب علاجه بل وتأنيب الشخص ووصمه بالمرض.. فالطفل مثلاً في سنواته المبكرة يمكن أن يتبول على نفسه ويكون ذلك مقبولاً لكن في مرحلة تالية يكون ذلك غير مقبول بل يصل القائمون على تربيته قلقهم إلى عرضه للعلاج.

٤- **القدرة على الاختيار:** أن حتمية القانون الطبيعي يفرض على الظواهر الطبيعية أن تخضع للقانون على عكس الإنسان والذي من الصعب أن نتنبأ اختياراته أو نركن إلى اختيار واحد. فقطعة الحديد إذا ما تعرضت للسخونة تتمدد والمياه إذا وصلت إلى درجة الغليان إلى ١٠٠ درجة تبخر بعكس الإنسان إذا ما تعرض لموقف (سب) من الآخر مثلاً فلا تستطيع أن تقول أنه سيرد السباب؛ لأن هناك العديد من المتغيرات الخاصة بالشخص الواقع عليه السباب، والشخص الذي قام بالسب والظروف التي تحيط بالشخصين معًا مما يعقد عملية الاختيار.

٥- **اللغة** : الإنسان يعد الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يستخدم اللغة في التعبير عما يشعر به. في حين أن بقية الكائنات الأخرى لا تملك هذه القدرة.

صحيح أن الإنسان والحيوان يتفقان في لغة الإشارة إلا أن الإنسان ينفرد في استخدام اللغة وتطويعه وقدرته على التعبير والصدق أو الكذب وهكذا تتعقد الأمور من جراء عقبة التغيير.

الرد على هذه الصعوبة : إن كافة العلوم قد واجهت هذه المشكلة لسبب بسيط هو أنه لا يوجد شيء ثابت في هذا الكون. فالظواهر جميعًا تخضع للتغيير. ألم يقل أحد فلاسفة اليونان (أنك لن تنزل النهر مرتين لأن مياه جديدة ستغمرك) وقد أمكن رصد حركات الذرات داخل النواة، كما أنه يحدث تغيير داخل الإنسان ويمكن رصده، بل كل ذلك وصولاً إلى



القوانين التي تحدث التغيير، وبما أنه لا توجد فجائية في التغيير، كذلك يجب أن نركن إلى عدم وجود فجائية في السلوك الإنسان وأن إهمالنا لرصد ما يحدث إنما يعكس خللاً في فهم الظواهر الحاضرة.

والخلاصة أن التغيير في حد ذاته ليس خاصية بشرية بل تشمل الوجود كله .

ثانيًا : الصعوبات التي تتعلق بالمنهج :

١- **التناول غير المباشر** : تقوم العلوم الطبيعية على دراسة موضوعات محسوسة يمكن تناولها بسهولة، بينما في علم النفس يتم تناول موضوعات ذات طبيعة معنوية. مثل الذكاء، الاكتئاب، الانبساط، العصبية، القدرات.. الخ. فلا يوجد إنسان مثلاً قد رأى الاكتئاب رؤية عينية محسوسة مباشرة بل كل ما نقوم به أننا ندرس موضوعات علم النفس بطريق غير مباشر، بل إن مكمن الخطورة في التناول غير المباشر يتلخص في قضيتين هما:

أولهما : أن الشيء الواحد قد يعبر عنه بالعديد من الظواهر الدالة عليه وهذه التعددية في ظاهر التواجد قد تعكس في الجانب المقابل نوعا من الغموض في تناول المفهوم أو الخاصية الواحدة ذات المظاهر المتعددة (مثال لا نستطيع أن نتنبأ بسلوك الأفراد المحيطين في موقف ما).

ثانيهما : أن طبيعة الأدوات والوسائل المستخدمة في رصد وتسجيل تلك المظاهر المتنوعة والمتعددة، ويمكن أن نشير إلى هذا الكم من اختبارات الذكاء مثلاً.

الرد على هذه الصعوبة : إن التناول غير المباشر ليست الصعوبة القاصرة على علم النفس. فنحن نتحدث عن المغناطيسية والكهربائية والجاذبية، وهذه المفاهيم افتراضية في مجال علوم الطبيعة، ولا أشك إطلاقًا في وجودها على الرغم من صعوبة التناول المباشر لها، ونحن نتعامل مع آثارها الدالة عليها بشكل غير مباشر من خلال الرصد والقياس والتسجيل. في حين أن مشكلة تعدد الوسائل قد أمكن التغلب عليها عن طريق ما يعرف باسم التعريفات الإجرائية والتي تجعل الباحث منذ البداية يحدد المجال والهدف الذي يسعى إليه حتى تتضح – من البداية– للآخرين طريقته في البحث والرصد.

ب – التحيز : وتنهض هذه الحجة على مقولة مؤداها أن العالم في مجال العلوم الطبيعية حين يتصدى بالدراسة والبحث لموضوع ما فلا يتحيز له بل يتعامل معه بنظرة حيادية/ موضوعية (دراسة الفلزات مثلاً). لكن الأمر جد يختلف في تناول العالم لأي موضوع إنساني لأنه في التحليل النهائي إنسان له موقف وله فكره، ولديه كم من التراكمات عبر مراحل التنشئة الاجتماعية ولذا فإننا نتوقع، بل نسلم من البداية بالتحيز وعدم الموضوعية.



الرد على هذه الحجة : ليس التحيز بالحجة الدامغة في العلوم الإنسانية، بل نجده أيضًا في العلوم الطبيعية. ولعل واقعة اكتشاف أشعة (N) في مجال علم الفيزياء والتي تبين فيها كيف كان بلوندلوت وعلماء فرنسا متحيزين تحيزًا قوميًا لفرنسا وذلك بعد إثبات أن أشعة (N) لا وجود له في الواقع. إضافة على أن المتابع لحركة القياس في مجال علم النفس يجد العديد من الاستراتيجيات والإجراءات التي يجب أن يمر بها حسب ثبات وصدق ومعايير وظروف تطبيق أي اختبار نفسي.

ج – صعوبة التجريب : تقوم العملية التجريبية على التجريب والتجربة في أي علم تتطلب أمرين أساسيين هما:

١- القدرة على ضبط المتغيرات والتحكم فيها.

٢- القبول بتدمير جزء من الظاهرة موضوع التجربة.

لكن في مجال علم النفس الأمر مختلف وكلا الأمرين صعب لأن ضبط المتغيرات لدى الإنسان صعب (لأنه يتلقى في كل لحظة العديد من المؤثرات الداخلية والخارجية) كما أن عملية التجريب بمعناه الحرفي صعب جدًا في الإنسان.

الرد على هذه الحجة: ويظن الكثيرون أن العلم هو التجريب أنه لا مكان للعلم بدون تجارب وبالتالي لا نستطيع أن نعترف بشرعية علم النفس إلا إذا ما ثبت أنه يجري تجاربه مثل العلوم الأخرى. وننسى شيئا هاما جدًا وهو أن أقدم العلوم على الإطلاق ونقصد به علم الفلك والذي اكتسب شرعية وجوده منذ القدم لا زال حتى الآن التجريب فيه يعد مستحيلاً ورغم ذلك فهو علم؛ لأن له وسائله الخاصة في الوصول إلى الحقيقة.

وهكذا يتضح أن علم النفس علم وأنه لا بد أن يتفاعل مع الفروع الأخرى من العلم وهذا هو موضوعنا التالي.



الفصل الرابع

مدخل إلى تعريفات علم النفس



الفصل الرابع

مدخل إلى تعريفات علم النفس

مقدمة :

ما أسهل أن ننساق وراء هذا الكم الهائل من التعريفات التي قدمت لهذا العلم، بيد أن الأمور أعقد من ذلك بكثير. ولا بد قبل الخوض في ذلك أن نقدم المسلمات الآتية:

الأولى : قضية الربط بين أي علم من العلوم والمجتمع الذي ينمو في كنفه.

الثاني : لا بد من حتمية الحوار بين العلم (علم النفس) ومختلف الاجتهادات الفكرية ليس فقط بين علم وعلم وإنما داخل العلم الواحد.

فإذا ناقشنا القضية الأولى في عجالة فإن نظرة سريعة إلى تاريخ علم النفس توقفنا على حقيقة أن علم النفس – كمثال – لم ينبثق من فراغ بل تفاعلت مجموعة من العوامل أدت إلى نشوء هذا العلم ويبرز دور المجتمع في تطوير هذا العلم ويمكن حصره في المجالات الأربعة الآتية:

أولاً : أن مرحلة التطور التي يمر بها مجتمع معين تحدد نوع المشكلات التي تطرح أمام علمائه في هذا العصر، وبالتالي تحدد المجال الذي يتجه غالبية العلماء آنذاك إلى محاولة كشف قوانينه الموضوعية.

ثانيًا : تفرض مرحلة التطور التي يجتازها المجتمع نوعًا من الحظر على البحث في مجالات معينة محددة ولأسباب اجتماعية – أو لنقل طبقية – حتى تلتقي جميعها حول محور واحد محدد وهو أن تكشف الحقائق العلمية الموضوعية في ذلك المجال المحظور إنما يمثل تهديدًا للبناء الأيديولوجي الذي يحمي الاقتصاد الأساسي للمجتمع المعين في المرحلة الزمنية المعينة.

ثالثًا : يتدخل البناء الأيديولوجي لرجل العلم – وبصورة مباشرة- في اختياره للمشكلات التي يتصدى لبحثها ولمنهجه في البحث كما أن ذلك البناء يتدخل بصورة أوضح في تقدير رجل العلم لنتائج بحوثه وملاحظاته .

رابعاً : ينفرد المجتمع انفرادًا يكاد يكون مطلقًا بتحديد مجالات التطبيق لمختلف حقائق العلم الموضوعية. فوجود فروق فردية بين البشر في مجال القدرات العقلية والبدنية مثلاً حقيقة موضوعية يتفق عليها علماء من مجتمعات وعصور شتى. لكن أوجه الاستفادة من تلك



الحقيقة والإحاطة بالقوانين التي تحكمها أمر تحدده في النهاية طبيعة المرحلة التي يمر بها المجتمع المعين. (قدري حفني، ١٩٧٨، ٤٦: ٤٨).

فإذا طبقنا الحقائق السابقة على علم النفس فسوف نجد الآتي:

١- أن علم النفس لم يستقل عن الفلسفة إلا بعد أن نضج علمان آخران هما الرياضيات أو على وجه التحديد فرع الإحصاء من هذا العلم، وعلم الطب أو على وجه التحديد فرع الفسيولوجيا من هذا العلم.

٢- أن الإحصاء والفسيولوجيا حلان مطروحان لمشكلة اختلاف الأفراد فيما بينهم والذي يتصدى علم النفس لدراسته.

٣- أن الفسيولوجيا أكدت على حقيقة أن الاختلافات بين الأفراد هي من قبيل الأمور الظاهرة والتي يجب أن نتخطاها وصولاً إلى الجوهر والذي يظل واحدا عند جميع الكائنات الحية بما فيها الإنسان ألا وهو الجهاز العصبي.

٤- أن الإحصاء قد طرحت حقيقة التسليم بالتعددية ومحاولة التوصل للقوانين التي تحكم هذا التعدد وصولاً إلى أرقام محددة وتفسير هذه الاختلافات وترجع الكثرة إلى قلة.

٥- أن علم النفس رغم أن المؤرخين لهذا العلم يعتقدون أن أفكار ديكارت قد ساعدت على انفصال علم النفس عن الفلسفة حينما قدم أفكاره عن أن الإنسان ما هو إلا مجرد آلة معقدة يستجيب لبعض المنبهات الخارجية استجابة آلية. وأن الإنسان له نفس وله روح وأن هذه النفس هي التي توجه الإنسان وتجعله يتصرف تصرفًا معقولاً وأن هناك تأثير متبادل بين الجسم والنفس. إلا أن صلة علم النفس بالفلسفة لم تنقطع تمامًا، لأن علم النفس يثير العديد من القضايا الفلسفية: لأن الباحث قد يصل إلى نقطة في أبحاثه لا يستطيع أن يمضي أبعد منها وهنا تقدم له الفلسفة الرؤية الشاملة العميقة للتفسير.

٦- أن علم النفس يتجاور ويستفيد ويفيدنا باقي العلوم الأخرى، فله مثلاً صلة وثيقة بعلم الأحياء وعلم وظائف الأعضاء وعلم الاجتماع، لأن سلوكنا نفسه يعتمد إلى حد كبير على تكويننا البيولوجي (القدرة / الحجم / الوزن).

٧- أن علم النفس يمكن أن يفيد في العديد من المجالات التطبيقية والتي تفيد المجتمع إذ يستطيع أن يتناول الأعراض النفسية والجسدية والثقافية والفنون والآداب متوصلاً إلى الطابع القومي للشخصية في مرحلة زمنية معينة، وهل هذا الطابع يتسم بالاستمرارية أو الانقطاع؟



٨- أننا لو نظرنا إلى الخريطة السيكولوجية للأبحاث في مصر فسوف نجد الآتي:

أ – في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات ومع التوسع النسبي الصناعي ومع عودة العديد من أساتذة علم النفس من الخارج نشطت الأبحاث في مجال علم النفس الصناعي.

ب – في الثمانينات تحديدًا نشط البحث في مجال الإدمان ووجد العديد من الباحثين يتصدى لإدمان مواد جديدة مثل الهيروين. صحيح أن المركز القومي أجرى دراسته عام ١٩٦٠ عن الحشيش، وفي السبعينات ظهرت أطروحة عن إدمان الأفيون، وأن في مجال الإدمان تم تناول المرأة كمدمنة (دراسة محمد رمضان، ١٩٨٢). وكذا تناول العديد من المواد الإدمانية مثل البانجو والمواد الضارة في التسعينات.

ج – في مجال الطفولة والاهتمام بمشكلاتها تم إنشاء مركز دراسات الطفولة (في سبتمبر ١٩٧٧) بجامعة عين شمس على أساس أنه وحدة علمية تجمع ما بين البحث العلمي والتطبيق العملي في مجال الطفولة، ولا بد أن نقدم لاعتبار وجود العديد من العوامل المتشابكة والتي حتمت إنشاء هذه المراكز مثلاً في هذه الفترة تحديدًا .

تعريفات علم النفس : اتضح مما سبق أن علم النفس علم وأنه يلتزم بشروط البحث العلمي وأن التفاعل قائم بينه وبين العلوم الأخرى وكذلك بينه وبين تلبية احتياجات المجتمع. وعمومًا فقد تباينت تعريفات علم النفس فذهب الأولون – مثلاً- إلى أن علم النفس هو العلم الذي يدرس النفس، ثم تحول الدارسون عن هذا المفهوم لغموضه من جانب، ولالتباسه بمفهوم الروح وما ينطوي عليه من غموض يجعله عصيًا على الفهم والتحديد من جانب آخر، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار أن الروح – لدى المسلمين – هي من أمر الله ولذا يجب عدم الخوض فيها؛ لأنها غامضة وصعب التطرق إليها. وهناك تعريف آخر يرى أن علم النفس هو دراسة السلوك؛ لأنه قابل للملاحظة والرصد والتسجيل. وقد انطلق أصحاب هذا الاتجاه مهللين لتعريفهم على أساس أن على أيديهم سيتم تحويل علم النفس من علم غامض إلى علم محدد واضح، بل إمعانًا في الدقة استخدموا المعامل وأجروا التجارب على الحيوان، وحبذا لو كان إنسان لأن (اليد قصيرة والعين بصيرة) ومن ثم خرجوا بنتائج من تجاربهم على الحيوانات وعمموها على الإنسان.. ورغم وجاهة التجريب في علم النفس، وبريق إجراءاته وأدواته إلا أنه لا يصلح مع الإنسان، كما أن الفرق بين عالم الإنسان وعالم الحيوان سيظل قائمًا. إضافة إلى أن إخضاع البشر للتجريب عملية ضد الإنسانية. وإن كان ذلك لا يمنع أننا وجدنا في تراث علم النفس – وتحديدًا الفردي- أمثلة كثيرة على هذا التجريب وخاصة في مجال آثار العدوان. إذ من الأساليب المستخدمة مثلاً توجيه إهانة للأشخاص أو إثارة ضيقهم، أو أن



يختار شخص أو أشخاص ذا قدرة مرتفعة على توجيه اللوم والإهانة لكي يقوم بدور المجرب فيهم فيهين "المتطوعين للتجريب" ويعترضهم بطريقة معينة قد تصل إلى درجة الاعتداء عليهم جسديًا، حتى يصلوا إلى حقيقة مؤداها أن الإنسان مثله مثل الحيوان يقاتل حين يتعرض للإحباط أو الهجوم على الذات، ثم رأى العلماء أن يعالجوا فكرة الهجوم هذه على أنها نوع من الإحباط، وأن هناك فرقا بين العدوان الذي ينشأ الإحباط والذي ينشأ بسبب الإهانة Insulting وتوصلت النتائج إلى أن العدوان عند المجموعة التي أهينت كان مرتفعًا عن المجموعة التي تعرضت للإحباط (ميشيل أرجايل، ١٩٧٣، ٧٧: ٧٨).

وقد أوردنا نموذجًا للتجارب التي أجريت على مجموعة بشرية لتوضيح موقفنا الرافض لهذه الإجراءات الإنسانية. فالإنسان قد يتوجه للإحباط يمكنه الرد في اتجاهات شتى أي أن عدوانه قد يأخذ صورًا متعددة مثل السب، العراك، تحطيم الأشياء عدوان على الذات...الخ.

في حين تجد أن تيار التحليل النفسي والذي ظهر قريبًا في نفس الفترة التي ظهر فيها تيار السلوكية في الولايات المتحدة الأمريكية قد عرف علم النفس تعريفًا مختلفًا؛ لأنه يراه ذلك العلم الذي يتناول العالم الداخلي للإنسان، وأن الفرضية في نظرية فرويد هي أن معظم سلوك الإنسان إنما ينشأ عن عمليات لا شعورية ويقصد بها تلك المخاوف المبكرة والحفزات والرغبات التي لا يعيها الفرد على مستوى الشعور لكنها مع ذلك تظل مؤثرة في سلوكه، وأن ما نعرفه عن النفس ما هو إلا الأجزاء الظاهرة من كتلة ثلجية مغمورة في المحيط. ولذا فقد ذكر فرويد العديد من المصطلحات التي لا يمكن أن يقتنع بها أصحاب التباين السلوكي.

ونرى في هذين التيارين الشهيرين في مجال علم النفس السلوكي/ التحليلي نستطيع أن نخطو خطوة إلى الأمام ونرى أن علم النفس هو علم الوعي، وأن على العلم أن يدرس وعي الإنسان بنفسه، فإذا ما وعى بنفسه وعى بالآخر أما التركيز على الوعي فإنه يعني أن الإنسان إذا كان عدوًا لما يجهل فإنه يقاتل من أجل أن يتمسك بالقديم والمألوف.

وإذا كان تاريخ تقدم أي مجتمع ما هو الأصل لشهادة ميلاد ذلك الصراع وانتصار جانب على جانب، فإن الوعي بالذات وبالعالم إنما يعد من وجهة نظرنا المبحث الأساسي لعلم النفس وأن الوعي يحتاج إلى نوع من المقاومة، مقاومة المألوف، والقدرة البطولية على مواجهة الذات والوعي بها ومن فيها، وكذلك مع الآخر، حيث إن الذات تتشكل من خلال الوعي بالآخر.

ولما كانت العلوم الإنسانية تتصدى لدراسة الوجوه والإنسان فإنه من البديهي أن تلقى هذه العلوم صورًا عديدة من المقاومة يمكن أن نحصرها في :



١- **مقاومة بسبب النوع / الجنس واللون** : عندما يعلن العلم (علم النفس وعلم الوراثة) تساوي جميع البشر في القدرات الإنسانية، أن الجنس Race واللون لا صلة لهما بالقدرات الإنسانية بحال من الأحوال فإن ذلك من شأنه أن ينزع مبررًا كان يعتمد عليه العالم المتقدم في السيطرة على العالم الثالث، أليس الرجل الأبيض أذكى من الرجل الأسود، أليس الجنس الألماني – ذو الدماء الزرقاء – هم أفضل الأجناس، أليس أي يهودي هو مختار ومفضل من قبل الإله؟ وبالتالي فإن فحص مثل هذه الدعاوى النازية أو الصهيونية أو العنصرية إنما تقوم على هذه المقولة، وأن فضح مثل هذه الأشياء إنما يطيح بقاعدة الانطلاق في مثل هذه الدعاوى.

٢- **مقاومة بسبب المهنة:** عندما تعلن الأبحاث الحديثة / الموضوعية أن ذكاء المرأة مثل ذكاء الرجل نجد مقاومة من قبل الرجال الذين يعتقدون أن المرأة أقل ذكاءً من الرجل، ولعل تفسير غضب الرجال على هذه الحقيقة إنما تتفجر من خلال هذا الكم من الأفكار والاتجاهات التي ترسبت في الأعماق وإذا كان العلم قد أثبت حقيقة أن نسبة التخلف العقلي أعلى بكثير من نسبته لدى الإنسان، فهذا ناتج من أن تعرض الرجال للعمل ومعاركة الحياة أكبر من تلك الفرص المصيبة للنساء وإذا كان الرجال يعتقدون أن "مكان المرأة هو البيت وتربية الأطفال وتلبية احتياجات الزوج" فإن ذلك ناتج من اتجاهات سائدة في بعض الأوساط الاجتماعية ترفض ندية المرأة للرجل وأن امرأة إذا تساوت برزت عن الرجل في مجال ما (علم/ عمل/ مكانة) فإن ذلك يكون نذير شؤم للرجل يسعى إلى التخلص منها. وإذا كان المنصفون من العلماء يرون أن حل هذا الإشكال يتلخص في أنه لا يوجد عالمين عالم الرجل وعالم المرأة بل هو عالم واحد، وأن الرجل يكون حرًا بقدر ما يتيح للمرأة من فرص لتفجير إمكانياتها. فإن عكس ذلك إنما يعني تأجيل لمشاكل وتراكمات ستنفجر في يوم ما.

٣- **مقاومة بسبب العقيدة السياسية والدينية** : وتثير هذه المقاومة إشكالية إقحام الدين في العلم، ويجب أن نشير بداية إلى وجود فروق بين العلم والدين تتمثل في:

١. قيام العلم على حقائق ملموسة على عكس الدين.
٢. إن العلم يعتمد على التجريب في حين أن الدين يعتمد على الإيمان.
٣. إن قانون العلم والاستفادة التطبيقية له قد تكون واحدة في جميع البلدان (طرق تشغيل القطارات / السيارات .. الخ) في حين تتعدد وتتشعب العقائد الدينية ليست فقط بين عقيدة وأخرى بل داخل العقيدة الواحدة (فالإسلام ينطوي على مذاهب سنية وأخرى شيعية، والمسيحية لها مذاهبها الكاثوليكية، الأرثوذكسية، البروتستانتية).



٤. إن الدين يورث في حين أن العلم لا يورث بل يحتاج إلى وسائل وتطوير هذه الوسائل لاكتشافه.

٥. إن العلم متغير في حين أن الدين ثابت.

٦. إن الدين يقوم على النقل، في حين أن العلم يقوم على العقـل (كمـا قـال فلاسـفة المسلمون)

٧. إن العلم هو نشاط الإنسان على أرض الواقع من أجل الوصول إلـى حلـول عمليـة تؤرق البشرية، في حين أن الدين يقدم حلولاً لتساؤلات الإنسان الكبرى مثل الحياة بعد الموت / المصير / الحساب / الجنة / النار... الخ.

٨. إن العلم في حالة صيرورة أي تحول وتطور وتراكم دائم، وأن هناك الجديـد الـذي يضاف إلى القديم في حين أن الدين نهائي وقضاياه قد حسمت وإن كان ذلك لا يمنـع من فتح باب الاجتهاد استنادًا إلى قياسات سابقة.

لكل ما سبق يجب الالتفات إلى هذه المقاومة الدينية والأخذ في الاعتبار الآتي :

أ- عدم ربط شواهد علمية بحقائق دينية، فإذا تغير العلم فكيف سيكون الحال.

ب- إن العلم هو الذي يجب أن يستفيد من الدين وليس العكس. فإذا تم اكتـشاف مراحـل الحمل مثلاً فيمكن الاستناد إلى نص قرآني قد ذكر ذلك، وإن العلم قد توصل إلى هذه الحقيقة الآن. وغيرها.

٤- **مقاومة بسبب الانحياز الوطني والطبقي:** لا شك أن الانحياز الـوطني يلعـب دورًا أساسيًا في تزييف العديد من الوقائع. ولعل مثال الدراسات التي أجريت على الطـابع القومي، أي السمات العامة لشعب ما خير مثال على ذلك إذ تميل غالبًا إلى التمجيـد في أبناء ذلك البلد ووصم الآخرين بصفات لا تمت إليهم، وهكذا. كما أن العالم هو في نهاية الأمر في خدمة المجتمع، وأن جهره بآراء نتائج مخالفـة لمـا تريـده الطبقـة الحاكمة في مجتمع ما قد يجر عليه العديد من الانتقادات والتي قد تصل إلـى درجـة النفي أو السجن أو حتى الإعدام، ولذا فإن عالم النفس في دولة صناعية رأس ماليـة يكون لها خدمة صاحب العمل، على عكس الحال مثلاً لو كان في دولة اشـتراكية إذ سينحاز للعمال. ولما كان علم النفس والعلوم الإنسانية قد ولدت في الغـرب الـرأس مالي فلا بد أن تترك آثارها على تطبيقات هذا العلم بل وكثير من تفسيراته النظرية..

٥- **مقاومة بسبب العوامل الشعورية واللاشـعورية:** كان للتحليل النفسي فضل السبق في إظهار هذا العالم الداخلي العميق / العجيب والذي يدور رحاه داخل نفـس الإنـسان.



ولذا فإن الرؤيا الشخصية لا شك أنها تزيف العالم الخارجي وتحرفه. وأن الإنسان قد يدرك العالم ليس كما هو موجود بالفعل بل كما يدركه هو. ولذا علينا أن نذكر في هذا الصدد حقيقتين:

الأولى : إن العلم يقوم على أنقاض الحس العام أو المشترك أو "الـ Commonsense" أي يناقض ما هو مألوف وتؤكده الحواس: فليست كل ما تراه الحواس سليم.

الثانية : إن الحواس يمكن أن تكون مصدر للخداع والتزييف، كما يمكن أن تكون الخبرة الاجتماعية مصدر لتزييف وخداع الآخر.

وهكذا تتعدد صور المقاومة التي على الباحث أن يعي بها مثل : التحيزات القومية والعنصرية والحضارية والدينية والطبقية والشخصية وغيرها. بعبارة أخرى يجب على كل من يتصدى بالبحث والدراسة في مجال الإنسان أن يعقم نفسه ضد كل هذه التحيزات حتى يصل إلى جوهر الوعي بحقيقة الإنسان بما هو إنسان.

ولما كان الإنسان هو موضوع علم النفس فإننا سنتناول في علم النفس أو كما يراه من خلال العديد من الميادين التي تتصدى لدراسته، وهذا موضوع الفصل القادم.



الفصل الخامس

ميادين علم النفس



الفصل الخامس

ميادين علم النفس

مقدمة :

يوضح تاريخ علم النفس أنه علم من العلوم بدأ بصورة إجمالية شاملة ثم مع تراكم المعلومات تفرعت الاتجاهات المتعددة والتي تتناول النفس الإنسانية من فروع شتى، وليس هذا بدعًا في علم النفس بل نجد العديد من العلوم قد نهجت هذا النهج مثل علوم الطب والهندسة والفيزياء وغيرها من العلوم.

وبرغم اصطلاح تسمية علماء النفس، وتقسيمهم لفروع وميادين علم النفس إلى فروع نظرية وأخرى عملية. إلا أننا لا نحبذ هذه التقسيمات، لأن ما هو نظري قد يتحول إلى ما هو تجريبي والذي بدوره قد يثير العديد من القضايا النظرية والتي تحتاج بدورها إلى حسم يتم من خلال التطبيق. وما فائدة أي علم من العلوم إلا تحقيق فائدة للإنسان تكون ملموسة. وحتى في العلوم والمباحث النظرية مثل الفلسفة مثلاً والتي تبحث على سبيل المثال في قضايا الوجود والحق والمنطق والعدل والجمال والخير رغم منطقها النظري إلا أنها تشبع العديد من الأفكار والتساؤلات التي شغلت وتشغل الإنسان.

ميادين علم النفس :

وتنقسم إلى الفروع الآتية :

١- **علم النفس العام : General Psychology** : وهو فرع من فروع علم النفس حيث يهتم بدراسة الأسس والمبادئ والأصول العامة لعلم النفس والتي يراها علماء النفس ذات أهمية كبيرة في العلم. وهو بالتالي يمثل الأصول الأولية والمعلومات الأساسية في علم النفس والتي تتخذها كافة فروعه المختلفة منطقًا لها. ولذا يتم النظر إلى علم النفس العام وكأنه المنطق الأساسي لكافة فروع علم النفس الأخرى حيث يهدف إلى الوصول إلى المبادئ والقوانين العامة والتي تفسر سلوك الإنسان.

٢- **علم النفس الفارق** : ويهتم هذا العلم بدراسة الفروق المختلفة بين الأفراد والجماعات أو السلالات من فوارق الذكاء والقدرات والميول والاستعدادات، كما يدرس أسباب هذه الفروق ونتائجها مستندًا إلى الحقائق التي يكشف عنها علم النفس العام، وإذا كان علم النفس يبين لنا كيف تتشابه الأفراد من (خلال القوانين والأسس والمبادئ العامة) فإن علم النفس الفارق يبين لنا كيف يختلفون، وأسباب الاختلاف، ودرجته.



٣- **علم النفس الفسيولوجي : Physiological Psychology**: وهو فرع من علم النفس يرتكز على دراسة الأساس الفسيولوجي الجمعي للسلوك الإنساني، وعلى علاقة الجسم بسلوك الفرد وبالتالي فهو يهتم بدراسة الجهاز العصبي ووظائفه وتأثيره على السلوك والشخصية، كما يهتم بدراسة الغدد الصماء، والعوامل الفسيولوجية وراء بعض الأمراض النفسية كما يتناول بالدراسة الجوانب الفسيولوجية في الانفعالات المصاحبة للدوافع ولمختلف النشاطات السلوكية. بعبارة أخرى أن علم النفس الفسيولوجي يهتم بإبراز حقيقة وجود العلاقة الديالكتيكية بين الجسم والنفس. وإذا كنا نقول إن العقل السليم في الجسم السليم فلا بد لنا أن نفهم كيف يعمل الجسد وما الذي يحدث إذا حدث اضطراب ما في وظيفة ما في الجسم.

٤- **علم النفس الارتقائي أو النمو Development Psychology**: ويهتم بدراسة مراحل النمو التي يمر بها الفرد عبر سني حياته. والخصائص الجسدية والنفسية والعقلية والاجتماعية / الخلقية لكل مرحلة. والمبادئ العامة التي تصف مسيرة هذا النمو والارتقاء. بل يذهب البعض إلى الحديث عن فروع داخل هذا التخصص مثل : علم نفس مرحلة الرضاعة، سيكولوجية الطفولة (المبكرة / المتوسطة / المتأخرة)، سيكولوجية المراهقة، سيكولوجية الرشد، سيكولوجية الشيخوخة.

٥- **علم النفس العسكري : Military Psychology**: ويهتم هذا الفرع كما يتضح من الاسم – في الأساس بكل تطبيقات علم النفس في مجال القوات المسلحة، وفي الدفاع العسكري وفي شحن الروح المعنوية للجنود لتحقيق أفضل أداء، إضافة إلى الاهتمام بدراسة كيفية رفع الروح المعنوي للشعب أثناء المعارك وتعبئته للقتال والتضحية، وعلى هذا فإن علم النفس العسكري يهتم بموضوعات مثل : الأس النفسية التي تعمل على رفع الكفاية التدريبية للضباط والجنود، والأسس النفسية التي ترفع من الروح القتالية بين الجنود والضباط، والدعاية السياسية، والشائعات، وبث الثقة وعدالة قضية الوطن، ورفع درجة الالتحام بين الشعب والجيش والقيادة العسكرية. وإذا كنا في مجتمعاتنا مطالبون كأفراد نتقدم لأداء واجب الوطن، فإن الجيش ملزم بالاستفادة من الأفراد عن طريق : التصنيف والتدريب ووضع الأفراد في أماكن تتفق وقدراتهم. وهذا يحقق أعلى أداء للأفراد والجيش.

٦- **علم النفس عبر الحضاري أو الثقافي Cross** – cultural Psychology: وهو فرع حديث النشأة، ويهتم بدراسة أوجه الاتفاق والاختلاف بين الخصائص النفسية الشائعة في مجتمعات أو ثقافات مختلفة، كما يهتم بدراسة المقارنة بين أكثر من مجتمع



وأكثر من ثقافة بالنسبة لظاهرة معينة. ويقع في دوائر اختصاصه أيضًا دراسة ظاهرة معينة في أكثر من بيئة، أو دراسة موضوع واحد يتعلق بأكثر من شعب أو مجتمع أو ثقافة. وعلى هذا فإن قضية الحروب النووية ونزع السلاح ومشكلات الأقليات في أي مجتمع من المجتمعات، وتوزيع الذكاء والقدرات بين الشعوب والجماعات والثقافات المختلفة تعد مجرد أسئلة من اهتمامات علم النفس عبر الثقافي.

٧- **علم النفس الاجتماعي Social Psychology**: ويركز على دراسة العوامل النفسية التي تكمن وراء تكوين الجماعات والتجمعات ونوعها وقوتها وتماسكها وارتفاع روحها المعنوية إضافة إلى اهتمام بدراسة كافة الظواهر الاجتماعية والنفسية التي تنشأ عن وجود المجتمع وتفاعلاتها وتكويناتها وعضويتها واحتكاك أعضائها وما ينتج عن ذلك من مخرجات ونتائج. بعبارة موجزة فهو يدرس الصور المختلفة للتفاعل الاجتماعي بين الأفراد بعضهم وبعض وبين الجماعات بعضها وبعض. وبين الأفراد والجماعات وهكذا.

٨- **علم النفس الإكلينيكي Clinical Psychology**: ويهتم بدراسة طرق التشخيص والتنبؤ والتوجيه والإرشاد والتأهيل والعلاج في مجال الأمراض النفسية وطرق الوقاية. بعبارة موجزة فإنه يهتم بمشكلات توافق الشخصية وتعديلها، وتطبيق الطريقة الإكلينيكية تشخيصًا وتنبؤًا وعلاجًا من خلال أعضاء الفريق العلاجي والذي يحتوي على تخصصات مختلفة إلا أنهم في نهاية الأمر يتكاملون لا يختلفون.

٩- **علم النفس التجريبي Experimental Psychology**: ويهتم بدراسة الظواهر النفسية بالطرق التجريبية، أي اتباع قواعد معينة في تصميم وإجراء التجارب وتفسيرها، ويعد فوندنت هو المؤسس الأول لأول مختبر لعلم النفس في جامعة ليبزج Lepisg ١٨٧٩ في ألمانيا. ويهتم علم النفس التجريبي بالمشكلات الأساسية للسلوك فهو يود أن يعرف كيف نتعلم، وكيف نحتفظ بما تعلمناه، وما هي الطرق المثلى لاستعادة ما تعلمناه، ولماذا نتذكر أو لماذا ننسى وهكذا.

١٠- **علم نفس الحيوان Animal Psychology**: ويهدف هذا النوع إلى فهم وزيادة المعرفة بسلوك الحيوان وظواهره النفسية، إضافة إلى زيادة فهمنا ومعرفتنا بسلوك الإنسان، على اعتبار أن الإنسان يشارك الحيوان كثيرًا. في خصائصه وديناميته الانفعالية والفسيولوجية والسلوكية، وإن كان يعلو في مستوى الرقي والتعقد والتطور.

١١- **علم النفس الجنائي Criminal Psychology**: ويهتم بدراسة كافة العوامل التي تكمن خلف جرائم الكبار وانحراف الأحداث، ومدى جدوى العقوبة وعدالتها في



الفعل الجنائي، وما هي القيمة الوظيفية للعقوبة بصفة عامة، هل هي للإصلاح أو للردع أم للقصاص. إضافة إلى الاهتمام بسيكولوجية المجرم. ومدى مسئوليته عن جريمته ووعيه بها، وطرق الوقاية وهكذا.

١٢- **علم النفس الصناعي والتنظيمي Industrial and Organize Psychology:** ويهدف إلى دراسة المشكلات ذات الطبيعة النفسية التي تنشأ في مجال العمل والإنتاج ومنظماته واقتراح الحلول لهذه المشكلات، والاهتمام بالعمل والظروف التي تساعد على زيادة إنتاجيته وكذا دراسة العوامل التي تكمن خلف كثرة الاستهداف للحوادث وهكذا.

١٣- **علم النفس الصيدلي Psycho Psychology:** ويهتم ببحث ودراسة أثر العقاقير على الحالة النفسية للفرد؟ وكيفية استخدامها لعلاج الأعراض النفسية كأعراض الاكتئاب أو الهوس أو الفصام أو القلق أو الإدمان ومع اكتشاف الجديد منها بما يحقق هذه الأهداف علمًا بأن التخصصات في هذا النوع تحتاج إلى تخصص مسبق في طب الصيدلة بحيث يأتي التخصص النفسي تاليًا لأيهما ومتكاملاً معه..

١٤- **علم النفس العائلي Family Psychology:** وهو فرع حديث تمامًا ويركز على دراسة العلاقات النفسية بين الزوج والزوجة، وبين الآباء والأبناء، وبين الإخوة بعضهم وبعض، كما يدرس الوظائف السيكولوجية للعائلة كمؤسسة اجتماعية مع وضع التوصيات التطبيقية التي ترتقي بمستوى أداء الأسرة لوظائفها النفسية والتربوية؛ ولذا فإن هذا الفرد يفيد ويستفيد من العديد من فروع علم النفس الأخرى.

١٥- **علم النفس القضائي :** Forensic Psychology : ويركز على تطبيقات مبادئ علم النفس ومناهج بحثه في دراسة المواقف القانونية في محاكمة مرتكبي الجرائم ومدى مسئولياتهم عن جرائمهم. ومدى عدالة القضاة، ونزاهة الشهود، ومدى الإحساس بالذنب سواء لدى مرتكبي الجرائم أم لدى الشهود والعوامل التي تقود إلى تحريف الشهادة على غير قصد منه. إضافة إلى البحث في أثر الرأي والصحافة والإذاعة وما يتردد بين الناس من إشاعات في توجيه الدعاوى القضائية.

١٦- **علم النفس المرضي Psycho Pathology:** ويهتم بدراسة أنواع الاضطرابات والأمراض العقلية والنفسية والانحرافات السلوكية من حيث التصنيف والأسباب، وعوامل التكوين والتطور ومختلف الظروف المؤثرة فيها ولذا فإنه يتداخل كثيرًا مع علم النفس الإكلينيكي ويتبادل معه التأثير والتأثر.

١٧- **علم نفس المسنين Gero Psychology:** وهو فرع حديث نسبيًا من علم النفس، ويركز على دراسة نفسية المسنين وكبار السن، مع بيان مدى تأثير الوظائف



النفسية والعقلية لكبار السن والشيخوخة، وما ينبغي علينا عمله وتقديمه من خدمات نفسية لهم.

١٨- **علم النفس الهندسي :** Engineering Psychology : ويهتم ويشارك بالإسهام في تصميم وتعديل الآلة حتى تتناسب والاستعدادات والإمكانات النفسية لمن يعمل عليها. فإذا كنا نختار الإنسان الذي يعمل على الآلة ونقوم بتدريبه حتى يكتسب الخصائص المطلوبة فمن الجانب المقابل يجب أن نعمل على تكييف الآلة لإمكانات البشر. علمًا بأن هذا الفرع كان جزءًا من علم النفس الصناعي إلا أنه استقل حديثًا وأصبح فرعًا قائمًا بذاته.

١٩- **علم النفس المدرسي School Psychology: أو التربوي:** حيث يهتم بإعداد وتدريب الأفراد المؤهلين لاستخدام وتوظيف مبادئ علم النفس وإجراءاته وأساليبه في معالجة المشكلات المدرسية من أجل تحسين مستوى الأداء المدرسي، ولذا يهتم بتشخيص كافة المشكلات المدرسية المتعلقة بالطلاب أو المدرسين أو الإدارة المدرسية والعمل على علاجها من أجل الارتقاء بالمستوى التعليمي والأخلاقي والاجتماعي للطلاب.

٢٠- **علم النفس اللغوي Psycholinguistic:** ويهتم بدراسة اللغة دراسة علمية ببحث عدة جوانب ومجالات في دراستهم لأي لغة مثلاً دراسة النظام الصوتي، ودراسة بنية الصوت، ثم دراسة الدلالات الخاصة باللغة أو دراستها كأصوات منطوقة ومسموعة وألفاظ وتراكيب ثم كدلالة ومعنى. ودراسة العوامل المؤثرة في اكتساب اللغة والتركيز أيضًا على سبل تعلم اللغة وكيفية اكتسابها. وتعد المدرسة السلوكية ممثلة في سكيز أهم الاتجاهات التي قامت بدراسة السلوك اللغوي وذلك باعتبار ظاهرة اللغة عادة سلوكية.

٢١- **علم النفس التجاري / الدعائي :** ويهتم بدراسة دوافع الشراء وحاجات المستهلكين وتقدير اتجاهاتهم النفسية نحو المنتجات الموجودة في السوق. كما يدرس سيكولوجية البيع. وطرق تأثير البائع في المشتري من حيث تركيزه على السلعة في نظره ومواجهة اعتراضاته، وتحطيم مقاومته، وانتهاز اللحظة السيكولوجية المناسبة لإتمام الصفقة. إضافة إلى الاهتمام بسيكولوجية الإعلان ونوعه وحجم ولون ومواصفاته ومرات تكراره وذلك على أساس مقولة: إن الإعلان الجيد هو الذي يسهل تذكره عند الحاجة.



٢٢- **علم النفس الإرشادي Counseling Psychology:** ويهتم بدراسة الأسوياء من الناس والعمل على حل مشكلاتهم بأنفسهم في مجالات متعددة التعليمية / المرضية/ الأسرية/ الجنسية وغيرها مما يدخل في نطاق الأمراض النفسية والعقلية، وذلك عن طريق تقديم النصح إليهم وتزويدهم بمعلومات جديدة أو تفسير نتائج اختبارات نفسية تجري عليهم مع تشجيعهم على الإفصاح عما يرهقهم. خاصة أن الأمر يستهدف العون الإرشادي للأسوياء.

٢٣- **علم القياس النفسي Psychometary:** ويهدف إلى ابتكار طرق تستخدم في القياس النفسي والتي كانت تبدو فيما مضى عصية على القياس مثل التقليد الابتكاري، فضلاً عن قياس بعض مظاهر السلوك الانفعالي الاجتماعي ويتداخل علم القياس النفسي مع العديد من المجالات الأخرى ويستفيد.

٢٤- **علم نفس الرياضة Sport Psychology:** ويعد من أحدث فروع علم النفس ويهتم بدراسة العوامل النفسية وتطبيق المعلومات والنظريات النفسية في مجال الأنشطة الرياضية المختلفة مع استخدم منهج البحث النفسي في دراسة أية مشكلة أو ظاهرة تستحق الدراسة في مجال الرياضة أو التربية البدنية، وكذا فهم ومعرفة العوامل السيكولوجية اللازمة للأداء الكفء للأنشطة الرياضية سواء كانت سباحة / مصارعة/ كرة قدم.. إلخ. أي أنه يهتم بدراسة تأثير وأهمية وفاعلية الظواهر النفسية كالإيحاء والانتباه والإدراك، وأثر الهالة والمثابرة، والتدريب، والمهارات الجسمية الحركية والعضلية والروح المعنوية، والمنافسة والتعب وحالة اللاعب النفسية .. إلخ.

٢٥- **علم النفس السياسي Political Psychology:** ويهتم هذا العلم بدراسة النظم السياسية. وكيفية تأثيرها، وتكوين الرأي العام، والاتجاهات المختلفة وكيفية تهيئة الجماهير نحو مواقف تتفق واتجاهات السياسة السائدة وهكذا.

٢٦- **علم نفس الإبداع:** ويهتم هذا الفرع بالعملية الإبداعية وكيف تتم من خلال تحليل العمل (ومسودته وتأثيره على المتلقي، والعوامل المختلفة التي تساهم في تكوين الأديب) ولماذا تتنوع طرق الإبداع، وما هي الدوافع التي تكمن خلف الدفقة الإبداعية وهكذا.

٢٧- **علم النفس البيئي Environmental Psychology:** وهو فرع يهتم بالتفاعلات والعلاقات بين البشر والبيئات المحيطة بهم، وأن كل بيئة فيزيقية هي في حقيقة الأمر بيئة اجتماعية ومن المستحيل فصل هذين الجانبين عن جوانب البيئة، أي أنه ينصب على دراسة الكيفية التي تؤثر بها البيئة الفيزيقية على سلوك البشر



ومشاعرهم وأحاسيسهم، وقد غدا الاهتمام بهذا الفرع من علم النفس هامًا نظرًا للمشاكل التي أثيرت في الآونة الأخيرة من التعامل السلبي للإنسان مع البيئة وانعكاس ذلك على نفسيته مما اقتضى سن العديد من القوانين التي تحمي البيئة والإنسان.

وهكذا يتضح مدى التنوع والثراء في فروع علم النفس، إضافة إلى إمكانيـــة تواجــد فروع جديدة يقتضي تواجدها احتياجات ضرورية قد حتمتها الأوضاع الإنسانية.



الفصل السادس

أهداف ومناهج البحث في علم النفس



الفصل السادس

أهداف ومناهج البحث في علم النفس

مقدمة :

علم النفس شأنه شأن باقي العلوم يتفق معها في الأهداف الأساسية للعلم بغض النظر عن نوع الظاهرة التي يقوم بدارستها، وإذا كنا قد قدمنا سابقًا العديد من الاعتراضات التي يسوقها علماء النفس – أو علماء الإنسانية بصفة عامة – على أن عملهم أصعب العلوم للعديد من الصعوبات المتعلقة بتناول الموضوع أو المنهج إلا أن ذلك لا يسوغ خروج علماء النفس عن أهداف العلم.

أهداف علم النفس : يهدف علماء النفس إلى تحقيق المحاور الثلاثة الآتية :

١- **الفهم والتفسير** : منذ أن وجد الإنسان على سطح الأرض وهو يجاهد لكي يعرف كافة الظواهر التي تحيط به. وهناك قاعدة أساسية في المعرفة تعني: كلما زادت معرفتك كلما انقشعت ظلمة الجهل وأحسست بقدرتك على السيطرة على المجهول. والمتتبع لتاريخ الفكر الإنساني يجد أن الإنسان قد سيطرت عليه الخرافة والشعوذة والدجل والأوهام واللجوء إلى الأساطير لتفسير العديد من الظواهر التي استغلقت على فهمه آنذاك. وما قصة تناول الإنسان لأسباب أمراضه النفسية وكيف تطورت التفسيرات حتى وصلت الآن – على الأقل علميًا – إلى دراسة الأمراض دراسة علمية ما هو إلا نموذج للجهاد الذي جاهده الإنسان من أجل حسم معركة المعرفة، ومعرفة الأشياء، وكيفية حدوثها. وهذا إنجاز كبير، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار أن تاريخ العلم ما هو إلا تاريخ الصراع بين القديم – المألوف والجديد المرهوب.

٢- **الضبط والتحكم** : هناك قول مأثور خلاصته: أنك إذا عرفت استطعت أو إذا ملكت قدرت. بمعنى أن الإنسان من خلال الخطوة السابقة قد درس وفهم واستوعب كيفية حدوث الظاهرة وهذا الفهم يقوده إلى حقيقة أخرى مرتبة على الحقيقة الأولى وخلاصتها: أن الإنسان يستطيع أن يؤثر في مسار الظاهرة نفسها ويتحكم فيها حيث يمكنه أن يعد أسباب حدوثها فتحدث أو يتدخل في أحد العوامل بالزيادة أو النقصان ليرى تأثير ذلك على مسار الظاهرة وما كانت لهذه الخطوة أن تتم لولا المعرفة التي استوعبها الإنسان في الخطوة الأولى ويرى البعض أن الخطوة الأولى: أي المعرفة والفهم خطوة نظرية فإن خطوة التحكم خطوة علمية – نقدية تطبيقية.



٣- **التنبؤ** : لعل من أهداف إمكانية التنبؤ بحدوث الظاهرة قبل أن تقع ولعل هذه النتيجة تتم بدرجة علمية صحيحة لو ثبتت على خطوة الفهم السليم والتحكم في كافة العوامل كل ذلك يضيء أمام الإنسان فرصة التنبؤ الصحيح. وإذا كنا في حياتنا العادية لا نتخذ القرار إلا بعد جمع المعلومات وإن صحة القرار تكون بقدر دقة وموضوعية وواقعية المعلومات. فإن الأمر كذلك في التنبؤ بحدوث كافة الظواهر؛ ولذا لا غنى عن التوصل إلى حقيقة مؤداها وجود علاقة بين كافة الخطوط السابقة بمعنى إذا كانت قاعدة الفهم سليمة فإن الخطوتين التاليتين عليها سيكونان سليمتين. والعكس بالعكس.

منهج البحث العلمي في علم النفس : تثير هذه القضية العديد من القضايا نجملها فيما يلي:

١- إن مناهج العلم لا بد من اتفاقها والتعرف عليها؛ لأنها بمثابة الأدوات والوسائل التي يلجأ إليها الباحث في تخصص ما لبحث الظواهر التي تقع في نطاق تخصصه.

٢- إن المنهج العلمي – كتعريف – هو جملة العمليات العقلية، والخطوات العملية التي يقوم بها العالم من بداية بحثه حتى نهايته، من أجل الكشف عن الحقيقة أو البرهنة عليها. فإن لكل علم منهجه الخاص.

٣- بما أن الموضوعات تتباين، إذ تتباين وتتشعب المناهج.

٤- من الخطأ استعارة منهج ثبت جدارة في علم ما وإقحامه إلى علم آخر لمجرد التظاهر والتمسك بالعملية العلمية. ولدينا مثال واضح على علم النفس حين أراد فوندت أن يخطو بعلم النفس خطوات علمية فاستعار المنهج التجريبي من العلوم الطبيعية وصمم أول معمل لعلم النفس. صحيح أن هذا المعمل قد قدم العديد من الأرقام حول ظواهر جزئية معينة ولكنه لم يقدم لنا جوهر الإنسان بما هو إنسان.

٥- أن كل اكتشاف جديد يقتضي ابتكار منهج جديد ملائم لموضوع البحث – في هذا يقول مصطفى زيور : "فما كان يمكن الكشف عن عالم الجراثيم وخصائصه دون ابتكار الميكروسكوب ثم ابتكارات باستور المشهورة في البكتريولوجيا. وما كان يمكن لعلوم الفطريات والأنثروبولوجيا وغيرها من علوم الإنسان أن تخطو خطواتها الحاسمة وإرساء قواعدها في نظم عملية ميكنة دون اكتشاف التحليل النفسي أولاً ثم اكتشاف المنهج البنائي . (فرج طه، ١٩٨٢، ٣٧).

٦- طالما أننا ندرس كبشر ظواهر إنسانية فلا بد أن يكون لدينا العديد من المحاذير خوفًا من الوقوع في الذاتية، حيث يكون الباحث له موقف – معلن أو مستتر من وراء دراسته لظاهرة ما. ويعلق على ذلك مصطفى زيور قائلاً : إن الموضوعية المطلقة لا



وجود لها في نطاق المعرفة العلمية، وإنما الأمر موضوعية Objectivities لا موضوعية Objectivity يسعى الباحث العلمي إلى تحقيق أكبر قدر من المتاح منها تدريجيًا بصقل أساليب بحثه النوعية، بحيث تزداد الموضوعية بقدر نقصان العوامل الذاتية. (المرجع السابق، ط ٣٨).

٧- يمكن تناول الظاهرة الإنسانية بأكثر من منهج، وكلما تيسر ذلك كان أفضل، حيث تتيح المناهج المتعددة إمكانية المقارنة وإثراء النتائج.

٨- بالرغم من تعدد المناهج في دراسة الإنسان في علم النفس فإننا نلمح تيارين أحياناً يتصارعان أو أحياناً يتهادنان أولهما تيار القياس الكمي / وتيار الفهم الكيفي. وغني عن البيان أن أنصار كل تيار يسوق من الأدلة على أن منهجه هو المنهج الوحيد / العلمي / الذي يتيح الفهم الموضوعي للإنسان، موجهًا في نفس الآن أقذع الانتقادات إلى المنهج الثاني. ولن يتقدم علم النفس بهذه الصورة المتصارعة بل الصورة المتكاملة.

٩- إن هناك العديد من التعديلات والتحويرات التي أجريت على العديد من المناهج مثلاً: منهج المقابلة مثلاً حيث تعددت أنواعها واستخداماتها مثل: مقابلة جميع المعلومات بهدف الإرشاد أو العلاج. وهذا التطوير في حد ذاته يدفع العلم في مواكبة كل ما هو جديد ويتناسب مع ما يستجد من متغيرات إنسانية.

١٠- من الأمور الجديرة بالتميز ما يعرف في الدراسات النفسية بالمنهج الطولي والمنهج العرضي. حيث يقصد بالمنهج الثاني (العرض أو المستعرض) ودراسة مجموعة من الأعمار المختلفة لتدريس اتجاهاتهم في موقف ما ثم إجراء المقارنات لمعرفة أثر العمر على اتجاه معين. في حين أن المنهج الطولي يقوم الباحث بتتبع نفس المجموعة عبر مراحل أعمارهم المختلفة.

١١- كل منهج من المناهج المستخدمة في دراسة علم النفس له مميزاته وله عيوبه. ووجود عيب في المنهج لا يعني عدم استخدامه، بل يعني التنبيه بهذه الصعوبات والعمل على تلاشيها.

١٢- بما أن النظرة الإنسانية معقدة فمن الأفضل تناولها بأكثر من منهج حتى يصحح كل منهما عيوب المنهج الآخر وصولاً إلى الفهم السليم للظاهرة المراد دراستها.

١٣- إن التصنيفات المقترحة لتصنيف منهج البحث متعددة وعلى الباحث أن يختار التصنيف الذي يتفق ووجهة نظره.



تصنيف مناهج البحث في علم النفس :

إذا أردنا أن نعد قائمة بمناهج البحث المتعددة في علم النفس لوجدنا أن هناك نماذج كثيرة للمناهج العامة ونماذج كثيرة لوسائل أكثر نوعية ولكل ميادين الدراسات النفسية ووسائله النوعية الخاصة به في البحث، أما المناهج العامة فليست خاصة بكل ميدان على حدة. ولكنها تستخدم كأمر مشترك يملكه علماء النفس جميعًا. ويمكننا الخروج من هذا بتقديم نظام تصنيفي يعتمد على أربع أسس يمكن الاعتماد عليها وهي:

أولاً : تصنيف مناهج البحث حسب الزمن، ويشمل ذلك المنهج التاريخي (دراسة الماضي)، والمنهج الأمبيريقي (دراسة الحاضر).

ثانيًا : تصنيف مناهج البحث حسب حجم المبحوثين ويشتمل ذلك المنهج دراسة الحالة ومنهج العينة .

ثالثًا : تصنيف مناهج البحث حسب التغيرات المستخدمة فيه، ويشتمل ذلك المنهج التجريبي، والمنهج شبه التجريبي.

رابعًا : تصنيف مناهج البحث حسب الهدف منه ويشتمل ذلك المنهج الوصفي والمنهج الارتباطي.

وسوف نلقي الضوء على كل تصنيف من هذه التصنيفات على حدة في عجالة متضمناً بعض الطرق البحثية.

أولاً : تصنيف مناهج البحث في ضوء بعد الزمن :

١- المنهج التاريخي (دراسة الماضي)

إذا كانت البيانات التي يتناولها البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية يمكن تصنيفها في ضوء بعد الزمن فإن الماضي هو اهتمام للبحث التاريخي سواء أكان هذا التاريخ للسياسة أو للمجتمع أو للعلم أو للغة، وعلى من يتصدى لدراسة التاريخ أن يتسلح بمنهج المؤرخ. فالباحث الذي يتصدى لدراسة اجتماعية أو نفسية في إطارها التاريخي عليه أن يلتزم بهذا المنهج، وألا يعتبر ما كتبه بمثابة مقال يصلح للنشر للقارئ العام في الصحف السيارة ولا ينتمي إلى نطاق البحث العلمي الذي يخاطب نخبة من المتخصصين. والباحث التاريخي شأنه شأن أي باحث آخر لا بد أن يبدأ بتحديد مشكلة الدراسة، كما قد تصاغ له تساؤلات أو فروض تحتاج توفير بيانات للإجابة عليها (الأسئلة) أو اختبارها (الفروض). وفي البحث التاريخي لا يجاب على الأسئلة أو تختبر الفروض باستخدام الطرق الإحصائية على الرغم من أن المعلومات الإحصائية المتوفرة في الوثائق والسجلات قد تستخدم في هذا الغرض، فالتحليل في



المنهج التاريخي كيفي في جوهره. ويحتاج الباحث التاريخي إلى تحديد مصادر البيانات والتي تنقسم إلى قسمين:

أ) مصادر أولية: وهي الوثائق الحكومية والرسمية المختلفة والآثار الباقية من فرد أو جماعة أو ثقافة وتقارير شاهدي العين.

ب) المصادر الثانوية : فهي في العادة نقل عن مصدر أولي بالمواصفات السابقة أو إعادة قراءة لها.

وعلى الباحث أثناء استخدامه للمنهج التاريخي أن يعتمد على المصادر الأولية عن المصادر الثانوية قدر الإمكان، ذلك لأن ظاهرة (العنعنة) والتي تعني النقل من فلان لفلان تقلل من مصداقية ودقة المعلومات.

٢- المنهج الإمبريقي : (دراسة الحاضر)

رأينا فيما سبق أن المنهج التاريخي يهتم بدراسة الماضي في حين يهتم المنهج الإمبريقي بملاحظة الظاهرة وجمع المعلومات عن الحالة التي عليها وقت دراستها فقط دون الرجوع إلى ماضيها أو ما يحدث لها في المستقبل. وبذلك نجد أن الملاحظة هي جوهر العلم الإمبريقي، وتتمثل أهمية الملاحظة في العلم أنها تنتج أهم عناصر العلم وهي مادته الخام: المعطيات والمعلومات والبيانات.

والملاحظة بهذا المعنى عبارة عن نشاط يقوم به الباحث خلال المراحل المتعددة التي يمر بها بحثه، فهو يجمع الحقائق المتعلقة التي تساعده في تحديد المشكلة، وذلك عن طريق ما يراه بعينه أو ما يسمعه بإذنه وبكافة حواسه الأخرى، وتوجد نوعان من الملاحظة غير المقصودة، الأولى يطلق عليها الملاحظة العلمية، والثانية بالملاحظة الطائرة. وفي الملاحظات العلمية يحدد الهدف، ويستخدم الأدوات والأجهزة التي تساعد على سرعة ودقة الملاحظة (مثل الشاشة ذات الواجهة الواحدة) كما يقوم الباحث بتدوين ملاحظاته، وهناك نوع آخر من الملاحظة تسمى الملاحظة بالمشاركة، حيث يعايش الباحث الجماعة التي يريد ملاحظتها ويقوم بتدوين ما يلاحظه. ويمكن أن نشير إلى المنهج الإمبريقي بالمنهج المسحي الذي هو في حقيقة دراسته للوضع الراهن. وبذلك يعني دراسة الحالة الظاهرة العلمية، وهو بهذا المعنى يجيب عن أحد ثلاثة أسئلة هامة أو عنها جميعها باستخدام الأدوات المناسبة لجمع البيانات:

١) ما هي طبيعة الظاهرة موضوع الدراسة؟

٢) ما هي العلاقة بين المتغيرات التي تتألف منها الظاهرة موضوع البحث.

٣) ما هي العلاقة بين المتغيرات التي تتألف منها الظاهرة ومتغيرات أخرى خارجة عنها ؟



ثانيًا : تصنيف مناهج البحث تبعًا لحجم المبحوثين :

الأساس الثاني لتصنيف مناهج البحث العلمي هو حجم المبحوثين، ويعتمد ذلك في دراسة الحالة الواحدة، ثم دراسة عينة أو جزء من كل، وينتهي بدراسة الأصل الإحصائي الكلي العام.

١) دراسة الحالة:

وتشمل دراسة الحالة نوعين من البحث المتعمق عن العوامل المعقدة التي تسهم في فردية وحدة اجتماعية ما – شخصًا كان أو أسرة أو جماعة أو مؤسسة اجتماعية أو مجتمعًا محليًا. فعن طريق استخدام عدد من أدوات البحث وجمع البيانات الملائمة عن الوضع القائم للوحدة، وخبراتها الماضية، وعلاقتها مع البيئة، بعد التعمق في العوامل والقوى التي تحكم سلوكها، وتحليل نتائج تلك العوامل وعلاقتها، يستطيع المرء أن ينشئ صورة شاملة متكاملة للوحدة كما تعامل في المجتمع. وعلى الرغم من عدم شيوع طريقة دراسة الحالة، إلا إنها ذات قيمة للأخصائي النفسي الإكلينيكي، والأخصائي النفسي الاجتماعي، والطبيب النفسي وخبراء التوجيه، ولقد أكد المحللون النفسيون وغيرهم على أنه لا يمكن فهم سلوك الفرد فهمًا كاملاً دون المعرفة التامة بالتاريخ الماضي للفرد. وتتضمن هذه المعرفة معلومات عن الأسرة والمكانة الاجتماعية والاقتصادية والتعلم والدين والحالة الجسمية والمزاجية، وتؤخذ مادة دراسة الحالة من مصادر الاستبيانات، وسجلات المؤسسات الاجتماعية، والمحاكم، والسجون بالنسبة لحالات جناح الأحداث، والمستشفيات العقلية بالنسبة لحالات المرض النفسي والعقلي، والمدارس بالنسبة لحالات التأخر الدراسي. ويوجد نقد لطريقة دراسة الحالة وذلك لعدم التأكد من صدقها، وخاصة لتدخل عامل النسيان لأحداث الماضي، فمهما كانت قوة الذاكرة لدى الفرد الذي سيتم دراسته، فإن تذكره لما مر به من خبرات سوف يتسم بالنقص وستوجد فجوات فيما يعرفه عن ماضيه. ولهذا سيلجأ الفرد إلى ملء هذه الفجوات من خياله الخاص.

٢- منهج دراسة العينة :

العينة هي جزء أو بعض من جميع، وتتلخص فكرة منهج دراسة العينات في أنه إذا كان هدفنا الوصول إلى تعميمات حول ظاهرة معينة فإننا بالطبع لا بد من دراسة مجموعة الحالات بدلاً من الاقتصار على حالة واحدة كما هو الحال في المنهج السابق، فإذا كان عدد الحالات التي شغلها الكل كبير أصبح من المستحيل دراستها كلها، وهنا نأخذ بعض الحالات الممثلة للكل في جميع خصائصه.

مثال دراسة ظاهرة نفسية لدى المجتمع المصري فيتم أخذ عينة ممثلة لهذا المجتمع المصري من حيث الجنس (ذكر – أنثى) وفئات السن، ومراحل التعليم.. إلخ



أنواع العينات

أ) العينة العشوائية :

وفي هذه الطريقة، نوفر ظروفًا مضبوطة بدقة، لكي نضمن حصول كل فرد من أفراد المجتمع الأصلي على فرصة متساوية أو معروفة لأن تدخل في العينة، وتستخدم في اشتقاق العينة طرق آلية، لمنع الباحث من التحيز في النتائج، نتيجة لممارسة التحكم المباشر في اختيار المفردات. فقد توضع أسماء المفردات جميعها في إناء كبير، ثم تقلب تقليبًا جيدًا قبل سحب العدد المطلوب منها وإذ كان الأمر يختص بمجموعة صغيرة، قد تستخدم عملية قصف قطعة من العملة المعدنية لاختيار العينة. وليس من الضروري أن تمثل العينة العشوائية خصائص المجتمع الأصلي كله، ولكنها تترك اختيار المفحوصين للمصادفة. إذ قد يختار الباحث بالمصادفة عينة لا تمثل المجتمع الأصلي كله تمثيلاً دقيقًا.

ب) العينة الطبقية :

ويفضل استخدام الطريقة الطبقية العشوائية في الحصول على عينة أكثر تمثيًلا. وفي هذه العينة يقسم الباحث مجتمعه الأصلي إلى طبقات بناء على خاصية معينة، ثم يشتق بطريقة عشوائية من هذه المجموعات الأصغر المتجانسة عددًا سبق تحديده من المفردات. مثال ذلك عندما نريد معرفة تصويت الناس في قضية تتعلق بالتربية، فهنا يقسم الباحث المجتمع الأصلي إلى مجموعات متجانسة على أساس من العوامل التي تحدد سلوكهم الانتخابي – مثل العمر أو المستوى التعليمي.

ج) العينة المتحيزة :

هي تلك العينة التي يقصد الباحث اختيارها ويتدخل في ذلك، وهي عكس العينة العشوائية تمامًا. وإذا كان الخطأ الذي يقع في اختيار العينات العشوائية يخضع للمصادفة فإن الخطأ الذي يقع في اختيار العينة المتحيزة من النوع المنتظم. مثال ذلك عند اختيار عينة من دليل التليفونات أثناء إجراء بحث عن الاتجاهات السياسية أو الاجتماعية.

د) العينة القصدية :

وهي العينة التي تختار اعتباطًا بسبب وجود دليل على أنها تمثل المجتمع الأصلي، كأن يختار الباحث أحد المحافظات التي تعد ممثلة لجميع المحافظات وذلك في ضوء بحوث سابقة أو خبرات سابقة.



هـ) العينة العرضية :

وتعني تلك العينة التي يختارها الباحث لأنها أكثر يسرًا في الاستخدام ومتاحة له بالفعل، مثل البحوث والدراسات التي تجري على طلاب الجامعات أو غيرهم من تلاميذ المدارس.

ثالثًا : تصنيف مناهج البحث حسب درجة التحكم في المتغيرات المستقلة:

١) المنهج التجريبي :

يعتمد هذا المنهج على الضبط التجريبي والتحكم في مقدار ونوع كل من :

أ) المتغير المستقل : هو ذلك المتغير الذي إذا حدث فيه تغير أحدث تغيرا متوازنا في متغير آخر هو المتغير التابع.

ب) المتغير التابع : وهو ذلك المتغير الذي يحدث فيه التغيير نتيجة لتغير حدث في متغير آخر يسمى المتغير المستقل. ويعتمد الباحث المستخدم للمنهج التجريبي في دراسة الظواهر النفسية على مجموعتين الأولى هي المجموعة التجريبية وهي التي تتعرض للتغيير المستقل، والثانية هي المجموعة الضابطة.

مثال ذلك، حينما نريد معرفة أثر التعرض لمشاهدة التليفزيون على النمو المعرفي لدى الفرد، فيقوم الباحث باختيار مجموعتين متكافئتين في جميع الخصائص (مستوى التعليم، السن، الجنس، والحالة الاجتماعية.. الخ). ويعرض أحدهما (المجموعة التجريبية) إلى مشاهدة التليفزيون (المتغير المستقل)، ولأخرى مجموعة ضابطة لا يسمح لها بهذه المشاهدة، فنجد أن المجموعة التي تعرضت للمتغير المستقل سوف يزيد نموها المعرفي (المتغير التابع) على عكس المجموعة الأخرى التي لم تتعرض للمتغير المستقل.

٢) المنهج شبه التجريبي:

تتمثل الدراسة شبه التجريبية في دراسات تتم فيها المقارنة بين المجموعة التجريبية والمجموعة الضابطة، ويتم المقارنة بين كل من المجموعتين ويرجح أن الفارق إلى المتغير المستقل، إلا أنه قد يصعب ويستحيل أخلاقيًا تعرض المجموعة التجريبية لمتغير مستقل مثل (الإصابات أو تعاطي مادة مخدرة). وهنا يستعين الباحث بالطرق شبه التجريبية، التي تختار أشخاصًا تتوافر فيهم المتغيرات المستقلة (دون أن يكون الباحث مسئولاً عن هذا). ونظرًا لما قد يختلط بهذا المتغير المستقل من متغيرات (معرفية ودافعية واجتماعية) فإن هذه الدراسات شبه التجريبية، التي تتم بجميع مشاهدات على الطبيعة، لا ترقى إلى مستوى الدراسة التجريبية التحكمية.



رابعًا : تصنيف مناهج البحث حسب الهدف منه :

١) المنهج الوصفي :

على الرغم من أن هدف الوصف هو أبسط أهداف العلم إلا أنه أكثرها أساسية، فبدون الوصف يعجز العلم عن التقدم إلى أهدافه الأعلى. والمهمة الجوهرية للوصف هي أن يحقق للباحث "فهمًا" أفضل للظاهرة الدراسية. والمنهج الوصفي يحاول الإجابة على السؤال الأساسي في العلم وهو ماذا ؟ أي ما هي طبيعة الظاهرة موضع الدراسة؟ ويشمل ذلك تحليل بنيتها ومعرفة العلاقات بين مكوناتها. وما يجب الإشارة إليه هنا. إن البحوث الوصفية تقريرية في جوهرها ومهمة الباحث فيها أن يصف الوضع الذي كانت عليه هذه الظاهرة دون تدخل لأحكام القيمة، وإلا أصبح البحث من نوع بحوث التقويم. ونقدم مثالاً على ذلك: أننا جميعًا نلاحظ تعلق الرضيع بأمه، وأن الأم تبادل طفلها هذا الشعور، والسؤال هنا: متى يبدأ التعلق بالأم في الظهور ؟ وما هي مراحل تطوره، وهل الطفل المتعلق بأمه تعلقًا آمنًا يكون أكثر قدرة على الاتصال بالغرب، أم العكس ؟ هذه وغيرها أسئلة من النوع الوصفي .

٢) المنهج الارتباطي :

يعتمد هذا المنهج على دراسة معاملات الارتباط الذي يمثل أسلوبًا كميًا يعبر عن درجة التلازم في التغير طردًا (إيجابًا) أو عكسيًا (سلبيًا) وتتراوح القيمة الرقمية لمعامل الارتباط +١، -١.

ويدل معامل الارتباط على درجة الارتباط بين متغيرين أو تصاحب التغيرات في أحدهما مع الآخر. ومن أمثلة الدراسات الارتباطية، دراسة العلاقة بين الذكاء والتحصيل، أو دراسة العلاقة بين سمات الشخصية المرضية وتعاطي العقاقير المخدرة. والخلاصة أن كافة أنواع علم النفس ومناهجه المختلفة إنما تتعدد وتتشعب بهدف محاولة الفهم العميق للإنسان: ذلك اللغز المحير والذي تعددت الاجتهادات المختلفة في تناوله. وهذا هو موضوع الفصل التالي.

* * * * * * * *



الفصل السابع

الإنسان كما تناوله علم النفس



الفصل السابع

الإنسان كما تناوله علم النفس

مقدمة :

علم النفس – مثل بقية العلوم – يتصدى لدراسة النفس الإنسانية، تلك النفس التي هي أقرب الأشياء إلى الإنسان والتي هي جوهر وجوده منذ أن دب على سطح الأرض يعايشها وتعايشه ينصاع لها ويطوعها لأهدافه. ورغم أن النفس هي أقرب الأشياء إلى نفس الإنسان إلا أنها أبعد منالاً وأعصى على الفهم، ويمارس معها الإنسان لعبة (القط والفأر) أو التجاهل حتى يعيش مطمئنًا ولو في ظل أفكار خاطئة ينسجها الإنسان ويقدسها.

ولا ندعي أن علم النفس وهو العلم الوحيد الذي يتصدى لدراسة الإنسان، بل تدرسه كافة العلوم الإنسانية والتي سميت إنسانية الأنسنة أي الإنسان. وقد تضاربت الاتجاهات والفلسفات في فهم الإنسان، صحيح أن عالمنا عالم واحد لكنه عالم ممزق "هو عالم واحد لأن تطور التكنولوجيا والإنتاج خلق سوقًا عالميًا وخلق اقتصاديات مترابطة أصبح مصير كل إنسان فيها معلقًا بمصير كل الناس الآخرين وأصبحت الحياة اليومية لكل إنسان تتأثر اقتصاديًا وسياسيًا وأخلاقيًا بأكثر الأحداث بُعدًا عنه.. لكن هذا التلاحم الدولي لا يعني تآخيًا دوليًا. إذ إنه قائم على التناقضات والصراعات.. وليس ثمة صراع الآن له طابع محلي. ولا توجد مسئولية ذات صبغة محددة، حقًا لقد أصبحنا جميعًا مشاركين في الخصومات الدولية الكبرى.. هكذا أراد لنا التاريخ ولا حيلة لنا في دفعه، وهي مسئولية كل فرد منا ولا يستطيع أحد أن يتخلى عنها" (روجيه جارودي، ١٩٨٣، ١٣).

لذا فقد تم تناول الإنسان من وجهات نظر متعددة. وسوف نقصر تناولنا على عدد من أشهر التيارات التي تناولت الإنسان.

أولاً : الإنسان من وجهة نظر التحليل النفسي:

يرى فرويد أن الإنسان يولد ولديه مجموعة من الغرائز الجنسية العدوانية حيال الآخرين، وأن نمو الإنسان يأخذ خمس مراحل: المرحلة الغلمية، والمراحل الشرجية والمراحل القضيبية ثم مرحلة الكمون، وأخيرًا المرحلة التناسلية، وأن المراحل الأربعة الأولى حاسمة في نمو الشخصية وأن مفهوم نظرية فرويد في النمو تركز على دعامتين أساسيتين.

١) أن شخصية الفرد كراشد تحددها الخبرات المختلفة التي تتعلق بكيفية إشباع حاجاته ودوافعه الفطرية في الطفولة المبكرة.



٢) يوجد لدى الفرد منذ لحظة الميلاد فصاعدًا مقدارًا معينًا من الطاقة الليبيدية (حيوية – جنسية)، يتقدم نموها في أربعة مراحل متتالية (نفسية / جنسية) تستند جـذورها إلـى العمليات الغريزية الفطرية بالكائن.

ويعد مفهوم اللاشعور من العمليات الأساسية في نظريته عن طبيعة الإنـسان ويعـد اللاشعور بمثابة مخزن الغرائز والحفزات البدائية والـصراعات المؤلمـة ومـشاعر الـذنب المختلفة. كما أن سلوك الإنسان نتيجة لتفاعل بين ثلاث أجهزة رئيسية في الشخـصية وهـي الهو والأنا الأعلى. وتعمل الهو على أساس مبدأ اللذة؛ لأنها تريد الإشباع الفوري بغض النظر عن الواقع، بل وتستطيع تكوين صورة خيالية لهذا الإشباع المتوهم، ثم ينفصل أو يتمايز منها الأنا والذي يعمل وفقًا لمبدأ الواقع من حيث مراعاة قوانينه ثم الجهاز الثالـث مـن أجهـزة الشخصية وهو الأنا والأنا الأعلى، والذي يعمل وفقًا للقـيم والمبـادئ (والـذي يـصح أو لا يصح).

كما اهتم فرويد بالهفوات وزلات القلم وكذا الأحلام، وأن كل ما يصدر عن إنسان من سلوك لا بد أن يفسر في ضوء رغبات وأحلام الإنسان. ونستطيع أن نجمل نظرة الإنسان عن فرويد أو التيار التحليلي النفسي في :

١) إن كل ما يصدر عن الإنسان له معنى أي لا عشوائية في السلوك.
٢) إن كل ما يصدر عن الإنسان محتوم المعنى، أي لا يقع أي سلوك أو يحـدث دون أن يكون لوقوعه سبب – أو جملة أسباب – حتمت ذلك.
٣) النشاط النفسي للإنسان نسبي قواعد الصراع بين المتناقضات، وأن فكـرة الـصراع النفسي من الأفكار الأساسية في التحليل النفسي؛ لأنه قد نظر للإنسان وكأنه في حالة تناقض بين رغبات متعارضة.
٤) النشاط النفسي حل وسط وتوفيق بين القوى الدينامية والمتصارعة، وطالما أن النشاط النفسي في حالة صراع دائم لا يتوقف بين قوى متعارضـة فـإن الـسلوك (النـاتج والمحصلة) لا بد أن يكون توفيقًا بين هذه القوى، أو يأتي معبرًا عن مطالب قوى ضد قوى أخرى.
٥) **النظرة التاريخية الارتقائية للنشاط النفسي:** فطالما أن مفاهيم الصراع والحل الوسط لا تحدث من فراغ بل لا بد أن يكون لها أصولها التاريخية فالرغبة الإنسانية فطريـة البذور، بيولوجية الطاقات لكن الشكل المعين لها، والموضوع المحـدد لهـا والـذي تلتمسه يتخلق تاريخيًا، من خلال العلاقة المتبادلة بين الطفل والمحيطين به. كمـا أن المعنى الذي يضفي على شكل دون غيره من أشكال تحقيق الرغبـة أمـرًا تاريخيًـا



لارتقائه. وتفيد تلك النظرة في فهم حقيقة: كيف أن الإنسان يكون في حاضره أسير ماضيه، ويحاول الفكاك منه ومغالبته عن طريق العمليات الدفاعية التي ما هي في حقيقتها إلا حلولاً وسطًا بين القوى المتصارعة التاريخية المنشأ والجذور.

ولذا فإن فكرة ميكانزمات الدفاع تحتل مساحة واهتمامًا لا بأس به في نظرية فرويد ويرى أن هذه الميكانزمات ما هي إلا استراتيجيات يستخدمها الفرد لكي يتقي بها دروب القلق والتوتر. وتشترك في محورين.

المحور الأول : إن ميكانزمات الدفاع تعمل على المستوى اللاشعوري.

المحور الثاني : أنها تعرف إدراك الفرد للواقع كوسيلة لخفض ما يهدد من قلق. والاستراتيجيات الدفاعية تبدأ أداء وظائفها مبكرًا لذا فهي تعمل عند مستوى اللاشعور. وقد اعتقد أن الفرد نادرًا ما يلجأ لاستخدام حيلة دفاعية واحدة لحماية نفسه إذ يستخدم الناس أكثر من سلوك دفاعي واحد.

ومن أمثلة هذه الميكانزمات الدفاعية: الكبت / الإسقاط / التبرير / التسامي / التكوين العكسي / النقوص / النقل أو الإزاحة.

٦) **الأنا الآخر :** العلاقات المتبادلة: حيث ينظر التحليل النفسي للإنسان من حيث هو حلقة في سلسلة من العلاقات، ولذا فلا يمكننا دراسة الإنسان دراسة حقيقية واقعية إلا من خلال زاوية العلاقة بالآخر أو الموضوع.

٧) يرى فرويد أن السلوك الإنساني يحكمه مبدأ التوتر، أو "جلب اللذة" فالمكبوتات في الهو تسعى دائمًا للتعبير عن نفسها وينشط الإنسان من أجل ذلك ولذا فإن الإنسان من وجهة نظر فرويد مجبر بخفض التوتر مدفوع تحت وطأة الهوى، وأنه لا يسعى أبدًا تجاه أية ظروف من شأنها الإخلال بالتوازن الهوميوستازي.

وقد أفضت في عرض وجهة النظر هذه لمساحة الاهتمام التي تشغلها هذه النظرية في الإنسان إضافة إلى هذا الكم من الانتقادات التي وجهت لها إضافة إلى التشويه المتعمد من قبل الآخرين لهذه النظرية وانتقاء كلمات أو مصطلحات لها حتى بين العامة.

وقد وجهت إلى هذه النظرية العديد من الانتقادات نجملها في:

١- إسرافها في التأكيد على أهمية الدافع الجنسي.

٢- نظرتها المتشائمة عن طبيعة الإنسان. لأن كل شيء محدد سلفًا ولا يستطيع الإنسان الفكاك منه.

٣- المغالاة في أهمية الدور الذي يقوم به اللاشعور في الحياة النفسية.



٤- إهمال فرويد لدافع الإنسان نحو تحقيق الذات وتأكيدها.

٥- تجاهل الدور الهام الذي تلعبه العوامل الثقافية في تشكيل سلوك الإنسان.

٦- نقص الدلائل الإمبريقية / العملية التي استند إليها فرويد في هذه الاستنتاجات كما أنه تعامل في الأساس مع المرضى ونقل هذه التصورات وعممها على الإنسان.

ثانيًا : الإنسان من وجهة النظر السلوكية :

تعد النظرة السلوكية للإنسان بمثابة رد فعل عنيف لنظرية التحليل النفسي بل وانصبت انتقاداتها على كافة المفاهيم التي قال بها فرويد وأتباعه على أساس أنها غير واقعية ولا تستند على دليل. وهم يرون – في ضوء ذلك – إن دراسة السلوك الذي يمكن ملاحظته بصورة مباشرة في ضوء المثيرات التي تثير هذا السلوك والعوامل التي تؤدي إلى تدعيمه، وغير ذلك من عوامل يمكن السيطرة عليها. لذا فإن سمة التجريب (وتحديدًا على الحيوانات بمختلف أنواعها البدائية/ الراقية) تعد ملمحًا أساسيًا في هذه النظرية.

ورغم هذا استمر العلماء في التيار السلوكي إلا أننا سنختار نموذج "سكيز" كمعبر عن التيار. ويمكن تلخيص وجهة نظره في الإنسان في النقاط الآتية:

١- يرفض سكيز فكرة وجود كيان افتراضي كالذات والشعور كما يرفض أي تفسير للسلوك يرجع به لأسباب داخلية أو يستند على افتراضات أو مفاهيم – على حد تعبيره – تحت الجلد (أو بعيدة عن التناول).

٢- أن الشيء الذي يمكن الإمساك به وإخضاعه لتجريب هو الذي يجب أن يسود في دراستنا للإنسان. وبما أن العوامل الداخلية للسلوك والتحقيق منه تجريبيًا أمرًا مستحيلاً فلا نهتم بها.

٣- يهتم سكيز بالكشف عن الأحداث والظروف التي تقوي احتمال حدوث أو عدم حدوث السلوك مستقبلاً وذلك بدراسة المتغيرات البيئية التي سبقت أو لازمت أو ترتبت على الحدث.

٤- برر سكيز أن الإنسان ما هو إلا صندوق مغلق، أي كائن خاو من الداخل. ومن ثم فكل المتغيرات التي تتوسط بين المخلات والمثيرات أو المخارجات (الاستجابات) السلوكية، ينبغي أن تخرج من مجال البحث في علم النفس.

٥- إن السلوك الإجرائي أو الأدنى – العلمي تحدده الأحداث التي تعقب الاستجابة بمعنى أن السلوك تعقبه نتيجة، وطبيعة هذه النتيجة تعدل من ميل الكائن لتكرار السلوك في المستقبل.



٦- أن الشخص يكتسب سلوكه من خلال المدعمات أو قانون الأثر، أو التدعيم، والتدعيم أو التفريز أو التقوية أي أن السلوك يقوى ويتدعم كلما كان الأثر إيجابيًا والعكس صحيح.

٧- السلوك يمكن إيقافه أو تغييره أو إضعافه عن طريق إيقاف التدعيم ذلك أن "الإطفاء" وسيلة فعالة للتخلص من سلوك غير مرغوب سبق تشريعه قبل ذلك.

٨- إن نمو الإنسان يتم من خلال عملية التميز. فالإنسان عادة يبدأ بالتعميم بمعنى أن الفرد عادة ما يستجيب لمجموعة متنوعة من المثيرات المتشابهة ومن خلال التدعيم الانتقائي يظهر التميز، وبزيادة النمو العقلي تكون المفاهيم التي تنطوي على كل من التعميم والتميز.

٩- إن شخصية الإنسان يتم التحكم فيها وضبطها عن طريق المثيرات البغيضة أي العواقب المؤلمة أو الباعثة على الضيق أو المثيرة للقلق والمرتبطة باستجابات معينة قام بها الفرد. وهناك أسلوبان شائعان عن طريق المثيرات البغيضة وهي العقاب والتدعيم السلبي.

١٠- بالرغم من أهمية العقاب ودوره الملحوظ في قمع السلوك غير المرغوب فيه، إلا أن هذا السلوك قد يعود لنفس قوته السابقة إذا توقف العقاب، بمعنى أن العقاب لا يؤدي بالضرورة إلى التخلص من السلوك غير المرغوب إضافة إلى العديد من أضراره والمتمثلة في:

أ) زيادة مشاعر الذنب.

ب) زيادة مشاعر الغضب والعدوان الأمر الذي يعوق العلاقات الاجتماعية.

ت) زيادة القلق والتوتر هو حالة بغيضة تنشأ عن وجود الفرد من موقف يستحيل عليه أن يهرب أو أن يتجنب المثير البغيض.

١١- يتوقف استمرار مواصلة السلوك على المدعمات وجداول التدعيم (التقريز). حيث يرى سكيز أن هناك جداول أساسية يتم وفقًا لها التدعيم وهي:

أ- التدعيم وفقًا لمعنى زمني ثابت.

ب- التدعيم وفقًا لمعدل زمني متغير.

ج- التدعيم وفقًا لنسبة ثابتة من الاستجابات.

د- التدعيم وفقًا لنسبة متغيرة من الاستجابات.

وقد وجهت إلى النظرية العديد من الانتقادات وتتلخص في :



١- رفض السلوكيون أن يأخذوا في اعتبارهم خبرات الإنسان الذاتية العادات معنى هام بالنسبة للفرد ذاته.

٢- اعتمادهم الكبير على التجريب في مجال الحيوان، إضافة إلى صعوبة تطبيق نتائج ما وصلوا إليه في مجال الحيوان على سلوك الإنسان.

٣- اهتمامهم بدراسة جزئيات سلوكية بسيطة وارتباط بين مثيرات واستجابات (م > س) بدلاً من دراسة نماذج سلوكية إنسانية أكثر تعقيدًا.

٤- تجاهلهم لمشكلة القيم، وما ينبغي أن يكون عليه الإنسان، أو ما ينبغي أن تكون عليه حياته.

ومما سبق كانت الانتقادات التي وُجهت إلى التيار السلوكي بصفة عامة أما إذا حددنا الانتقادات التي يمكن أن توجه إلى وجهة نظر سكيز فيمكن تلخيصها في:

١- أن السلوك الإنساني وفقًا لسكيز يتمدد وفقًا لتاريخه التدعيمي، بمعنى أن سلوك الفرد في الوقت الأهم ما هو إلا محصلة لكيفية التدعيم السابقة للسلوك الماثل في الماضي. وأن الفرق بين الأفراد إنما هي فروق نتيجة لتنوع أساليب التدعيم.

٢- ويرى سكيز أن الإنسان مثل صندوق مغلق أي لا علاقة له بتغير السلوك وأن القوانين التي تحكم السلوك تنطبق على الإنسان والفأر والحمامة دون الأخذ في الاعتبار ما يفترض من عمليات عقلية عليا تسبب السلوك.

٣- أن مصطلح الشخصية عند سكينز لا يعني سوى مجموعة من أنماط السلوك يمكن تحليلها إلى استجابات محددة تم اكتسابها خلال الشريط الإجرائي أو الكلاسيكي أي أن الاستجابات قد تم اكتسابها بها.

٤- أن الفروق الفردية بين الأفراد ما هي إلا فروقًا فردية لأنماط سلوكها، ولاختلاف ناتج عن اختلاف تاريخ التدعيم. ولا شك أن هذه الفترة الجزئية تتعارض مع ما يجب أن يتم مدخله من خلال تناوله الشخصية بصورة إجمالية.

٥- رغم أن اعتراف سكيز بالعوامل الوراثية التي تؤثر في سلوك الشخص إلا أنه يتجاهل هذه العوامل عند تحليله وتفسيره للسلوك مركزًا على الظروف البيئية والطرق المميزة التي يتم بها اكتشاف السلوك.

ثالثًا : الإنسان من وجهة نظر التيار الإنساني :

لقد شكل أصحاب هذا التيار قيام الثورة الثالثة في فهم الإنسان، وهذه التيارات هي:



التيار الأول: وفيه يظهر الإنسان بطبيعته أنانيًا شريرًا، وهذا الميل يعارضه المجتمع لذا ينشأ بالضرورة صراع بين الإنسان والمجتمع ويتطلب حل هذا الصراع بطريقة معقولة أن يكبت الفرد دوافعه الأولية ثم يعليها ويرقى بها عن طريق اتخاذ واعتناق الميول المقبولة اجتماعيًا. بمعنى أن الفرد هنا يقبل المعايير الخاصة بالمجتمع ويشبع احتياجاته أو في هذا التيار يقع كل من وجهة نظر التحليل النفسي (الكلاسيكية) وتقع السلوكية أيضًا.

التيار الثاني : وفيه يقع كل من دارون وماكدوجال وينظر هذا الاتجاه إلى الإنسان على أنه أناني بطبيعته لكن لديه ميول اجتماعية فطرية، لذا فإن الإنسان قد ينقسم على نفسه نتيجة الصراع بين مكونين فطريين ومن هنا تنشأ ثنائية الشخصية. إلا أن هذا الاتجاه النظري قد أصبح تاريخاً ليس يؤيده من المنظرين في الوقت الحالي.

التيار الثالث : ويرفض وجهتي النظر السابقتين وفيه يتم التأكيد على القوى الدينامية التي تدفع بالإنسان إلى مزيد من التقدم والنمو وتحقيق الذات ومزيد من الاهتمام الإيجابي بالآخرين ومزيد من الاهتمام بالعالم المحيط. ويقع الإنسانيون في هذا الاتجاه ومن أهم منطلقات المذهب الإنساني يدعو إلى الاهتمام بالقيم والأهداف الإنسانية، وحرية الاختيار والمسئولية، والعلاقات الاجتماعية وتحقيق الذات، والحب، والابتكار، والمضمون، والنضج الشخصي، والإشباع النفسي؛ لأن ذلك يهتم في تحقيق الوجود الإنساني. ولهذا يدعو مذهب علم النفس الإنساني إلى احترام الإنسان أولاً وتقديره وإعطائه مكانة وأهمية في الحياة، وإعطائه الفرصة للنمو حتى يتاح له فرصة الإسهام في خدمة جنسه على أساس من الصحة.

ويمكن أن تقدم أهم الخطوات العريضة لنظرة أصحاب المذهب الإنساني إلى الإنسان:

١- **إن الإنسان خير** : ولا شك أن هذه المسلمة تخالف مسلمة نظرية التحليل النفسي للإنسان.

٢- **الإنسان حر** : وحريته محدودة بطبيعة تكوينه، وبطبيعة حياته مع الآخرين بمعنى: أنه حر في حدود ما تسمح به إمكانياته المختلفة – وهي محدودة – وهو حر يقدر حرية الآخرين في استثمار حريتهم.

٣- **الإنسان كائن حي نشط** : حيث يسعى بطبيعته وبصورة مستمرة إلى تحقيق مستوى أفضل مما هو عليه وأن لديه دوافع داخلية قوية تدفعه لتحقيق الذات والنمو وهذه الدوافع إيجابية تمكنه من أن يسلك نحو النمو بدرجة أقوى وعلى نحو أكثر حكمة تدفعه إلى النمو المستمر المتطور الذي يحقق به ذاته.



٤- **الخبرة :** حيث تعد الخبرة من أهم المتغيرات التي يرى أصحاب المذهب الإنساني الاهتمام بها بحيث تكون موضوع الدراسة في مجال علم النفس، وهم حين يذكرون الخبرة يؤكدون على دراسة الخبرة الذاتية الحاضرة للفرد.

٥- **ينادون بضرورة فهم الإنسان فهمًا سليمًا:** والكشف عن حقيقة جوهره وأصالة معدنه عن طريق دراسة الإنسان السوي للكشف عن الجوانب الإيجابية التي تحقق الصحة النفسية للإنسان وهذا على عكس ما فعل فرويد مثلاً.

٦- **أن هناك العديد من العوامل الإيجابية :** والتي يرى أصحاب المذهب الإنساني أنها تهتم اهتمامًا إيجابيًا في تحقيق وجود الإنسان وشعوره بالإنسانية ومن هذه العوامل:

أ – القيم : ويعتبرونها ضرورة لأن الفرد يكتسب إحساسه الواضح بالذاتية عن طريق القيم فيحقق كل من الفرد والمجتمع ذاته.

ب – الاستقلال الذاتي: حيث يركزون على العوامل التي تنتج أولويات الذات – Self Starlen والاهتمام بوصف التعبيرات المختلفة للسلوك النابع من الذات مباشرة أو السلوك المستقل.

ج – اكتشاف الذات : The Exploration of the Self : ويقصد بها أن يعرف الإنسان ذاته. وتعد تجربة كارل روجرز والتي بين فيها صورة الذات من خلال:

١- أن كل فرد يعيش تجربته الخاصة به حيث تكون الذات هي مركز العالم.

٢- أن الفرد يتعامل مع المواقف التي تقف مع إدراكه لذاته وعالمه الخاص به.

٣- أن الدافع الأساسي للفرد هو المحافظة على الذات وتحقيقها وتنميتها.

٤- يستجيب الفرد لما يدركه من تهديد لذاته بدفاعات مختلفة فيها الحيل الدفاعية المتعددة.

٥- يميل الإنسان نحو الصحة والاكتمال، ويستجيب الفرد في الظروف العادية استجابات منطقية وبناءة ونختار من الأساليب السلوكية ما يؤدي إلى النمو الشخصي وتحقيق الذات.

٦- أكدوا على قيمة الحب والتي من خلالها يكون الإنسان قادرًا على أن يعطي لأخيه الإنسان من الحب، وأن الحب دافع من أهم الدوافع الإنسانية.

٧- أكدوا أن مبدأ الابتكار الذي يعد من وجهة نظرهم من الدلائل الإيجابية التي استطاع الإنسان أن يمارسها ويعبر عما يعن له من أفكار تمر عن طريق تهيئة المناخ لممارسة هذه الحرية، وأن المناخ إذا كان خاليًا من الضغوط والمعوقات فإن



الطاقات الابتكارية ستزدهر، وأن تحقيق الفرد لذاته يتم عن طريق تحقيق طاقات الفرد الابتكارية والتي توصله إلى مستوى معقول من الصحة النفسية.

ولقد اكتفينا فقط بعرض ثلاث وجهات نظر تناولت الإنسان، وكما اتضح فإن الظاهرة الإنسانية واحدة والتناول مختلف، وهذا لا عيب فيه؛ لأن تعدد الآراء والتحاور معه هو الذي خلق الحقيقة، وأن دروس التاريخ علمتنا عدة حقائق :

١- أنه لا يوجد جديد تمامًا؛ لأن الجديد يولد من أنقاض ورحم القديم.

٢- يوجد صراع بين القديم والجديد ولكل منهما أنصاره وعلى قدر درجة المرونة ينتصر الجديد أو العكس.

٣- أن الانغلاق على الرأي وعدم التحاور مع الآخر يؤدي إلى الموت والعدم. ونكتفي بهذا القدر.



الفصل الثامن

الإنسان بين الوراثة والبيئة



الفصل الثامن

الإنسان بين الوراثة والبيئة

مقدمة :

حين نتصدى لدراسة قضية الوراثة والبيئة فإننا ندخل مباشرة إلى أهم القضايا التي ما زالت مطروحة حتى الآن، وتستقطب العديد من الآراء والاتجاهات وعمومًا فإن هذه القضية إنما يثيرها تساؤل مؤداه هو :

هل الإنسان يتأثر بالوراثة أم بالبيئة أم بكليهما؟ وما حجم تأثير كل عامل؟ وهل هذا التأثير هو وقت يزدهر فيه ثم يتلاشى تأثيره بعد ذلك أم أن التأثير يكون ممتدًا وموصولاً.

والواقع أننا نجد ثلاث اتجاهات تجيب على التساؤل السابق :

الاتجاه الأول : ويؤكد أصحابه على أهمية عامل الوراثة على أساس أنها هي التي تمد الإنسان بكافة الإمكانيات والاستعدادات التي بدونها لن يكتب للإنسان البقاء ولذا يبالغ أصحاب هذا الاتجاه في تأكيد الوراثة.

الاتجاه الثاني : ويميل أصحاب هذا الاتجاه إلى تأييد دور البيئة على أساس أنها هي التي تفتح الإمكانيات وتتيح العديد من الخبرات والتي تساعد الفرد على التوافق سواء مع الذات أو البيئة.

الاتجاه الثالث : ويميل أصحابه إلى اتجاه غير متطرف فيؤيدون الاتجاه القائل أن الإنسان ما هو إلا محصلة لتأثير كل من الوراثة والبيئة.

وسوف نفصل القول في هذه القضية :

أولاً : الوراثة :

الوراثة Heredity: تثير العديد من الإشكاليات والقضايا فهل مثلاً تعني أن يرث الطفل كافة خصائص والديه ولذا يتشابه الابن مع أبوه مصداقًا للقول الشائع "إن هذا الشبل من ذاك الأسد" أو "إن من شابه أباه فما ظلم" والواقع أن الوراثة لا تعني فقط هذا التشابه وإنما تعني كافة العوامل التي يولد الكائن مزودًا بها والتي تتكون لديه منذ اللحظة الأولى لاتحاد الحيوان المنوي والبويضة، حيث يحتوي الزيجوت (أي الخلية التي يتم تلقيحها) على كل من خصائص الوالدان. ومن الخصائص الوراثية الخالصة التي يرثها الابن عن والديه ما يلي :

١- شكل الجسم وهيئته .

٢- لون البشرة .



٣- هيئة الوجه وملامحه .

٤- لون الشعر ومدى النعومة أو التجعيد .

٥- الصلع .

٦- لون العين .

٧- نوع الدم وفصيلته .

٨- مرض سيولة الدم (الهيموفيليا).

٩- عمى الألوان .

١٠- مرض السكر.

كذلك حين نتصدى للوراثة لا بد من التعرض سريعًا للغدد الصماء والتي تتلخص وظيفتها الأساسية في تكوين مركبات كيميائية خاصة يحتاج إليها الجسم ويطلق عليها اسم هرمونات، والغدد عبارة عن أعضاء موجودة داخل الجسم وتنقسم إلى قسمين رئيسيين هما:

أ) **الغدة القنوية** : وهي الغدة التي تفرز إفرازات خارجية كالغدد الدمعية والغدد العرقية والغدد اللعابية حيث تقوم بتجميع المواد الأولية كالماء والأملاح المعدنية من الدم عند مروره بها ثم تخلطها لتتكون من ذلك الدموع والعرق واللعاب.

ب) **الغدد الصماء** : وهي الغدد التي تقوم بتجميع موادها الأولية من الدم مباشرة ثم تحولها إلى مواد كيميائية معقدة التركيب تسمى الهرمونات ثم تصبها مباشرة في الدم دون الاستعانة بقناة خاصة تسير فيها الهرمونات. ويوجد في أي جسم بشري هذه الغدد الصماء:

١- **الغدد الصنوبرية والغدد التيموسية** : تقع الغدة التيموسية فوق القلب مباشرة، والغدد الصنوبرية تقع في قاع المخ خلف الغدة النخامية وتتعرض الغدتان للضمور قبل مرحلة البلوغ لتتيحا الفرصة للغدة التناسلية أن تقوم بدورها، ولنا أن نتوقع أن عدم ضمور هاتان الغدتان يؤخر فرصة دخول الشخص إلى مرحلة النضج والبلوغ كما أن الضمور في وقت مبكر عن مرحلته ينشط الغدد التناسلية ويحدث النضج مبكرًا.

٢- **الغدد التناسلية** : يؤثر نشاط هذه الغدة على النمو حسب الجسم (ذكرًا كان أم أنثى). ويؤثر أيضًا على النشاط العصبي، وعلى عمليات الهضم والتمثيل الغذائي، وكما يؤثر نشاط الغدد التناسلية في ما يسمى بالصفات الثانوية والصفات الأساسية، حيث تتمثل الصفات الأساسية في شكل ووظيفة



الأعضاء التناسلية وفي قدرة الشخص على التناسل، والصفات الثانوية فتؤثر في الصفات الخارجية التي تميز كل من الذكور والإناث. وتتكون الغدد التناسلية الذكرية من نوعين من الخلايا، نوع يقوم بإفراز الحيوان المنوي، ونوع يقوم بإفراز الهرمونات الذكرية وتتكون الغدة التناسلية الأنثوية أو المبيض من قشرة خارجية ولب داخلي وتقوم القشرة بإفراز البويضة الأنثوية كل ٢٨ يوم تقريبًا.

٣- **الغدة النخامية :** وهي غدة صغيرة جدًا في الحجم وتوجد في قاع المخ وتتكون من جزأين أهمهما الفص الأمامي حيث يفرز مجموعة من الهرمونات عددها ١٢ أهمها هرمون النمو وحدوث نقص في هذا الهرمون قبل البلوغ يسبب وقف نمو العظام لدى الطفل فيصبح قزمًا كما أن إفراط الهرمون يقوده إلى العملقة، إضافة إلى أن النقص يؤثر في القوى العقلية والتناسلية فيضعفها كما يقود إلى السمنة المفرطة. إضافة إلى أن الزيادة بعد البلوغ في إفراز الهرمونات يقود إلى تضخم الأطراف وإلى تشويه عظام اليد والوجه كما أن الإفراز المعتدل يقوده إلى تناسق الجسم وكافة القدرات المختلفة في "هارموني" رائع.

٤- **الغدة الدرقية :** وموضعها أسفل الرقبة أمام القصبة الهوائية ووظيفتها إفراز هرمون "الثيروكين" والذي يؤثر في تنشيط الأعصاب ولذا فإن النقص يقود إلى العديد من الاضطرابات أهمها: تأخر المشي، تأخر الكلام، تأخر في القدرة على تحريك الأطراف، جعل العظام معوجة وبالتالي يقود إلى تشويه الهيكل الجسمي، إضافة إلى خشونة الجلد، وعدم انتظام الأسنان. كما أن الزيادة تقود أيضًا إلى العديد من الاضطرابات مثل إصابة الشخص بمرض "جريفز" والتي من أهم أعراضه بروز في العينين، سرعة التنفس، تتابع ضربات القلب، حساسية شديدة وثورة انفعالية لا تهدأ. ولذا فإن الإفراز المعتدل يجنب الشخص كافة الاضطرابات السابقة سواء عند الزيادة أو النقصان.

٥- **الغدد جارات الدرقية :** وتتكون من أربع فصوص يقع كل زوج منها إلى جوار فص من فصوص الغدة الدرقية، وتقوم هذه الغدد بعملية ضبط مراقبة الكالسيوم والفوسفور في الدم حيث إن النسبة العالية للكالسيوم تتراوح بين



٠,٠٠٨ ، ٠,٠١٠% وهبوط هذه النسبة إلى ٠,٠٠٦ أو أقل يقود إلى العديد من الاضطرابات مثل:

- شعور الفرد بالصداع الحاد، الهبوط العام، والألم المستمر في الأطراف، خاصة الأطراف السفلية.
- الشعور الدائم بالضيق والبلادة والخمول العقلي وعدم القدرة على التفكير والابتكار.
- التقلبات والثورات الانفعالية لأتفه الأسباب، والميل الشديد إلى الدخول في عراك وقتال مع الآخرين مع الصراخ الحاد لأتفه العوامل والأسباب. ولذا فإن قيام هذه الغدة بدورها يجنب الفرد العديد من الإشكاليات.

٦- **الغدة الكظرية أو فوق كلوية :** وتسمى أحياناً – بالغدة الأدرينالية نسبة لاسم الهرمون الذي تفرزه وهي عبارة عن غدتين موقعهما فوق الكليتين وتتكون كل غدة منهما من جزأين:

١- جزء خارجي يفرز هرمونات لها علاقة بالمهارة العضلية والنواحي الجنسية.

٢- جزء داخلي وإفراز – له علاقة بالجهاز العصبي السمبتاوي على النحو التالي:

أ) يؤثر هرمون الأدرينالين على الدم، ويوجه نسبة كبيرة منه نحو المخ والنخاع الشوكي والعضلات ليساعد الفرد على التفكير القوي في مواقف الخطأ والطوارئ.

ب) يزيد هذا الهرمون من نسبة السكر في الدم حتى يؤدي إلى احتراق هذا السكر إلى زيادة الطاقة التي يستعيد بها الفرد نشاطه في تلك المواقف الخطرة والمعروف أن الجهاز العصبي يتكون من جزأين جزء سمبتاوي (ينشط في حالة تعرض الفرد لمواقف تتطلب منه الانفعال ورد الفعل) وجزء لاسمبتاوي (يعيد الفرد إلى حالته الانفعالية المستقرة قبل الدخول في الموقف الطارئ الذي قاد إلى الانفعال والإحساس بالخطر وضرورة رد الفعل المباغت).

والخلاصة لهذا العرض السريع لقضية الغدد والهرمونات هو ضرورة الإفراز المتوازن والمعتدل وأن كل غدة تفرز هرموناً معيناً ومحدداً وله وظيفة محددة، ولذا فإن اضطراب الإفراز – سواء بالزيادة أو النقصان يقوده إلى العديد من الفروق بين الأفراد بل داخل الفرد الواحد.



وأيضًا تثير الوراثة قضية كيفية انتقال الخصائص الوراثية، وكيف تكون بعض هـذه الخصائص سائدة والبعض الآخر منها متنحٍ أو خاملة لا تظهر إلا في أجيال تالية.

والواقع أن العلماء الذين تصدوا لدراسة الإدمان وجناح الأحداث والجريمة والتخلـف العقلي – على سبيل المثال فقد وجدوا أن الإدمان ينتشر بين عائلات دون غيرهـا ومقارنـة معدل الانتشار في عائلات مجموعات من الأشخاص غير المدمنين وتوجـد بحـوث كثيـرة للمقارنة، وتشير نتائجها إلى غلبة التعاطي والإدمان داخل عائلات المـدمنين غيـر أن هـذه النتائج لا يجب أن تؤخذ على أنها حاسمة ونهائية في الكشف عن دور الوراثة في الإدمان؛ إذ إن هذه النتائج نفسها يمكن تكون هتراتية على التفاعلات السلوكية / المعيشية / الاعتيادية بين الأشخاص هي داخل المناخ الأسري الواحد. ومن ثم فإن أقصى ما يمكن أن يقال في صـالح العوامل الوراثية في هذا الصدد أن نتائج البحوث في العائلات تقدم كقرائن لا كأدلة أو براهين محددة وقاطعة.

ولكي تظهر أو تنتقل خاصية معينة من جيل إلى جيل توجد عدة احتمالات هي :

١- **الاحتمال الأول :** التزاوج بين الموروثات الموحدة.

٢- **الاحتمال الثاني :** التزاوج بين مورثات موحدة مع مورثات مختلفة.

٣- الاحتمال الثالث : تزاوج بين مورثات مختلفة مع مورثات مختلفة. حيـث – مثلاً– في الاحتمال الثالث إذا تزوج رجل لديه ذكاء سـائد وضـعف عقلـي متنحي مع امرأة تحمل نفس الخصائص فإن إنجابهم للأولاد سوف يتـراوح أيضًا ما بين الذكاء جدًا، وضعيف العقل تمامًا، والـذكي وحامـل للـضعف العقلي، ويمكن تتبع هذه الخصائص ليست خلال جيل واحد بل عـدة أجيـال متلاحقة مع وضع كافة الاحتمالات في الاعتبار.

وأخيرًا نشير إلى قضية المناهج المناسبة لدراسة أثر الوراثة وتنقسم إلى :

١- **دراسة الإنسان – شجرة العائلة : Pedigree**: وهـذا المـنهج يتتبـع الخاصـية الموجودة لدى فرد بعينه لإثبات امتلاكها بالوراثة من خلال منهج دراسة الإنـسان. ويعود الفضل إلى السير فرانسيس جالتون في أنه أول من استخدم هذا المنهج، وقـد أدى به الاهتمام بهذا المنهج إلى تقديم العديد من المؤلفات عن الوراثـة والعبقريـة والتفوق العقلي والأكاديمي من خلال دراسته لـشجرة عـائلات مـشاهير الكتـاب والمؤلفين والسياسيين والاقتصاديين... الخ. فاحصًا سجلات ووثائق ومستندات كـل عائلة من جانب أو عن طريق استكمال الفحص من جانب آخر. وقد انتهى من هـذه الدراسات والملاحظات إلى أن التفوق والذكاء موروث من الخط العائلي.



٢- **تجارب الانتخاب الزواجي :** قدم مندل عام ١٨٦٦ ضمن نتاج أبحاثه على نبات البازلاء عدة حقائق هامة عن الوراثة عرفت فيما بعد بقوانين مندل في الوراثة، وقد هدفت هذه القوانين إلى شرح كيفية الانتقال بالخصائص الوراثية من جيل إلى جيل عن طريق التهجين أو الانتخاب المقصود سواء في دراسة النباتات أو الحيوانات مثل إجراء التجارب على ذكاء الفئران – من خلال وضعها في متاهات، أو دراسة الأسر المتدهورة التي تعاني من التخلف العقلي حيث قدم عالم النفس (جوادرد) في تاريخ القياس السيكولوجي وصفًا لبعض الأسر التي تعاني من التخلف العقلي في ولاية نيوجيرسي بالولايات المتحدة مدللاً على أن الوراثة في نقل خصائص الضعف العقلي في خط عائلي واحد.

وهكذا تثير الوراثة العديد من الإشكاليات منذ القدم وحتى ما شاء الله من خلال الأبحاث النشطة الآن في الغرب عن الاستنساخ وكيفية مقاومة الأمراض الوراثية، وتحسين العديد من المورثات، بل إجراء بحوث تهدف إلى إطالة الأعمار وأن يعيش الفرد حياته في هذه الأرض بلا أمراض، وغيرها من الأشياء التي تبدو للوهلة الأولى أقرب إلى الأحلام ودروب الخيال. لكن سبحان من بيده مقاليد كل شيء. عالم الغيب.

ثانيًا : أصحاب الوراثة والبيئة : أثارت قضية الاختلافات بين الأفراد بل وجود فروق داخل الفرد الواحد. العديد من العلماء للإجابة عن هذا التساؤل. وكان من الطبيعي أن يثار التساؤل حول أسباب هذه الفروق، فوجدنا فريقًا قد نشط في اتجاه الوراثة وآخر نشط في اتجاه البيئة، وفريقًا ثالثًا يرفض هذا التقسيم الجزافي. ويرى أن الإنسان ما هو إلا خلاصة لحوار وتفاعل بين الوراثة أو البيئة مستندين إلى العديد من الحقائق، فعلى سبيل المثال تقوم الغدة الدرقية بإفرازها لليود Lodine معتمدة على البيئة، فإذا كان المتاح للفرد من اليود قليلاً فإنه سيعاني بالضرورة نقصًا في هرمون الغدة الدرقية، وليس ذلك فحسب، بل إن الأفراد الموجودين في بيئة واحدة يختلفون فالبعض تكون غدته الدرقية أنشط من الأخرى رغم تواجدهم في بيئة واحدة؛ ولذا فإن العلاقة بين الوراثة والبيئة ليست علاقة إضافة بل علاقة تضاعف فالفرد ليس حاصل جمع الوراثة والبيئة بل حاصل ضرب الوراثة في البيئة ولا نستطيع أن نصنف مجموعة من الأجزاء تشير إلى الوراثة أو البيئة فحسب بل هو ناتج الاثنين معًا.

ولذا فقد أجرى العديد من العلماء بيان أثر الوراثة والبيئة حيث مثلاً إذا أردنا الكشف عن تأثير الوراثة فإنه من الممكن أن نجعل الوراثة هي المتغير التجريبي Experimental Uariolile والبيئة هي المتغير الثابت. وذلك بأن نأخذ أفرادًا ينتمون إلى عوامل وراثية



مختلفة ويعيشون في بيئة واحدة، وإذا أردنا معرفة تأثير البيئة فإن ذلك يكون ممكنًا بوضع أفراد من وراثة واحدة في بيئات مختلفة. والفروق التي توحد بينهم في أي صفة من الصفات تكون عائدة إلى البيئة.

وهكذا يتضح من المناقشة السريعة لهذه القضية بالغة التعقيد أن التساؤلات والاستشكالات لأسباب الفروق الفردية لم ولن تنتهي.

تأثير البيئة Environment: يقصد بالبيئة كافة الظروف التي تحيط بالفرد في عالمه منذ بدء تكوينه داخل الأم وحتى وفاته. ولذا فإن من الخطأ الشائع أن نردد أن تأثر البيئة يبدأ منذ الميلاد، ولذا فإن علماء نفس النمو يذكرون لنا العديد من العوامل التي تؤثر في نمو الجنين أثناء الحمل مثل عمر الأم/ انفعالات الأم/ تغذية الأم/ أمراض الأم/ تدخين أو إدمان الأم/ طريقة الولادة .. الخ هذه العوامل. كما نجد العديد من العلماء من يقسم البيئة إلى:

أ – بيئة ما قبل الميلاد.

ب – بيئة ما بعد الميلاد .

وسوف نقصر حديثنا في هذا الجانب على بيئة ما بعد الميلاد الذي يقسم بدوره إلى:

ثالثًا: البيئة:

١- **بيئة طبيعية**: وتشمل كافة الظروف المحيطة بالفرد من حرارة ورطوبة وإمكانيات غذائية وجغرافية. ولا شك أن العديد من العلماء قد جعلوا الجانب الطبيعي أو الجغرافي مكونًا أساسيًا في خلق العديد من السمات أو الخصائص التي تميز طابع قومي لفئة معينة من الناس.

٢- **بيئة اجتماعية** : ونقصد بها كافة المؤسسات التي تساعد وتعمل على تنشئة الفرد من خلال الاحتكاك المباشر أو غير المباشر بها.

٣- **بيئة نفسية** : لا شك أن أساليب التربية التي يتعرض لها الفرد عبر مراحل حياته المختلفة تعمل على خلق نفسية معينة.

وفيما يلي نتحدث عن أهم جوانب البيئة الاجتماعية:

التنشئة الاجتماعية : Socialization

هل عملية التربية والتنشئة والتعليم تكون واحدة لدى جميع الأفراد وهل تختلف التنشئة بين الأفراد من مجتمع إلى آخر بل داخل المجتمع الواحد؟ وهل عملية التنشئة تكون مقصودة ولها أهداف – يعي بها القائمون أو لا يعون – أم أن الأمور تسير بصورة عشوائية.



أسئلة كثيرة يطرحها – ولا بد – لكل من يتصدى لقضية التنشئة الاجتماعية؛ فمن الثابت أن البشر جميعًا يولدون وبينهم قدر كبير من التشابه لا داخل الثقافة الواحدة. بل في جميع ثقافات العالم من حيث احتياجهم ومظاهر نموهم المختلفة. ولكن عند سن معينة يبدأ التباين والاختلاف فيأخذ طريقة متأثرًا بعملية هامة ألا وهي التنشئة الاجتماعية. والتي تتم من خلال العديد من المؤسسات التي يتعامل معها الفرد.

ولذا تتباين العادات والتقاليد والاتجاهات والقيم ليست بين المجتمعات بل داخل المجتمع الواحد. فلكل مجتمع ثقافته التي تميزه، مما يجعلنا ونحن مطمئنين أن نتحدث عن الطابع القومي الذي يميز مجتمع من المجتمعات، وليس هذا فحسب، بل إن كل ثقافة عامة تضم داخلها العديد من الثقافات الفرعية التي تفرق وتميز بين العديد من أبناء المجتمع الواحد.

ألم نتحدث كمصريين عن كرم الشراقوة، وبخل الدمايطة، وحدة طابع سكان السواحل وتقلبهم؟ ألا نعرف أيضًا أن سكان عشش الترجمان ومنشية ناصر يختلفون في العديد من صفاتهم عن سكان المعادي وجاردن سيتي مثلاً. لقد جاء هذا الاختلاف نتيجة لعملية التنشئة الاجتماعية. فما هي ؟

التنشئة الاجتماعية : يعرفها قاموس علم النفس "علم الاجتماع" بثلاث تعريفات هي:

١- تشير التنشئة الاجتماعية في علم النفس إلى العملية التي يتعلم عن طريقها الفرد كيف يتكيف مع الجماعة عند اكتسابه للسلوك الاجتماعي الذي توافق عليه.

٢- أو هي العملية الاجتماعية الأساسية التي يصبح الفرد عن طريقها مندمجًا في جماعة اجتماعية من خلال تعلم ثقافتها، ومعرفة دوره فيها، وطبقًا لهذا التعريف تكون التنشئة الاجتماعية عملية مستقرة على مدى الحياة.

٣- في حين يرى البعض أنها العملية التي تحدث في مرحلة الطفولة وتؤدي إلى نمو الشخصية وإدماج الفرد في مجتمعه، ويشيرون إلى اكتساب معرفة جديدة أو مهارة مستحدثة هي في الواقع عملية "تثقيف" أو اكتساب خصائص ثقافية جديدة (محمدي عاطف غيث ١٩٧٩، ٤٤٩ : ٤٥٠).

ويتضح مما سبق أن عملية التنشئة الاجتماعية تتصف بالآتي :

١- أن عملية التنشئة الاجتماعية هي التي تشكل السلوك الاجتماعي للفرد.

٢- أنها عملية استدخال ثقافة المجتمع في بناء الشخصية الفردية.

٣- أنها عملية تطبيع المادة الخام للطبيعة البشرية في النمط الاجتماعي والثقافة باختصار. أنها اكتساب الإنسان لصفاته الاجتماعية.



٤- أنها عملية تعلم اجتماعي Social Learning يتعلم الفرد فيها عن طريق التفاعل الاجتماعي أدواره الاجتماعية ويكتسب من خلالها المعايير والقيم السائدة.

٥- أنها عملية نمو يتحول خلالها الفرد من طفل يعتمد على غيره ومتمركز حول ذاته لا يهدف إلا إشباع حاجاته الفسيولوجية إلى فرد ناضج يدرك معنى المسئولية الاجتماعية وكيف يتحملها.

٦- أنها عملية مستمرة لا تقتصر على مرحلة دون أخرى بل تشمل جميع المراحل، إضافة إلى أنها عملية دينامية تتضمن التفاعل والتغير بين الفرد والآخرين.

٧- أنها عملية معقدة تشترك فيها العديد من أجهزة التنشئة الاجتماعية عبر مراحل الفرد المختلفة.

الوراثة والبيئة والتنشئة الاجتماعية:

أكدت العديد من الدراسات والبحوث أن العوامل التي تحكم نمو السلوك السوي هي نفس العوامل التي تحكم السلوك غير السوي، والفيصل بين الحالتين هي الصورة التي تكون عليها هذه العوامل متناسقة ومتسقة ومناسبة إلى السواء والعكس صحيح.

وتصنف العوامل المؤثرة في السلوك عادة إلى مجموعتين، المجموعة الولادة التي لا علاقة لها بالبيئة التي يعيش فيها الفرد، والمجموعة البيئية وتشمل كافة المؤثرات التي يتعرض لها الفرد في البيئة التي يعيش فيها عبر مراحل حياته المختلفة. ولم تشكل قضية وتثير العديد من الجدل، بين علماء النفس قدر قضية الوراثة والبيئة، لدرجة أننا نجد جماعة تتعصب للوراثة دون البيئة، وجماعة تتعصب للبيئة دون الوراثة، وجماعة ثالثة (توفيقية) تجمع بين الرأيين المتناقضين.

المنظمات التي تساهم في عملية التنشئة الاجتماعية :

أولاً : الثقافة Culture

الثقافة هي مجموع ما يتعلم أو ينقل من نشاط حركي وعادات وتقاليد وقيم واتجاهات ومعتقدات تنظم العلاقات بين الأفراد، وأفكار وتكنولوجيا وما ينشأ عنها من سلوك يشترك فيه أفراد المجتمع. وتبدو أهمية البعد الثقافي في تشكيل الشخصية في أن الشخصية الإنسانية تنظيم سيكولوجي لا يتبلور إلا في ظل مجتمع له تنظيم ثقافي معين ومن خلال أساليب التنشئة الاجتماعية والقائمة على معايير وقيم وأنماط سلوكية ارتضاها هذا المجتمع، ولذا فمن الخطأ أن نفهم تجارب أو شواهد ثقافية تم ملاحظتها في مجتمع ما في فترة زمنية محددة وتقوم بتعميمها على جميع المجتمعات.



وهذا أثبته "برونسلاو مالينوفسكي B. Malinowski ومرجريت ميد M. Meod" فعلى سبيل المثال عمد مالينوفسكي إلى التحقيق من فرض فرويد المتضمن في (عقدة أوديب) حيث يمثل الطفل بدءًا من ثلاث سنوات من عمره إلى الوالد من الجنس المخالف، ويشعر بمشاعر الغيرة نحو الوالد من نفس جنسه، ومع تقدم الطفل في مراحل نموه وإذا لم تحدث أخطاء في التربية أو لم يحدث تطرف أو مغالاة في التنشئة، فإن هذه العقدة تحل، وقد اختبر، مالينوفسكي هذا الفرق على بعض سكان إحدى الجزر (التروبرياند) ووجد عدم وجود أية مؤشرات لوجود مثل هذه العقدة؛ لأن نمو التربية والتنشئة مختلف تمامًا، وأن نمو العلاقات الأسرية مغاير تمامًا للنمط الأوروبي، ومن ثم فمن الخطأ فرض فروض سيكولوجية علمية من ثقافة إلى ثقافة أخرى.

كذلك نجد أن مرجريت ميد قد رفضت ما ذكره استانلي هول عن أزمة المراهقة واعتبارها أزمة عالمية وذكرت أنها أزمة اجتماعية ثقافية وليس أزمة فطرية مستشهدة بما وجدته في مجتمع غينيا الجديدة من أن المراهقين لا يجدون هذا الاضطراب الانفعالي الذي يعانيه المراهقون وأنهم في غينيا أكثر تسامحًا مما يجعل المراهقين هناك لا يمرون بمثل هذه الهزات الانفعالية. كذلك نجد روت بندكت قد حرصت على بحث العلاقة بين الأنماط الثقافية السائدة في المجتمعات وبين أنماط الشخصية. بحيث يكون الأفراد انعكاسًا لهذه الثقافات ورصدت كل ذلك في كتابها: أنماط الثقافة Pattern of Cultures حيث عرضت للعديد من الأنماط المتباينة من الثقافة ومقابلها من أنماط متباينة من الشخصيات.

وكان من نتيجة البحث في الثقافة العامة لكل مجتمع صياغة مصطلحات مثل: الشخصية القومية National Personality وينسب إلى جوردون البورت Gallprot والذي ذكر أن الطفل ينشأ حسب الثقافة وليس حسب الثقافة المثالية، وأن السلوك النهائي للفرد هو محصلة التفاعل بين الاستعدادات التكوينية والأنماط الثقافية المحيطة، إضافة إلى الاستعدادات المزاجية التي قد تقوم بدور (الفلتر) أو الانتقاء والتصفية لما يتعرض له الفرد من خبرات في البيئة وما يمكن أن يتعلمه من المواقف التي يتعرض لها. كذلك لا يختلف هذا المفهوم عن مفهوم الشخصية الأساسية أو الشخصية المنوالية Modal Personality أو شخصية الجماعة كما يقترح قدري حفني في دراسته للشخصية الإسرائيلية.

كذلك ذكر علاء الدين كفافي (١٩٩٨) العديد من العوامل الثقافية (داخل الثقافة – أي الثقافة الفرعية). والتي تساعد على انتشار الأمراض داخل المجتمع الواحد. ومن بين هذه العوامل:



أ- **الطبقة الاجتماعية :** حيث أشارت معظم البحوث مثلاً إلى شيوع الاضطرابات النفسية بصفة عامة بين أبناء الطبقة الدنيا إذا ما قورنوا بأبناء الطبقيتين العليا والوسطى، وهناك دراسات أخرى ترجح نتائجها شيوع العصاب بين أبناء الطبقتين الأخيرتين، ومن التفسيرات التي تقدم لهذه النتائج العامة أنه من المفضل أن تنتشر الأعراض العقلية في الطبقة الدنيا بنسبة أكبر بفعل الدخول الاقتصادية المنخفضة وظروف العمل الأكثر مشقة وعدم توافر الرعاية الطبية وبقية الخدمات الأخرى بنفس الدرجة وعلى نفس المستوى كما هي بين أفراد الطبقة العليا، بينما يرتبط شيوع العصاب في الطبقتين الوسطى والعليا بسبب مشكلات الفراغ والتنافس في مجال العمل والمال والمكانة الاجتماعية.

ب-**التحضر والموقع البيئي :** تكاد نتائج الدراسات تجمع على أن انتشار الاضطرابات النفسية بين سكان المدن أكثر مما هو بين سكان الريف، كما أن معدلات الانتحار تزيد مع زيادة كثافة السكان فهي في المدن الكبرى أكبر مما هي في المدن الصغرى وفي الأخيرة أكبر مما هي في الريف، وتنطبق هذه النتائج على تعاطي المخدرات وأن التفسير الشائع أن الأفراد في المدن الكبرى يفتقدون العلاقات الشخصية الإنسانية، كما أنه يتعرضون لضغط التنافس الشديد في العمل في ظل نظام يستغني عن العامل الذي لا يواكب ألوان التقدم التكنولوجي وأساليبه في العمل.

ج- **التعصب والتفرقة العنصرية :** يظهر هذا العامل في المجتمعات التي تضم أقليات عرقية أو دينية تتعرض لتعصب ويمارس ضدها نوع من التفرقة العنصرية ويدرك أفراد هذه الأقليات سلوك التعصب نحوها والتفرقة بينهم وبين باقي المواطنين كعامل ضغط يولد قدرًا من الشعور بالاضطهاد والظلم. وذلك التعصب أو التسامح أو التعايش أو التنافر يكون من قبيل الثقافة السائدة.

د- الزواج والحياة الزوجية : الافتراض الشائع على نطاق واسع أن الاضطرابات النفسية تنتشر بدرجة أكبر بين غير المتزوجين، وتفرز نتائج الدراسات والبحوث هذه المقولة، ولعل الزوج يجد في زوجته ما يؤنس وحدته ويشبع رغباته وكذا الزوجة، ولكن قد تعصف العديد من العوامل باستقرار الأسرة.

ه- **التصارع الاجتماعي :** يحدث أن يؤدي التغير الاجتماعي إلى تغير في القيم والعادات والتقاليد وقد ينشأ من جراء ذلك الصراع القيمي بين المألوف



والسائد وغير المألوف مما يؤدي إلى سقوط العديد من الضحايا صرعى لهذا الصراع.

و- **العمل والمشكلات الاقتصادية :** يرتبط بالعمل العديد من الجوانب مثل مدى إشباع العمل لاحتياجات الفرد، ومدة اكتسابه للمهارات المطلوبة ومدى العائد الذي يكفيه، وسرعة التغير ومدى استيعاب المتغيرات الجديدة في مجال عمله ومدى الرضا عن هذا العمل الذي يشبع احتياجاته المختلفة، وقد تؤدي إعاقات في المجالات السابقة إلى العديد من الاضطرابات.

ز- **الحروب :** حيث تكون للحروب العديد من المتغيرات السيئة بعيدة المدة على نفسية الأفراد. (علاء الدين كفافي، ١٩٩٨، ١٤: ١٨).

وهكذا يتضح من العرض السابق للتأثيرات بعيدة المدى التي تحدث لدى الأفراد المتضمن تحت لواء ثقافة محددة، كما أن الثقافة العامة تفرز العديد من الثقافات الفرعية، ولكن تظل للثقافة العامة خصائصها وسماتها التي تؤثر في الأبنية المختلفة للأفراد.

ثانيًا : الأسرة أو تنشئة الوالدين Family or Parental Upbringing

تلعب الأسرة الدور الحاسم والرئيسي والأول في تنشئة الطفل؛ ذلك لأنها أول مؤسسة تستقبل الطفل، وتحوله من إنسان بيولوجي إلى إنسان اجتماعي من خلال تعليمه وتدريبه وتعويده على سلوكيات معينة مرغوبة، ورفض سلوكيات أخرى، ونلخص وظائف الأسرة في:

١- أنها تمثل الجماعة الاجتماعية التي تستقبل الفرد وليدًا وتنهض برعايته وإشباع حاجاته حتى يتحقق له القدر اللازم من النضج الذي يساعده على الاعتماد على ذاته.

٢- أنها تحدد للفرد نطاق حركته في المجتمع وذلك في إطار ظروفها الاجتماعية والاقتصادية.

٣- أنها تقوم بعملية تنقية لما يتلقاه الفرد من أفكار وخبرات من خارجها، حيث يتم تقويمها وتحديد الملائم وغير الملائم.

٤- أنها تعد بمثابة حلقة الاتصال بين الفرد والمجتمع، حيث تنقل التراث الثقافي والحضاري للمجتمع إلى الفرد من خلال عملية التنشئة الاجتماعية وإذا كانت الأسرة تقودنا إلى العديد من القضايا البالغة الأهمية مثل : حجم الأسرة، والفرق بين أسرة النشأة أو الأصل أو الأسرة التي يكونها الفرد بعد أن يشب من الطفولة، كذلك ترتيب الفرد في الأسرة، وعلاقة الأسرة بالأسر الأخرى، ومدى الإشباعات التي يحصل



عليها الفرد من خلال أسرته، فإن مناقشته مثل هذه القضايا سوف يشغل حيزًا كبيرًا قد يخرجنا عن الإطار المحدد سلفاً لتناول مثل هذه المنظمات الاجتماعية.

الأساليب التي تتبعها الأسرة في التنشئة :

لا تتبع الأسرة حتى وإن كانت داخل المجتمع الواحد أسلوبًا واحدًا في التربية بل تنتهج العديد من الأساليب، إضافة إلى أن الدراسات قد ركزت على منظور واحد هام جدًا في تناول مثل هذا الأمر ألا وهو: كيفية إدراك الطفل للمعاملة الوالدية، وقد تربي الأسرة أبناءها بأسلوب معين ويدرك هذا الطفل ذلك الأسلوب بطريقة مختلفة عن شقيق آخر لم يتواجد في نفس الحيز المكاني والزماني. وتم تحديد هذه الأساليب كما يدركها الطفل في :

أ- **أسلوب الرفض :** ويعني إدراك الطفل من خلال معاملة والديه له أنهما لا يتقبلانه وأنهما كثيرا الانتقاد له، ولا يبديان مشاعر الود نحوه، ولا يحرصان على مشاعره، ولا يقيمان وزنًا لرغباته بل العكس هو الصحيح، ولذا فإنه يشعر بالتباعد بينه وبين والديه، ويشعر بأنه غير مرغوب فيه.

ب- **أسلوب الحماية الزائدة :** وهو إدراك الطفل من خلال معاملة والديه له أنهما يخافان عليه بصورة كبيرة، أي أكثر مما يرى في معاملة زملائه وأصدقائه من آبائهم، وأن والديه يعملان على حمايته من كل مكروه ولا يريدان له أن يتعرض لأي موقف يؤذيه جسميًا أو نفسيًا ويلبيان له كل رغباته، ولا يرفضان له طلب ويظهران اللهفة والقلق عليه، وقد لا يرغب الطفل في بعض هذه الأساليب بيد أن والديه لا يحفلان بمثل هذه الاعتراضات التي يبديها الطفل.

ج- **أسلوب التحكم :** وهو إدراك الطفل من خلال معاملة والديه له أنهما يقيدان حركته ولا يعطيانه الحرية الكافية للحركة والنشاط كما يريد، ولا يسمحان له بحرية التعبير عن نفسه وعن مشاعره، أي أن تقييد الحرية يشمل الجانب المادي والجانب المعنوي معًا ويدرك الطفل أن والديه يعمدان إلى رسم خطوط محددة عليه ألا يتخطاها وعليه ألا يتصرف ويسلك ليس كما يريد ولكن كما يريد الوالدان.

د- **أسلوب الإهمال :** وهو إدراك الطفل من خلال معاملة والديه أنهما يهملانه ولا يحفلان به، بحيث إنه لا يعرف مشاعرهما نحوه بالضبط وهل هي سلبية أم إيجابية وبالتالي لا يعرف موقف الوالدين من تصرفاته وهل هما راضيان أم ساخطان، مؤيدان أم معارضان.

و – **أسلوب بث الثقة والشعور بالذنب:** وهو إدراك الطفل خلال معاملة والديه له أنهما يتبعان في تربيته مختلف الأساليب التي تثير ضيقه وألمه غير العقاب البدني، وتثير لديه العديد من مشاعر الذنب والقلق من خلال اللجوء إلى : التأنيب / اللوم / التوبيخ / السخرية /



إجراء المقارنات في غير صالحه / تذكيره بالتضحيات التي بذلت من أجله / التأكيد عليه بضرورة التفوق.. الخ.

ز – **أسلوب التذبذب** : وهو إدراك الطفل من خلال معاملة والديه له أنهما لا يعاملانه معاملة واحدة في الموقف الواحد، بل إن هناك تذبذبًا قد يصل إلى درجة التناقض في موقف الوالدين، وهذا الأسلوب يجعل الطفل يفشل في توقع رد فعل والديه إزاء سلوكه.

ح- **أسلوب التفرقة:** وهو إدراك الطفل من خلال معاملة والديه له أنهما لا يساويان بين الأخوة في المعاملة، وأنهما قد ينحازان لشقيق دون آخر ويزيد ذلك من إدراكه السيئ إذا كانت التفرقة السلبية تقع عليه هو.

ط – **الأساليب الصحية في التنشئة** : وهو إدراك الطفل من خلال معاملة والديه له أنهما يعاملانه معاملة طيبة، ويعطيانه الحرية ويلبيان رغباته في معظم الحالات، وفي هذه الحال يشعر الطفل بحب والديه الثابت والدائم له، كما يشعر بالدفء الأسري، والعلاقات الحانية من جانب والديه، كما لا يفرق الوالدان في المعاملة بين الأشقاء، ولا يلجآن كثيرًا إلى العقاب البدني، ولا يأتيان تصرفات تقلل من شأن الطفل، ولهما موقف ثابت في معاملته أو إذا حدث وعوقب الطفل فإنه يعاقب عقاب يستحق مقدار الجرم أو الخطأ الذي ارتكبه، باختصار فإن الطفل يلقى من والديه جملة الحقائق النفسية والتربوية السليمة في التنشئة الاجتماعية (علاء الدين كفافي، ١٩٨٩، ٢٢١: ٢٢٩).

ثالثًا : المؤسسات التعليمية :

تلعب المؤسسات التعليمية التي يلتحق بها الفرد في الجزء الأول من حياته دورًا هامًا في عمليات التنشئة الاجتماعية. حيث تكون هذه المؤسسات رسمية بها قواعد وقوانين وتضع العديد من الشروط لمن يلتحق بها، كما أنها تعد أولى المؤسسات التي يلتحق بها الفرد بعد أن قضى فترة لا بأس بها من طفولته في كنف ورعاية الأسرة.

وعمومًا فإن المؤسسات التربوية تهدف إلى تحقيق المبادئ الآتية:

١- لكي يتوصل الفرد إلى تحقيق ذاته يجب أن يكون له عقل متسائل كما يجب أن يمتلك مهارات للتواصل المثمر ومعرفة الصحيح ومقدرة على إرضاء اهتماماته العقلية والجمالية.

٢- يجب أن يحقق الفرد علاقات اجتماعية مريحة ومفيدة وسعيدة ضمن أسرته ورفاقه، وعليه أن يتعلم كيف يتعامل مع الآخرين وأن يحترم الإنسانية في ذاته وفي غيره.



٣- عليه أن يتوصل إلى الكفاية الاقتصادية، وذلك بأن يصبح مستهلكًا ذكيًا وأن يحترف حرفة مناسبة لمواجهة واهتماماته وحاجات مجتمعه.

٤- عليه أن يستشعر المسئولية المدنية التي تشمل فيها قواعد ومعايير المجتمع، وأن يكون لديه الانتماء والولاء لوطنه، مستعدًا للدفاع عن هذا الوطن.

تلك كانت أهم المبادئ التربوية التي نقوم على تحقيقها في المؤسسات التربوية كما أن هناك جانبًا هامًا ألا وهو أن القائم بعملية التدريس والتعليم يكون قدوة للطلاب، كما يحدث أن يتفاعل الطالب مع العديد من زملائه وفي اليوم الواحد أكثر من مرة؛ ولذا فإن القائمين بعملية التعليم يمثلون دورًا هامًا في عملية التنشئة الاجتماعية سواء كقدوة أو كقائمين بتشكيل الشخصية والسلوك الاجتماعي، ولذا لا يجب أن يتعارض ما يتعلمه الفرد في أنظمة التعليم المختلفة عن ما يتعلمه من الأسرة.

رابعاً : جماعة الرفاق :

تقوم جماعة الرفاق أو الصحبة أو الشلة بدور هام في عملية التنشئة الاجتماعية وفي النمو الاجتماعي للفرد، وتساهم جماعة الرفاق في تشكيل العديد من المعايير؛ لأنها عادة ما تكون متقاربة وفي الأدوار الاجتماعية، إضافة إلى وضوح المعايير السلوكية ووجود اتجاهات مشتركة ووجود قيم عامة. ويرجع تأثير جماعة الرفاق إلى أن هذه الجماعة تقوم بعملية إيجابية أو سلبية للأطفال والمراهقين تظهر في قبول الجماعة أو عدم قبولها لأي فرد كعضو ينتمي إليها، ورغم أن التقييم من قبل الوالدين له أهمية كبرى بالنسبة للأطفال والمراهقين إلا أنهم كثيرًا ما يفضلون التقييم الإيجابي من قبل الرفاق وقبوله على أي تقييم آخر سواء من الوالدين أو المعلمين، وربما ترجع الأهمية التي يوليها الطفل أو المراهق لتقييم جماعة الرفاق إلى أنه قد يشعر أن الوالدين أو المعلمون قد يبالغون في قبوله وإيجابيته أو في نقده، كذلك فإن كل فرد يحتاج إلى من يقيمه في نفس سنه تقريبًا.

كذلك يرجع تأثير جماعة الرفاق إلى أنها كثيرًا ما تغزي التمرد على المطالب الخاصة بالتنشئة والتي يفرضها الكبار، ولذا فقد يتمرد الشباب مثلاً على والديهم وينضمون إلى جماعات من الرفاق تخالف ما تآلف السوق عليه، مما يعرضهم إلى سخط المجتمع، فيثبت لديهم أن الكبار – الآخرين – لا يفهمونهم ويقفون كالعقبة الكئود في طريقهم. ولذا فإن التمرد أو الانصياع التام قد يخفي وراءه مطالب نفسية واحتياجات، وقد يكون ذلك بهدف لفت الأنظار أو كنوع من العدوان السلبي الموجه ضد كافة أشكال السلطة وتحديدًا السلطة الوالدية.



خامسًا : وسائل الإعلام أو وسائل الاتصال Massmedia

تلعب وسائل الإعلام الدور الحاسم والرئيسي في عملية التنشئة وكذا في تكوين أو في تعديل الاتجاهات أو بلورة قيم معينة تتفق والثقافة السائدة في المجتمع. ذلــك لأن الإنــسان لا يعيش في فراغ دائمًا تكون شخصيته هي نتاج المجتمع الذي يعيش فيه وأســاليب الاتــصال بمختلف مستوياتها وأنواعها، إضافة إلى أن أي مجتمع لا يعيش بدون اتصال كما أن الاتصال لا يمكن أن يحدث إلا بداخل فرد خلال نسق اجتماعي، وأن الإعلام له دور هام في تــشكيل عقلية ووعي وثقافة وقيم واتجاهات ومعايير الأفراد بل لا نغالي إذا قلنا أن وسائل الإعلام قــد تحتل مكان الوالدين والمؤسسات التعليمية في نقل العلم والمعرفة وما يجب وما لا يجب مــن خلال ما تبثه عبر الوسائل المختلفة ومن خلال الإبهار الإعلامــي المتمثــل فــي الــصوت والصورة والمؤثرات الصوتية وغيرها.

ولكي تحظى الوسائل بالتقبل والاهتمام لا بد أن تهدف إلى إشباع الحاجــات النفــسية للجماهير وتلبية رغباتها ومن أهم حاجات الجماهير التي يشبعها الإعلام ووسائل الاتصال:

١- الحاجة إلى المعلومات والتسلية والترفيه.

٢- الحاجة إلى الأخبار حول مشكلات الساعة.

٣- الحاجة إلى رفع مستوى المعارف والثقافة العامة.

٤- الحاجة إلى دعم الاتجاهات النفسية وتفريز المعايير والقيم والمعتقدات أو تعــديلها والتوافق مع الموقف الجديد.

وتتنوع وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة، ولعل من أهمهــا التليفزيــون، حيث إن هذا الجهاز السحري قد دخل كل بيت تقريبًا وله جمهــور عــريض، إضــافة إلــى خصائص معينة ينفرد بها تتمثل في الصوت والصورة والحركة واللون في آن واحــد، كمــا يمتلك القدرة على الاحتفاظ بمواده لكي تكون أرشيفًا شاملاً للحياة وسجلاً حافلاً للتفاعل الثقافي والاجتماعي. إضافة إلى أن يحيا المشاهد في الآني المباشر ويسقط أي شعور بالبعد الزمــاني وحتى المكاني ويتلاقى الاثنان – في عالم واحد، كما أن لديه القدرة علــى إحاطــة الأفــراد والجماعات بكل مستلزمات التفاعل والإقناع والتخاطب النفسي كما أن جمهوره أكبر جمهور؛ لأنه الوسيلة التي تقدم معلومات وأفكار دون جهد، بالرغم من أنه يساعد على الــسلبية لــدى مشاهديه؛ لأن الأفراد غير مشاركين بأي أفكار تجاه هذه الوسيلة وهم متلقون، إضــافة إلــى قدرة التليفزيون على اقتحام كل منزل دون أن يستأذن أصحابه.



وغني عن البيان ذكر العديد من الدراسات التي توضح تأثير التليفزيون في زيادة العنف لدى الشباب، أو زيادة الاستهلاك، أو تغير في عملية التنشئة الاجتماعية بل تنسف ما تقوم به وسائل التنشئة الأخرى من أساليب تربوية.

سادسًا : دور العبادة أو المؤسسات الدينية:

يلعب الاعتقاد الديني دورًا هامًا في عملية التنشئة الاجتماعية، واكتساب الفرد العديد من الخصائص والصفات التي توجه سلوكه وقد تقوده إلى الاعتدال أو التعصب أو التطرف، إضافة على أن العديد من الدراسات أوجدت أهمية أن يكون للإنسان اعتقادًا ما حتى يشعر بالراحة والطمأنينة النفسية وعن الأثر الذي تلعبه دور العبادة في عملية التنشئة الاجتماعية يكون كالآتي:

- تعلم الفرد والجماعة التعاليم الدينية والمعايير السماوية التي تحكم السلوك بما يضمن سعادة الفرد والمجتمع.
- إمداد الفرد بإطار سلوكي معياري مرتضى من قبل الجماعة التي ينتمي إليها.
- تنمية الضمير عند الفرد والجماعة (أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك).
- الدعوة إلى تطبيق التعاليم إلى سلوك عملي (الدين المعاملة).
- توحيد السلوك الاجتماعي بين كافة الطبقات المنتمية إلى اعتقاده بغض النظر عن طبيعة المستويات الاجتماعية / الثقافية / الاقتصادية .. الخ.
- كما تتبع دور العبادة العديد من الأساليب التي تعمل على إكساب السلوك المقبول. وتتلخص في:
  - الترغيب والترهيب والدعوة إلى السلوك السوي.
  - التكرار والإقناع والدعوة إلى المشاركة الجماعية والممارسة.
  - عرض النماذج السلوكية النموذجية.
  - الإرشاد العملي.

علمًا بأن كافة مؤسسات التنشئة الاجتماعية تتبع العديد من الأساليب مثل: التدعيم والعقاب والقدوة – وهي أساليب متنوعة تهدف في نهاية الأمر إلى إكساب الفرد طابع الجماعة والثقافة التي ينتمي إليها، ورغم الاختلافات والفروق الفردية إلا أنه يمكننا أيضًا – وفي نفس الوقت الحديث عن الطابع القومي المميز لهذا المجتمع. وهناك من العلماء الذين تناولوا البيئة أكدوا على أن ما يمكن أن نطلق عليه الوراثة الاجتماعية Social Inheritance ويقصد به ما تتناقله الأجيال عن بعضها بفعل التنشئة الاجتماعية من عادات وقيم ومثل ومعايير ثقافية



وأخلاقية وعلم وفن ودين .. أي الموروث الثقافي بصفة عامة، ويلاحظ أن معنى الوراثة هنا هو معنى مجازي وليس معنى حرفيًا حقيقيًا؛ إذ إن معنى الوراثة الحقيقي هو ما ينتقل من الآباء عن طريق الجينات من خصائص جسمية وعقلية ونفسية كلون البشرة والذكاء (فرج طه، ١٩٩٣، ص ٨٤٣).

ولعل من أهم الدراسات التي تناولت علاقة التنشئة الوالدية والأمراض النفسية دراسة علاء الدين كفافي (١٩٨٩) حيث هدف البحث إلى دراسة التنشئة الوالدية في نشأة العصاب القهري وذهان العظام، وقد افترض الباحث مجموعة من الفروض حول التنشئة الوالدية في نشأة هذه الاضطرابات واستعان بعينة من ثلاث مجموعات. مجموعة فصامية، مجموعة عصابية قهرية، مجموعة سوية (ن: ٣٠ في كل مجموعة وجميعهم من الذكور إضافة إلى تساوي كافة الشروط الأخرى).

أما عن الأدوات فقد استخدم الباحث استفتاء لقياس إدراك الفرد لنوع المعاملة الوالدية التي تلقاها في الصغر وطبقه على جميع أفراد العينة، إضافة إلى عشر بطاقات من اختبار تفهم الموضوع على ثلاث حالات من كل مجموعة.

أهم نتائج البحث :

أ) النتائج السيكومترية:

١ - هناك فروق دالة في أساليب التنشئة الوالدية الخاطئة بين المجموعة السوية وكل من المجموعتين الفصامية والقهرية، وكان الفرق في جانب المجموعتين المريضتين مما يوحي بوجود علاقة بين التعرض لهذه الأساليب في الصغر والإصابة بالعصاب القهري أو الفصام فيما بعد.

٢- هناك فرق دال في أساليب التنشئة الوالدية الصحيحة بين المجموعة السوية وكل من المجموعتين الفصامية والقهرية، وكان الفرق في جانب المجموعة السوية مما يوحي بوجود علاقة سلبية ين الأساليب الصحيحة في التنشئة في الصغر والإصابة بالعصاب القهري والفصام فيما بعد.

٣- هناك فرق دال متغير التباين في التنشئة الوالدية بين المجموعة السوية وكل من المجموعتين الفصامية والقهرية، وهذا الفرق في جانب المجموعين المرضيتين، مما يوضح أن التباين بين الوالدين في تربية الطفل من الأساليب الخاطئة ذات الأثر السيئ على النمو النفسي للطفل.



٤- كانت الفروع الدالة بين المجموعة السوية والمجموعة القهرية أكثر من الفروق الدالة بين المجموعة السوية والمجموعة الفصامية مما يشير إلى التنشئة الوالدية تسهم بصورة أكبر في نشأة العصاب القهري ونموه أكثر مما يحدث في ذهان الفصام.

٥- كانت هناك متغيرات مشتركة بين القهر والفصام، بمعنى أن الفروق في هذه المتغيرات دالة بين الأسوياء والقهريين، كما هي دالة بين الأسوياء والفصاميين، كما كانت هناك متغيرات خاصة بالقهر فقط أي أن الفروق كانت دالة فقط بين الأسوياء والعصابيين القهريين.

ب) أهم الفروق الدينامية:

أظهرت الاستجابات على بطاقات التباين أن هناك نسبة من الفجاجة والاضطرابات عند الوالدين بالنسبة لأفراد المجموعتين الفصامية والقهرية، وأن الفجاجة والاضطراب عند الوالدين بالإضافة إلى عوامل أخرى مثل الجهل ونقص الوعي التربوي – وراء المعاملة الخاطئة في الأسرة المنجبة للفصامي والأسرة المنجبة للقهري، كما أن طبيعة العلاقات في الأسرة الفصامية والقهرية تختل عن تلك العلاقات السائدة الطيبة في الأسرة السوية.

وأن هناك بعض العمليات الأسرية غير السوية تحدث في الأسر الفصامية والقهرية أكثر مما تحدث في الأسر العادية السوية مثل القلب في الأدوار والصراع بين الوالدين وما يتبعه أحياناً من طلاق عاطفي بين الزوجين.

وجفاف العلاقات داخل الأسرة وجمودها كما أظهرت النتائج الإسقاطية أن نمط الوالد في الأسرة الفصامية يغلب عليه السلبية والقصور والغياب عن المواقف الهامة بالنسبة لنمو الطفل، أما نمط الوالدة فيتغلب عليه السيطرة والعدوانية ويتم ذلك على أرضية من عدم الأمن الذي تشعر به الوالدة. وفي الأسرة القهرية يغلب على الوالد أيضًا الإهمال مع القسوة من ناحية والقصور والضعف من ناحية أخرى، بينما تتسم الوالدة بأنها عدوانية / متحكمة/ مؤنبة.

على عكس طبيعة الوالد في الأسرة السوية حيث يتحمل الوالد مسئوليته، وقد يقف في وجه رغبات الابن أحياناً ولكن الحوار بينهم متصل ويدرك الابن مبررات سلوك الوالد في حين أن الوالدة مانحة للعاطفة ومصدر دائم للحنان والتفهم (علاء الدين كفافي، ١٩٨٩ هجر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة).



الفصل التاسع

الإنسان والدافعية



الفصل التاسع

الإنسان والدافعية

مقدمة :

يعد موضوع الدافعية Motivation من أكثر موضوعات علم النفس أهمية – حتى لرجل الشارع العادي – إذ يظل أي سلوك غامضًا طالما لم يعي دوافعه. فمثلاً قد يرتكب شخص ما جريمة. ويظل المعنى غامضًا حتى يتم استجلائه من خلال التحقيقات والتي تكشف عن كافة الدوافع التي دفعت بالشخص إلى ذلك.

ومن هنا فإن دوافع السلوك تريدنا نفهم أنفسنا ونفهم الآخرين الذين نتعامل معهم إضافة إلى أن الدوافع تساعد كذلك على إمكانية التنبؤ بالسلوك الإنساني في المستقبل فإذا عرفنا دوافع صديق ما وردود أفعاله في المواقف المختلفة وقمنا نحن باستجابة تعلم السلوك مقدمًا أنها تثير لديه استجابة ما أو من هنا فإن تحقيق ذلك يساعدنا على إمكانية التنبؤ.

تعريف الدافع :

تتعدد التعريفات التي تقدم لمفهوم الدافع أو لعل هذا التعدد ناتج من أن هذا المفهوم مثله مثل غيره من المفاهيم في علم النفس – مفهوم فرضي Hypothetical يستدل عليه من سلوك الكائن الحي وبالتالي يستخدم مفهوم الدافعية لتحديد اتجاه السلوك وشدته، إلا أن الدافع هو الذي يحرك السلوك وينشطه ويوجهه نحو هدف معين. ومن أهم التعريفات التي قدمت لمفهوم الدافع أنه حالة استثارة وتوتر داخلي يديره السلوك ويدفعه إلى تحقيق هدف معين. فالفرد الجائع – مثلاً – يظل في حالة نشاط حتى يحصل على الطعام أي أن طاقته تكون موجهة نحو تحقيق هدف معين، فإذا تحقق ما أراد أخذ السلوك في التلاشي نتيجة تلاشي الضيق الذي رافق عملية الجوع مثلاً.

لذا يعرف الدافع أحيانًا بأنه حالة من توتر الجسم / النفس تثير السلوك وتوصله لأن يستمر على هذا المنوال حتى يتحقق الهدف منه فيزول التوتر. والخلاصة أن الدافع قوة محركة / موجهة في آن واحد حيث يظل السلوك في حالة نشاط حتى يزول التوتر والأسباب التي قادت إلى هذا التوتر. وهناك العديد من المفاهيم وثيقة الصلة بمفهوم الدافعية مثل الحاجة Need والتي تعني الشعور بنقص شيء معين والحافز Drive ويشير إلى العمليات الداخلية، والباعث Incentive حيث يشير إلى موضوع الهدف الفعلي الموجود في البيئة الخارجية والمثير والرغبة.. الخ.



بيد أننا نرى كل مفهوم من المفاهيم السابقة يشير إلى جانب من جوانب الدافع وأن المفهوم الشامل الذي يحتوي على كل هذه المفاهيم هو مفهوم الدافعية أو الدفاع.

عرض تاريخي مختصر لتطور مفهوم الدافعية :

لا نستطيع أن ندرس أي موضوع في علم النفس دون أن يفرض مفهوم الدافعية نفسه على الباحث أو الدارس. فهل هناك تعلم بلا دافعية أو عمل بلا دافعية.

تصنيف الدوافع :

هناك عددًا من الاجتهادات التي توصف على أساسها الدوافع، ولعل التصنيف الأكثر شهرة ويسر وموضوعية هو:

أولاً : الدوافع الفسيولوجية :

ويطلق عادة على الحالات الفسيولوجية الناتجة عن وجود حاجات فسيولوجية خاصة ومرتبطة بوجود وحياة وبقاء الكائن الحي؛ ولذا فإن الدوافع الفسيولوجية تتصف بالآتي :

١- أنها دوافع عامة توجد لدى جميع الكائنات الحية (بشر / حيوانات).

٢- أن هذه الدوافع تؤدي إلى وظيفة بيولوجية هامة هي المحافظة على بقاء الكائن الحي واستمرار النوع.

٣- أن هذه الدوافع قوية أي يلد بها الكائن الحي ويظل يشبع هذه الدوافع حتى تنتهي حياته.

٤- أن هذه الدوافع تحدث نتيجة لاختلاف التوازن العضوي والكيميائي للجسم فإذا اختل هذا التوازن الذاتي ينتج عنه اضطراب أو نقص عضوي وكيميائي في الجسم.

ولعل من أهم هذه الدوافع:

١- دافع الجوع :

تستهلك جميع الكائنات الحية في حياتها طاقة حرارية، وتحتاج إلى مخزون لها أو معوض للمنصرف منها لكي تستمر الحياة، لذلك يؤدي نفس مقدار الطاقة إلى ظهور الحاجة إلى الطعام على أساس أنه مصدر للطاقة لذلك كان دافع الجوع دافعًا أوليًا؛ لأنه يظهر منذ الولادة. كما أن الطعام ضرورة لكافة أجهزة الجسم. لذلك وجدت التجارب التي أجريت حول مجموعة من الأشخاص في حالة جوع أن كل أحلامهم تدور حول الطعام، بل إن الأشكال التي عرضت عليهم من وراء حاجز زجاجي قد فسروها على أساس أنها أشكال لأنواع مختلفة من الأطعمة.



وهذا بطابعه حقيقة "أن الجوعان يحلم بسوق العيش" أو كما تقول الأمهات "من جاعوا زنَّوا ومن شبعوا غنوا" دلالة على أن الجسم والانفعالات الناتجة من جراء الجوع تختلف بلا شك عن تلك الحالة في حالة سد الرمق أو إشباع هذا الدافع الحيوي وقد كان المظنون أن مصدر الجوع يتولد من خلال تقلص عضلات المعدة. بيد أن التجارب التي أجريت على أشخاص قد تم استئصال معدتهم وجدوهم يشعرون أيضًا بالجوع. وهنا تركزت الجهود في البحث عن المكان الذي ينبعث منه هذا الإحساس. مما جعلهم يرجحون أن الإحساس بالجوع ينتج منه نقص السكر في الدم كما وجد العلماء أن مراكز التنظيم تقع في قاعدة المخ ولها العديد من الموصلات بأجزاء المخ الأخرى إضافة إلى الغدة النخامية لذلك يلعب الهيبوثلامس دورًا هامًا في تنظيم تناول الغذاء.

وأن وجود أي اضطرابات في هذا المركز يقود إلى العديد من دروب الاضطراب مثل الإفراط في تناول الطعام (الشره) أو العزوف عن الطعام وكلا الأمرين خاطئ؛ لأن الشره يقود إلى العديد من المشكلات أهمها زيادة الوزن والتي تعد من أهم المشاكل في الوقت الراهن ولعل نظرة سريعة على المراكز التي يتم تخصيصها لمعالجة السمنة والمبالغ الطائلة التي تصرف على أدوية التخسيس (مع الأخذ في الاعتبار كافة الأضرار الطبية التي تحيقها بمن يتناولها لفترة طويلة)، ولعل إيقاع الحياة الراهنة والتي تجعل الفرد يتناول العديد من الأطعمة دون بذل المجهود الكافي لتعويض الطاقة يقود إلى السمنة.

وهناك ثلاثة متغيرات أو عوامل تؤثر في تحكم الهيبوثلامس في الشهية وهي :

١- مستوى السكر في الدم.

٢- مدى امتلاء المعدة.

٣- درجة حرارة الجسم.

حيث إن انخفاض مستوى السكر في الدم الذي يجعلنا نشعر بالجوع، وكذلك خواء المعدة من أكل يقود إلى ضروب من التقلصات الموجودة بمركز الجوع في الهيبوثلامس، كما أن درجة حرارة الجسم تقود إلى التعرف على كميات الطعام حيث يستهلك الأشخاص في البيئات الحارة كميات قليلة من الطعام على عكس حال الأفراد في البيئات الباردة.

٢- دافع العطش :

لكي يستمر الكائن الحي في الحياة يجب أن يتم تنظيم تناول كل من الماء والغذاء. وإذا كانت التجارب الحياتية قد وافقتنا على حقيقة أن الإنسان الذي يستطيع أن يعيش بلا طعام لعدة أسابيع غير أن ذلك غير ممكن فيما يتعلق بغريزة العطش أو الحاجة إلى الماء. ونقص الماء



يقود الكائن الحي إلى البحث عن الماء رغم أن الجسم يحاول بعملية ذاتية سد هذا النقص من خلال طريقتين :

١- الشرب .

٢- استرداد الماء من الكليتين قبل إفرازه على شكل بول.

وكلنا يعلم أن الشخص (العطشان) يعاني من جفاف الفم والحلق (نصف ذلك بقولنا "ريقنا نشف") على العكس حين يتناول الشخص الماء. حيث نصف ذلك بقولنا "ارتوينا".

والمفروض أن لا يجعل الشخص نفسه يصل إلى درجة الجفاف؛ لأن نقص الماء يقود إلى العديد من ضروب الاضطراب داخل أجهزة الجسم ومنها:

١- نقص كمية من السوائل بالدم والمحيطة بخلايا الجسم.

٢- زيادة تركيز بعض المواد وبصفة خاصة الصوديوم (ملح الطعام).

٣- الجنس :

ويعد الجنس أحد الدوافع الأساسية الحركة القوية ولعل فائدته أنه يهدف إلى الحفاظ على بقاء النوع، كما يمكن الشخص أن يستغني عن ممارسة الجنس (حيث نجد العديد من الرجال والسيدات قد عزفن عن الزواج مثلاً) يبدو أن الأمر يختلف تمامًا حين نتحدث عن الدوافع الفسيولوجية الأخرى.

وهناك العديد من الأسس الفسيولوجية للسلوك الجنسي مثل الهرمونات حيث تنظم الغدة النخامية الهرمونات المسئولة عن نمو أعضاء الجنس وأدائها الوظيفي، وتقوم هرمونات الغدة النخامية بتنبيه المبيض لدى الإناث كي يقوم بتكوين هرمونات الجنس وهي الاستروجينات Estrogen والبروجسترون Progesterone وكذلك الحال لدى الذكور إضافة إلى العديد من العوامل الأخرى مثل الميكانيزمات العصبية، وأساليب التربية والمواقف من الجنس، ودرجة تمدين المجتمع، حيث وجدت الدراسات الأنثربولوجية في العديد من المجتمعات البدائية أنه لا توجد مشكلة وأنه بمجرد دخول الفتاة والفتى في حالة المراهقة فإنه يتم الزواج.

على عكس الحال في المجتمعات الأكثر تعقيدًا والتي تتطلب لإشباع هذه الغريزة العديد من الإمكانيات مما يقود إلى تأخر سن الزواج أو عدمه نهائيًا مما يدخل الفرد في دور "العنوسة" أو ضروب من الانحرافات الجنسية والتي تتعدد وتتباين وفقًا لثقافة الأفراد ومدى تسامح الثقافة السائدة تجاه ذلك.



٤- دافع التنفس :

إذا كان الطعام والماء مصدرين للطاقة فإن الأكسجين هو العنصر الضروري لاحتراق هذه الطاقة في الجسم وتوليد الحرارة اللازمة له.

واحتياج الإنسان وغيره من الكائنات الحية الهوائية عملية أساسية، بل إن الكائنات إذا كانت تتحمل ٧٦ درجة كبيرة من الجوع والطعام ودرجة أقل من العطش، فإن إيقاف التنفس لدقائق معدودات يقود إلى أن يفقد الكائن حياته.

ولذا فإن الدول المتقدمة تحرص على صحة مواطنيها من خلال قوانين البيئة وتشجير الأحياء السكنية وإبعاد كافة الملوثات عن الأفراد؛ لأن إهمال ذلك سيقود إلى العديد من الأمراض مما يجعل الدول تنفق أموالاً طائلة على علاج مواطنيها.

٥- الدافع إلى الإخراج :

بعد أن تتعامل أجهزة الجسم المختلفة مع الطعام والسوائل تنتج فضلات لا حاجة للجسم إليها يتم التخلص منها. ومن هنا فإن أساليب التربية تنشط لتعليم الوليد الطرق والأماكن المخصصة لتتعامل مع هذه الوظائف الحيوية لبقاء الكائن الحي.

ثانيًا : الدوافع الاجتماعية :

لا يعيش الإنسان بدوافعه الفطرية (والتي تحدثنا عنها توًا). ولكن أيضًا يكتسب من خلال تواجده مع الآخرين العديد من الدوافع الاجتماعية والتي قد تتكون من :

١- دوافع اجتماعية عامة: حيث يجيز المجتمع في فترة ما دوافع معينة عند أفراده.

٢- دوافع حضارية : تختلف من مجتمع لآخر.

٣- دوافع اجتماعية فردية: وتختص فرد دون آخر، فهذا يريد أن يكون طبيبًا أو محاميًا أو عاملاً.... إلخ.

ولعل من أهم الدوافع الاجتماعية :

١- الحاجة إلى الأمن :

بعد أن يفرغ الشخص من إشباع دوافعه وحاجاته الفسيولوجية تظهر لديه الحاجة إلى أن يكون آمنًا. وتظل هذه الحاجة تفرض تأثيرها حتى لدى الكبار. ولعل من أشهر التجارب على هذا الإحساس بالأمن وأهميته كضرورة حياتية: أن أتى مجموعة من العلماء بمجموعتين من القطط، المجموعة الأولى تم وضع كمية قليلة من الطعام لهم ولكن تم توفير جو آمن، على عكس مجموعة أخرى تم وضع كمية من الطعام لها ويتعرضون لمجموعة من المنغصات



التي تفقدهم راحة البال. وكانت النتيجة أن المجموعة الأخيرة تعرضت للـزوال والأمـراض وظهور علاقات القلق والرعب لديهم.

وإذا تركنا الحيوانات جانبًا وألقينا نظرة على الإنسان فلعل حالات الخوف والرعـب من جراء وجود تسمم في أكلات معينة أو لحوم ما (مثل ظاهرة جنون البقر) قد يقـود إلـى ضروب من القلق تصل إلى درجة الرعب – حتى الخالق عز وجل – حين طلب من الإنسان أن يعبده فإنه لم يطلب ذلك منه إلا بعد أن تعهد بأن يشبع غريزتي (الجوع والعطش). **﴿لإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾** . (سورة قريش).

٢- الحاجة إلى الانتماء :

وتظهر لدى الشخص وتزيد من شعوره بالأمن والتقدير الاجتماعي حين ينتمـي إلـى جماعة قوية يتقمص شخصيتها ويوجد نفسه بها كالأسرة أو المدرسة أو النقابة أو حتى الدولة أو العقيدة، ولا تقتصر الحاجة إلى الانتماء على مجرد ميل الفرد إلى الوجود في جماعة، بـل إن قوامها هو شعور الفرد بأنه جزء متكامل من جماعة يتعاون أفرادها ويتـساندون ويهـتم بعضهم البعض، بل إن العديد من الدراسات التي تناولت الفرد داخل الجماعة حتى وإن كان لا يعرف أفرادها تظهر ما يسمى بسيكولوجيا الحشد، كما أن وجود الفرد وسط جماعـة يجعلـه يلتزم بعادات وتقاليد الجماعة وإلا تعرض للنبذ والطرد. لكن رغم ذلك تظـل هـذه الحاجـة أساسية لدى الإنسان.

٣- الحاجة إلى الحب والتقدير :

والمقصود بهذه الحاجة هو أن يحب الشخص نفسه ثم يتبادل هذا الحب مع الآخـرين، ولا نقصد بالحب هو قيام تلك الرابطة الانفعالية بين الرجل والمرأة، بل يمتد الحـب ليـشمل معانيه، أن تحب نفسك ثم تحب الآخر ثم وطنك – بكل عناصره – وهكـذا إضـافة إلـى أن تقديرك لذاتك وتقديرك للآخرين، وشعورك أنك محبوب ومقدر من الآخرين كل ذلك يعد دافعًا قويًا لأن تنتج وتبدع وتشعر بكينونتك.

٤- الحاجة إلى تحقيق الذات :

والمقصود بهذه الحاجة رغبة الشخص في أن يحقق أحلامه وطموحاته وينطوي على الرغبة في تحسين الذات وتحقيق ما لدى الفرد من إمكانيات.

النظريات التي تفسر الدافعية :

هناك العديد من النظريات التي تفسر الدافعية ومنها :



١- نظريات الحافز

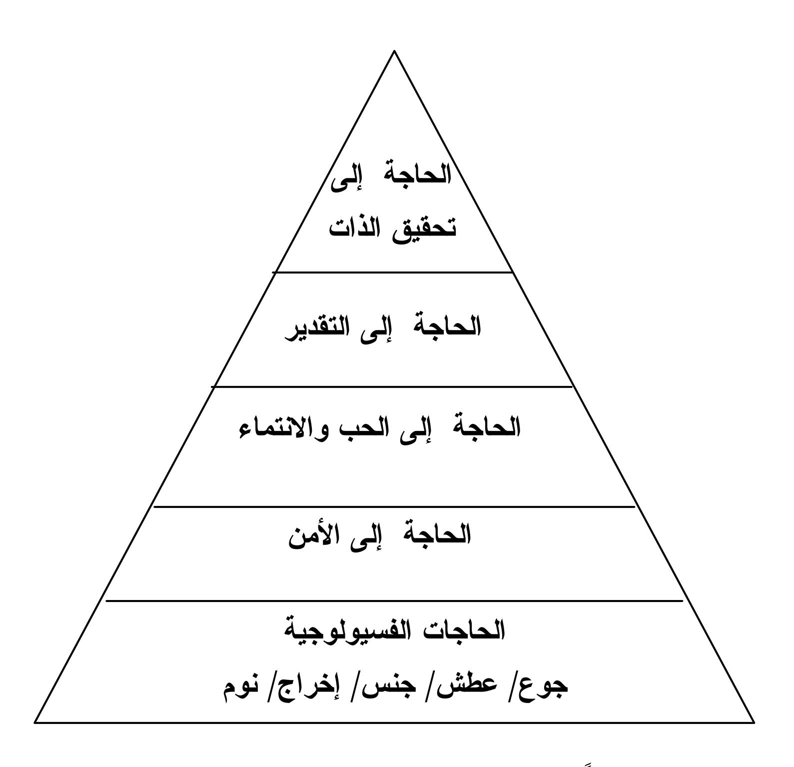
٢- نظريات الجذب

٣- نظريات الاستثارة الوجدانية .

٤- النظريات المعرفية .

٥- النظريات الوجدانية .

ولعل من أشهر النظريات التي قدمت لتغير الدافعية – وتنتمي إلى التيار الإنساني – التي قدمها "إبراهام ماسلو" والذي وضع نظامًا هرميًا للحاجات تكون قاعدته مشتركة بين الإنسان والحيوان "فإذا أشبع الإنسان دافعًا ينتقل إلى المستوى الثاني وهكذا. والشكل التالي يعبر عن هذه النظرية.



وقد سبق أن تحدثنا تفصيلاً عن هذه الدوافع والحاجات ونحن نتحدث عن تصنيف الدوافع.



الفصل العاشر

الإنسان والتعلم



الفصل العاشر

الإنسان والتعلم

مقدمة :

بداية يجب أن نفرق بين مفهومي: التعلم Learning والتعليم Education، حيث إن المصطلح الأخير، ووفقًا لموسوعة علم النفس والتحليل النفسي يستخدم بمعنيين: الأول: بمعنى عملية التدريس أو خاصة في مجال تعلم المهارات والتدريب ويمثل في هذه الحالة كل نشاط تعليميي مقصود بهدف مساعدة الفرد مع التحكم في الخبرة المتعلمة وإتقانها والقدرة على ممارستها، أما المعنى الثاني فهو اصطلاح يعني النفقات المالية المدفوعة كأجر لعملية التعليم (شاكر قنديل، ١٩٩٣، ص ٢٦٦). أما التعلم فسوف نشير إلى العديد من التعريفات التي قدمت في سياق تعريفنا للتعلم.

وغني عن البيان أن نوضح فائدة وأهمية التعلم، لأنه يغير من سلوكنا وإدراكنا مما يساعد الإنسان على الارتقاء والنمو، وجعل حياته أكثر راحة وسهولة، إضافة إلى أن التعلم عملية مستمرة وسلسلة لا تنقطع عبر مراحل حياة الإنسان ولا ترتبط بمرحلة زمنية معينة، صحيح أن التعلم قد يسرع في مرحلة ما ويبطئ في مرحلة نمو تالية، لكن تظل الحقيقة الناصعة أن النمو لا ينقطع أو من هنا جاءت المقولة أو المثل الشعبي "يموت المعلم ولا يتعلم" إشارة أيضًا إلى أن الإنسان قد تنقطع به السبل دون الإلمام بكافة المعلومات والمهارات **﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾**.

طبيعة التعلم :

التعلم عملية أساسية في الحياة وكل فرد منا يتعلم ويكتسب خلال تعلمه أساليب السلوك التي يعيش بها. وتظهر نتائج التعلم في ألوان النشاط التي يقوم بها الإنسان وفيما ينجزه من أعمال. ولو نظرنا للحياة على صعيد الأمة أو البيئة المحلية أو الفرد فإننا نجد آثار التعلم شاملة وواضحة، ولقد استطاع الإنسان خلال القرون أن يلم بخبرات الأجيال التي سبقته عن طريق التعلم وبالتالي أضاف إسهامه إلى رصيد الإنسانية المتزايد من المعارف والمهارات وقد نمت العادات والقوانين واللغات والمؤسسات الاجتماعية وتطورت واستطاع الإنسان المحافظة عليها نتيجة لقدرته على التعلم.

وواضح أن التعلم عملية تشغل جانبًا هامًا من حياة كل فرد، وهي عملية تكفل البقاء للأفراد ولهذا أنشئت المداس لكي تتم عملية التعلم بكفاءة، وتتطلب الحياة في المجتمع من الفرد أن يتعلم أعمالاً معقدة وبالغة الأهمية بحيث لا يمكن القول إن الأعمال التي يكلف الفرد



بتعلمها أمور عادية بالنسبة للنمو الإنساني؛ فالقراءة والكتابة والحساب وغيرها من المهارات التي يقتضي الأمر اكتسابها لا يتعلمها الفرد دون قصد أي لا تتأتى له بالطبيعة والفطرة التي تميز الإنسان، لا بد أن تفهم عملية التعلم وما دام التعلم يتعرض للضوابط البيئية فمن الضروري أن ننمي مهاراتنا في معالجة المتغيرات البيئية التي تؤثر في التعليم.

تعريف التعلم :

تعد طبيعة التعلم واضحة ليس فيها غموض بالنسبة للرجل العادي. فالتعلم بالنسبة له معناه اكتساب المعارف والمهارات إلا أن علماء النفس يتشككون في هذا التعريف؛ لأنه يعكس في نظرهم آراء الفلاسفة الذين يذهبون إلى أن الإنسان يولد كالصفحة البيضاء وأن المدرس يعمل على ملء هذه الصفحة بالمواد الدراسية والمعلومات النافعة. والسبب في هذا التشكك هو أن التعلم أكثر شمولاً؛ إذ إنه لا يقتصر على اكتساب المعارف، هذا على الرغم من أن المدارس والمدرسين يهتمون اهتمامًا شديدًا بحفظ المعلومات وحفظ الحقائق ويضعون للطلاب امتحانات تقيس هذه النواحي. أما علماء النفس فيركزون على السلوك ويرون أن التعلم يستهدف تغير السلوك وقد يكون ذلك في النواحي المعرفية أو النواحي الحركية أو النواحي الانفعالية.

تعريف ودورث :

يعرف ودورث التعلم بأنه نشاط يصدر عن الفرد يؤثر في نشاطه المقبل أي أن التعلم سلوك يقوم به الفرد يؤثر في سلوكه المقبل. وقد يفسر هذا التعريف على المعنى المستحسن اجتماعيًا وهذا ما يستهدفه المربون حقيقة "أي يفسر بأن التعلم سلوك يقوم به الفرد يحسن سلوكه المقبل ويزيد قدرته على التكيف فتعلم قراءة الصحيفة يساعد الفرد على قراءة كتب بنفس اللغة وتعلم الجمع يساعد على الضرب ومثل هذا يقال في مجال التعلم الحركي أو في مجال التفكير فحل تمرين هندسي مثل تطابق المثلثات يساعد على حل تمارين أخرى ومع ذلك فإن التعريف لا يشير إلى هذه الاتجاهات فهو لم يحدد اتجاه التأثير وأن ما يحقق التعلم لفرد معين هدف عاجل ولكنه لا يحقق في النهاية مصلحته، فقد يتعلم الكتابة بطريقة رديئة وقد يتعلم السرقة مما يؤثر في نشاطه اللاحق تأثرًا سيئًا.

تعريف ماكونل :

يعرف التعلم بأنه التغير المطرد في السلوك الذي يرتبط من ناحية بالمواقف المتغيرة التي يوجد فيها الفرد ويرتبط من ناحية أخرى بمحاولات الفرد المستمرة للاستجابة لها بنجاح.



وقد فطن ماكونل هنا إلى تحديد وجهة التغير ذلك أنه مشروط بالمواقف الحياتية المتغيرة ومن ناحية أخرى بالنجاح في التوافق معها. ومن المعروف أن التغير قد يجني نتيجة لكل من النضج والتعلم ويصعب فصل تأثير أحد هذين المتغيرين عن الآخر. ويشير النضج إلى العمليات الداخلية التي تتابع بشكل معين على الكائن الحي. ويشير التعلم إلى التغيرات التي تحدث نتيجة لمثير ولا يدخل في اعتباره تلك المتغيرات التي ترتبط بنضج التكوين الوراثي والاستعدادات الطبيعية. والخبرة التي يمر بها الفرد والممارسة التي يقوم بها شرطان أساسيان للتعلم، كما أن التعلم لا ينطبق على تلك المتغيرات التي تطرأ على حيوية الفرد والتي تكون استجابة مثير مثل التعب أو المخدرات وهذا النوع من المتغيرات لم يحدث نتيجة للخبرة والممارسة كما أنها تغيرات وقتية طارئة تزول بعد مضي فترة قصيرة من الزمن.

وقد يعرف التعلم بأنه تحسن في السلوك أكثر من كونه مجرد تغيير فيه، وهذا التعريف لا بد أن يؤخذ بحذر حتى لا نقيم كلمة التحسن بمعنى أخلاقي؛ إذ إن ما يقصده بهذه الكلمة هو تقدم الفرد فيما يقوم بتعلمه، وهكذا يمكن للفرد أن يتعلم "الفشل" أو يتعلم أي عادة سيئة بمعنى أنه عن طريق تعلمه يصبح سلوكه أكثر فاعلية وأشد مهارة وأقرب إلى الهدف الذي نسعى إلى تحقيقه.

تعريف جيتس :

يعرف جيتس التعلم بأنه تغير في الأداء أو تعديل في السلوك على طريق الخبرة أو المران وأن هذا التعديل يحدث أثناء إشباع الدوافع وبلوغ الأهداف ويبين جيتس أنه قد يحدث أن تعجز الطرق القديمة والأساليب المعتادة عن التغلب على الصعاب أو عن مواجهة المواقف الجديدة ومن هنا يصبح التعلم عملية تكيف مع المواقف الجديدة ويقصد بتعديل السلوك أو تغير الأداء المعنى الشامل أي عدم الاقتصار على الحركات الملاحظة والسلوك الظاهر وإنما ينصرف التغيير أيضًا إلى العمليات العقلية كالتفكير ويقصد بالخبرة والمران أوجه النشاط المنسقة التي تخطط لها المؤسسات التعليمية.

ويركز جيتس في تعريفه على التعلم المقصود الهادف، على أن من المعروف أن الفرد قد يتعلم شيئًا لم يقصده. يقول ديوي في كتابه الخبرة والتربية: "لعل من أكثر الآراء التربوية سخافة الرأي القائل"إن الشخص لا يتعلم إلا ما يحصل عليه وقت الدرس بل إن ما يتصل بدروس الهجاء أو الجغرافيا أو التاريخ من معلومات تتفرع منها وتكملها وتؤدي إلى تكوين الاتجاهات النفسية وتحديد ما يحبه الإنسان وما يكرهه قد يكون بل كثيرًا ما يكون أكثر أهمية من هذه الدروس نفسها. إن هذه الاتجاهات النفسية هي الأسس التي سوف يكون لها شأن في المستقبل وأهم اتجاه نفسي يمكن تكوينه هو الرغبة في متابعة العلم.



تعريف التعلم من موسوعة علم النفس والتحليل النفسي:

يعرف التعلم – اصطلاحيًا بأنه تغير ثابت نسبيًا في سلوك الكائن الحي يحدث نتيجة الممارسة، ولهذا يطلق عليه مفهوم يمكن التأكد أو التحقق من نتائجه.. كما أنه عملية نمو من مختلف جوانب الشخصية، وفي نفس الوقت هو ارتقاء في وظائف الكائن الحي ومن حيث هو كذلك فإنه يبدأ منذ اللحظة الأولى للميلاد ويستمر حتى نهاية حياة الفرد.

..... ولأن التعلم عملية معقدة ومتشابكة فإن الآراء والمدارس قد تباينت وتنوعت في الآراء والتفسيرات (شاكر قنديل ١٩٩٣، ٢١٦: ٢١٧).

ولكي نمضي قدمًا في فهم التعلم فسوف نناقش الآتي:

أ) من المفاهيم الخاطئة الشائعة أن التعلم يؤدي إلى تحسن في الأداء ويبدو أن هذه العبارة قائمة على أننا نفكر في أن التعلم يحدث في حجرة الدراسة وفقًا لمقاصد المدرس وأغراضه، وأن الفرد حين ينغمس في التعلم فإن ذلك يكون لتحقيق هدف معين، وأن أداءه يتشكل بحيث يقترب من هدف الامتياز والتفوق والمهارة؛ ذلك الهدف الذي تبذل من أجله الجهود في هذه، يبدو أن التفكير في التعلم على أنه تحسن في الأداء يبدو معقولاً. غير أنه من الصعب أن نفكر في التعلم على أنه تحسن كما بينا من قبل، فالتغيرات التي تؤدي إلى عادات سيئة وتثبت الأخطاء والاتجاهات غير المرغوب فيها تعلم، ولا يمكن أن يعتبر هذا النوع من التعلم تحسنًا، ويتعلم التلميذ أشياء كثيرة في حجرة الدراسة لا تقع في مجال أهداف المدرس فقد يتعلم عادة الكسل وعدم احترامه السلطة وقد يتعلم الكتابة الرديئة واكتساب عادات القراءة السيئة، فإذا كان يقصد بالتحسن الاقتراب من الهدف المرغوب فيه فإننا لا نستطيع أن نربط بين التعلم وهذا المحك (التحسن).

ب) التعلم والنضج :

التعلم ليس هو العملية الوحيدة التي يتغير السلوك بواسطتها؛ إذ إن هناك عملية أخرى هامة تحدث تغييرات في السلوك وهي النضج وهي عملية نمائية تحدث تغيرات في السلوك نتيجة للنمو الجسمي ويمكن توضيح ذلك بحقيقة هي أن الطفل مهما دربته لا يستطيع المشي أو الكلام إلا إذا وصل نموه العصبي والعضلي إلى مستوى يمكنه من هذا الأداء، وبالمثل كثير من عمليات التفكير العليا لا تتيسر للإنسان غير الناضج مثل استخدام الرموز الجبرية. وعلى الرغم من أنه من الممكن أن تقدم توضيحات للتمييز بين التعلم والنضج إلا أنهما متداخلان في الواقع ويصعب الفصل بينهما.



ج) التعلم والإتقان:

وهناك تمييز آخر بين التغييرات التي تحدث في الأداء نتيجة نقصان العمل وتلك التي تحدث نتيجة للتعلم فنفس الممارسة التي تجعل التعلم ممكنًا يمكن أن تحدث كلاً من الزيادة والنقصان في الإتقان في نفس الوقت أي نقصان ناتج من التعب وزيادة ناتجة من التعلم وكلاهما يمكن أن يحدث متأنين وأن يستنتجا من التغيرات الملاحظة في الأداء فمثلاً أثر فترة الراحة على التعلم هو أن تؤدي إلى نقصان في الإتقان في الأداء راجع إلى النسيان بينما يكون الأداء أكثر فاعلية بعد الراحة في حالة تأثير التعب عليه.

د) التعلم والعادة :

إن ما يجعل بعض العلماء يخلطون بين مفهوم العادة ومفهوم التعلم ما يلاحظ من أن تكون مجموعة ثابتة من الاستجابات لمجموعة ثابتة من السمات، حيث نجد أن هناك أشخاصًا يلتزمون بنوع خاصًا من السلوك في مواقف معينة، ويتكرر موقف ما. والعادة باعتبارها سلوكًا متعلمًا تعتبر وحدة السلوك المتعلم وتحتل منزلة خاصة في حياة الفرد من حيث إن الفرد الراشد هو مجموعة من العادات، أما لكل منا عاداته في التفكير وتقدير الأمور، ومن مجموع لكل العادات تتكون العادات لكننا نرى أن مفهوم التعلم أعم وأشمل من مفهوم العادة ولا يصح أن نستخدم مفهوم العادة كمرادف للتعلم، إنه توجد أحد جوانبه وليس كل جوانبه.

شروط التعلم :

لكي يحدث التعلم وبصورة صحيحة لا بد من توافر العديد من الشروط:

أولاً : الدافعية: تعد الدافعية من الشروط الأساسية التي يتوقف عليها تحقيق الهدف من عملية التعلم في أي مجال من مجالاته المتعددة؛ سواء أكان ذلك تعلم أساليب وطرق تفكير أو تكوين اتجاهات وقيم أو تعديل بعضها، أو تحصيل معلومات أو معارف، أو حل مشكلات وغيرها.

وهناك تعريفات متعددة للدافعية، إلا أننا نستطيع أن نلخص خصائص الدافعية في:

١- تبدأ الدافعية بتغير في نشاط الكائن الحي وقد يشمل ذلك بعض التغيرات الفسيولوجية التي ترتبط خاصة بالدوافع الأولية مثل دافع الجوع والجنس والإخراج والتنفس والنوم.

٢- تتميز الدافعية بحالة من الاستثارة الناشئة عن هذا التغير وهذه الاستثارة هي التي توجه سلوك الفرد وجهة معينة تحقق اختزال حالة التوتر الناشئ عن وجود الدافع. وتستمر حالة الاستثارة طالما لم يتم إشباع الدافع.



٣- تتميز الدافعية بأنها توجه السلوك نحو تحقيق الهدف، ويظل الشخص في حالة استثارة طالما لم يحقق هدفه فإذا تحقق الهدف انتهى السلوك.

أي أن الدافع يبدأ منذ استثارة النشاط وحتى يتحقق الهدف منه وذلك يشمل أربعة عناصر هي:

١- استثارة الكائن الحي.

٢- سلوك البحث عن الهدف.

٣- تحقيق الهدف.

٤- اختزال حالة الاستثارة.

والدوافع التي تحفز الإنسان على التعلم تنقسم إلى ثلاثة أنواع هي:

أ- دوافع مرتبطة بموضوع التعلم : مثل رغبة الشخص في أن يتعلم معلومات أو مهارات جديدة (إتقان لغة أجنبية / كمبيوتر .. إلخ).

ب- دوافع خارجية عن نطاق العمل وموضوع التعلم: مثل رغبة المتعلم في التعلم إرضاءً لوالديه، أو رغبته في الحصول على أي مغنم دنيوي (مال – شهرة – ... إلخ).

ت- ويتوسط هذين النوعين من الدوافع نوع ثالث غير ذاتي لكنه يرتبط بظروف التعلم ارتباطًا وثيقًا كرغبة التعلم والتقدير الاجتماعي أو احترام الذات.

ثانيًا: النضج: يعد النضج من العوامل التي تسهل حدوث عملية التعلم والنضج هو مجموعة التغيرات الداخلية للفرد والتي ترجع إلى تكوينه الفسيولوجي والعضوي وخاصة الجاهز العصبي. علمًا بأن هذه التغيرات تحدث تلقائيًا وغير مرتبطة بالتعلم. مثل أن يتعلم الطفل المشي في سن معين، وكذا نطق الكلمات نطقًا صحيحًا. ولذا فإن البعض من العلماء يقسم النضج إلى:

أ- النضج الجسمي: ويقصد به كافة التغيرات التي تحدث في الجسم وعبر عضلاته وأجزائه المختلفة. وهذا النضج الجسدي شرطًا أساسيًا لحدوث العديد من عمليات التعلم. فالطفل مثلاً لا يستطيع المسك بالأشياء إلا بعد أن يحدث نمو في أصابعه، ويمكن أن نقول نفس الشيء على (مضغ الطعام)، الأسنان، حيث لا يتم ذلك إلا بعد أن تنمو الأسنان.. وهكذا.

ب-النضج العقلي: ويقصد به درجة النمو العامة في الوظائف العقلية المختلفة المتعلقة بالعقل مثل : التفكير / التذكر / التخيل / التصور / الابتكار.. الخ.



مع العلم بأن كافة العمليات العقلية المختلفة لا تنمو دفعة واحدة بل على مراحل، فالطفل ابن الثلاث أعوام مثلاً لا يستطيع التفكير بصورة مجردة أو أن يعي كلمات مثل : الحق/ العدل/ الجمال.. الخ.

ثالثًا : الممارسة أو التكرار :

هناك مثل شهير مؤداه: أن التكرار يعلم الشطار. ولذا فإنه من غير المقصود مثلاً أن نفكر في أن شخصًا ما يريد تعلم مهارات معينة، ومن أول تكرار لها يتقنها. استحالة ذلك. فالذي يريد أن يتعلم مهارة قيادة السيارة مثلاً لا يتقن كافة المهارات المطلوبة (السير في الطرق السريعة / داخل المدينة / الرجوع إلى الخلف/ الركن بجوار الرصيف .. الخ). من أول مهارة بل لا بد له من التكرار. حيث إن الممارسة والتكرار تكسبانه المزيد من الإتقان والممارسة.

ويقصد بها ليس مجرد تكرار المادة المتعلمة من غير هدف وإنما المقصود بها التكرار الموجه لفرص معينة والذي يؤدي إلى تحسين الأداء. فالتكرار وحده دون أن يعرف ويخبر المتعلم أخطاءه في كل مرة على محاولة التعديل يجعل الأخطاء يعاد تكرارها بل قد تثبت وتقود إلى إعاقة التعلم الصحيح. ولذا فإن توجيه الشخص المتعلم وتوضيح أخطائه والإشراف عليه يقود إلى الفهم الواعي وتحسن الأداء. ولا مانع من استخدام الثواب والعقاب بشرط ضرورة مراعاة الشروط الواجب توافرها فيه مثل:

١- شكل العقاب.

٢- شدة العقاب.

٣- توقيت العقاب.

وبوجه عام فإن تخصيص مكافأة للفرد وبالتالي منحه إياها أو حرمانه منها يعد عاملاً أساسيًا في تقدم الفرد في اكتساب المزيد من عمليات التعلم سواء أكانت معلومات أو مهارات أو اتجاهات .. إلخ.

نظريات التعلم :

كثيرة هي النظريات التي ساهمت في تحليل وتفسير عملية التعلم وسوف نكتفي بذكر نظريتين هما: نظرية بافلوف (التعلم الشرطي) ونظرية الجشطلت (التعلم بالاستبصار).



نظرية بافلوف (التعلم الشرطي):

يرجع هذا النموذج إلى العلامة بتورفتش بافلوف الذي ولد في روسيا والذي كان يهتم بدراسة فسيولوجيا الجهاز الهضمي وقد حصل على جائزة نوبل في عام ١٩٠٤ في هذا المجال.

في أحد البحوث اهتم بافلوف بدراسة كمية اللعاب التي يفرزها الكلب عند تقديم الطعم عن طريق إجراء جراحة للكلب لتوصيل الغدة اللعابية بأنبوبة وأثناء إجراء التجربة لاحظ بافلوف أن الكلب يفرز اللعاب لمجرد سماع صوت الحارس الذي يقدم له الطعام قبل تقديم الطعام.

وتنبه بافلوف لهذه الظاهرة حيث أدرك أن رؤية الكلب للحارس أو سماع صوت أقدامه لم تكن مثيرًا طبيعيًا لإفراز اللعاب حيث إن تقديم الطعام هو المثير الطبيعي لإفراز اللعاب، أما إفراز اللعاب دون تقديم الطعام فهي ظاهرة تحتاج إلى تفسير وقد أطلق بافلوف على هذه الظاهرة الانعكاسات الشرطية.

واهتم بافلوف بدراسة هذه الظاهرة واتبع الإجراءات التجريبية الآتية:

١- اختيار مثير واستجابة يرتبطان بعلاقة انعكاسية أو فطرية مثل مثير الطعام – إذا كان الحيوان جائع – ويسمى مثير طبيعي أو مثير غير شرطي (م. غ) (US) واستجابة إفراز اللعاب والتي تسمى في هذه المرحلة الاستجابة الطبيعية أو الاستجابة غير الشرطية (س. غ. ش.) وقد طور بعض الباحثين هذه الخطوة ووجدوا أن من الممكن استخدام مثير واستجابة يرتبطان بعلاقة متعلمة وثيقة.

٢- اختيار مثير لا يرتبط بالاستجابة السابقة بأي علاقة فطرية أو متعلقة، ويسمى في هذه المرحلة المبكرة من التجريب باسم المثير المحايد أو المثير الشرطي (م. ش.) وقد يكون هذا المثير المحايد صوتًا أو ضوءًا لا يرتبط بإفراز اللعاب بأي صلة من أي نوع.

ويمكن تمثيل هاتين الخطوتين فيما يلي:

مثير شرطي (الضوء) ← عدم إصدار استجابة شرطية (إفراز طعام).

مثير غير شرطي (طعام) ← استجابة غير شرطية (إفراز اللعاب).

٣- بعد ذلك يعمم المجرب بعرض المثير الشرطي (م. ش.) فقط فإذا لاحظ أن استجابة إفراز اللعاب تصدر حتى ولو لم يتبع المثير غير شرطي المثير الشرطي (م. ش.) فإنه يستنتج حدوث التعلم الشرطي، وتصبح استجابة إفراز اللعاب في هذه الحالة



استجابة شرطية (س. ش.) لأنها تصبح نوعًا من الاستجابة المتعلمة لمثير لم تكن تربطها به علاقة حدوث قبل موقف الخبرة هذه، ومعنى هذا أن المثير الشرطي (الضوء) الذي كان محايدًا قبل الاشتراط أصبح يستثير الاستجابة الشرطية بعده.

والشكل الآتي يوضح خطوات الاشتراط عند بافلوف :

قبل تكوين الاشتراط :

١- مثير شرطي (م. ش.) (الصوت) ← عدم وجود استجابة شرطية.

٢- مثير غير شرطي (م. غ. ش.) ← استجابة غير شرطية (س. غ. ش)

أثناء تكوين الاشتراط :

٣- مثير شرطي (م. ش.).

+ معًا

٤- مثير غير شرطي (م. غ. ش.) ← استجابة غير شرطية (إفراز اللعاب)

بعد تكوين الاشتراط :

٥- مثير شرطي (م. ش.) ← استجابة شرطية (س. ش)

(صوت) (إفراز لعاب)

المفاهيم الأساسية في الاشتراط عند بافلوف :

١- المثير غير شرطي (م. غ. ش):

هو أي مثير يدركه الكائن ويؤدي إلى صدور استجابة غير متعلمة. واستخدام بافلوف كمثير غير شرطي والاستجابة المرتبطة به هي إفراز اللعاب.

٢- الاستجابة غير شرطية (س. غ. ش):

هي الاستجابة الطبيعية التي تحدث نتيجة في حالة وجود المثير غير شرطي.

٣- المثير الشرطي (م. ش):

هو مثير محايد أي لا يرتبط بالاستجابة المتوقعة ولكن من خلال تلازمه الزمني مع أو قبل المثير غير الشرطي فإنه يصبح قادرًا على إصدار الاستجابة الشرطية.

٤- الاستجابة الشرطية (س. ش):

هي الاستجابة المتعلمة التي تحدث نتيجة للاقتران بين المثير الشرطي والمثير غير الشرطي.



ومن خلال التجارب التي أجراها بافلوف على الكلب استنتج أنه إذا اقترن مثير شرطي بمثير غير شرطي عدة مرات فإن المثير الشرطي يصبح قادرًا على استدعاء الاستجابة الشرطية بدون تقديم المثير غير الشرطي.

أهم القوانين التي استخدمها بافلوف في تفسير التعلم :

١- التكرار :

يتعلق هذا القانون بكيفية تكوين الاستجابة الشرطية وكيفية استدعائها. وقد أصبحت التجارب التي قام بها بافلوف على أهمية التكرار في تكوين الاستجابة الشرطية، فالاستجابة الشرطية تتكون نتيجة تكرار تقديم المثير الشرطي مع أو قبل المثير غير الشرطي.

وأن الارتباط بين المثير الشرطي (صوت الجرس) والاستجابة الشرطية (إفراز اللعاب) يكون ضعيفاً في بداية التجربة، وبتكرار تقوية هذه العلاقة أو الارتباط. كما أوضحت التجارب أيضًا أن ميل الاستجابة الشرطية للاستدعاء يزداد بالتكرار.

٢- الاقتران الزمني:

ويعتبر بافلوف الاقتران الزمني هو القانون الوحيد المسئول عن تكوين العلاقات الشخصية وينص هذا القانون على :

أن الاقتران الزمني بين الفعل المنعكس غير شرطي والفعل المنعكس الشرطي يزيد من قوة هذا الأخير.

حيث أوضحت التجارب أن عملية الارتباط الشرطي في حالة التزامن بين حدوث المثير غير الشرطي والمثير الشرطي أو حدوث المثير الشرطي قبل المثير غير الشرطي بفترة زمنية تتراوح بين ثانية وخمس دقائق وأسرع عمليات التعلم الشرطي تحدث إذا كانت هذه الفترة الزمنية تتراوح ما بين ٠,٤-٠,٥.

أما إذا جاء المثير الشرطي بعد المثير غير الشرطي ولو بثانية واحدة فإن احتمال تكوين الاستجابة الشرطية يكون قليل للغاية.

٣- التعزيز :

التعزيز عند بافلوف يتمثل في تقديم المثير غير الشرطي مع المثير الشرطي. في تجارب بافلوف يعتبر تقديم الطعام (المثير غير الشرطي) بعد سماع صوت الجرس (المثير شرطي) تعزيز للمثير الشرطي فكلما تكرر تقديم المثير غير الشرطي مع المثير الشرطي زاد من قوة المثير الشرطي على استدعاء الاستجابة الشرطية التي أصبحت بتكرار تعزيزها تحدث للمثير الشرطي.



وأهمية التعزيز لا تظهر فقط في قوة المثير الشرطي على استدعاء الاستجابة الشرطية بل يمتد تأثير التعزيز في اكتساب مثيرات أخرى بنفس الاستجابة ويعرف ذلك التعزيز الثانوي.

٤- الانطفاء :

تكرار تقديم المثير الشرطي لعدة مرات متتالية بدون تعزيز (أي بدون اقترانه بالمثير غير الشرطي) فإن الاستجابة الشرطية تتلاشى بالتدريج حيث لاحظ بافلوف أن كمية إفراز اللعاب تقل بالتدريج إذا لم يتبع سماع صوت الجرس لتقديم الطعام وتعرف هذه الظاهرة بانطفاء الاستجابة.

٥- الاسترجاع التلقائي :

انطفاء الاستجابة الشرطية لا يكون نهائي، فإذا حدث تقديم المثير الشرطي بعد انطفاء استجابة بفترة زمنية كافية فإن الاستجابة الشرطية تعود للظهور من جديد. كما أوضحت التجارب التي قام بها بافلوف أن الاستجابة الشرطية المنطفئة أسهل في إعادة تكوينها واكتسابها. حيث تبين أن الاستجابة الشرطية تحتاج لتكوينها إلى إعادة التجربة أكثر من عشرين مرة، فإذا حدث تكرار التجربة دون تعزيز الاستجابة الشرطية فإنها تنطفئ، ولكن بمجرد إعادة تعزيزها عدد لا يتجاوز خمس مرات تكتسب الاستجابة الشرطية من جديد.

٦- التعميم :

إذا تكونت الاستجابة الشرطية لمثير ما مثل م١، فإن جميع المثيرات الأخرى المشابهة للمثير م١، تصبح لها القدرة على استدعاء نفس الاستجابة، فالطفل الذي يخاف من الكلاب فإننا نجد استجابة الخوف تظهر عند رؤية أي حيوان يشبه الكلب.

٧- التمييز :

هي عملية مكملة للتعميم فإذا كان التعميم يعني إصدار الاستجابة لجميع المثيرات المشابهة للمثير الأصلي فإن التمييز يعني اقتصاد صدور الاستجابة على أحد هذه المثيرات دون المثيرات المشابهة له ويتم ذلك باستخدام التعزيز. (٢١: ٢٨٧-٢٨٩).

* * *



نظرية الجشطلت "التعلم بالاستبصار":

ظهرت مدرسة الجشطلت لتعالج بعض الانتقادات التي وجهت للمدرسة الارتباطية التي نظرت إلى السلوك نظرة جزئية، حيث أرجعت السلوك البشري إلى مثير – استجابة . وقد عارضت هذه المدرسة هذه النظرة الجزئية للسلوك البشري حيث رأت أن الكل أكثر من مجموع الأجزاء وأن السلوك الذي يجب دراسته هو السلوك الكلي وقام كوهلر وفورتهيمر وكوفكا بإجراء العديد من التجارب للتحقق من الطريقة التي تحل بها الحيوانات المشكلات في كثير من الحالات تتشابه المشكلات التي استخدمت مع التجارب التي استخدمها ثورنديك في تجارب القطط.

المفاهيم الأساسية عند الجشطلت :

١) الجشطلت:

كلمة جشطلت معناها صيغة أو شكل أو تعني هذه الكلمة المدرك الحسن الذي يدركه الكائن لا يساوي مجموع الأجزاء إنما هو الشكل أو البناء العام.

٢) الاستبصار:

يعني الاستجابة لموقف ككل وإدراك العلاقة بين أجزاء الموقف التي تتضمن الهدف والوسيلة التي يجب اتباعها للتخلص من العقبة، وبمعنى آخر فإن كلمة الاستبصار تعني إدراك العلاقة بين أجزاء الموقف وفهمها وإعادة تنظيمها للوصول إلى الحل المناسب.

اهتم علماء النفس الجشطليين أمثال فورتهيمر Wurtheimer وكوهلر Kohler بدراسة التعلم عند الإنسان وقام الأخير بإجراء العديد من التجارب على القردة وقد روعي في هذه التجارب بعض الانتقادات التي وجهت للتجارب التي استخدمها ثورنديك في دراسة التعلم، وأهم هذه الانتقادات أن هذه التجارب (تجارب ثورنديك) على درجة عالية من الصعوبة بالنسبة لقدرات الحيوان ولذا يكون سلوكه سلوكًا أعمى ويصل إلى الحل فجأة، حيث يرى أصحاب هذه المدرسة الجشطلتية أن التعلم لا يتم عن طريق المحاولة والخطأ إنما يتم عن طريق الاستبصار أي إدراك العلاقة بين أجزاء الموقف وفهمها وإعادة تنظيمها بطريقة تسمح للحيوان أو الإنسان الوصول إلى حل.

والتجارب التي صممها كوهلر أجريت على الشمبانزي وقد روعي فيها أن أجزاء الموقف واضحة بالنسبة للحيوان بالإضافة إلى أنها في قدرته وفيما يلي بعض هذه التجارب:

<u>**تجربة (١):**</u>

وضع كوهلر الشمبانزي في قفص يوجد به صندوق وفي أعلى القفص يوجد موز.



حاول الشمبانزي الوصول إلى الموز عن طريق الوثب أو مد اليد ففشل عدة مرات فأخذ الشمبانزي يدور في أركان القفص وأخيرًا نظر إلى الصندوق ثم الموز وفجأة جذب الصندوق أسفل الموز ثم قفز فوقه وحصل على الموز وهذا يعني أن الشمبانزي أدرك العلاقة بين الصندوق والوصول إلى الهدف.

تجربة (٢):

كرر نفس التجربة السابقة مع استبدال الصندوق بصندوقين لكي يضعهما للشمبانزي فوق بعضهما للوصول إلى الهدف. وهذه التجربة أصعب من التجربة السابقة وقد استطاعت الشمبانزي حلها.

تجربة (٣):

كرر نفس التجربة السابقة مع وضع الطعام خارج القفص بدلاً من داخله واستبدال الصندوق بعصا. فحاول الحيوان الحصول على الطعام بمد يده ففشل فنظر إلى العصا ثم الطعام فأدرك العلاقة بينهما فأمسك بالعصا وجذب بها الطعام إلى القفص.

تجربة (٤) :

كرر كوهلر نفس التجربة السابقة مع استبدال العصا بعصتين إحداهما قصيرة والأخرى طويلة والعصا القصيرة لا يستطيع الشمبانزي بها الحصول على الطعام والعصا الطويلة لا يمكن أن يصل إليها الشمبانزي إلا باستخدام العصا القصيرة وقد استطاع الشمبانزي حل هذه المشكلة فجأة، وقد لوحظ أنه عند تكرار التجربة مرة ثانية يقوم الشمبانزي بحل المشكلة (الحصول على الطعام) بإتباع السلوك الصحيح من أول مرة.

وبصفة عامة نلاحظ أن هذه التجارب تتضمن دافع (الجوع) يؤثر على سلوك الشمبانزي ووجود عائق يمنع أو يعوق الشمبانزي من الوصول إلى الهدف (الطعام) إن التجارب تتناسب مع إمكانيات الشمبانزي. بالنسبة للوصول إلى حل المشكلة نلاحظ ما يأتي:

١- أن الشمبانزي وصل إلى الحل فجأة نتيجة للاستبصار.

٢- إن الحل بالاستبصار يحدث نتيجة للإدراك وتنظيم عناصر الموقف وإدراك العلاقة بينهما فالشمبانزي توصل إلى الحل عندما أدرك العلاقة بين الصندوق والعصا والهدف (الموز).

٣- إذا توصل الشمبانزي إلى حل عن طريق الاستبصار فإنه يمكن الوصول مرة ثانية إلى الحل بسهولة دون أخطاء.



تفسير التعلم عند الجشطلت:

نتائج التجارب السابقة تبين مدى الخلاف بين علماء الجشطلت وعلماء المدرسة السلوكية في تفسير التعلم، حيث يرى ثورنديك أحد رواد المدرسة الكلاسيكية أن التعلم يتم عن طريق المحاولة والخطأ حيث يتم حذف الاستجابات الخاطئة وتثبيت الاستجابات الصحيحة، بينما يرى أصحاب المدرسة الجشطلتية أن التعلم يتم عن طريق إدراك العلاقة بين أجزاء الموقف ثم إعادة تنظيم هذه العلاقات للوصول إلى الحل السليم وهذا ما أكدته نتائج التجارب التي أجراها علماء الجشطلت حيث أوضحت التجارب أن الشمبانزي حاول الوصول إلى الطعام بيده أو الوثوب إلى أعلى أو أي حركات أخرى ولكن هذه الحركات لم تكن عمياء تمامًا كما في تجارب ثورنديك.

حيث إنها كانت تتأمل في عناصر الموقف ثم تصل إلى الحل فجأة عن طريق الاستبصار، وكان يتمثل هذا الحل في وضع صندوق أو صندوقين أسفل الطعام ثم الوقوف على هذه الصناديق أو مسك عصا لجذب الطعام وهذا التصرف يدل على أن سلوك الشمبانزي مبني على الفهم وإدراك عناصر الموقف بالإضافة إلى أن التجارب أوضحت أنه إذا توصل الشمبانزي إلى الحل فإنه يستخدم نفس الاستجابة إذا وضع في نفس الموقف مرة ثانية.

قوانين التنظيم الإدراكي عند الجشطلت:

١- قانون التقارب:

ينص هذا القانون على أن: الأشياء المتقاربة في الزمان والمكان يسهل إدراكها على هيئة صيغ مستقلة بعكس الأشياء المتباعدة.

٢- قانون التشابه:

وينص هذا القانون على أن: الأشياء المتشابهة في الشكل أو الحجم أو اللون أو السرعة تدرك الصيغ.

٣- قانون الاتصال:

وينص هذا القانون على أن: الأشياء المتصلة كالنقط التي بينها خطوط فإنها تدرك كصيغ بعكس الأشياء المفردة التي لا علاقة تربطها بغيرها.

٤- قانون الشمول:

وينص هذا القانون على أن الأشياء تدرك كصيغة إذا كان هناك ما يجمعها ويحتويها ويشملها كلها. فصورة صفين متوازيين بين الأشجار تعطي صيغة طرق أكثر من كونها تعطي صورة لعدد الأشجار.



٥- قانون التماثل

وينص هذا القانون على أن: الأشياء المتماثلة تبرز كصيغ وتتفرد عن غيرها من الوحدات التي يتضمنها الإدراك .

٦- قانون الإدراك :

وينص هذا القانون على أن: الأشياء الناقصة تميل إلى إدراكها كاملة وإلى سد الثغرات أو الفتحات الموجودة بينها، فالدائرة التي ينقصها جزء تدركها كدائرة كاملة، وكذلك الأجزاء التي لا تنتظم مع بقية الشكل تتحول إلى الانتظام حتى تدرك الشكل ككل منتظم ويرى أصحاب هذه المدرسة أن الأشياء الناقصة أو الأجزاء غير المنتظمة تسبب نوعًا من التوتر عند الفرد، وأن هذا التوتر لا يزول إلا باكتمال الشكل وسد الفتحات أو الثغرات والعودة إلى الشكل المنتظم (٢١: ٣٠١).

وبالرغم من أن نظريات التعلم قد أجريت على حيوانات إلا أن هناك العديد من العلماء الذين اجتهدوا في التفكير في كيفية الاستفادة عمليًا من النظريات في مجال الإنسان. فعلى سبيل المثال يمكن الاستفادة من نظرية الارتباط الشرطي في المجالات الآتية:

١- **العلاج النفسي:** حيث تنهض المدرسة السلوكية وتيارها العلاجي على التعامل مع اضطرابات الإنسان السلوكية والانفعالية والنفسية والعقلية على مجموعة من الأسس أهمها: التعامل مع الأعراض دون الغوص في التاريخ المرضي السابق والدلالات الإكلينيكية للأعراض، ولذات فإن هذه النظرية تستخدم أكثر ما تستخدم في مجال المخاوف على أساس أنها مكتسبة وإذا كان السلوك الخاطئ قد تعلمه من البيئة، فإنه يمكن أيضًا التخلص منه ولعل تجربة إيزنك مع الطفل ألبرت خير نموذج على ذلك، حيث نجح في إكساب الطفل الخوف من القطط، والتعميم، فقد أصبح يخاف من كل حيوان له فراء أبيض، ثم استطاع بعد ذلك أن يزيل هذه المخاوف.

٢- **تعلم اللغة:** لعل إنشاء معامل للغات بالصوت والصورة وكافة المجسمات خير مثال على تفهمه وأخص المناهج لعملية استخدام الوسائل التعليمية في عملية التعلم. إضافة إلى أن المقررات الدراسية في المراحل الأولى مثلاً تكون مزدحمة بالصور على أساس أن يقوم الطفل بالربط بين صورة واسمها، وإذا كان من الأفضل أن يرى الشيء بصورة طبيعية مجسدة – فالمثير المتعدد يولد استجابات متعددة ويجعل عملية التعلم أكثر يسرًا وسهولة. ولذا فإن عمليات التعلم الجافة (أي كلام دون وسائل أو مجسمات) قد يقود إلى تعثر التعلم.



٣- **علاج التبول اللاإرادي عند الطفل أو غيره من مراحل النمو:** إن التحكم في التبول يرتبط بنمو عضلات معينة مع سن معين. وإذا كنا ككبار نتسامح مع الأطفال في سن مبكرة فإن ذلك لا يقبل إذا تم التبول في مراحل نمو أخرى. ولسنا في صدد شرح كافة العوامل والأسباب التي تقود إلى ظاهرة التبول اللاإرادي وعلى أي حال فقد استفاد العلماء من تطبيقات نظرية الاشتراط الكلاسيكي حيث استطاع ماورر Mowrer أن يستخدم ملفاً كهربائيًا صغيرًا يوضع تحت قطعة قماش سميكة توضع تحت مكان نوم الشخص الذي يتبول لا إراديًا. وهذا الجهاز متصل بجرس وعندما يبدأ في التبول لا إراديًا – أثناء النوم في الغالب – فإن الدائرة بهذا الملف تكتمل ويدق الجرس. وحين إذ يستيقظ الطفل ويستكمل عملية التبول، علمًا بأن الجهاز يفيد الأشخاص الذين يعانون من التبول لأسباب نفسية وليست عضوية أو عصبية.

وهكذا تتعدد التطبيقات والاستفادات ونقلها إلى مجال الإنسان. ونكتفي بهذا القدر.





الفصل الحادي عشر

الإنسان والتذكر



الفصل الحادي عشر

الإنسان والتذكر

مقدمة :

يرتبط التذكر والنسيان ارتباطًا وثيقًا بالشروط الواجب توافرها للتعلم؛ لأن كل تعلم ينطوي على ذاكرة، إذا لم نتذكر ما نمر به من خبرات فإننا لن نتعلم شيئًا. كما أشارت العديد من الدراسات والتجارب إلى قانون هام من قوانين التذكر ألا وهو ارتباط التذكر والنسيان بالدافع. فكلما كان الفرد لديه دافع لأن يتذكر أو يهتم بموضوع هام كلما كان التذكر سهلاً والعكس بالعكس. حيث وجد أنه كلما زادت قوة الدفع إلى التعلم وإلى استعادة الخبرات كان نشاط الذاكرة أوضح وأقوى والعكس صحيح.

إضافة إلى أن الملاحظات والدراسات التي أجريت على ذاكرة الإنسان وجدت أنها تتأثر بالانتباه والإدراك وما تم من خلالهما. فالعوامل التي تتدخل في الانتباه تظهر في التذكر على شكل سهولة تذكر لما سبق أن انتبه إليه الإنسان. وكذلك تدخل طبيعة ما أدركه الإنسان في عملية تذكره لما يدركه ولذا فإن التذكر هو ما سبق أن انتبهنا إليه وما أدركناه ففهمناه، ولما كان انتقاء المثيرات والانتباه إليها بعد إدراكها يتأثر بالدوافع، فإن الإنسان يميل عادة إلى تذكر ما يريد تذكره ونسيان ما يود أن ينساه، ولذا لا عجب أن نجد مدرسة التحليل النفسي – مثلاً – قد لفتت الانتباه إلى حقيقة الكبت والنسيان والتذكر حيث إن الأحداث التي تمر بنا تثير فينا مشاعر عدة ترتبط بهذه الأحداث ومن ثم فإن استعادة الحدث وتذكره يكونا مدعاة لإثارة الانفعالات والمشاعر والخبرات التي ارتبطت به.

معنى عملية التذكر : التذكر بمعناه العام هو ما سبق أن تعلمناه واحتفظنا به فعندما نتذكر اسم صديق فإن هذا الموقف يمكن تحليله إلى :

١- الإدراك والوعي.

٢- الاحتفاظ بما أدركته.

٣- القدرة على الاسترجاع والتذكر.

كما أن التذكر يشير إلى وظيفة من أهم الوظائف النفسية لدى الإنسان والتي تتمثل في القدرة على استحضار الخبرات الماضية التي مرت به، أو استعادته للمعلومات والمعارف التي سبق أن تعلمها. وما يميز الإنسان هو الذاكرة ولذا فإنه في حالات تعرض الإنسان لفقدان الذاكرة (سواء كانت كلية أم جزئية/ قريبة أم بعيدة) فإنه سوف يضطرب اضطرابًا كليًا ويفقد التواصل مع الذات والآخر.



عملية التذكر :

يقسم علم النفس عملية التذكر إلى المرحل الآتية :

أولاً : مرحلة الاكتساب Aquition

لعل من أهم قوانين الإدراك أن الإنسان يميل إلى إدراك الكليات قبل التفاصيل حيث يكون التعرض لمثيرات المدرك هو السبيل إلى إضافة تفاصيله إلى كل الذي يضمه. ولا شك أن ما نكتبه في عملية الإدراك هو نفسه ما نتذكره كما أن التجارب قد أوضحت أيضًا وجود علاقة بين الاكتساب والتذكر حيث تبين وجود صلة بين التصور أو الصورة الحية Images وبين التذكر فبعض الناس –على سبيل المثال– يستطيعون تذكر ما سبق لهم واكتسابه على هيئة الحسية أي أن ما نكتسبه يميل إلى أن يعود كما اكتسبناه تمامًا.

كما أوضحت أيضًا العديد من التجارب أن قدر الاكتساب المحدد لمدى التذكر يتسع بالنضج وتقدم السن حتى عمر معين ثم يأخذ في الضيق مرة أخرى، كما تبين أن التدريب يزيد أحيانًا من مدى التذكر بمعنى أنه يتيح للفرد أن يصل إلى أقصى سعة لمدى اكتسابه وتذكره، وعمومًا فإن البعض يقسم مدى التذكر إلى نوعين هما:

أ) **المدى المباشر Imnediation Spqn:** وهو ذلك القدر من الاكتساب المباشر الذي يمكن استرجاعه هو أيضًا مباشرة وعادة ما يكون المدى المباشر أوسع من النوع الآخر.

ب) **المدى المرجأ Delalyed Sqpn:** وهو ذلك التعدد من الاكتساب المباشر الذي يمكن استرجاعه بعد فترة وانقضاء وقت على اكتسابه وعادة ما يكون هذا المدى أضيق.

بعبارة مجملة يمكن أن تصفها إلى تذكر قريب وحديث وتذكر بعيد وقديم وخلاصة الاكتساب أن ما نكتسبه يكون في الغالب كلاً أو جشطالتا ثم يضاف إلى هذا الكل جزئيات الموضوع كلما تعرض الشخص له فإذا عاد لتذكر ما اكتسب نجد أن الجزئيات تضيع تدريجيًا ليبقى الكل يقاوم الضياع.

ثانيًا : مرحلة الاحتفاظ Retention

تكشف لنا من دراسة الاكتساب أن ما يميز الاكتساب في التذكر عن الإدراك الحي كعملية نفسية هو القدرة على استعادة ما اكتسب، ويعني ذلك أن هناك فترة تنقضي بين اكتساب موضوع واستعادته مرة أخرى.



ولكي ندرك طبيعة الاحتفاظ نحتاج طريقة أو عدة طرق نحول فيهـــا الاحتفـــاظ إلـــى سلوك أو نشاط نلاحظه ونقيسه من خلال:

أ) أن نقارن الزمن أو الجهد الذي يبذله الشخص في اكتساب قدرة جديدة عليـــه بالزمن أو الجهد الذي يبذله لاكتسابها مرة أخرى والفرق بين الاثنين ســـيدل على أن هناك قدرًا من الاحتفاظ قد تم.

ب) أن نحدد لشخص فترة معينة أو جهدًا خاصًا لاكتساب موضوع ما ثم يطلبون منه أن يستعيد ما اكتسبه فإذا استعاد في هذه الفترة نصف الموضـــوع يعنـــي وجود قدر لا بأس به من الاحتفاظ.

ثالثًا: مرحلة الاسترجاع Recall

وتعد هذه المرحلة من وجهة نظر العديد من علماء النفس هي التذكر نفسه، فمرحلـــة الاكتساب والاحتفاظ لا تتضحان سلوكيًا وبصورة مباشرة بيد أن الاسترجاع قد ميز العلمـــاء بين نوعين منه هما:

أ) الاستدعاء:

عندما يتعرض الإنسان لخبرة ما سرعان ما تتحول في ذهنه إلى فكرة وكلمة بحيـــث تذكره لا تذكر للكمة أو للقول. كما أن عملية الاحتفاظ بكافة المعلومات والخبرات لكل ما مر به الشخص تكون من الصعوبات بمكان، مما يجعل استدعاء المحتفظ به يختلف عن المكتسب، ويظهر الاختلاف بين المستدعى والمكتسب في شكلين:

١- أن يكون أقل من المكتسب وقد يرجع ذلك إلى طريقـــة الاكتـــساب أو إلـــى عمليـــة الاحتفاظ. فالشخص يبدأ في اكتسابه بالكليات ثم يفـــصل الجزئيـــات وبقـــدر إغفالـــه للجزئيات، يصبح استدعاؤه ناقصًا كما أنه قد يكتسب الجزئيات والكليات بدرجة فائقة بيد أن تدخل بعض الخبرات الذاتية والموضوعية أثناء مرحلة الاحتفاظ قد يؤثر على استدعائه.

٢- أن يكون محرفًا عن المكتسب وفي حال كهذه نجد أن العامل الذي يجعل المـــستدعى مختلفًا عن المكتسب عوامل انفعالية في الغالب فالخوف والقلق أداء اضطراب انفعالي غير طبيعي قد يؤدي إلى خلل في عملية الاكتساب أو الاحتفاظ أو الاستدعاء.

ب- التعرف :

يعد التعرف على مثير قد سبق للشخص أن مر به من أسهل العمليـــات الآن عمليـــة التذكر. في هذه الحالة تكون بمقارنة بين آثار سابقة وآثار حالية. ورغم أن التعرف أيسر من



الاستدعاء إلا أن احتمالات اختلاف المكتسب عن المتعارف عليه لا يقل عن مثيلته في حالة الاستدعاء.

والخلاصة أن القدرة على التذكر تتوقف على الاكتساب والاحتفاظ والاسترجاع وما يمكن أن يتم في كل مرحلة منها بوجود فروق فردية في كل مرحلة وبين الفرد والآخرين أو الفرد ونفسه عبر مراحل نموه المختلفة.

قياس التذكر :

لقياس التذكر ثلاث طرق نجملهم في :

١- طريقة مقدار التوفير : Saving

وتستخدم هذه الطريقة حتى الآن والتي ابتكرها "إينجهاوس" حيث تزودنا بمقياس حساس للتذكر؛ لأنها تثبت أن التعلم السابق يبقى إلى حد ما إذا لم يستطع الشخص أن يستدعي المادة التي تعلمها وتعرف عليها وظن أنه قد نسيها ويعد "هيرمان إينجهاوس H. Ebbinghous (١٨٥٠-١٩٠٩) من أوائل الذين قاموا بإجراء بحوث على التذكر، حيث ابتكر مقاطع عديمة المعنى، يتكون كل منها من ثلاث أحرف وافترض أن المقاطع عديمة المعنى تتساوى في درجة صعوبة تعلمها أو الاحتفاظ بها في الذاكرة؛ لأن تداعياتها ذات المعنى أقل من تداعيات الكلمات ذات المعنى. لكن هذا الافتراض لم تؤيده البحوث الحديثة؛ لأنها أوضحت أن المقاطع عديمة المعنى تختلف في عدد التداعيات التي تسرها مثل الكلمات تمامًا وقد قام "إينجهاوس" بتكرار مقاطع عديمة المعنى من قائمة أمامه إلى أن يتم له حفظها دون خطأ وكانت المقاطع مرتبة بحيث يلي بعضها بعضًا إلى ارتباطاتها مع بعضها البعض ارتباطاً طبيعيًا وكان يختبر تذكره بعد فترة زمنية مختلفة ويسجل عدد المرات الإضافية التي يحتاج إليها لكي يسترجع القائمة الأصلية أي عدد من مرات تكرار المقاطع حتى يستطيع أن يقوم بتسميعها دون خطأ. والمتتبع للتجارب التي تجري حتى الآن في معامل علم النفس في مقرر التعلم وعلم النفس التجريبي سيجد أن أمثال هذه التجارب ما زالت تجري حتى الآن على أساس أنها من كلاسيكيات علم النفس.

٢- طريقة الاستدعاء Recall:

ونقصد به القدرة على استحضار المعلومات المطلوبة عندما تستدعي ويقسم البعض التذكر وفقًا للاستدعاء إلى:

أ) التذكر المسلسل أو الترتيبي حيث يطلب من الشخص تذكره مادة معينة بترتيب خاص (وفقًا لورودها في النص).

ب) التذكر الحر : حيث يطلب تذكر المادة بأي ترتيب.



٣- التعرف Recognition:

ويقيس التذكر من خلال التعرف عن طريق الوعي أو الدراية بشيء سبق للشخص أن خبرة كأن يأتي سؤال عن السنة التي نشر فيها نجيب محفوظ الثلاثية ومعهـا عـدة سـنوات مختلفة، صحيح أن المصادفة أو التخمين قد يلعب دورًا في تحسين درجة الشخص على كثيـر من تساؤلات التعرف إذ يؤدي وضع علامة (صح) أو (خطأ) على بعض الأسئلة إلى إجابـة صحيحة بيد أن التخمين مع معلومات قليلة قد يساعد في الحصول على مستوى أعلى، علـى عكس الاستدعاء فلا أثر للمصادفة أو التخمين به.

طريقة تحسين الذاكرة:

لعل هذه المشكلة قد شغلت العديد من علماء النفس وغيرهم كما يواجه كل متخصص في العلوم الإنسانية بكم هائل من التساؤلات التي تثار من الطلاب قبل إقدامهم على الامتحـان ظنًا منهم أنهم ينسون أو لا يتذكرون أو أن ذلك يرفع لديهم مستوى القلق والخوف من الفـشل وسوف نقدم بعض النصائح في هذا الصدد.

١- الانتباه Attention:

ويعتبر هذا المبدأ من أهم المبادئ؛ لأن الانتباه سيساعد على الاحتفاظ بالمعلومات وفي نفس الآن الاهتمام بها ثم إعادة تذكرها أو استرجاعها مرة أخرى بسهولة.

٢- التنظيم Organization

حيث أثبتت الأبحاث أن التنظيم أو اكتشاف وجود قاعدة أو مبدأ يساعد علـى التـذكر الجيد على عكس لو أن المادة العلمية قدمت للطلاب بصورة عشوائية، كما أوضحت العديـد من التجارب أن حفظ المادة ذات المعنى يفضل بأضعاف المرات حفظ مادة مساويًا لهـا فـي المقدار عديمة المعنى، ولذا فإن حفظ الشعر أيسر من حفظ النثر على أساس أن الأول منظوم ومفهوم وذات جرس موسيقي، إضافة إلى أن التنظيم يشمل المعلومات الجديدة ودمجهـا مـع المعلومات القديمة، وهذا التكامل ييسر عملية التذكر.

٣- المشاركة الفعالة وبذل الجهد Active Participation:

حيث أثبتت الدراسات النفسية التجريبية أن الاعتقاد بأن قراءة أحد الدروس مرة واحدة تكفي لا أساس له من الصحة؛ لأن بذل المجهود له أهمية في الاحتفاظ بمعظم - إن لم يكـن كل - المادة التي تم تعلمها، ولذا من الأفضل للطالب أن يقوم بقـراءة الـدرس قبـل شـرح المدرس، كما أيضًا يجب المناقشة مع الأمثلة الواقعية وغيرها من الطرق التي تـساعد علـى بذل الجهد والمشاركة بفاعلية، كما أن خبراء التربية والتعليم ينصحون مثلاً بأن تكون طريقة



التدريس المناقشة والحوار، بدلاً من الإلقاء؛ لأنه في الطريقة الأولى سيبذل مجهودًا على عكس الحال في الطريقة الثانية حيث يكون دوره سلبيًا / متلقيًا، مما يساعد على ضياع وتشتت لون الاحتفاظ بالمادة العلمية.

٤- التدريب المركز في معامل التدريب الموزعة Massed Versus Distributed Fraction

أثبتت الدراسات النفسية التجريبية أن التدريب المركز أصلح بالنسبة للأعمال القليلة الكمية المترابطة والمنظمة أو ذات المعنى الواضح كما أن التدريب المركز قبل الامتحان له ميزتان هما:

١- إمكان تذكر قدر من المادة بعد مراجعتها والتقليل من فرص نسيانها.

٢- ارتفاع دافعية المتعلمين في ظل التعلم المركز.

أما التدريب الموزع فمن أهم مزاياه:

١- فاعليته في تعلم المهارات الحركية والمواد اللفظية التي يوجد ترابط فيما بينها.

٢- أن مادة التعلم إذا تم توزيعها على عدة أسابيع بغرض زيادة الانتباه والتنظيم المشترك والمشاركة الفعالة وزيادة تأكيد التعلم والتمرين مما يزيد من فرص الحصول على درجة أكثر في الامتحانات الآتية.

٥- زيادة تأكيد التعليم من خلال التكرار Over Learning:

حيث أثبتت الأبحاث والدراسات النفسية أن زيادة تأكيد في التعلم من خلال زيادة الممارسة والتدريب بقدر متوسط من الوقت يساعد على إتقان التعلم كما أن المناقشات والحوار والمشروعات البحثية وغيرها والتي تستخدم المواد التي تم تعلمها من شأنها أن تقلل من طابع الملل الذي قد تحدثه زيادة التأكيدية في التعلم.

٦- استخدام المكافآت أو (الدعم الواجب):

حيث يمكن للقائمين على أمور التعليم بزيادة دافعية الأولاد إلى الاستذكار والتحصيل والاستيعاب من خلال المكافآت والتي إن أحسن استخدامها ستقود إلى مزيد من التذكر والتقدم.

ويقسم في العادة المدعمات أو التعزيزات أو المكافآت إلى نوعين:

أ) دعم داخلي: ينبع من داخل الشخص المتعلم بقيمة وأهمية ما يقوم به.

ب) دعم خارجي: من خلال المحيطين بالشخص والقائمين بأمور التعليم.

ولا شك أن التدعيم الداخلي أفضل من التدعيم الخارجي، لأن استمرار الأول (الداخلي) سيساعدنا على زيادة فاعلية التعلم على عكس التدعيم الخارجي والمرتبط بظروف



معينة. كما أن هناك وصايا أخرى لتحسين وزيادة عملية التحصيل الدراسي يقدمها أحمد عزت راجح (١٩٨٥ ص ٣٢٧: ٣٢٨) نجملها في:

١- حدد لنفسك وقتًا خاصًا تبدأ فيه المذاكرة ومكانا خاصا تذاكر فيه؛ لأن الكثير من العادات تتخذ صورة الدوافع.

٢- اتخذ جلسة الانتباه لا جلسة الاسترخاء والتكاسل التي تعطل التحصيل.

٣- قاوم شرود الذهن ما استطعت.

٤- كثيرًا ما يكون البدء في المذاكرة صعبًا لذا يستحسن البدء بأعمال روتينية مثل تنظيم المكتب، عمل جدول للمذاكرة نقل محاضرة، وتكون الأعمال بمثابة "تسخين" وشحذ على المذاكرة.

٥- راجع الدرس المتأخر قبل البدء في الدرس الجديد حتى يتم الربط .

٦- حدد مستواك وهل يصلح معك البدء بالدروس الصعبة أم السهلة (علمًا بأن مستوى السهولة والصعوبة يختلف من شخص لآخر حيث يحب شخص مثلاً أن يقضي معظم وقت مذاكرته في حل دروس ومسائل رياضية في حين أن بعض الطلاب يشعر أن هذه المسائل عذاب ما بعده عذاب.

٧- حدد غرضك من التحصيل وما تريد تذكره الآن التعلم المقصود أفضل من التعلم العارض.

٨- ابدأ بقراءة المحاضرة أو الفصل كله من أوله إلى آخره لاستيعاب المادة كوحدة كلية تساعدك على فهم الأجزاء ثم ركز بعد ذلك على الأجزاء الصعبة.

٩- اقرأ بسرعة وحاذر من القراءة بفتور وقد تؤدي السرعة إلى عدم وضوح الفهم في أول الأمر لكنك لو ثابرت عليها سرعان ما ستجد أن تحصيلك قد ازداد أضعاف ما كنت تحصله من قبل.

١٠- حاول أن تجيب على تساؤلات تتصل بموضوع المذاكرة وأن تلخص الدرس بلغتك الخاصة وأن تشرحها لغيرك أو تناقشها مع نفسك.

١١- تخيل انك تدرس ما تذاكره لغيرك فإذا أجدت شرحه فهذا دليل على أنك قد فهمت.

١٢- من الأفضل مذاكرة أجزاء من مواد مختلفة كل يوم بدلاً من أن تخصص يومًا لكل مادة.



١٣- امض في تكرارها ثم تحصيله مع ربطه بمواد أخرى أو الإجابة عن أسـئلة عنه لأن هذا يؤدي إلى ثباته في الذهن.

١٤- خذ فترة راحة بين كل مادة وأخرى.

١٥- ألا تذاكر وأنت متعب.



الفصل الثاني عشر

الإنسان والفروق الفردية



الفصل الثاني عشر

الإنسان والفروق الفردية

مقدمة:

أولاً : تعريف علم النفس الفارق :

ليس من السهولة بمكان تقديم تعريف محدد وواضح في العلوم الإنسانية. ولــذا يلجــأ الباحثون إلى استخدام ما يسمى بالتعريفات الإجرائية لكي يقدم مفهومه عن العلم أو المصطلح الذي يستخدمه. وعمومًا فإن علم النفس الفارق هو ذلك الفرع من فروع علم الــنفس والــذي يدرس ما بين الأفراد أو الجماعات أو السلالات من فروق سواء في الذكاء أو الشخــصية أو الاستعدادات كما يدرس أسباب هذه الفروق ونتائجها مستندًا إلى الحقائق التي يكشف عنها علم النفس العام. وإذا كان علم النفس يدرس كل ما هو مشترك وعام بين البشر فإن علــم الــنفس الفارق يدرس فارق ما ينشأ بينهم من اختلافات وفروق. ونستنتج مــن التعريــف الإجرائــي السابق وجود أربع طوائف ينشأ بينهم الاختلاف والفروق وهم:

١- الفروق بين الأفراد Inter Individual

ويهدف إلى قياس ما يوجد بين الفرد وغيره من فــروق بهــدف مقارنــة الــشخص بأشخاص آخرين يشتركون معه في عدة صفات مشتركة كالعمر أو الفرقة الدراسية من ناحية من النواحي النفسية أو التربوية أو المهنية لتحديد مركزه النسبي بناءً على معايير محددة.

٢- الفروق في ذات الفرد (داخل الفرد) Inter Individual

حيث نهدف من القياس إلى مقارنة الفرد بنفسه من خلال ما يمتلكه من إمكانيات وقدرات مختلفة فإنه يقارب بين ذكاء الفرد العام في مجال معين وقدراته في مجال آخر، بهدف التعــرف على الخريطة السيكولوجية للشخص من حيث نواحي القوة والــضعف للتعــرف علــى أقــصى إمكانياته في كل مجال بغرض الوصول إلى تخطيط أفضل لأي برنامج يريد الفرد الالتحاق به.

ثانيًا : التنبؤ :

ويشير إلى إمكانية التنبؤ بمسار السلوك (سواء سلوك الفرد أو الجماعة) على أســاس ما توفر من معلومات عن هذا السلوك، وعلى أساس افتراض ثبات السلوك الإنساني في حدود معينة ومرونته في حدود معينة – كل ذلك يسهم في تقدير المستوى المتوقع.

ثالثًا : التشخيص :

تستخدم الاختبارات المختلفة في تحديد نواحي القصور وبيان جوانب الضعف والقــوة في قدرات الفرد. وعند إجراء الاختبارات على ضوء هذا الهدف فهي تحتم بمعرفة الجوانــب



التي يعاني منها الفرد أو يحتمل أن تسبب اضطرابه مستقبلاً. وكلما كانت أدوات التشخيص علمية وسليمة كان التشخيص جيدًا والعكس صحيح.

رابعاً : العلاج :

تعد هذه الخطوة تتويجًا لكل الخطوات السابقة إذا بعد التعرف على طريقة الفرد من الإمكانيات وجوانب القوة والضعف تبدأ خطوة العلاج من خلال المؤهلين لذلك من خلال برامج متعددة مثل التعليم وإعادة التدريب أو حتى العلاج النفسي بهدف إعادة توافق الشخص (أو الجماعة) مع نفسه أولاً ثم مع البيئة الخارجية ثانيًا.

خصائص الفروق الفردية

تتميز الفروق الفردية بعدد من الخصائص هي :

أولاً : الفروق الفردية فروق كمية وليست كيفية :

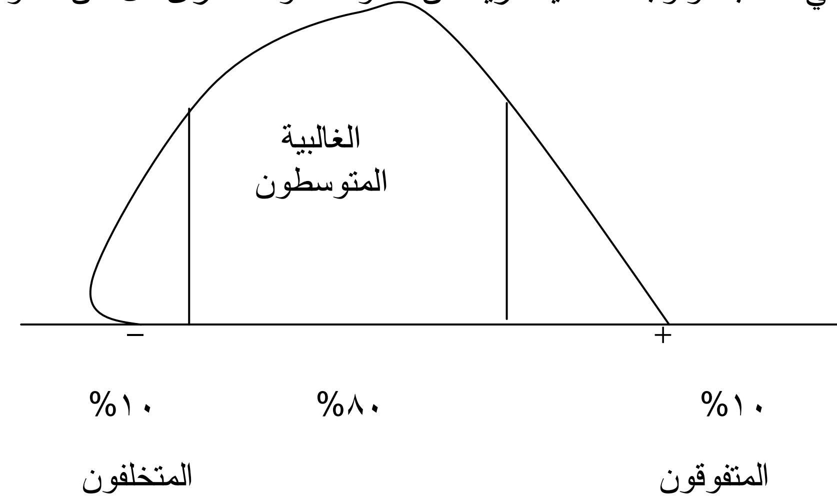
أي أننا كأفراد نمتلك كافة الخصائص والصفات والسمات ولكن هذه الخصائص توجد بين الأفراد بنسب متفاوتة. ونقصد بالكيف أن الصفة متواجدة لدى الأفراد في حين أن الكم (أي الدرجة ومقدارها) هو الذي يشير إلى وجود فروق بين الفرد ونفسه وبين الفرد والآخرين.

مثال :

لدينا جميعًا صفة الذكاء، إلا أن هذه السمة أو الصفة تختلف درجة تواجدها من شخص إلى آخر، بل في الشخص الواحد من مرحلة عمرية إلى مرحلة أخرى. وقس على ذلك المثال العديد من الأمثلة الأخرى المتعلقة بكافة الخصائص والسمات.

ثانيًا : الفروق بين الأفراد تتوزع توزيعًا اعتداليًا:

وتخلص هذه النظرية إلى فكرة أن الأفراد من حيث امتلاكهم لأي خاصية نفسية أو عقلية أو حتى جسمية لا يتوزعون توزيعًا عشوائيًا، بمعنى أن غالبية الأفراد من حيث امتلاكهم لصفة ما متوسطون في الغالب، وتوجد فئة قليلة تزيد عن المتوسط، وفئة أخرى تقل عن المتوسط.





ثالثًا : أن هذه الفروق يمكن التأكد من وجودها في المجتمع بين جميع أفـراده عـن طريق اختيار عينة محددة منه بشرط أن تكون ممثلة لهذه المجتمع الذي تم سحب العينة منه. ونظن أن هذا المبدأ يطبق في كافة العلوم فليس من الضروري دراسة كافـة قطـع المعـادن للوصول إلى القوانين التي تحكمها وقس على ذلك العديد من الظواهر الأخرى.

ولقد أثارت العينة الممثلة مستويين هما:

أ) عينة التقنين :

نقصد بها اختيار عينة صغيرة وممثلة لأفراد المجتمع الأصلي محل الدراسة بحيـث تتوفر في هذه العينة كافة الخصائص الممثلة للمجتمع، بحيث نستطيع التعميم ونحن مطمئنون.

ب) العينة السلوكية :

أي اختيار عينة صغيرة نسبيًا من القطاع السلوكي المراد دراسته بحيـث يراعـى أن تتوافر فيها كافة الخصائص المهمة والمميزة لهذا القطاع السلوكي.

رابعًا : تعميم النتائج الخاصة بالفروق الفردية والمستمدة من العينة المحـدودة مـن الأفراد والعينة الممثلة على المجتمع الأصلي كله.

ولا شك أن هذه الخطوة تعد تتويجًا لكافة الخطوات السابقة فإذا كان اختيـار العينـة المراد دراستها (من الأفراد) والجوانب السلوكية المراد قياسها (من الـسلوك) يـنهض علـى أساس علمي إمبيريقي بدون تحيز فأنت في هذه الحالة تستطيع أن تعمم النتائج ونحن على ثقة من إمكانيات التعميم. والدراسات التي ينهض بها البرنامج الدائم لبحوث تعاطي المخدرات في مصر خير مثال على ذلك، إذ تستخدم عينات – سواء من الطلبـة فـي المـدارس الثـانوي والجامعي أو حتى العمال بكميات كبيرة حتى تمثل الشريحة من خلالها سحب العينـة فعلـى سبيل المثال في دراسة ملامح اتجاهات تعاطي المواد المؤثرة في الأعـصاب لـدى تلاميـذ المدارس الثانوي العام بمدينة القاهرة الكبرى عامي (١٩٧٨-١٩٨٦). كانت نسبة العينة إلـى الجمهور الأصلي.

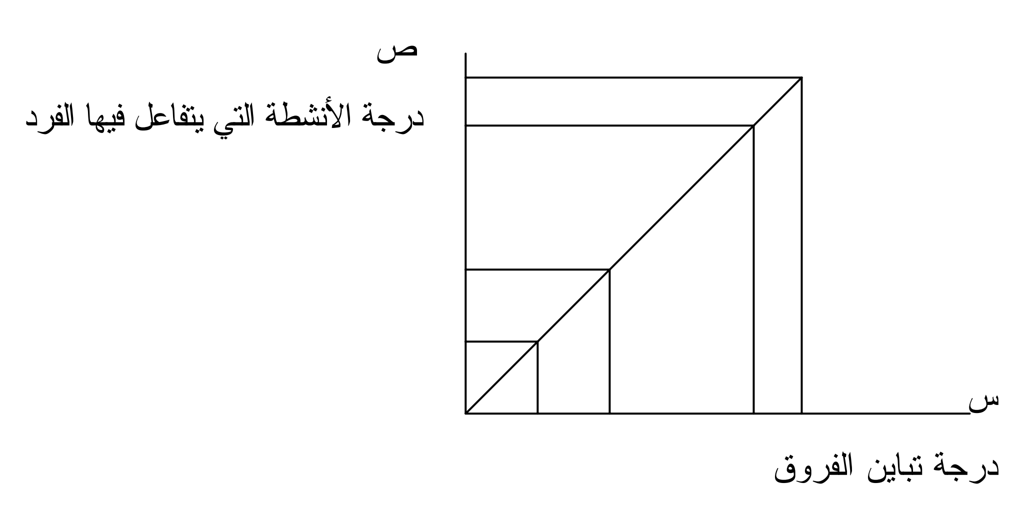
والتناسب يمكنه أخذ عينات من الأفراد تتناسب وطبيعة النـسبة الحقيقيـة للمجتمـع الأصلي فإذا كان المجتمع الأصلي يحتوي على ٢٠٠٠ فرد موزعين بواقع ٨٠٠ أنثـى وأراد الباحث عينة قوامها ١٠٠ من هؤلاء الـ ٢٠٠٠ فيجب عليه حينئذ أن يختار منهم ٨٠ ذكـر و٢٠ أنثى بنسبة تواجدهم في المجتمع الأصلي وهكذا بقية الخصائص الأخرى.

وبهذه الطريقة يمكن أن يطمئن الباحث على عدم تحيز أفراد العينة، وبالتالي يـضمن التوزيع الاعتدالي للمنحنى من جانب ومن جانب آخر قد تكون العينة وشروط انتقائها غاية في



الموضوعية والدقة ومع ذلك يأتي التوزيع منحرفًا عن الشكل المألوف له "الجرس" وفي هذه الحالة يجب إلقاء الضوء على العامل الثاني وهو طبيعة الأداة المستخدمة في القياس، وقد تكون فقرات الاختبار من السهولة الشديدة حيث يجيب عليها كافة أفراد العينة وبالتالي تنتفي الفرضية الخاصة بالتوزيع الاعتدالي Skewed سالب الالتواء Negatively أو العكس قد تكون فقرات الاختبار من الصعوبة بحيث لا يجيب عليها من أفراد العينة وبالتالي يأتي المنحنى حاملاً لخاصية الانحراف والالتواء الشديد Skewed موجب الالتواء Posiyi Vely وهذا العامل يمكن التغلب عليه عن طريق وضع أسئلة تبدأ بالسهولة (أرضية الاختبار) ثم تتدرج في الصعوبة إلى أن نصل إلى ما يعرف (بسقف الاختبار) وبين هذا وذاك يوجد تدرج طبيعي في مستوى السهولة والصعوبة وبهذه الطريقة تضمن تشكيلة من التباينات الفردية في الإجابة على فقرات الاختبار مما يضمن لنا التنوع أثناء توزيع الظاهرة على المنحنى الاعتدالي النموذجي، فتحسب درجة سهولة الفقرة وفقًا للمعادلة التالية:

معامل السهولة: الإجابات الخاطئة (الإجابات الصحيحة + الإجابات الخاطئة) ومن جانب آخر قد تكون العينة تم انتقاؤها بطريقة موضوعية وكذلك تم صياغة البنود والفقرات صياغة موضوعية ومع ذلك يأتي التوزيع الاعتدالي منحرفًا عن شكله المألوف، حينئذ يجب النظر بعين الاعتبار إلى العامل الثالث.



فكلما كان الموقف أو النشاط الذي يتعرض له الفرد في إطار العلاقة التفاعلية بسيطًا والعكس صحيح، كلما زادت درجة تعقيد تلك الأنشطة كما قابلها في الوجه الآخر درجة من التعقيد في الفروق الفردية عنده، فإذا كان النشاط مجرد القيام بتركيب أو فك قطعة من الخشب فيقابلها على المحور (السيني) عدد من الفقرات يختف بالقطع عن القدرات التي يمكن أن تظهر لو كان النشاط المعني هنا القيام بحل مسألة رياضية، أو موقف اجتماعي معقد، ففي هذه



الحالة تتطلب الضرورة تكاثف عدد أكبر من القدرات والاستعدادات.. إلخ. مما يفسح الطريق لأكبر قدر ممكن من الفروق الفردية.

٢- كذلك الحال فيما يتعلق بالأفراد، فعندها يقوم عدد معين من الأفراد بعمل ما، فنحن نجد أن مستوى أداء هؤلاء الأفراد يتباين بالنسبة لهذا العمل، وبطبيعة الحال فإن هذه الفروق بينهم تزداد حساسيتها كلما كان الموقف صعبًا ويحتاج إلى استخدام عدد من العوامل العقلية وغير العقلية أي أن هناك علاقة ارتباطية بين درجة صعوبة الموقف كمتغير وبين درجة الحساسية.

٢- مستوى الأداء الدافعي:

وهو الذي يتوقف بالدرجة الأولى على الميل أو الرغبة في القيام بعمل معين، وتلعب العوامل المكتسبة (بالدرجة الأولى) دورا كبيرا في رفع مستوى هذا الأداء على عكس مستوى الأداء الفسيولوجي حيث تكون الغلبة، ضمن العوامل المكتسبة التي تساهم في رفع أو خفض مستوى الأداء الدافعي لدى الفرد.

أ- النواحي المعرفية Knowledge

أي مستوى المعرفة التي يرغب الفرد في اكتسابها، فإذا كانت لدى الفرد الرغبة في معرفة أو قراءة موضوع ما، يكون مستوى الأداء الدافعي لديه عاليًا بعكس آخر لا تتوافر لديه هذه الرغبة.

ب – النواحي المهارية :

فالفرد الذي لديه مهارة معينة، نجد لديه دافعًا لأن يكون أكثر تكيفًا مع المواقف التي تتناسب وطبيعة تلك المهارة، بعكس آخر يعاني من قلة المهارات الموجودة لديه، مما يقلل في المقابل من انخفاض المستوى الدافعي لديه.

ج- النواحي الإيجابية Attiudes:

وهي تعني أن الأفراد قد يكونون اتجاهات معينة نحو بعض القضايا، مما يرفع لديهم مستوى الأداء الدافعي.

وطالما أن النواحي المعرفية والنواحي المهارية والنواحي الاتجاهية مكتسبة يمكن التحكم فيها من خلال تفاعل الكائن الحي مع الظروف البيئية التي يعيش فيها، فنحن تباعًا قادرون على رفع مستوى الأداء الدافعي لدى الفرد عن طريق التحكم فيها، مع الأخذ في الاعتبار سلامة مستوى الأداء الأول الفسيولوجي (التمرين – التدريب).

والتفاعل بين العناصر المكونة للمحصلة أكبر من مجموع الأجزاء المكونة له.



والمحصلة أكبر من كل مجموع الأجزاء. وبالتالي عندما نتحدث عن التفاعل نتكلم عن درجة حساسية المحصلة بالنسبة لأي تعديل يحدث في الجزء.

هل الاضطرابات الجسمية تؤثر على الذكاء ؟ (إذا اعتبرنا الذكاء هو المحصلة التي تهدف إلى قياس مستوى الأداء فيها).

هل النواحي الانفعالية والمزاجية تؤثر بدورها في مستوى الأداء الفعلي على اختبارات الذكاء؟ إذ التفاعل يستدعي بالضرورة التعرف على طبيعة العلاقة بين الأجزاء المتفاعلة، وتحديد الأثر السلبي للجزء في إطار العلاقة الكلية. مما يبدو أخيرًا في شكل المحصلة النهائية للأداء – هذا – من جانب – وعلى فهم الأجزاء المتفاعلة في علاقاتها ببعضها البعض ينبغي الأخذ في الاعتبار طبيعة النسق البيئي الذي يحوي بين طياته كافة التفاعلات السابقة فإذا ما تواجد الفرد (أ) مع المجموعة (س) فإن أسلوبه سيختلف عن المجموعة (ص) وذلك لاختلاف النسق في الحالتين.

إن التفاعل بين الأجزاء المكونة للخاصية أو السلوك المراد دراسته يؤثر بالقطع على درجة المحصلة الناتجة؛ لأن أي تعديل أو تغيير في هذه القوى الجزئية سيؤثر ويغير من تلك المحصلة النهائية.

مثال ذلك .. عوامل جسيمة × عوامل عقلية × عوامل انفعالية

الفرد س .... ٥ × ١٠ × ١٢ = ٦٠٠

الفرد ص .... ٥ × ١٠ × ١٠ = ٥٠٠

فنقص درجتين في إحدى العوامل أدى إلى نقص في المحصلة بدرجة كبيرة، وهذا يدل على أن المحصلة على درجة عالية من الحساسية وتتأثر تباعًا من تغير في القوى المكونة لها، ولذلك فمستوى الأداء كالزئبق الذي يتأثر بدرجة الحرارة، ومن هنا نجد العديد من موضوعات علم النفس العام.

طاقة متاحة منخفضة خبرة وممارسة كبيرة B	طاقة متاحة منخفضة خبرة وممارسة غزيرة C
D طاقة متاحة كبيرة خبرة وتعلم بسيط	A استعداد وراثي مع ممارسة وخبرة بسيطة

شكل رقم (٤)



الاستعدادات (المعطيات التي لا يمكن تغيرها)

فالشخص (A) لديه استعدادات وراثية وخبرات وممارسات بيئية ضعيفة وبسيطة.

الشخص (B) لديه طاقة كبيرة أيضًا من الخبرات والممارسات البيئية.

والشخص (C) لديه طاقة متاحة منخفضة مع درجة كبيرة من الخبرات والممارسات البيئية.

والشخص (D) لديه طاقة متاحة منخفضة مع درجة منخفضة من الخبرات والتعلم البيئي (الحرمان الثقافي).

يتضح لنا من خلال الشكل السابق أن هناك نوعان من العلاقة:

الأولى: علاقة إيجابية بين الطاقة والخبرة (تفرد) مبدأ التوازن وذلك في طمس الفروق الفردية.

فالشخص (C) لديه طاقة منخفضة، ثم نقوم بإعطائه ممارسات ومخابرات مرتفعة، حينئذ يحدث عدم التكيف ومن ثم عدم تمثيل الخبرات المكتسبة فلكي نصل بهذا الفرد إلى مرحلة التوازن ينبغي السير في خطى معتدلة لإيجاد التوازنية بين طاقاته وخبراته ولعل الدليل على ذلك في المجال التربوي أننا نجد بعض التلاميذ المتباينين في طاقاتهم المتاحة وقد أجبروا على تمثيل مناهج دراسية معينة فنجد البعض منهم استطاع أن يحقق التفاعلية المتوازنة.

صورة ص ٢١٨



الفروق الفردية

درجة حساسية الفروق الفردية بين الأفراد

ولكن من الأمور التي تفيدنا في إلقاء الضوء على قضية الفروق الفردية أن الفروق الفردية بالنسبة للنواحي المعرفية العقلية للأعمار هي فروق كلية Totality بمعنى فروق تعرف بما يسمى بالقدرة العامة، وبمعنى عام أي أنها تدخل في كل لون من ألوان السلوك الذي يقوم به الفرد، وكلما تقدم الفرد في العمر زادت القدرات وتحولت من قدرات كلية (كتلية) إلى قدرات خاصة وقدرات طائفية مما يسهم في زيادة واتساع رقعة الفروق الفردية بين الأفراد. فحينما نطبق اختبار ذكاء على طفل فما يهمني في هذه الحالة هو الوصول إلى الدرجة الكلية لمستوى أدائه على حين يختلف الأمر بالنسبة للأعمار الزمنية المتقدمة حتى يهمني بالدرجة مكونات الدرجة الكلية (راجع ستانفورد بينيه – ووكسلر بلفيو) ولذلك ليس من الغريب أن العديد من الاختبارات في مجال القياس النفسي بعضها يسعى للوقوف على الخاصية العامة المراد دراستها على حين أن اختبارات أخرى تهدف للوقوف على العوامل الجزئية النوعية المكونة للخاصية المراد دراستها. وعندما نحاول تقصي الفروق بين الأفراد فيما يتعلق بالنمو العقلي فيجب أن نضع في الاعتبار الشجرة التنظيمية للنمو العقلي والتي تبدو من الفروق الكتلية وتتشعب بعد ذلك إلى الفروق الجزئية النوعية البيئية (وفقًا لإطار العمر الزمني). أما الإطار النفسي والانفعالي فيسير على وتيرة معاكسة للنواحي المعرفية العقلية، بمعنى أنه إذا كانت النواحي المعرفية هي علاقتها بالعمر وتبدأ من التكتيكية إلى الجزئية النوعية وفقًا لطبيعة الخبرات البيئية ودور الخبرة والتعليم والتدريب.

ما الهدف من دراسة الفروق الفردية :

إن الهدف الأساسي من الفروق الفردية هو الوقوف على التباينات بين الأفراد ومحاولة رفع مستوى قدرة الفرد حتى يستطيع أن يحقق نوعًا من التوازن في كافة الجوانب المكونة للمحصلة النهائية له "أي مستوى الأداء"، علمًا بأنه يوجد العديد من القوى المتفاعلة، ويتوقف نجاحنا في رفع مستوى الأداء على قدرتنا في الوقوف بدقة على أوجه القصور التي تعتري الفرد فإذا كان المحددات البيئية تتسم بالفقر في ظل طاقة متاحة مرتفعة، وفي ظل دافعية ورغبة مرتفعة أيضًا استطعنا تباعًا من توجيه اهتمامنا لتلك البيئة ومحاولة تعديلها بحيث تصبح أكثر قدرة على استثمار تلك الطاقات المتاحة، وعمليات التوجيه التربوي والمهني ما هما إلا عمليتان تبدآن من الفرد من خلال المعرفة الدقيقة بقدراته ثم تتوجهان به إلى الظروف البيئية والعملية التي تتفق وتلك الطاقات المتاحة، حينئذ يشعر الفرد بالتكيف مع



العالم الخارجي، مما يمهد الطريق للخلق والابتكار والرضا عن النفس وعن العالم المحيط به، وذلك عكس فرد آخر لديه طاقات ميكانيكية مرتفعة بحكم مؤهلاته في المجال الهندسي مثلاً ثم نقوم بوضعه في أحد الوظائف الإدارية الشاغرة مما ينجم عن ذلك تضجره وعدم قدرته على مسايرة طبيعة ذلك العمل الذي لا يتفق وطاقاته المتاحة.

إذن علينا بشكل تحليلي أن نقف على كافة العوامل المتفاعلة داخل الفرد حتى يتسنى لنا رفع مستوى الأداء لديه وهنا ينبغي التنويه إلى أن دراسة القدرات العقلية والمعرفية أو سمات الشخصية تستلزم بالضرورة تناول جانبين.

الأول : يتصل بمضمون (Content) القدرة أو الخاصية المراد دراستها.

الثاني : الأسلوب الثاني الذي من خلاله يمكن التعبير عن هذه القدرة Process وبالتالي فالمحصلة النهائية للفروق الفردية في القدرة مثلاً = الفرق في المحتوى + الفروق في الأسلوب الذي يعبر الفرد من خلاله عن تلك القدرة.

الاختبارات النفسية:

نتعرف على الفروق من خلال الاختبارات النفسية، لذا كان من الضروري أن نتعرض لبعض المفاهيم الخاصة بالاختبار النفسي.

أ – تعريف الاختبار النفسي Psychological Test

الاختبار النفسي عبارة عن مواقف مصطنعة تنظم بطريقة خاصة وتعرض على الفرد لكي تؤخذ استجاباته المختلفة عنها أساسًا لتقدير استعداداته وخصائصه المختلفة، أي بقياس الفروق بين الأفراد على الاستعداد أو الخاصية، إذ من المسلم به وجود الفروق بين الأفراد إذ لو كان الناس متشابهين لما كانت هناك حاجة أصلاً إلى القياس.

بعبارة أخرى فإن الاختبار النفسي هو : عينة سلوكية مقننة تستهدف القياس الموضوعي لخاصية نفسية معينة.

وعمومًا فإن الاختبار النفسي يتميز عن الوسائل الأخرى لتقييم الفرد بميزتين أساسيتين:

١- إعطائها للاستعداد أو الخاصية التي يقيسها الاختبار درجة كمية تحدد مدى توافر الاستعداد أو الخاصية فهذا نسبة ذكائه ١٥٠ وآخر وهكذا.

٢- توافر درجة أعلى من الموضوعية بمعنى أن الدرجة التي يحصل عليها الفرد في اختبار الذكاء لا تتأثر بأهواء الأخصائي الذي يقوم بالتطبيق أو التفسير نظرًا لأن طريقة التطبيق والتفسير تكون محدودة.



ب- تقنين الاختبار النفسي Test Standardization

لما كان الاستعداد أو الحالة النفسية شيئًا معنويًا بالدرجة الأولى. بحيث لا نستطيع تحديده تحديدًا ماديًا أو عينيًا ملموسًا؛ لذا فإن الاختبار النفسي يمر بالعديد من الخطوات وهي: حتى يتأكد الباحث من أن الاختبار قد اجتاز كافة الخطوات التي تجعله مطمئنًا إلى ثباته وصدقه.



الفصل الثالث عشر

الإنسان والذكاء



الفصل الثالث عشر

الإنسان والذكاء

مقدمة :

في العدد (٢٨) من مجلة الثقافة العالمية والتي تهتم بترجمة كل ما هو جديد في الغرب إلى اللغة العربية نجد أن ملف العدد هذا قد خصص لعرض أشهر أسئلة القرن العشرين والتي ما زالت تبحث عن إجابة. وضمن هذه التساؤلات التساؤل رقم (٦) بعنوان من أين ينبع الذكاء – لأمي ويلبور حيث يقول: إن ولادة الذكاء أكثر ميزات الإنسان قيمة وما زالت حتى اليوم سرًا يكتنفه الغموض. وهناك نظريات عديدة استحدثت بنودها من أكداس العظام القديمة والجماجم والأسنان ورغم ذلك فكل هذه النتائج مجرد مقدار ضئيل من الحدس والتخمين. وما زال الذكاء لغزًا وتجرى العديد من التجارب لفض مجهلته وأحيانًا مقارنة ذكاء الإنسان بذكاء الحيوان (الدلفين القردة، العليا مثلاً) رغم اعتراض الكثيرين ممن تصدوا لدراسة هذه الظاهرة إلى المخاطرة بهذه المقارنة حيث إن قشرة مخ الإنسان المتسعة لها علاقة بهذا الأمر، حيث إنها تمكنها من الإدراك، والتقويم والاستجابة للعالم من حولنا بطريقة لا تجارينا فيها الحيوانات الأخرى، وأن التغير في النظام داخل الدماغ ينتج عنه مزيدا من مظاهر الذكاء المحددة مثل اللغة (صنع الأدوات) وما زالت القضية معقدة والتساؤل يحتاج إلى المزيد من البحث والتحريات (لأمي ويلبور، ١٩٨٦، ١٣٨: ١٣٩).

أولاً : طبيعة الذكاء :

حين نتعرض لقضية الذكاء فإننا نلج مباشرة إلى قضايا خلافية ليست في مجال علم النفس الفارق فقط، وإنما في مجال علم النفس بصفة عامة. والمشكلة أن أكثر الأشياء التي تبدو لنا مألوفة هي أصعب الأشياء على الإطلاق في التعرف، فهل الإنسان الذكي هو الذي يكون لديه القدرة على الفهم والابتكار والاختراع والتكيف مع المواقف الجديدة والتعلم أسرع والقدرة على التصرف الحسن في المواقف الحرجة؟ وهل الذكاء هو قدر الإنسان على فهم الأشياء "وهي طائرة" كما يقول العامة؟ وهل الذكاء هو القدرة على التفكير المجرد أي التفكير بالرموز وألفاظ مجردة من مدلولها الحسية.

وكل ما سبق مجرد نموذج يوضح لنا مقدار الخلاف في التعريف ليس فقط بين العلماء المتخصصين وإنما حتى بين العامة ممن يدعون الحق في الخوض في مجال العلم.

وهل كل ما سبق يطرح قضية ضرورة الاتفاق على تعريف محدد للذكاء، خاصة أن مفهوم الذكاء بالمعنى العلمي لا يوجد اتفاق عليه، إضافة إلى أنه رغم ذلك توجد العديد من



الاختبارات والمقاييس التي تقيس الذكاء بالرغم من عدم الاتفاق على تقـديم تعريـف موحـد للذكاء. بل ومن الأمور الطريفة أن أجرت مجلة علم النفس التربوي الأمريكية منذ أكثر مـن ٥٠ عامًا دراسة حول هذا الأمر، فقام محرر المجلة بتوجيه سؤال إلى قـادة حركـة القيـاس العقلي متضمنًا فيه تحديد معنى الذكاء من وجهة نظر كل عالم وكانت النتيجة أن تلقى عـددًا من الإجابات بقدر عدد العلماء الذين اشتركوا في هذا الاستفتاء؛ مما يؤكد حتى وجود الخلاف بين العلماء في تحديد معنى ما يدرسونه، حيث اقتضت الضرورة وجود ما يسمى بـالتعريف الإجرائي Operational Definition وهو الذي يلزم الباحث قبل البدء فـي دراسـته مـن ضرورة تقديم ماذا يقصد بكل مفهوم يرد في دراسته أو جوانب المشكلة تحديدًا التـي ينـوي دراستها. حتى تتضح الأمور من البداية وحتى يعي الباحثون الآخرون طبيعتـه الخاصـة أو السمة المقاسة. ولذا نجد أن برونج عام ١٩٢٣ قد اقترح تعريفًا إجرائيًا لمفهوم الذكاء وهو "إن الذكاء هو ما تقيسه اختبارات الذكاء" ولذا لا بد من وضع العديد من الـضوابط لاختبـارات الذكاء، وبيان الأمور التي تنوي الاختبارات التعرض لها. ولذا فلو توافر مثلاً لدينا العديد من الاختبارات المختلفة فإن النتائج التي نحصل عليها من التطبيق تختلف، فقد يغلب علـى أحـد الاختبارات مقدار السرعة في الإجابة وآخر يقيس مقدار القوة .. وهكذا مما يعرضـنا مـرة أخرى لقضية تصنيف الاختبارات وفقًا لمحكات عديدة.

تعريف الذكاء :

تتعدد المحاور التي من خلالها ننظر إلى الذكاء وهي :

أولاً : الذكاء في اللغات: ويعود الفضل إلى الفيلسوف الروماني شيشرون إلى ابتكـار كلمة لاتينية هي Intelligentia والتي تعني حرفيًا معنى الكلمة اليونانية Novs وقد شـاعت في اللغات الأوروبية الحديثة بنفس الصورة وتعني لغويًا الـذهن Intellect والعقـل Mind والفهم Understanding والحكمة Sagacity. ولعل هذا المعنى قريب في الاسـتخدام فـي اللغة العربية إذ إن كلمة ذكاء مشتقة من الفعل الثلاثي (ذكا) ويذكر المعجم الوسيط في أصـل الكلمة ذكت النار ذكوًا وذكاء أي اشتد لهيبها واشتعلت وذكا فلان ذكاء أي أسرع فهمه وتوقد.

ثانيًا : الذكاء في الفلسفة :

١- فرق أرسطو بين نوعين من الوجود وهما الوجود بالقوة والوجود بالفعل مفرقًا بـذلك بين وجود الاستعداد في صورة كامنة، وبين تبلور هذا الاستعداد عمليًـا ولـذا فـإن العلماء يعدون أرسطو هو أول من قدم مفهوم الاستعداد بالمعنى التقليدي إضافة إلـى ذلك فقد ساهم أرسطو في ذكره لعدد من وظائف النفس يتضمن كل منها ما يسبقها لا مثيل لها ويفسر بها سلوك الكائنات الحية جميعًا.



٢- تأثر ابن رشد بهذه الأفكار مهتمًا بفكرة الفروق الفردية في النواحي العقلية ورغم أن العقل وحدة واحدة إلا أن الفروق موجودة بين الأفراد وليس في الكيف وإنما في الكم أو الدرجة وهي قانون قد ذكرناه سابقًا كأحد قوانين الفروق الفردية.

وقد ساهم الفلاسفة في نشر نظريات في الذكاء وفقًا للمفهوم الفلسفي نذكر منها نظرية الملكات ونظرية الارتباط حيث يرى أصحاب النظرية الأولى أن العقل يتألف من عدد من القوى الوسائط أو حتى الملكات والتي تؤدي إلى حدوث الأنشطة الفعلية المختلفة وإن كانوا قد اختلفوا في عدد هذه الملكات في حين أن نظرية الارتباط تستخدم قانون الاقتران وهو قانون هام جدًا وخاصة في مجال التربية والتعليم.

ثالثًا : الذكاء بيولوجيًا :

والذي يرى أن الذكاء هو قدرة الشخص على التوافق بين متطلباته الداخلية وطبيعة البيئة الخارجية توافقًا يمكن الفرد من التطور، ولعل أهم نتائج هذا التعريف أن لفت الانتباه إلى دراسة السلوك الذكي كما يحدث في الحياة بل وفي البيئة الطبيعية دون الاقتصار على بيئات مصطنعة أو الحكم فقط على توافق الشخص من خلال نجاحه في العمل أو الدراسة فقط.

رابعًا : الذكاء فسيولوجيًا:

حيث يرى أنصار هذا الاتجاه بوجود (نظام هرمي للوظائف العقلية) وأن المخ يعم كعقل ولا يوجد جزء من المخ يعمل في انفصال عن الجزء الآخر (وعكس اتجاه أصحاب نظرية الملكات) بل يوجد تكامل وتناسب وتآزر بالرغم من وجود وظائف متعددة للقدرة العقلية العامة للذكاء.

خامسًا : الذكاء إجرائيًا :

يرى الباحث من كل ما سبق ضرورة أن يكون هناك تحديد لما يود الباحث أن يقيسه متباينًا تعريف (بورنج) في أن الذكاء هو ما تقيسه اختبارات الذكاء بشرط أن يحدد الباحث ماذا يقصد من إعداده للاختبار وما هي الجوانب التي يود قياسها وما هي الشروط التي اتخذها لضمان مصداقية النتائج التي يعكسها الاختبار.

نشأة مقاييس الذكاء وتطورها (عرض تاريخي):

لقد أصبح من الثابت الآن الإيمان بحقيقة وجود الفروق الفردية ليس في الذكاء فقط وإنما في كافة الخصائص والقدرات، وأن هذه الفروق قد تتيح الرقي والتقدم لبعض الأشخاص وقد تجعل بعض الأشخاص معاقين أو يستخدمون الحد الأدنى من هذه القدرات ولذا لا بد



للمجتمع من معرفة قدرات وإمكانيات أفراده حتى يتيح لهم الفرصة ولهم في ذلك التوجيه في المجالات التي تتفق مع هذه الميول وتلك الإمكانيات.

وبناء على ما سبق تبارى العلماء منذ منتصف القرن التاسع عشر تقريبًا إلى ابتكار وسيلة أو وسائل تعين في ذلك وكالعادة بدأت هذه الوسائل ضعيفة ومتفرقة ومع التراكم الكمي لها أضحت حقائق ثابتة قابلة للفحص والاختبار. وقد اهتم الباحثون في أول عهدهم بالقياس العقلي إلى قياس بعض العلامات والصفات الجسمية طمعًا في أن يجدوا بعض الدلائل على القوة العقلية، فبدأ القياس العقلي بقياس الرأس وأبعاد الجمجمة وما بها من نتوءات بحجة أن الرأس مستقر العقل واستمر الحال حتى جاء (بيرسون) Bearson في أوائل القرن العشرين وأثبت أن العلاقة بين القوة العقلية والذكاء والمظاهر الجسمية علاقة جد ضعيفة؛ ولذا فقد وجه الأبحاث وجهة جديدة. ثم جاء (فرنسيس جالتون) بأفكار في هذا الأمر وهنا عكف مجموعة من المشتغلين بعلم النفس التجريبي والقياس النفسي إلى اختبار الفروض والتي ذكرها (جالتون وتارد) والخاصة بين وجود الفروق بين الأفراد وفي العديد من القدرات الحسية Sensory والحركية Motored والعقلية Mental، ولعل هؤلاء القادة قد أرسوا قواعد القياس لهذا العلم، بل وظهرت مفاهيم مثل الذكاء Intelligence واختبارات الذكاء Intelligence tests بل وتعددت هذه المقاييس ولعل البداية الحقيقية لتاريخ مقاييس الذكاء قد فرضتها الظروف فرضًا؛ إذ تغير في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عندما عُثر في غابة (أفيرون) (بضواحي باريس) على طفل في حالة بدائية للغاية من حيث المظهر والسلوك عرف من بعد باسم طفل "أفيرون المتوحش" حيث وجد في حالة عري كامل طويل الأظافر ويميل في كافة سلوكياته إلى سلوك الحيوانات، مبتعدًا تمامًا عن سلوك الإنسان، ولقد وثقت هذه في تراث علم النفس الاجتماعي لبيان أثر البيئة في اكتساب العديد من السمات والصفات، وتم تسليم الطفل إلى عالم النفس (إيتارد) Itard حتى يستخدم منجزات علم النفس في تحويل هذا الكائن المتوحش إلى كائن إنساني، وأثمرت الجهود ثلاثة أعوام متواصلة دون أن يفلح "إيتارد" في زحزحة الطفل المتوحش عن سلوكه الحيواني، بل قام "إيتارد" بإعداد وتكوين أول مقياس كمي للذكاء الذي يستخدمه مع هذا الطفل وكان ذلك المقياس يتكون من مجموعة من الاختبارات العملية أو الأدائية Performace test والتي تفي في الواقع بقياس بعض جوانب القدرة الحركية، ولقد انتهى "إيتارد" إلى تشخيص حالة الطفل بأنه من ضعاف العقول بل وصنفه في فئة المعتوه وفقًا للنتائج التي توصل إليها من خلال تطبيق المقياس، وكذا من خلال عدم تقدم الطفل في تعلم أي شيء حتى اللغة الإنسانية. في الوقت الذي كان فيه ألفرد "بينيه" Binat. A. منشغلاً في باريس بإعداد مقياسه الشهير، كان "تشارلز سبيرمان" Spearman منشغلاً في ذات الوقت



في استخدام طرق الإحصاء (لغة العلم) إلى مفهوم الذكاء؛ لأنه حالة أنه لا يوجد تعريف محدد بين العلماء لمفهوم الذكاء بل استطاع أن يحصر ثلاث اتجاهات في تعريف الذكاء هي:

الاتجاه الأول : ويعكس وجهة نظر البعض في أن الذكاء ما هو إلا قوة عقلية خارقة (Super Power) تحدد جميع قدرات الإنسان وتجمعها في بوتقة واحدة.

الاتجاه الثاني : ويعكس وجود قوة منفصلة تكون مفهوم الذكاء مثل التذكر Memory والاستدلال Rearoning والإدراك Persception والتخيل Imagination وهكذا.

الاتجاه الثالث : وهو اتجاه يعكس الرأي السائد بين علماء النفس الأمريكان حينذاك ويتمثل في الاعتقاد بأن الإنسان يملك حشدًا هائلاً من القدرات الخاصة Special Abilities والتي لا ترتبط معًا برباط موحد يجمع شتاتها في كل متناسقة بحيث إن كل قدرة من هذه القدرات مهيأة أصلاً لأداء وظيفة محدودة.

وبناء على هذا الكم من الاختلافات وبعد جهود مضنية لحل هذا اللغز قام ببحوثه الرائدة والتي قادته عام ١٩٠٤ إلى إرساء قواعد نظرية، عن طبيعة الذكاء والتي عرفت فيما بعد باسم نظرية العاملين Teary – 2 Facts حيث تؤكد هذه النظرية على وجود قدرة عامة أسماها (سبيرمان) بالعامل العام (ع) كما تؤكد على وجود قدرات خاصة أو طائفية يشيع فيها بنسبة مختلفة ذلك العامل (ع) وإن كانت تحتوي على قدر نوعي خاص يميز كل قدرة عن غيرها من القدرات وهي العوامل الطائفية. بعد ذلك توالت الجهود فظهرت إلى الوجود عدة مقاييس أشهرها مقياس بينيه – سيمون سواء في صورته الأولى عام ١٩٠٥ أو الثانية عام ١٩٠٨ أو الثالثة عام ١٩١١ والتي تدعمت من خلال هذه المراجعة العديد من المفاهيم الأم مثل مفهوم العمر العقلي إلى العمر الزمني لاستخراج نسب الذكاء I.Q إضافة إلى إبراز حقيقة كلما تقدم الفرد في العمر ازدادت حدة الفروق بين ذكاء الموهوبين وضعاف العقول التي أدت هذه الحقيقة إلى إبراز ضرورة ما يسمى بالنسبة المئوية أي استخدام نسبة ناتجة عن المقارنة بين العمر وبين العقل والزمن كدليل على حساب نسبة الذكاء. علمًا بأن مقاييس "بينيه" قد أجريت عليها العديد من التعديلات مثل مراجعة ١٩١٦ ومراجعة ١٩٣٧ حيث تم إعداد صورتين متكافئتين من المقياس هي الصورة ل والصورة م، وكذا مراجعة ١٩٦٠ وهكذا.

ثم تتواصل الجهود فيقوم ديفيد وكسلر D. Wecsler بإعداد مجموعة من الاختبارات والتي عرفت باسمه لعل أشهر هذه المقاييس مقياس وكسلر بلفيو لذكاء الراشدين المراهقين حيث تكون المقياس من إحدى عشر اختبارًا فرعيًا، وستة لفظية تكون المقياس اللفظي وخمسة



أدائية تكون المقياس العلمي، ويتم للفرد الحصول على ثلاث نسب للذكاء هي نسبة الذكاء اللفظية، ونسبة الذكاء العملية، ونسبة الذكاء الكلية، إضافة إلى القياس بالتحليل الكمي والتحليل الكيفي وكذا حساب مقدار الفرق بين نسبتي الذكاء واللفظية والعملية، وحساب كشف الصفحة النفسية وكذا حساب معامل التدهور، وهي كلها علامات تفيد في التعمق في فهم هذا الجانب المعقد من جوانب الإنسان.

وعمومًا ينقسم مقياس وكسلر بلفيو إلى جزأين :

أولاً : المقياس اللفظي: ويتكون من الاختبارات التالية:

١- المعلومات
٢- الفهم العام
٣- الحساب
٤- إعادة الأرقام
٥- المتشابهات
٦- المفردات.

ثانيًا : المقياس العملي : ويتكون من الاختبارات التالية:

٧- ترتيب الصور
٨- تكميل الصور
٩- تجميع الأشياء
١٠- رسوم المكعبات
١١- رموز الأرقام.

وهكذا تتواصل الجهود لإعداد مقاييس تحاول فهم هذا الجانب الإنساني أي الذكاء.

تصنيف درجات الذكاء :

إن درجة ذكاء الفرد في حد ذاتها ليس لها معنى بدون مقارنتها مع درجات أفراد آخرين يشتركون معه في العديد من الخصائص (العمر)، وقد تأكدت حقيقة أن الفروق بين الأفراد تأخذ شكل المنحنى الاعتدالي بمعنى أن غالبية الأفراد يمتلكون درجة متوسطة من الذكاء وكافة الخصائص والسمات وقلة تمتلك من الصفة درجة أعلى، وفئة تمتلك من الصفة درجة أقل بمعنى آخر أن الفريق الأعظم من الناس يتمتعون – كمثال – بدرجة متوسطة من الذكاء في حين أن قلة من الناس تقع في فئة العباقرة وفئة أخرى تقع في فئة ضعاف العقول. وقد اتفق العلماء على تصنيف درجات الذكاء كالآتي:

- إذا كان نسبة الذكاء أقل من ٢٠ أو ٢٥ فيكون تصنيف الفرد فئة : معتوه.



- إذا كانت نسبة الذكاء من ٢٠ إلى ٢٥ فيكون تصنيف الفرد: أبله.
- إذا كانت نسبة الذكاء من ٥٠ على ٧٠ فيكون تصنيف الفرد فئة : أهوك.
- إذا كانت نسبة الذكاء أقل من ٧٠ فيكون تصنيف الفرد فئة : ضعيف أو متخلف عقليًا.
- إذا كانت نسبة الذكاء من ٧٠ إلى ٨٠ يعد الفرد في فئة الأغبياء.
- إذا كان نسبة الذكاء من ٨٠ إلى ٩٠ يكون ذكاء الفرد دون المتوسط.
- إذا كانت نسبة الذكاء من ٩٠ إلى ١١٠ يعد الفرد متوسط الذكاء.
- إذا كانت نسبة الذكاء من ١١٠ إلى ١٢٠ يكون الفرد فوق المتوسط من ناحية الذكاء.
- إذا كانت نسبة الذكاء من ١٢٠ إلى ١٤٠ يعد الفرد ذكي جدًا .
- إذا كانت نسبة الذكاء أكبر من ١٤٠ يعد الفرد عبقريًا.

الاتجاهات الحديثة في قياس الذكاء :

يتميز الاتجاه الحديث في قياس الذكاء بما تسميه أنتساري النظرة الفارقة ويتمثل ذلك في ضرورة زيادة عدد الاختبارات التي تقيس جوانب مختلفة من الذكاء بحيث لا تعطي درجة واحدة كلية بل تسمح لنا برسم تخطيطي نفسي أو بروفيل Profile يوقف نقاط القوة والضعف في الخريطة النفسية والتعليم للشخص.

عمومًا فإن هناك العديد من العوامل التي تقف خلف هذه النظرة وهي :

١- زيادة الاعتراف بالفروق الفردية داخل الفرد، بمعنى أن الفرد قد يكون متفوقًا في جانب ومتوسطا في جوانب وضعيف في جوانب أخرى، ورغم معرفة هذه الحقيقة (من الناحية النظرية) إلا أنها تحتاج إلى تدعيم وخاصة حين تكون هناك اختبارات مناسبة لذلك.

٢- زيادة الاعتقاد بأن ما يسمى اختبارات الذكاء العام أقل عمومية مما كان مفترضًا منها؛ إذ إن تحليل محتوى العديد من الاختبارات التي تقيس درجة الذكاء لم تتناول بالمقياس العديد من جوانب قدرات الفرد.

٣- التوسع في استخدام منهج التحليل العملي في الدراسة العملية للذكاء وقد أمكن لعلماء النفس بهذا المنهج أن يتوصلوا إلى تحديد أدق للقدرات المختلفة التي يتضمنها الذكاء بالإضافة إلى تصنيف هذه القدرات والوصول إلى نماذج نظرية للتنظيم العقلي المعرفي. ومن هنا فكلما زادت المقاييس التي تقيس الذكاء كلما زاد معرفتنا بهذا الجانب الهام.



نظريات الذكاء :

وصل الاهتمام بعلماء علم النفس إلى درجة وجود نظريات تناقش هذه السمة الإنسانية ولعل من أشهر نظريات الذكاء :

أولاً : نظرية العاملين لسيبرمان:

أراد سيبرمان (١٨٦٣-١٩٤٥) مؤسس مدرسة تحليل العوامل أن يتحقق عن طريق التجربة والاختبار من صحة الفرض الذي يؤمن به عامة الناس وخلاصته: أن الذكي في مجال، لا بد من الضرورة أن يكون ذكيًا في مجالات أخرى.

لذلك أجرى سيبرمان عام ١٩٠٤ عددًا من الاختبارات العقلية والاختبارات الدراسية وحساب معامل الارتباط بينهما للتأكد من هذه الحقيقة. وقد توصل إلى الحقائق الآتية:

١- أن كل اختبار يؤثر في أدائه عاملان، عامل عام مشترك يؤثر في نتيجة هذا الاختبار وعامل نوعي يقتصر أثره على هذا الاختيار وحده دون غيره أي أن الإنسان لديه عاملين. العامل العام المشترك، العامل النوعي المخصص لتميز الفرد في قدرة ما.

٢- أن النجاح في الاختبارات التي تقيس العمليات العقلية العليا كالاستدلال والابتكار والفهم والنقد يتطلب النجاح فيها قدرًا كبيرًا من العامل المشترك (G) أكثر من توقف على العوامل النوعية أو الخاصة (S)، وقد يكون العامل العام قويًا ومشبعًا في حين نجد الفرد ضعيفاً في العوامل الخاصة (S) كالغدد الحاسة أو الحركية أو الموسيقية.

٣- العامل العام يؤثر في جميع القدرات والعمليات العقلية العليا (كالإدراك – التخيل – التصور... الخ) بنسب متفاوتة وليست بنسبة واحدة وهذا ما يفسر تفوق بعض الأفراد في مجال، على نظرائهم في نفس المجال.

٤- أن أحسن الاختبارات التي تقيس الذكاء كما يفهم عامة الناس هو أكثر الاختبارات تشبعًا بالعامل العام أي ما يتضمن استنباط العلاقات وأطرافها خاصة العلاقات والمتعلقات الجديدة غير المألوفة.

ثانيًا : نظرية ثرستون في الذكاء:

يرى ثرستون ممثل مدرسة تحليل العوامل بأمريكا أن ما يسميه سبيرمان بالذكاء أو العامل العام يمكن تحليله أو رده إلى عدد من القدرات أو العوامل الأولية ولذا فقد شرع في تطبيق هذه الفكرة بأن طبق عددًا ضخمًا من الاختبارات اللفظية والعملية المنوعة التي يقتضي أداؤها ما نسميه بالذكاء على عدد ضخم من طلاب المدارس الثانوية وفي الجامعات وحسب معامل الارتباط بين كل اختبار وسائر الاختبارات الأخرى فاتضحت له الحقائق الآتية:



١- أن اختبارات الذكاء لا تقيس قدرة عامة واحدة بل تقيس سبعة من القدرات أو العوامل الأولية وهي:

أ- القدرة على فهم معاني الألفاظ.

ب-الطلاقة اللفظية.

ت-القدرة العددية وهي القدرة على إجادة العمليات الحسابية الأربع (الجمع/ الضرب/ الطرح/ القسمة).

ث-القدرة على تصور العلاقات المكانية (أي تصور العلاقات المكانية والأشكال والحكم عليها بدقة).

ج- سرعة الإدراك وتتمثل في سرعة تعرف الشخص على أوجه الاختلاف والنشأة بين عدة أشياء.

ح- القدرة على التذكر الأصم أي الاسترجاع أو التعرف السريع لكلمات رسوم أرقام دون أهمية لمعناها.

خ- القدرة على الاستدلال أي القدرة على اكتشاف القاعدة التي تجمع بين مجموعة معينة من العناصر.

٢- أن هذه القدرات الأولية (السابق ذكرها) مستقل بعضها عن بعض استقلالاً نسبيًا، بمعنى أن الشخص قد يتفوق بدرجة عالية في قدرة ما، وقد تكون ضعيفة أو له قدرة أخرى وهكذا. (أي أن القدرات ليست واحدة).

٣- أن هذه القدرات يتضافر بعضها مع بعض في الإنتاج العقلي خاصة المعقد فيقدر أن يقوم الشخص بإنتاج معقد لا تؤثر فيه هذه القدرات جميعًا.

٤- يحبذ ثرستون اختبارات القدرات عن اختبارات الذكاء؛ لأنها تكشف بصورة جيدة عن نواحي القوة ونواحي الضعف في الفرد، وأن الذكاء ما هو إلا مركب يتألف من بضع قدرات أولية.

قضايا في الذكاء :

يثير الذكاء العديد من القضايا نوجزها فيما يلي :

أولاً : العلاقة بين الذكاء والعمر :

أجرى العلماء العديد من الدراسات التي تحاول الإجابة عن هذا التساؤل: هل العمل العقلي أو مستوى الذكاء ينمو ويزداد مع تقدم الفرد في العمر؟ بمعنى آخر: هل هناك علاقة بين العمر والذكاء وأن الإنسان كلما تقدم في العمر والنضج ازدادت حدة ودرجة ذكائه؟



وفي الواقع أن التجارب والدراسات بل والملاحظات وحتى المقاييس قد أثبتت حقيقة أن العمل العقلي أو مستوى الذكاء ينمو ويزداد بسرعة في السنوات الأولى من حياة الفرد ثم يبطئ نموه بالتدريج إلى سن ١٣ ثم يزداد هذا البطء وضوحًا حتى سن ١٦ أو ١٨، أما بعد هذه السن لا تسجل المقاييس زيادة في النمو بل إن الذكاء يأخذ في الانحدار ابتداء من سن ٣٠ تقريبًا أو في سن الخمسين تزداد حدة الانحدار وسرعته. فإن أصاب المخ عطب أو تلف نتيجة الإصابة أو تورم أو تلوث ميكروبي أو تصلب في شرايينه كان الانحدار سريعًا، علمًا بأن الحد الأعلى لنمو الذكاء يتوقف على نسبة ذكاء الفرد، فإن كان غبيًا وقف نموه العقلي عند سن ١٤ أو ما دون ذلك أو إن كان ذكيًا أو موهوبًا استمر نموه العقلي حتى سن ٢٠ أو ٢٥. ولكن هل معنى ما سبق أن مستوى ذكاء الفرد يتوقف كلما تقدم في العمر ؟ وهل معنى ذلك أيضًا أن ذكاء الطفل يتفوق على ذكاء الراشد أو الكهل، في الواقع أن الذكاء والتقدم العقلي لا يتوقف فقط على العمر بل هناك العديد من العوامل الأخرى التي تساهم في زيادة النشاط العقلي للفرد مثل القدرة على التعلم والاستفادة من الخبرات السابقة، ومستوى تفكير الشخص، ومهارة التعامل مع مفردات البيئة الخارجية وهي عوامل تتراكم مع تقدم الفرد في العمل ويكون استخدامه لها أفضل، إضافة إلى ضرورة أن نتذكر أن عقولنا لا تبدأ في النمو إلا بعد أن يتم نمو ذكائنا. فالحكمة والثقافة والتذوق لا تبدأ في التفتح إلا بعد السادسة عشرة تقريبًا ذلك لأن خبراتنا وتحصيلنا الفكري في الطفولة كان يقوم على ذكاء فج غير مكتمل.

بقي أخيرًا أن نشير إلى أن الأبحاث لم تجد أي علاقة تذكر بين حجم المخ ودرجة الذكاء، بل وجدت عدم وجود توازن بين زيادة وزن المخ ونمو الذكاء.

ثانيًا : العلاقة بين الذكاء والوراثة والبيئة:

أثير جدل بين العلماء حول دور الوراثة في الذكاء، ودور البيئة في الذكاء ووصل الخلاف بين العلماء إلى أن تبنى أصحاب مبدأ الوراثة بأن جعلوها هي العامل الأوحد في الذكاء، في حين أن معسكر البيئة قد ألغى تمامًا أي أثر للوراثة في الذكاء ورد الذكاء إلى عوامل البيئة وأساليب التربية، وهذا الموقف قد حدا بطائفة ثالثة إلى اللجوء للتجريب لحسم هذه القضية وتقدير أثر البيئة ثم اللجوء إلى دراسة أفراد من وراثة واحدة (أي التوءم المتطابق) لأفراد نشئوا في بيئات مختلفة، ولتقدير أثر الوراثة درسوا أفرادًا من وراثات مختلفة نشئوا في بيئة واحدة أو متشابهة على قدر الإمكان، فماذا كانت النتيجة؟ تم تطبيق اختبارات الذكاء على توائم متطابقة وعلى إخوة عاديين، وتم حساب معاملات الارتباط بين كل فئة على حدة فكانت النتيجة أن درجات المجموعة الأولى في الذكاء أكثر تقاربًا من مجموع درجات المجموعتين الأخيرتين، وتم التحليل لهذه النتيجة على أساس أنها إثبات لأثر



الوراثة في الذكاء، لكن أنصار البيئة من العلماء لم يتركوا الفرصة لأنصار الوراثة واتخذوا من النتائج والأرقام التي تم التوصل إليها دليلاً يؤيد نظريتهم بدليل أن التوائم غير المتطابقة لا يزيد تشابههم الوراثي في الذكاء على إخوة غير التوائم فإذا ظهر أنهم أقرب في الذكاء من أخوه غير التوائم فلا بد أن ذلك يرجع إلى البيئة فهم يتعاملون نفس المعاملة تقريبًا وتتوافر أو تثبت أو تتوحد كافة الظروف في البيئة، بعبارة أخرى فبيئة التوائم المتطابقة تكاد تكون واحدة لذا يكون ذكاؤهم واحدًا في حين أن التوائم اللامتطابقة مختلفة إلى حد ما في الذكاء، ذكاؤهم مختلف أما بيئة الإخوة غير التوائم فأشد اختلاف لذا كان ذكاؤهم أكثر اختلافًا أي التقارب في الذكاء يرجع في نظر أنصار البيئة إلى البيئة لا الوراثة، وإننا لكي نحسم هذه القضية فلا بد من إجراء المزيد من التجارب وخاصة على التوائم المتطابقة لكنها تنشأ في بيئات ثقافية متنوعة أو مختلفة، وبالفعل أجريت بعض الدراسات القليلة في هذا الصدد فوجدت أن البيئات الثقافية الجيدة تؤدي بلا شك إلى تحسين درجات الذكاء، مقارنة بالأفراد الذين يعيشون في بيئات فقيرة ثقافية، وفي هذا دليل على أثر البيئة، ومما أكثر ذلك من أن التوائم المتطابقة تكون أكثر تقاربًا في الذكاء من التوائم غير المتطابقة التي تربت معها. أو أن ذكاء الأطفال قريب من ذكاء آبائهم حتى وإن نشئوا في بيوت غير بيئة آبائهم، كما أن دراسة ذكاء أطفال الملاجئ حيث تتشابه كافة الظروف البيئية، أكدت حقيقة أن الفروق الفردية في الذكاء بين أطفال الملجأ الواحد تكاد تكون كالفروق الفردية بين الأطفال خارج الملجأ علمًا بأن الفروق في الذكاء بين أفراد طبقة اجتماعية تكون أكبر بكثير من الفروق بين متوسطات الطبقات الاجتماعية المختلفة، وما يؤيد رأي أنصار الوراثة أنه كثيرًا ما يتصادف أن ينجب أبوين عبقريين ابنا متخلفا أو تقل درجة ذكائه بكثير عن درجة ذكاء والديه ولعل التفسير الوراثي لمثل هذه الحالة (أو العكس) هو وجود من كان يعاني من التخلف العقلي بين أجداد كل من الأبوين وانتقلت إلى هذا الطفل وفقًا لقوانين الوراثة، ولعل الخلاصة التي تم التوصل إليها من خلال تجارب على هذا المحور هو التوصل إلى حقيقة أن الفرق في الذكاء بين الأفراد والجماعات تحددها الوراثة بقدر أكبر بكثير جدًا من البيئة حيث يمكن القول إن الذكاء قدرة فطرية وأن العوامل البيئية تستطيع أن ترفع نسبة الذكاء أو تخفضها من ٥: ١٠ درجات، وإن كان هذا لا ينفي بأي شكل من الأشكال التفاعل القائم بين الوراثة والبيئة. وإن كانت النقطة الأخيرة يهلل لها أنصار الوراثة ويستخدمها البعض استخدامًا سيئًا على أساس مثير: أن كافة الاختبارات على "البيض" في الولايات المتحدة الأمريكية تثبت أنهم أكثر ذكاء من السود وأن هذه النتيجة ربما تحمل في طياتها إقرارًا بالأمر الواقع وممارسة القهر على الأقليات، ولا شك أن هذه نظرة ممقوتة وغير مستساغة ولا مبررة لممارسة التفرقة العنصرية وحرمان الأقليات من نفس الظروف تقريبًا التي تتوافر للأغلبية.



ثالثًا : الذكاء لدى الجنسين (الذكور / الإناث)

هل صحيح أن درجة الذكاء لدى الذكور أعلى بكثير من درجة الذكاء بين الإنـاث؟ أم أن الواقع يوضح أنه لا فرق أساسي بين الرجل والمرأة في مسألة الذكاء؟ وهـل صـحيح أن النساء ناقصات عقل؟ وأن الرجل دائمًا يتمتع بالذكاء والمرأة قليلة الذكاء؟ إن الدراسات القليلة التي أجريت في هذا الصدد أوضحت أنه لا فرق بين ذكاء المرأة وذكاء الرجل وأن الجنسين متشابهين في هذه الخاصية، لكن هناك حقيقة هامة كشفت عنها هذه الدراسات ألا وهي تزايد الفارق بين متوسط الذكاء في الذكور عنه في الإناث، إذ إن عدد المتفوقين أو البـارزين فـي مجالات مختلفة وكذا عدد المتخلفين عقليًا من الذكور نسبتهم أعلى بكثير من مثيلاتهـا عند الإناث، بيد أن اتساع الهوة في الفروق الفردية بين الذكور لا يرجع إلى عوامل وراثيـة فـي الأغلب بل إلى عوامل اجتماعية وحضارية وحتى دينية. فالمجتمع قد حدد منذ الأزل للمـرأة وظائف معينة غالبًا لا تتطلب مهارة أو اختراع، كما أنها في الأغلب تعمل داخل المنـزل ولا تواجه مثل تلك الضغوط Stnem التي يواجهها الرجل في الظروف الخارجية، ولا شـك أن هذه الظروف تنعكس ليس فقط على البنيان أو النشاط العقلي للرجل بل حتـى علـى بنيانـه الجسدي حيث يكسبه العمل الشاق القوة والمتانة الجسدية ويفجر فيه كافة طاقاته: هي فـرص نادرًا ما تتاح للمرأة، لكن مع خروج المرأة لبعض المجتمعات ظهرت المرأة المتفوقـة وكـذا المتخلفة (والتي تمتهن مهن النظافة وحتى البقاء في الطبقات الأخرى)، وهذا يفسر أن تمتـع الرجل بالذكاء أو حتى بممارسة السلوكيات المنحرفة (كالتدخين مثلاً) لـيس قاصـرًا علـى الرجال، بل حين تتاح نفس الفرص للمرأة فإنها تظهر إمكانياتها خلال العمل الاجتماعي المنتج والذي يتطلب نسب مختلفة من الذكاء؛ إذ إن المهن تتطلـب التخطـيط والتـصميم والحكـم والابتكار والقدرة على اتخاذ القرار وسعة الأفق وتقبل الجديد أو ما يـستجد مـن المـشاكل والتعرض لضغوط العمل. ولكن أيضًا للنجاح في الدراسة والعلاقات مع الآخرين وهي جميعًا تحديات لن تنكشف، والمرأة – على سبيل المثال – قابعة في المنزل تمارس أعمال روتينيـة ومتكررة وآلية لا تتطلب كشفًا عن هذه الإمكانيات. وهكذا يتضح مدى أهمية دراسة الفـروق الفردية في فهم الإنسان.



الفصل الرابع عشر

الإنسان والقدرات والاستعدادات العقلية



الفصل الرابع عشر

القدرات والاستعدادات

مقدمة :

إن الذكاء ليس هو كل شيء للوصول إلى النجاح وخاصة النجاح في المهن والدراسات لأنها تقتضي استعدادات وقدرات خاصة. فتفوق الفرد في الجانب الميكانيكي إنما يشير إلى وجود قدرة لديه على إدراك الطريقة التي تتوافق بها الأجزاء مع بعضها البعض، وهكذا في كافة جوانب النبوغ سواء أكانت فنية أو رياضية أو لغوية وهكذا.

ولذا فقد سار علماء النفس في مسارين مختلفين في تلك الاختبارات لتحديد مثل هذه المواهب أو القدرات الخاصة، ولم يعد علماء النفس يرون أن اختبارات الذكاء تقيس قدرة "فطرية" نقية، ولكنهم يرون أنهم يقيسون مزيجًا يمكن تحليله من الإمكانية الفطرية والخبرة التربوية، وتنطبق هذه النتيجة على الأنواع الأخرى من الاختبارات الخاصة بالاستعداد فالقدرة التي تقيسها اختبارات الاستعداد الميكانيكي هي جزئيًا نتاج لأي خبرات أدت إلى حدة إدراك الشخص للتفاصيل الدقيقة وهكذا فيما يتعلق بباقي الاستعدادات.

وعمومًا فإن تقسيم القدرات إلى عدة أنواع هام جدًا – على الأقل من الناحية الاجتماعية– وإن كان ذلك يتطلب ضرورة حساب الصدق أي أن يكون الاختبار صادقا في قياسه للسمة أو القدرة التي صمم لقياسها مع ضرورة أن يذكر مع الاختبار كافة الطرق التي لجأ إليها حتى يتأكد تمامًا من صدق قياسه وبالتالي من صدق نتائجه ويقصد بالقدرة Ability كل ما يستطيع الفرد أدائه في اللحظة الحاضرة من أعمال عقلية أو حركية سواء أكان ذلك نتيجة تدريب أو من دون تدريب كالقدرة على ركوب الدراجات أو تذكر مقاطع من قصيدة شعرية أو عزف قطعة موسيقية: في حين يعرف الاستعداد Aptitude بأن قدرة الفرد الكافية على أن يتعلم بسرعة وسهولة وأن يصل إلى مستوى عال من المهارة وفي مجال معين من خلال لحظات معينة مثل: الوصول إلى مستوى أعلى من الكفاءة بمجهود أقل وفي وقت أقصر أي أن إنتاجه يكون أسرع وأعلى من ذوي الاستعداد المنخفض ومن خلال مقارنة أداء الفرد بأداء شخص آخر في نفس القدرة. ويرى البعض أن الاستعداد سابق على القدرة، فهو قدرة كافية يحيلها النضج الطبيعي والتعلم من قدرة كافية إلى قدرة فعلية (ويذكرنا ذلك بقول أرسطو الوجود بالقوة والوجود بالفعل) ونحن نستدل على وجود الاستعداد عند الفرد في قدرة معينة من خلال قدراته على التعلم السهل وعلى التفوق والنبوغ بأقل مجهود وبتفوق ملحوظ.



وهناك من العلماء من يقرن بين الاستعداد والتحصيل على أساس أن الشخص الأذكى يكون أقدر على التعلم من الشخص الأقل ذكاء وكذلك فإن من يحصل على درجة مرتفعة في اختبار تحصيلي لحساب مثلاً يكون أقدر غالبًا على تعلم الحساب ممن يحصل علــى درجــة منخفضة. وكذلك يصعب أن نميز بين اختبارات الذكاء والاستعداد والتحصيل على أســاس أن المضمون أو المحتوى يتداخل في هذه الفئات الثلاث، كما يصعب أيضًا التمييز بيــنهم علــى أساس العملية المطلوبة في الاستجابة للاختبار. ففي التحصيل نستدعي ما تعلمناه وفي الــذكاء تظهر القدرة على التصميم أو التجريد أو اكتشاف العلاقات بين الأشياء، كما أن التعليم يهدف أيضًا إلى إنماء القدرة على التصميم من الأساس العقلي إلى المواقف الجديدة.

طبيعة الاستعدادات وتكوينها:

تتعدد الاستعدادات فقد يكون الاستعداد عامًا كالاستعداد الطبي الذي يؤهــل صــاحبه للنجاح في مهنة الطب على اختلاف فروعها مما يؤهل صاحب هذا الاستعداد للنجــاح وقــد يكون الاستعداد خاصا كاستعداد الفرد لأن يكون متفوقا في مجال معين من المجــالات، وقــد يكون الاستعداد بسيطًا من الناحية السيكولوجية، فالاستعداد الذي يتبدى في قدرة الفــرد علــى التمييز بين الألوان أو نغمات الأصوات، أو قد يكون الاستعداد مركبًا من عدة قدرات أوليــة بسيطة كالاستعداد اللغوي والموسيقي.. الخ. هذه الاستعدادات الدراسية والمهنيــة المختلفــة. وكي تظهر القدرة لا بد من قدر من التدريب والتعلم حتى يساعد هذه القدرات الكامنــة علــى الظهور. وقد وجد العلماء أن الاستعدادات والقدرات لا توجد عند جميع الأفراد بدرجة واحدة بل تأخذ شكل المنحنى الاعتدالي، حيث تتركز الأغلبية في امتلاك درجة متوسطة من القدرات وقلة من الأفراد تتفوق في استعداد ما وفئة أخرى تكون ضعيفة في نفس الاستعداد وإن كنــا نظن أن التوزيع وفقًا لشكل المنحنى الاعتدالي لا يميز فقد بين الأفراد بل يعبر عن الفــروق داخل الفرد الواحد. وقد أوضحت فيما سبق أن الأسباب التي تكمن خلف بزوغ الفروق الفردية إنما ترجع إلى عاملي الوراثة والبيئة، غير أن أثر الوراثة يكون أعمق بكثير من الاستعدادات، بيد أن الوراثة لا تكفي وحدها في تفسير تواجد الاستعداد ودرجتــه إذ لا بــد مــن اكتــشاف الاستعداد وصقله بالتدريب والمران والتعلم بل والمواظبة على التعلم، ولعل المثل القائل "ابــن الوز عوام" خير مثال يوضح ذلك، إذ لا بد من أن يرث الشخص الاستعداد ثم يتولى القائمون بالتربية اكتشاف هذا الميل وصقله بالمران. أما تشتت الفرد وعدم إلمامه باستعداداته وتنقله من مهنة إلى أخرى أو نوع دراسة أو آخر فيعبر عنه المثل القائل "سبع صنايع والبخت ضــايع" ولعل هذا المثال يعبر عن سوء الفهم لما يمتلكه الفرد من قدرات، أو فرض الآخــرين عليــه دراسة أو مهنة معينة قد لا توافق هوى أو استعدادا لدى الشخص. علمًــا بــأن الاســتعدادات



والميول لا تتبلور وتكون واضحة إبان فترة الطفولة المثيرة بل تبدأ في التبلور إبان فترة المراهقة نتيجة للعديد من العوامل التي استجدت وعلى رأسها النضج الطبيعي وتراكم الخبرة والتدريب والتعلم.

أنواع أو تصنيف الاستعدادات والقدرات :

أولاً : القدرات اللغوية :

يقصد باللغة القدرة على التواصل بين الفرد والآخرين من خلال رموز وكلمات معينة لها معنى سائد في البيئة التي يعيش فيها الفرد. والقدرة اللغوية مثلها مثل أي قدرة قد توجد بدرجة متوسطة عند بعض الأفراد، وقد يتقدم فيها البعض وتكون محدودة عند البعض الآخر (وخاصة ضعاف العقول حيث يرى بعض العلماء أن من ضمن محكات تشخيص الضعف العقلي الافتقار إلى عامل اللغة). ويبدو الاستعداد في اللغة في قدرة الشخص على معالجة الأفكار والمعاني عن طريق استخدام الألفاظ ومعرفة ما بينها من علاقات. ويبدو الاستعداد اللغوي في المظاهر الآتية:

١- سهولة فهم الألفاظ والجمل والأفكار المتصلة بها.

٢- إدراك ما بين الألفاظ أو ما بين الجمل من علاقات مختلفة (تشابه / تضاد).

٣- سهولة التعبير التحريري والشفوي .

٤- استرجاع أكبر عدد من الألفاظ في وقت أقل .

٥- القدرة على انتقاء الكلمات المناسبة للجملة.

٦- السرعة على إنتاج موضوع متماسك وهو جزء من عامل القدرة على طلاقة الكلمات.

٧- القدرة على التسمية : Naming بمعنى إطلاق مسميات على أشياء غير مألوفة من قبل ولا يخفى أن الاستعداد اللغوي ضرورة للنجاح في مهن محدودة: مثل التأليف والتحرير والخطابة والصحافة والتدريب والمحاماة، وكل من له صلة أو علاقة بالجمهور أو إدارة جلسات الاجتماع.

ثانيًا : القدرات الحسابية :

يقصد بالقدرة الحسابية أو العددية أو الرياضية قدرة الفرد على استخدام الأعداد وفهم ما بينها من علاقات ذات دلالة وسرعته ودقته في إجراء العمليات الحسابية. وقد كان المظنون أن القدرة العددية قدرة واحدة أو أحادية واستمر الحال على هذا المنوال حتى عام ١٩٥٨ حين أجرى فؤاد البهي السيد دراسته العامة لهذه القدرة وفيها طبق ١٦ عدديًا على مكونة من



٣٥٠ تلميذاً بالمرحلتين الابتدائية والإعدادية في مصر أو استخدام التحليل العامي فتوصل إلى ثلاث عوامل هي :

١- القدرة على إدراك العلاقات العددية وتقاس باختبارات العلاقات المحذوفة.

٢- القدرة على إدارة المتعلقات العددية وتقاس باختبارات للقسم الناقص والضرب الناقص.

٣- القدرة على الإضافة العددية وتقاس باختبارات الجمع المركب.

ثم تواصلت جهود العلماء في دراسة هذه القدرة وعلاقتها بالقدرات الأخرى، ولعل أهم نتائج هذه البحوث أن القدرة العددية لا توجد في حالة انفصال بل لها علاقة بالقدرات الأخرى مثل: العامل العام، العامل العددي، العامل المكاني، العوامل الاستدلالية، عامل التذكر.

وعمومًا فإن هذه القدرة هامة جدًا لبعض المهن مثل مهنة المحاسبة والإحصاء وتدريس الرياضيات وأعمال التجارة والبقالة وغيرها من الأعمال التي تتطلب تعاملاً ماليًا مع الآخرين.

ثالثًا : الاستعداد الميكانيكي :

هو استعداد ضروري لكل من يدور عمله حول فهم الآلات والتعامل معها وإدارتها وصيانتها وحلها أو تركيبها وإدراك العلاقات بين أجزائها، وقد يكون المهارة الحركية أو العضلية هامة جدًا في هذا الاستعداد إلا أنها ليست كافية لفهم آلات وإدراك ما بينها من علاقات.

وقد أجرى العلماء العديد من الدراسات في هذا الصدد لمعرفة العوامل التي تكون منها هذا الاستعداد وتوصلوا إلى ضرورة وجود العوامل الآتية:

١- عامل التصور البصري :

ويبدو في قدرة الشخص على إدارة الأشكال المسطحة والمجسمة وتصور ما سوف تؤول إليه بعد دورانها أو تصور حركة الآلات، كما يبدو – أيضًا – في القدرة على تصور الأشياء الخفية داخل الجهاز أو الآلة.

٢- عامل العلاقات المكانية:

ويبدو في قدرة الشخص على تقدير المسافات والأبعاد بدقة وكذا ملاحظة ما بين الأشكال من تشابه واختلاف.

٣- عامل المعلومات الميكانيكية:



ويقتضي ضرورة توافر ما يسمى بالذكاء الميكانيكي والذي يتطلب إلمام الشخص بالعديد من المعارف والمعلومات بل والمهارات حول هذا المجال الميكانيكي.

ولعل من أبرز الدراسات المصرية التي أجريت حول هذا العامل دراسة محمود عبد القادر سنة ١٩٦٣ حيث اختار مجموعة من المهندسين الميكانيكيين وطلب منهم اختيار مجموعة محتملة من الأعمال الميكانيكية والتي تعبر عن الأعمال الميكانيكية الموجودة في مصر ثم طبق منهج التحليل العملي على هذه الأعمال ثم أعد بطارية تتألف من ١٩ اختبارًا طبقها على عينة من التلاميذ للتوصل إلى مجموعة العوامل التي تتكون منها القدرة الميكانيكية وتوصل إلى (٨) عوامل هي:

١- الاستدلال الميكانيكي .

٢- مهارة الأصابع واليدين.

٣- التآزر بين حركات اليدين والذراعين وحركات العينين.

٤- السرعة الإدراكية للعلاقات الميكانيكية.

٥- العامل المكاني الأول وقصد به التصور البصري أي القدرة على تدوير المجمعات والأشكال من مكانها الأول إلى مكان ما أو موضع جديد بناء على تعليمات محددة.

٦- ذاكرة الأوضاع المكانية.

٧- العامل المكاني الثاني والقدرة على الحركة البصرية في تنظيم أو ترتيب عناصر المشكلة وإعادة تنظيمها ومن زاوية جديدة.

٨- عامل الاتزان ويمثل القدرة على دقة وثبات حركة اليد مع تحريك الأصابع واليد حركات إرادية بسرعة ودقة إلى أهداف معينة حسب تعليمات محددة.

وغني عن البيان أن هذه القدرة مطلوبة في كافة الأعمال التي لها علاقة بالآلات مثل الهندسة وعمال الورش والصيانة وغيرهم.

رابعًا : القدرات الكتابية :

تعد الوظائف الكتابية العمود الفقري في جميع الهيئات والمصالح الحكومية وغير الحكومية والتي تتطلبها طبيعة بعض الأعمال، كما أن الأعمال الكتابية على أنواع مختلفة منها إمساك الدفاتر، إجراء الحسابات الكتابية على الآلة الكاتبة أو الكمبيوتر، استخدام الآلة الحاسبة، حفظ الأوراق في الملفات بعد تبويبها، النقل والتلخيص وهكذا.. والقدرات الكتابية تتطلب الجوانب الآتية:



١- القدرة على التصنيف والتبويب والتنسيق.

٢- القدرة على تشخيص الأفكار الأساسية.

٣- القدرة على اكتشاف الأخطاء.

٤- القدرة على ملاحظة التفاصيل بسرعة والكشف عنها.

٥- الدقة والسرعة في نقل الجداول.

٦- القدرة على الكتابة على الآلة الكاتبة (الكمبيوتر) واستخدام الآلة الحاسبة في دقة وسرعة.

٧- الدقة والسرعة في إجراء العمليات الحسابية البسيطة.

٨- القدرة على فهم التعليمات.

٩- الصبر على احتمال العمل الرتيب .

وغني عن البيان أن هذه القدرة مطلوبة في كافة الوظائف التي تتطلب الكتابة مثل السكرتارية وغيرهم.

خامسًا : القدرات الموسيقية :

يعد "سيشور Seashore" راعي حركة قياس القدرة الموسيقية، إذ يرى أن النجاح في هذه القدرة يتطلب نجاح الشخص في قدرته على المهارات اليدوية لاستعمال الآلات الموسيقية إضافة إلى القدرة على المثابرة والنشاط والتمرين المستمر، والخيال الانتصاري الذي يستخدم ليس في كتابة النوتة الموسيقية فقط وإنما في فهم وتفسير الموسيقى الموجودة، إضافة إلى الحساسية الوجدانية التي تعد عناصر في الانتصار، كما يجب توافر الذكاء خاصة في المستويات الموسيقية العالية. ولذا أعد سيشور اختبار لقياس القدرة الموسيقية ويتكون من ستة أجزاء مسجلة على أسطوانات لقياس العوامل الست الآتية:

١- تمييز حدة النغم (من حيث الدرجة).

٢- تمييز الارتفاع والانخفاض.

٣- تمييز التوقيت.

٤- تمييز نوع النغم .

٥- تمييز الإيقاع .

٦- تذكر الأنغام.



أيضًا من الدراسات المصرية دراسة آمال صادق عام ١٩٩٨ التي درست باستفاضة القدرة الموسيقية وتوصلت إلى أن القدرة الموسيقية ليست قدرة أولية موحدة لا تقبل التقسيم إلى ما هو أبسط منها، كما أنها ليست تنظيمًا هرميًا من القدرة وإنما هو مجموعة من القدرات الطائفية يرتبط بعضها ببعض بدرجات متفاوتة، واستمرت في دراستها لتتبع علاقة القدرة الموسيقية بالقدرات الأخرى مثل القدرة على ابتكار الموسيقى وقدرات التعيين في مجال الإدراك الموسيقي وغيرها.

ولا شك أن هذه القدرة الموسيقية لازمة كافة الفنانين ومن يعمل كعازف أو قائد أوركسترا في أي فرقة موسيقية.

سادسًا : القدرات الفنية :

يعد "مايير Miere" وتلامذته في جامعة أيوا من الذين اهتموا بدراسة هذه القدرة. ولم يتم تحليل هذه القدرة بطريقة التحليل العاملي ولكن عن طريق تحليل المضمون وتتبع سير الفنانين وإنتاجهم. وقد توصلت هذه الدراسات إلى تحديد ستة عوامل تدخل في تكوين القدرة الفنية وهي:

١- المهارة اليدوية

٢- القدرة على بذل النشاط والاستمرار في العمل

٣- الذكاء الجمالي ويعني القدرة على إدراك المساحات بين الأشياء.

٤- الخيال الابتكاري ويعرف بأنه القدرة على تنظيم الإحساسات الحية في إنتاج جمالي.

٥- الحكم الجمالي ويهتم بمعرفة القدرة على إدراك الوحدة في التنظيم.

٦- التفصيل الجمالي : وتتمثل في نزعة سلوكية عامة تجعل الشخص يحب فئة معينة من الأعمال الفنية أو حتى الجمالية، دون غيرها أي ما يسمى بالتذوق الجمالي.

وغني عن البيان أن هذه القدرة هامة جدًا لكل من يعمل في مجال الفنون المختلفة أو التذوق الفني.

قياس القدرات :

نشط العلماء في إعداد العديد من الاختبارات وبطاريات الاختبارات لقياس وتشخيص وتحديد جوانب القدرات مثل بطارية اختبارات الاستعدادات الفارقة والتي تتكون من الاختبارات الآتية: التفكير اللفظي / القدرة العددية / الاستدلال المجرد / العلاقات المكانية/



الاستدلال الميكانيكي / القدرة على استخدام الجمل في الإملاء / السرعة والدقة في الأعمال الكتابية/ ويمكن استخراج الدلالات من كل اختبار.

وأيضًا اختبار القدرات الفعلية الأولية إعداد أحمد زكي صالح وهو مقتبس بما يتناسب مع البيئة المصرية عن اختبار فرستون للقدرات الأولية، وتقيس هذه الاختبارات أربع قدرات أولية أهميتها في النجاح الدراسي والنجاح المهني إلى جانب إعطائه صورة عامة عن ذكاء الفرد العام. وهذه القدرات هي : القدرة اللغوية / القدرة على الإدراك المكاني / القدرة على الاستدلال / القدرة العددية.

وهكذا تتواصل إنجازات العلماء لدرجة أننا نجد اختبارات قد تم إعدادها لقياس كل قدرة كما سبق وأشرنا إلى بعض منها أثناء حديثنا عن تصنيف القدرات.

فائدة التعرف على القدرات :

هام جدًا أن يتعرف كل فرد على مقدار ما لديه من استعدادات وميول وقدرات لأن ذلك يفيد في :

١- التوجيه المهني : ويقصد به توجيه الفرد إلى المهنة التي تتفق مع ميوله ولا شك أن ذلك يتطلب القيام بعملية تحليل للفرد وتحليل للأعمال وما يتطلبه من قدرات وبناء على موازنة ما هو موجود لدى الفرد من قدرات يتم توجيه الفرد إلى العمل الذي يتفق مع ميوله ولا شك أن ذلك يكون مفيدًا جدًا بالنسبة للفرد وللدولة؛ لأننا حققنا فعلاً وليس نظريًا "الرجل المناسب في المكان المناسب".

٢- التوجيه التعليمي : ويقصد به تقديم المعونة للطالب أو الدارس بالتوجيه إلى نوع الدراسة أو التخصص الأكاديمي الذي يتفق مع قدرات الفرد وميوله واستعداداته وفقًا لما ذكرناه في البند السابق.



الفصل الخامس عشر

الإنسان والإبداع



الفصل الخامس عشر

الإنسان والإبداع

مقدمة :

إن تفتيت المحاور الإبداعية إلى (مبدع، نص، متلقي) – بالرغم من استحالة ذلك في الواقع إلا أن التصنيف والتقسيم بالرغم من طابعه الذاتي الإنساني إلا أنه هام جدًا في فهم وتفسير وتنوير وإضاءة العملية الإبداعية، بيد أننا قبل الولوج في خضم المناقشات والاستنتاجات حول كل محور سنشير إلى:

أ- العلاقة بين علم النفس والأدب :

إن الحقيقة التي يجب أن لا تغيب عن الأذهان أن الأدب يسبق علم النفس في كشف مجاهل الإنسان، هذه الحقيقة بديهية؛ إذ إن إنجازات الأدب من رواية وقصص وأساطير ومسرحيات وأشعار بل وحتى خرافات قد فتحت المجال لدراسة الإنسان بما هو إنسان؛ ولذا فإن سيجموند فرويد (١٨٥٦-١٩٣٩) يقول: الفن كما تعلمه منذ أمد طويل يمنحنا ألوانًا من الرضا تعوضنا عن أقدم ألوان العدول الثقافية، وهذا لا يعادله شيء في تحقيق المصالحة والتوافق بين الإنسان والتضحيات التي ضحى بها من أجل استمرار الحضارة، ولذا فإن فرويد يخلع نوعًا من القداسة والأهمية على العاملين في مجال الإبداع والفن إذ يقول: الشعراء والروائيون يعرفون بين السماء والأرض كثيرًا من الأشياء التي لم تزل حكمتنا المدرسية لا تستطيع الحلم بها، فهم أساتذتنا نحن البشر العاديين في معرفة النفس؛ لأنهم ينهلون من منابع لم نجعلها قابلة للإدراك العلمي بعد، وإذا كان علم النفس ينهض على التحليل والشرح والتوضيح والتبصير والأدب يعتمد على التركيز والإيجاز ومن هنا يبدو الاختلاف في الوسائل التي يستخدمها كل من علم النفس والأدب برغم اتفاقها في الهدف الذي يتمثل في الحصول على المزيد من المعرفة الإنسانية (نبيل راغب ١٩٨٠-١٣٢).

ومن هنا يرى يوسف مراد أنه يبدو أن لغة العلم ولغة الأدب والفن كما لو كانا على طرفي نقيض، فبينما يمكن ترجمة الحقائق العلمية من لغة إلى نص دون التباس أو غموض أو تشويه نجد أن أي تعبير فني لا يمكن نقله من لغته الأصلية إلى لغة أخرى دون أن يفقد طابعه الفني الأصيل، كما يستخدم لغة الفن ألفاظًا يصعب تحديد معناها؛ لأنها توحي ولا تفصح وتظل محاطة بغمامة من الغموض (يوسف مراد ١٩٧٤) وليس هذا فحسب بل إن البعض يرى أن الفرق الأساسي بين العلم والفن ليس في المنبع أو الموضوع بل أيضًا في اللغة فالعلم



هو لغة العقل أما الفن فهو لغة الحدس الذي تلعب فيه العاطفة والرؤى الخاصة الذاتية من خلال التناقض البين يأتي التحليل النفسي للأدب منطقة للتصالح والوفاء بين طرفي النقيض، ونحن نسلم من خلال هذه المقولة أن التحليل النفسي علم (مكرم شاكر إسكندر، ١٩٩٢).

بيد أن هذا التناقض المصطنع بين العلم والأدب إنما هو تصنيف زائف وإن تصوير التضاد أو وجود أزمة بين الثقافتين (العلمية، الأدبية) لا يتفق مع ما أشارت إليه دراسات عديدة من وجود جوانب فنية كثيرة في العلم ومن وجود جوانب علمية كثيرة في الأدب والفن (Lindaver, M. S 1974 pp, 31: 33).

لماذا تأخر الاهتمام ببحوث الإبداع :

لأن الاهتمام بالإبداع قديم قدم الإبداع نفسه بيد أن الأمر في البداية قد أحاطه كم من الغموض والتفسيرات الميتافيزيقية لكيفية (الفعل) الإبداعي نفسه وإضافة هالات من (السحر والغموض) على المبدع، ولذا نجد أن أفلاطون مثلاً في محاورته المعروفة باسم (إيون) أو عن (الإلياذة) يقول: إن الشاعر – وبالتالي الروائي – أو كل من ينتج فعل إبداعي ينظم شعره عن إلهام وحالة تشبه الجنون، فهو لا يصدر في شعره عن عقله وبذلك كان أول من تحدث عن المبدع – وأول من وصمه بأنه مشلول العقل، أو بعبارة أخرى: فإن القائم بعملية الإبداع مريض نفسي أو عصبي، وأنه على رغم ذلك لا يضر مجتمعه الرشيد/ الفاضل بالرغم من اضطرابه نفسيًا (عبد الستار إبراهيم، ٢٠٠٢) ولعلنا أيضًا نتذكر نظرة العرب إلى الشعراء، وأن لكل شاعر شيطان أو جن يسيطر عليه ويأتيه بنظم القصيدة، وأن هؤلاء الجن يسكنون في وادي عبقر.

بعبارة أخرى جامعة: فإنه في مجال الإبداع قد اختلطت التصورات الذاتية مع الأفكار الشائعة التقليدية، الأمر الذي أدى إلى وجود كثير من الأفكار الخاطئة في تفهم الإبداع الإنساني وتفسيره. فعلى مر تاريخ المعرفة البشرية شُغل المفكرون بتقديم تصورات غامضة لتفسير تلك القوة التي تحكم العقل الإنساني عندما يجود بالأفكار الخلاقة والاكتشافات والابتكارات وغيرها من فعل الإبداع (عبد الستار إبراهيم، ١٩٧٦، ١٥: ١٥).

وعمومًا فقد أجمع المهتمون بقضية الإبداع أنه قد تأخرت دراسته دراسة علمية للأسباب الآتية:

١- أن الإبداع لا يمكن دراسته دراسة علمية منظمة؛ لأنه عملية غامضة وقد نبع هذا التشكك من مصدرين:



الأول : الاعتقاد بأن العقل لا يستطيع بحكم تكوينه وأساليبه في الفهم والتحليل أن يصل إلى كنه عملية الإبداع والاختراع في انبثاقها وعد قابليتها للقسمة، بل إن إقحام العلم لدراسة هذه الظاهرة يفسدها، كما ذهب إلى ذلك الفرنسي هنري برجور.

الثاني : الاعتقاد بأن مجرد محاولة ملاحظة الفرد لنفسه في أثناء عملية الإبداع من شأنها أن تجعل هذه العملية تتقلص، وفي هذا يقول الفيلسوف الألماني "كانت Kant" إن القوة النفسية عندما تعمل فإن المرء لا يلاحظ ذاته. فإن لاحظ الشخص ذاته توقفت هذه القوى.

وقريب من هذا اعتقاد كثير من الفنانين منذ زمن بعيد أن العمل الفني موهبة يمكن فقدانها إذا تحدث الشخص عن أسرارها، ويرجع بعض أنواع عدم السواء الذي عرف به الفنانون إلى قلق الاعتماد على الأرواح الملهمة التي ربما لا تتلقى أوامر بالإبداع مما يؤدي إلى مخاوف فقدان المقدرة وسرعة الاستثارة واليأس والضيق من الانتظار وهوس الابتهاج بالنجاح. والقيام بأنواع من الطقوس المتقنة اللازمة لخلق الظروف المناسبة لتحضير "أرواح الإبداع والإلهام".

٢- إن القائم بعملية الإبداع يختلف نوعيًا عن غيره من البشر، أي أنه من طبيعة مختلفة لا يمكن تحديدها. وقد شاع هذا الرأي ربما من بعض الفلاسفة اليونانيين أو العرب من أن العبقرية هبة مقدسة جاءت للعبقري من العالم الإلهي، ولذا فإن الإنسان المبدع لا يشبه غيره من الناس؛ لأنه ملهم من قوة عليا ومطلع على كثير من الخفايا المقدسة. وهكذا صورت الأساطير القديمة عملية الإبداع، بل نجد أن الأساطير القديمة أيضًا تصور أن "أورفيوس" ينطق الشعر كأنه عبارات الحكمة يتلقاها من الآلهة، وقد صورت "ريدالوس" المثال يضع من الحجر ما ينطق ومن الخشب أجنحة الطير.

٣- أدت هذه الأفكار ومثيلاتها إلى التضييق في مجال نشاط الإبداع وفاعليته وتطبيقاته، فأصبح مقتصرًا على مجالات الفن والأدب، ولهذا نجد أن غالبية المعالجات السابقة كانت دائمًا ما تعالج الإبداع مقترنًا بالفن "فرومانتيكيو" القرن التاسع عشر على وجه الخصوص كانوا ينظرون للأصالة والعبقرية على أنهما خاصيتان تتعلقان بالإخلاص والجمال، والتقبل للحقائق التي يهرب منها الآخرون، وكانت النظرة للمبدع أنه لا يتقبل الحقائق الاجتماعية، ولا يحترم التقاليد وأن مظهره وأسلوبه يختلف عن عموم حياة الناس.

٤-وقد كان من نتيجة ذلك أن صاغ المفكرون تعريفات غامضة للإبداع في ضوء مفاهيم مثل الوعي والامتداد والإحساس بالمعنى. والشعور بالخيالي والكوني، وغيرها من المفاهيم التي يصعب ترجمتها إلى وقائع يمكن ملاحظتها وتحديدها. (Landaver, M, 1982, pp. 29-75).



٥- إن كثيرًا من رواد علم النفس أرادوا لهذا العلم أن يكون متقدمًا مثله مثل العلوم الطبيعية فاستعاروا مناهجها، ولمزيد من الموضوعية درسوا وأجروا التجارب على الحيوانات الدنيا، حيث لا توجد غالبًا علامات الإبداع، وقد واجه أصحاب نظرية التعليم صعوبة بالغة في تفسير سلوك الاستبصار الذي يظهر عندما يحدث للحيوان إدراك مفاجئ ومباشر لحل المشكلة ما يشبه في بعض جوانبه السلوك الاجتماعي، ولذا فإن قصور النظر إلى عمليات التفكير قد ارتبط والنظرة إلى تأخر دراسات الإبداع.

٦- الخلط بين الإبداع والذكاء : وهذه من أهم عوامل تأخر دراسات الإبداع، حيث خلط كثير من السيكولوجيين بين مفهومي الإبداع والذكاء ومن هنا كان استخدام بعض السيكولوجيين اصطلاح "عبقري Genius" والذي "تم صكه" أصلاً لوصف الشخص المتميز بإنتاجه الإبداعي، وبالرغم من البون الشائع ما بين مكونات الإبداع والذكاء. فالأخير- مثلاً - نوع من التفكير الذي تستثيره معظم اختبارات الذكاء، إلا أن التفكير انتقائي تقريري Convergent thinking على عكس الحال في التفكير الإبداعي، والذي هو أساسه تفكير افتراقي تغييري يتميز بالبحث والانطلاق في اتجاهات متعددة، ويتميز بالتعامل بطريقة مبتكرة.

الرموز اللغوية والرقمية وعلاقات الزمان بالمكان، وهذا هو ما يميز التفكير الإبداعي وهو تفكير افتراقي وتغييري Divergent thinking" ولكل هذه العوامل وغيرها تأخر التناول العلمي لمسألة الإبداع. (عبد الستار إبراهيم ١٩٨٥، ٢٧: ٢٨)، (عبد الستار إبراهيم، ١٩٩٩، ٤٣: ٤٦)، (عبد الحليم حمود، ١٩٧٧، ٢٧: ٣٦)، (شاكر عبد الحميد، ١٩٩٥، ٢١١: ٢١٢)، (Fryc, n, 1985, Ductor, of tojorov. T (1979) (lindcr. M, 1974).

أسباب الاهتمام في الوقت الراهن بالإبداع :

تضافرت مجموعة من العوامل قادت إلى ضرورة الاهتمام بالإبداع للأسباب الآتية:

١- الحاجة إلى حلول إبداعية للصراعات الدولية.

٢- مواجهة المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بحلول مبتكرة.

٣- محاولة القضاء على الملل الناشئ عن وقت الفراغ المتزايد نتيجة لاستخدام الأساليب التكنولوجية الحديثة في الإنتاج وتخفيض ساعات العمل مما يدفع إلى محاولات توجيه النشاط إلى مسالك للجهد الإبداعي والتذوق له.

٤- نوعية الأفراد والعاملين أهم من عددهم، وأهم من الأدوات المتوافرة لديهم، حيث إن المستقبل للأفراد في مختلف مجالات التفكير والتنفيذ.



٥- تزايد الشعور بالحاجة إلى اكتشاف المبدعين وإلى تنمية القدرة على الإبداع، ولذا فقد قال ابن عبد البر في مختصر كتابه العلم: ما أخذ العلم والعلماء والمتعلمين من قول: "ما ترك الأول للآخر شيئًا" أي أن الحرص إلى التلقين وإقفال باب الاجتهاد والتجديد فإن ذلك يقود حتمًا إلى إغلاق باب الإبداع. (عبد الحليم محمود: ١٩٧٧، ١٥: ٢٠).

٦- الدافع الشخصي للشخص المبدع، ومن أهم تلك الدوافع:

- دافع الاستقلال في الحكم والتفكير.
- الدافع لتقديم مساهمات مبتكرة جديدة.
- دافع التفتح على الخبرة والامتداد.
- الدافع لتذوق المعقد والمركب (عبد الستار إبراهيم، ١٩٩٩، ١٠٥: ١٢٧). وقد انعكس هذا الاهتمام في دراسة أجراها عالم النفس التشيكي (هلافسا J.II Lavsa) حيث وجد (٢٣١٩) عنوانًا لدراسات خاصة بالإبداع مأخوذة من مصادر متعددة، ومن بين هذه العناوين ٩,٥% ظهر قبل عام ١٩٥٠، ٢٨% ظهر في الفترة (١٩٥٠-١٩٦٠)، وارتفعت النسبة في الفترة من (١٩٦٠-١٩٧٠) إلى ٧٢,٥% (الكسندر ورتشكا، ١٩٨٩، ١٣: ١٤).

وبعد هذا التمهيد الذي كان لا بد له ننتقل الآن إلى دراسة المحور الأول من محاور الإبداع.

المحور الأول : المبدع وعملية الإبداع:

الإبداع "Creation" عملية متعددة الأبعاد، ولذا تتعدد التعريفات التي قدمت لمفهوم الإبداع، وقد أمكن لثورنديك "Thorandike" حصر التعريفات التي قدمت للإبداع في مجالات أو فئات أربع هي:

١- تعريفات تركز على العملية الإبداعية، أو الكيفية التي بها يبدع المبدع عمله.

٢- تعريفات تركز على الإنتاج الإبداعي.

٣- تعريفات تركز على السمات الشخصية للمبدعين على افتراض أن هذه السمات ما هي إلا صيغ نفسية في ظلها يبدع المبدعون عملهم.

٤- تعريفات تركز على الإمكانية الإبداعية كما تتكشف من خلال الأداء على الاختبارات النفسية التي تنهض بقياس القدرات الإبداعية المشكلة لأبعاد هذه الإمكانية (Thorandike. 1966. p440).



ويمكن أن نضيف فئة خامسة تناولت دراسات المتلقي وكيفية تلقيه للنص، وما هي العلاقة التي تنشأ بينه وبين المنتج، أو بينه وبين المؤلف على أساس وجود عوامل مشتركة، وهذا ما سوف نفصله تفصيلاً في الفصل القادم وسوف نختار نماذج من التعريفات التي قدمت لمفهوم الإبداع والشخص المبدع.

١- ركز والاس على الإجراءات التي تتم داخل المبدع منذ لحظة بزوغ فكرة الإبداع حتى خروجها إلى هذا الوجود من خلال أربع مراحل هي :

أ- مرحلة الإعداد Preparation

ب-مرحة الاختمار Incubation

ت-مرحة الإشراق Elimination

وقد اندرجت تحت هذه الفئة العديد من التعريفات، والتي رأت أن الإبداع يبدأ بإحساس المبدع بوجود مشكلة ما تسبب له نوعًا من الاختلاف في توازنه يدفع به ذلك إلى البحث عن حل لهذه المشكلة، وبالتالي إعادة التوازن إلى نفسه، وأن المبدع بين الإحساس بالمشكلة وحلها، إنما ذلك يتحقق من خلال مراحل أربع قد ذكرها والاس ومشيعوه.

٢- يرى البعض أن الإبداع لا بد أن يتصف بإحدى الصفتين التاليتين أو كلتيهما:

أ- الأحداث : الذي يتمثل في ظهور الإنتاج أو الأفكار إلى حيز الوجود العقلي أمام وعي الإنسان في لحظة معينة من الأمان لأول مرة.

ب-الذي يتمثل في ظهور وجود مادي (جديد) للشيء.

ولذا يندرج تحت معنى الإبداع كل من :

أ- **الاختراع Invention** أي اختراع أي شيء جديد.

ب-**الاكتشاف Discovery** والذي يطلق على اكتساب معرفة جديدة بأشياء كان لها وجود من قبل.

٣- **الإبداع الأدبي والفني :** حيث يذهب بعض المفكرين المهتمين بمجال الإبداع إلى ضرورة التمييز بين :

أ- العلماء المخترعين والمكتشفين من ناحية.

المبدعين من الأدباء والشعراء والفنانين من ناحية أخرى. (عبد الحليم محمود، ١٩٧٧، ٧: ١٢).



القدرات الإنسانية الواجب توافرها في شخصية المبدع :

لعل الدراسات العلمية الجادة لعملية الإبداع، واستخدام التحليل العاملي والذي استطاع أن يمكننا من اكتشاف الشيء الكثير من تحليل السلوك الإنساني تحليلاً علميًا في مجالاته المختلفة، وبفضل استخدام هذا الأسلوب أمكن الوقوف على ضرورة توافر عدد من القدرات والمهارات يجب أن تتوافر في شخص المبدع ومن هذه العوامل:

١- الطلاقة Fluency

ويقصد بها القدرة على إنتاج أكبر عدد من الأفكار الإبداعية. فالشخص المبدع شخص متفوق من حيث كمية الأفكار التي يقترحها من موضوع معين في وحدة زمنية ثابتة بغيره، أي أنه على درجة مرتفعة من القدرة على سيولة الأفكار وسهولة توليدها.

٢- المرونة Flexibility:

ويقصد بها الإشارة إلى القدرة على تغيير الحالة الذهنية بتغيير الموقف، إن المرونة هنا تعتبر عكس ما يسمى بالجمود أو التصلب العقلي، والذي يتجه الشخص بمقتضاه إلى تبني أنماط فكرية محددة يواجه بها مواقف الحياة مهما تنوعت واختلفت، ولذا فإن الشخص المبدع يكون قادرًا على تغيير حالته العقلية لكي تتناسب مع تعقد الموقف الإبداعي.

٣-الحساسية للمشكلات Sensitivity to Problems

ويقصد بها أن الشخص المبدع يستطيع رؤية الكثير من المشكلات في الموقف الواحد فهو يعي الأخطاء، ونواحي النقص والقصور، ويحس بالمشكلات إحساسًا مرهفًا، ولا شك أن الأشخاص الذين تزداد حساسيتهم لإدراك أوجه القصور والمشكلات في المواقف العقلية والاجتماعية تزداد فرصتهم لخوض غمار البحث والتأليف فيها.

٤- الأصالة Originality

ويقصد بها أن الشخص المبدع له تفكير أصيل أي أنه لا يكرر أفكار المحيطين به، فتكون الأفكار التي يولدها جديدة إذا حكمنا عليها في ضوء الأفكار التي تبرز عند الأشخاص الآخرين. ويمكن الحكم على الفكرة بالأصالة في ضوء عدم خضوعها للأفكار الشائعة، وخروجها عن التقليدي للمشكلات.

وتختلف الأصالة عن الطلاقة والمرونة للمشكلات في :

- لا تشير إلى كمية الأفكار الإبداعية التي يعطيها الشخص بل تعتمد على قيمة تلك الأفكار ونوعيتها وجدتها وهذا ما يميز الأصالة عن الطلاقة.



- ولا تشير إلى نفور الشخص من تكرار تصوراته أو أفكاره هو شخصيًا (كما في المرونة) بل تشير إلى النفور من تكرار ما يفعله الآخرون وهذا ما يميزها عن المرونة.
- وهي لا تتضمن شروطًا تقويمية في النظر إلى البيئة المطلوبة لنقاء الذات حتى يستطيع المفكر المبدع أن ينهي عمله على خير وجه.

٥- الاحتفاظ بالاتجاه ومواصلته Maintaining Direction

ويقصد بها أن الشخص المبدع يتميز بطريقة خاصة في إطلاق طاقاته تتمثل في قدرته على التركيز لفترات طويلة في مجال اهتمامه، وبعبارة أخرى فإن المبدع يجب أن يتميز بقدرته على التركيز المصحوب بالانتباه طويل الأمد على هدف معين بالرغم من المشتتات والمعوقات التي تثيرها المواقف الخارجية.

٦- القدرة على تكوين ترابطات واكتشاف علاقات جديدة :

بمعنى أن القدرة على تكوين عناصر الخبرة وتشكيلها في بناء وترابط جديد يؤدي إلى فائدة عملية وشخصية في مجال الإبداع، وبما أنه يوجد فروق بين الأفراد في القدرة على تكوين ترابط جديد من عناصر معروفة للجميع، إلا أن الشخص المبدع ترتفع لديه هذه القدرة، وهذا ما يجعل قدرته على الإبداع والابتكار والأصالة تتزايد؛ لأن الإبداع في حقيقته ما هو إلا خلق نظام جديد من العلاقات بين الأشياء بعضها والبعض الآخر (عبد الستار إبراهيم، ١٩٩٩، ٢٥: ٣٧) (عبد الحليم محمود، ١٩٧١، ١٩٣: ٢٠٨).

وغيره من العوامل التي حاول الكشف عنها جيلفورد (Guilfor d, J.P) ولم تثبتها آنذاك المقاييس التي أعدها لقياس جوانب الإبداع (Gullford, J.P, et al; 1957. Pp. 52: 122)

نظريات الإبداع :

تتعدد النظريات التي تناولت الإبداع، ورغم أننا سنعرض في إيجاز لهذه النظريات إلا أننا سنستفيض في عرض نظرية التحليل النفسي للإبداع نظرًا لتقديمها نظرة جديدة للإبداع، ولمساعدتها في دفع بحوث الإبداع الجادة خطوات، إضافة إلى أنها ما زالت تؤثر في العديد من الباحثين المهتمين بمصادر الإبداع المختلفة فضلاً عن أن هذه المدرسة قد تفرع منها العديد من المدارس النفسية وتباين نظرتها إلى الإبداع.



أولاً : نظرية التحليل النفسي في الإبداع:

أ- نظرية فرويد الكلاسيكية والإبداع:

بداية يجب أن نوضح أن فرويد قد اعترف صراحة أن التحليل النفسي عاجز عن أن يحل مشكلة الإبداع الفني من حيث هو عملية سيكولوجية تؤدي إلى خلق صور ومعان جديدة مبتكرة، لا يهتم التحليل النفسي بهذا كله، بل يهتم بدراسة شخصية الفنان والأديب من خلال دراسة أعماله متمثلة فيما يكتبه من فن روائي (مكرم شاكر، ١٩٩٢، ٢٠)، ولذا حين كان القرن التاسع عشر يلفظ أنفاسه نشر فرويد كتابه الشهير "تفسير الأحلام" ١٩٠٠ وقد احتوى الكتاب على نظريته السيكولوجية التي يمكن إجمالها في عناصر ثلاثة متضافرة:

١- إن ثمة منطقة في النفس الإنسانية تقع وراء المنطقة الواعية (التي هي الذاكرة والأحاسيس) يمكن أن نسميها منطقة اللاوعي "ونحن لا نعيها وهي منطقة مؤثرة في منطقة الوعي على نحو دائم وحاسم.

٢- أن عالم النفس محكوم بمجموعة من العناصر الفعالة النشطة التي يمكن أن نسميها "العقد والدوافع".

٣- أن أقوى هذه الدوافع هو الدافع الجنسي، وهو يعمل بصفة نشطة منذ لحظة الميلاد وبخاصة في صيغته التي يسميها فرويد "عقدة أوديب".

وبما أن الأدب يسبق علم النفس في كشف مجاهل النفس الإنسانية لذا نجد فرويد قد استعان بالأدب وبالأديب ذاته، وجعله خير عون له في الوصول إلى نظريته الخاصة بعالم "اللاوعي" والتماس الأدلة على وجودها، والدفاع عنها، وقد استعان على ذلك التحليل بالعديد من الأعمال والروايات لشكسبير وجوته، وغيرهما، ولم يقتصر "فرويد" على اتخاذ الأعمال الأدبية وسيلة لشرح محتويات عالم النفس وتنظيم عناصره، وإنما اتخذها كذلك مادة يستعين بها لاستخلاص النتائج العلاجية التي توخاها بصفته طبيبًا نفسيًا، ولذا فإنه أيضًا في عالم اللاوعي تختزن التجارب البعيدة التي يراد لها أن تنسى، إلا أنها يمكن التعبير عنها، لأن المجتمع لا يقبل ذلك، لأن هذه التجارب تسعى إلى الخروج في أشكال ورموز مختلفة، ولذا فإن الأديب عند فرويد يشبه الطفل في أنه يخلق لنفسه عالمه من الوهم، ويعامله بغاية الجدية والاهتمام، ويودعه كل ما لديه من عاطفة، ويفصله عن العالم الواقعي المحسوس، وكذلك يفعل الطفل في لعبه (محمود الربيعي ، ١٩٩٤، ٢٠٢: ٢٠٣). كذلك فقد أكد فرويد استفادته من الأعمال الأدبية والأساطير في صياغة مصطلحات التحليل النفسي مثل الأوديبية نسبة إلى أسطورة أوديب والنرجسية والسادية، وما إلى ذلك. وذهب إلى وجود ما يثبت أن الأدب قد تجاوز الطب النفسي التقليدي، وأن الروائي دائمًا ما يسبق رجل العلم نجاحه في علم النفس



العلمي (عبد الله عسكر ، ١٩٩٧، ٢٧ : ٢٨). ويحمل لنا فرج أحمد (١٩٨٠) حقيقة أن التحليل قد حقق إنجازًا ثوريًا تمثل في موقف:

١- رفض الاختزالية البيولوجية، أعني اختزال ما هو إنساني إلى ما هو بيولوجي.

٢- رفض الانعزالية السلوكية، فالعلاقات ليست One body Psychology وإنما هو Two body Psychology بمعنى العلاقة بالآخر.

٣- رفض النزعة السوسيولوجية المغرقة أي رفض النظر إلى الإنسان من الخارج (فرج أحمد، ١٩٨٠، ٣: ٥).

أما عن وجهة نظر التحليل النفسي في الشخص المبدع فهي :

١- أنه شخص ذو استعداد منطو، وليس بينه وبين العُصَّاب شقة بعيدة، وهو شخص تحفزه نزعات عنيفة صاخبة، فهو يصبو إلى الظفر بالقوة والتكريم والثراء والشهرة ومحبة النساء، لكن تعوزه تلك الوسائل إلى تلك الغايات لذا فهو يعزف عن الواقع، شأنه في ذلك شأن كل فرد لم تشبع رغباته، وينصرف بكل اهتمامه وبكل طاقاته الليبيدية أيضًا إلى الرغبات التي تخلقها حياته الخيالية، مما قد يسلم به في سهولة إلى المرض النفسي، كما أن المبدع الأديب الفنان يتميز بقدرة كبيرة على الإعلاء، إضافة إلى المرونة الخاصة التي تمنعه من القيام بضروب الكبت التي تسبب الصراع (سيجموند فرويد، ط٣، ١٩٨٧).

٢- إن المنتج الفني أو الأدبي مظهر من مظاهر السلوك، ولذا لا بد من ربط هذا المنتج بشخصية صاحبه على أساس أنه يعبر بطريقة رمزية عن هذه الشخصية وخاصة عن بعض دوافع السلوك الشعورية وغير الشعورية. ومن ناحية أخرى فإن العلاقة القائمة بين الأديب وعمله هي علاقة مزدوجة ذات اتجاهين، إذ يمكن من تحليل العمل وتفسيره إلقاء الضوء على بعض اتجاهات الأديب ودوافعه وما قد يعانيه من صراعات نفسية، كما أن معرفة الأديب من ناحية أخرى وخاصة الخبرات التي مر بها منذ طفولته تساعد على تحليل الأدب، بأن توضح لنا الأسباب التي دفعت الأديب إلى طرق بعض الموضوعات دون غيرها وإلى اختيار بعض الصور والتشبيهات دون غيرها وإلى صياغة أسلوبه بشكل خاص (يوسف مراد، ١٩٧٤).

٣- إن الشخص المبدع إنما يعاني من العديد من الصراعات، وإن النص – أو المنتج الأدبي– إنما هو حل لهذا الصراع النفسي القائم بين الرغبة ومعوقات الإشباع أو بين



مبدأي اللذة والواقع، وأن الكاتب قد يلجأ – لا شعوريًا – إلى الكبت من أجل التصالح مع الحضارة (Freud, 1936, p: 20).

٤- إن عقدة أوديب تلعب دورًا هامًا في حياة كل أديب أو مبدع، ولذا فإن فرويد بعد اكتشافه لعقدة أوديب راح يبحث عنها في حياة الأدباء معتبرًا أن الروائع الأدبية التي عرفتها الإنسانية هي ثلاث:

- الملك أوديب وفوكليس.
- هاملت لشكسبير.
- الإخوة كارمازوف لدوستوفسكي.

ورأى فرويد أن المشترك في هذه الأعمال، بالرغم من اختلاف المسميات والاتجاهات والأحداث، بل والفترة الزمنية لظهور مثل هذه الأعمال إلى حيز الوجود، هو حادث قتل الأب أو تحقيق إحدى الرغبتين الأساسيتين المشكلتين لعقدة أوديب: قتل الأب، إتيان المحارم جنسيًا (Jones, E 1953, p 482).

٥- إن فرويد قد انطلق من آليات العمل اللاشعورية في الأحلام، وشبه الحلم بالكتابة؛ لأنها تقوم على التعبير عن أفكاره بواسطة مشاهد تنهض أساسًا على الصور أو الرموز، وإذا كنا لكي نفهم الحلم لا بد من فهم الرموز، فإننا في الكتابة لا بد من فعل ذلك (Freud, J 1931, p: 319).

٦- إن الإنسان المبدع في رأي فرويد هو إنسان محبط في الواقع؛ لأنه يريد الثروة والقوة والشرف، ولذا فإنه يلجأ إلى التسامي بهذه الرغبات وتحقيقها خياليًا. ولذا فقد بحث فرويد عن عمليات الإبدال والتعويض الخاصة بالمشكلات شديدة العمق والمتعلقة بنمو الشخصية مساويًا كثيرًا بين فهمه للمرض النفسي، وفهمه للإبداع الأدبي (شاكر عبد الحميد ١٩٩٥، ٢١٦).

٧- إن النص الأدبي أو أي منتج فني أو أدبي ما هو في نهاية الأمر إلا منتج رمزي للاهتمام وللرغبات والتخيلات وأحلام اليقظة اللاشعورية. مما يجعل لهذه الأعمال أثرها في نفوس المتلقين حيث تجد نفس الصدى / المحبط / المكبوت/ المتنكر لديهم. (Lindaver. D. K 1974, p: 19) وهذا هو سر خلود العديد من الأعمال التي ما زالت حية في النفوس والوجدان حتى الآن.

٨- إن فرويد قد طبق كل مسلماته في الإبداع وخاصة من خلال اهتمامه بشخصية الأديب على العديد من الأعمال الفنية والإبداعية حيث اختار على سبيل المثال الرسام



الإيطالي "ليونارد دافنشي" والقصاص الروسي "دوستوفسكي" وبدراستهم دراسة نفسية تحليلية، فدرس مذكرات دافنشي الخاصة وفسر بعض أحلامه التي سجلها في مذكراته عن سيرته الذاتية، وأعماله الفنية المتنوعة، وكذا ما كتبه عن معاصريه محاولاً أن يتعرف على كل التفاصيل التي عملت في الأسطورة وسلوكه وآثاره، وعرف أنه ابنًا غير شرعي مما دفعه في طفولته إلى الارتباط الوثيق بأمه، بحيث ملأت عليه كل عواطفه ومشاعره، ولذا فقد فشل تمامًا في تكوين أي علاقة بأية فتاة أو سيدة حتى ليرفض الزواج رفضًا باتًا، إضافة إلى شذوذه في علاقته مع تلاميذه، وقد فسر فرويد الدافعية وراء إبداعات دافنشي على أنها إعلاء أو تسامي للدوافع الشبقية والجنسية المكبوتة لديه. وكذا طبق نفس هذه القوانين على أعمال دستوفسكي متوصلاً إلى العديد من النتائج التي تلقي الضوء على سيكولوجية وديناميات شخصية الأديب من خلال أعماله وآثاره وانعكاس ذلك عليه وعلى إنتاجه (Freud, 1981, pp: 175: 200).

ب- المدرسة الفرويدية الجديدة :

انشق عن فرويد العديد من تلامذته ومريديه مختلفين معه في بعض النقاط. فقد اتفق يونج (١٨٧٥-١٩٦١) مع فرويد في تفسيره للدوافع اللاشعورية التي تكمن وراء سلوك الفنان باعتبارها القوى الدافعة الأساسية وراء الإبداع الفني، إلا أنه اختلف معه في نوعية هذا اللاشعور فبينما أرجعه فرويد إلى أحداث الطفولة يرجعه يونج إلى عامل آخر هو اللاشعور الجمعي، وأن المبدع/ الأديب/ ليس إلا أداة في يد اللاشعور الجمعي، فهو ينقي شخصياته من بعض النماذج التي يستمدها من اللاشعور الجمعي والتي أطلق عليها النماذج البدائية، كما حاول يونج بناء على دراسة للأنماط تحديد نمط الفنان/ المبدع / الأديب أطلق عليه في ضوء فكرته عن "الانبساط / الانطواء" وقد وضع الفنان في نمط أطلق عليه الطراز "الإستطيقي" لأنه يتميز بإدراك ذي صبغة وجدانية وفكرية في آن واحد.

ولذا فقد ميز يونج بين نوعين من الإبداع أو الفن هما:

أ – الفن السكيولوجي أو النفسي :

وهو الفن الذي يتعامل مع المواد المشتقة من واقع الشعور الإنساني، أو مع دروس الحياة أي مع خبرات الحياة في الواقع مثل موضوعات الحياة والأسرة والبيئة .. الخ.

ب – الفن الكشفي :

وهو الفن الذي يشتق وجوده من الأرض المجهولة في عقل الإنسان، ومن الزمن الأسطوري الذي يرجع حتى عصور ما قبل الإنسان، عصر بداية الخلق وتضاد النور



والظلمة، واهتم "يونج" بشكل خاص بالنوع الثاني من الفن واعتبر رواية "موبي ديك، لهرمان ميلفيل" أبرز مثال على ذلك، حيث صراع الإنسان مع المجهول والقدر. وأن الشخص يكـون دافعه للإبداع هو تغلغل اللاشعور الجمعي في فترات الأزمات الاجتماعية مما يقلل من اتزان الحياة النفسية لدى الفنان/ المبدع الأديب أو يدفعه للحصول على اتزان جديد، وبالطبع ليـست الأزمات الاجتماعية هي السبب فقط، بل إنها أيضًا الأزمات النفسية الخاصـة بالفنـان، وأن الفنان / المبدع / الأديب الأصيل من وجهة نظر يونج إنما هو الذي يطلع على مادة اللاشعور الجمعي بالحدث، ولا يلبث أن يسقطها في رموز، والرمز هو أفضل صيغة ممكنة للتعبير عن حقيقة مجهولة نسبيًا. ويرى أيضًا أهمية الأحلام على أساس أنها مادة ثرية تتجسد فيها الأنماط الأولية للاشعور الجمعي في أبلغ صورها. وأن الأحلام مثلها مثل الرموز تحدث بعفويـة ولا تبتدع، وأن الأحلام تعد المدخل الرئيسي لكل معرفتنا عن الرمزية والرموز ذات العمل الفني عند يونج، وهذا ما يتفق فيه مع فرويد مثله مثل الحلم على الرغم من وضوحه البادي، إضافة إلى تخفيفه من قيود الكبت الجنسي وإتيان المحارم وغيرها من الأقوال التي صدم بها فرويـد معاصريه وحتى الآن (كارل جوستان يونج، ١٩٨٤)، (عبلة حنفي عثمان، ١٩٨٦، ٣٢٩).

وكذلك نجد أدلر Adler والذي تعمق التفكيـر فـي الـشعور بالتـسامي والإعـلاء Sublimation، وانتهى به تعمقه إلى أن يضع بجوار هذا الشعور، شعور الفنان أدبيًا وغيـر أدبي بالدناءة، ولم يلبث أن اكتشف قانونه النفسي "مركب النقص أو عقدة النقص" ذاهبًا إلى أن الفن دائمًا ثمرة لهذا المركب، وكأنما آثار الفنان إنما هي رد فعل لشعوره العميق بالنقص يريد أن يتلافاه، وهو لذلك يجمع كل قواه الفنية السحرية لمواجهته ومحاولة الانتصار عليه، وعلى تنين النقص الرابض في قلبه وحياته، وبمقدار هذا التنين الإفعواني وقوة الهجوم الذي يوجهـه إليه تنزل الآثار الفنية منازلها في الإبداع والروعة، أو أقل بمقدار الشعور به سواء أكان ماديًا مثل عاهة أو مرض أو كان معنويًا يتصل بأسرة الفنان أو حياته يكون تفوق الفنان وإبداعـه وإمتاعه. (شوقي ضيف، ط٥، ١٩٨٣، ١١٣).

كذلك نجد إسهامات "أتورانك" تلميذ فرويد والمنشق عليه، وله إسهاماته فـي مجـال الإبداع تمثلت في أسطورة "ميلاد البطل" والدافع الشبقي إلى المحرمات في الشعر والأسطورة وقد عني بدراسة نفسية تحليلية مقارنة في مختلف الميثولوجيات، محاولاً أن يضع مثلاً أعلـى لميلاد البطل الأسطوري. أما في الكتاب الثاني فيعتني بعرض طائفة مـن التحلـيلات لعقـدة أوديب في بعض الأعمال الأدبية من ذلك تحليله لمسرحية شكسبير "يوليوس قيصر" وقد ذهب فيه إلى أن بروتس وكاسيوس وأنطونيوس إنما هم ثلاثة شخصيات أو أوجه لقيـصر، حيـث تمثل أولها ثوريته، وثانيتها شفقته، وثالثهما تقواه الطبيعية، وكان يرى الفنان يهـرب آثـاره



وإنتاجه من الواقع إلى عالمه الخيالي معبرًا عن انفعالاته في صور تمتع الناس دون أن تتضح فيه عقدة مع رغباته المكبوتة. (شوقي ضيف، ١٩٨٣، ١٠٩: ١١٠).

وهكذا تمثل نظرية التحليل النفسي نقطة انطلاق للعديد من الدراسات والأبحاث التي تتناول "الإثراء والمنتج الإبداعي" ودوره في نفسية ودوافع المبدع، وإن كان الدافع لاشعوري، عند فرويد ولاشعوري جمعي عند يونج، وناتج عن عقدة النقص عند أدلر، وهروب صحي / إيجابي عند أتواراتك. وهكذا ينفتح المجال إلى الحوار الدياليكتيكي والنظر إلى الأثر الأدبي أو الفني من أكثر من زاوية. وهذا يثري الإبداع وعملياته وبالرغم من كل ما سبق إلا أنه يؤخذ على نظرية التحليل النفسي (بشقيها الكلاسيكي والجدد والمنشقين)، العديد من المآخذ مثل عدم الدقة في تناول الموضوعات الأدبية / الفنية / الإبداعية وتفسيرها، فقد يكون هناك أكثر من تفسير للعمل الأدبي / الفني / الإبداعي الواحد دون الوصول إلى حقيقة موضوعية دقيقة، كما أنها عجزت عن تفسير وتوضيح المحتوى المعرفي والإدراكي للفن، ويرجع ذلك إلى تركيز نظرية التحليل النفسي على الدوافع وإهمالها للوظائف المعرفية والإدراكية للفن ونواحي ضعفها وقوتها في آن واحد.

ثانيًا : نظرية المجال / الجشطلت في الإبداع :

لم تحظ هذه النظرية بنفس الشهرة التي نالتها مدرسة التحليل النفسي في هذا المجال على الرغم من إسهاماتها الواضحة فيه. فهذه النظرية اهتمت أساسًا بالجوانب الإدراكية للفن، وقد أوضح منظروها الأساسيون "كوفكا" و "فرتهيمر" و "كهلر" بأن الكل أكثر من مجرد مجموع أجزاء، وأن الكل سابق لجزئياته، ولذلك فإن العمل الفني له وحدته الكلية. وقد وضع ذلك Ehrenzweig (١٩٣٥) عندما تناول خصائص الصفة الكلية، فقد لاحظ أن الإنسان حينما يستمع إلى قطعة موسيقية فإنما يستمع إلى نغم، وهذا النغم مكون من أصوات مختلفة لآلات موسيقية ككل، ولا يدرك عزف كل آلة على حدة، ولهذا فإن النغم صفة كلية تجعله مميزًا عن لحن آخر ويشترك في نفس الآلات وينطبق ذلك على أي عمل فني آخر سواء كان لوجه، أو تمثال، أو قصيدة شعر، أو رواية، ولذا فقد اهتمت المدرسة الجشطلتية بالشكل وجعلته أساسًا، ومن هنا نشأت تسمية جشطلت Grestalt وأوضحوا أن لغة الشكل المرئي تحمل إلى جانب واقعها البنائي بعدًا إدراكيًا يتمثل في مدلولاتها الرمزية والمعرفية، وأوضحوا في ضوء ذلك عناصر العمل الإبداعي كوحدة واحدة يدركها المتذوق للإبداع ككل من خلال العلاقة المتبادلة لأجزائه المختلفة.

ولذا فالإنجاز الأساسي لسيكولوجية الجشطلت في السيكولوجية الفنية / الإبداعية إنما يتبلور في دراستها للعناصر البنائية للعمل الفني بجانب اهتمامها بالعوامل الانفعالية التي تؤثر



في إدراك هذا العمل، فقد اهتمت النظرية بدراسة الشكل والمضمون في آن واحد على خلاف النظريات الأخرى التي اهتمت بالفكرة الترابطية للفن، إذا أعلنت هذه المدرسة حربًا عنيفة ضد الفلسفة الارتباطية في مختلفة صورها وأشكالها، كما اهتمت هذه المدرسة بتفسير قوانين الإدراك البصري، وظواهر ثبات الإدراك والخداع الحركي، وإدراك البعد الثالث، كما أضافوا بعدًا جديدًا في الدراسات الفنية أطلقوا عليه "نظرية التعبير" أو الإدراك الشكلي الضمني للفن "Phoiognomic Perception" وهو يعني البناء الدينامي بين الإدراك الخارجي والإدراك الناتج عن تأثير الصيغ Confoguration التي يدركها المركز البصري في المخ، كذلك نظرة هذه المدرسة إلى الفنان/ المبدع/ الأديب على أساس أنه كائن حي ديناميكي يتفاعل ككل مع الظروف البيئية، كما اهتمت بتوضيح القوانين التي تحكم الأسلوب الإدراكي الذي يمكن للفنان من خلاله تنظيم ما يراه من أشكال (عبلة عثمان، ١٩٨٦، ٣٣٠: ٣٣٢).

والخلاصة أن هذه المدرسة ترى أن فكرة الإبداع تأتي فجأة من خلال الحدس؛ لأنه أساس من السير المنطقي. وتنطوي هذه النظرية على جملة من الصعوبات والعقبات أهمها: أن الحدس لا يشكل أكثر من وجه من وجوه عملية الإبداع، فهو الإثارة التي تسبق الحل حيث يكون مبهمًا محتفظًا بطابع شبه غامض لغزي (ألكسندر ورشكا، ١٩٨٩، ٢٣). ومن الجدير بالذكر أن مدرسة الجشطلت وقد وجدت اهتمامًا شديدًا في دراسات مصطفى يوسف وتلامذته والذين تناولوا الإبداع من منظور هذه المدرسة، وسوف نذكر على سبيل المثال لا الحصر دراسة مصري حنورة عن الرواية، حيث استخدم في دراسته هذه الاستبيان "الاستبصار" تحليل المضمون، تحليل المسودات، وهي نفس الأدوات التي استخدمها سويف في دراسته، لكن عينه حنورة كانت أكبر نسبيًا إذا تكونت من ٢٤ كاتبًا روائيًا من المشاهير (نجيب محفوظ مثلاً)، ١٢ كاتبًا من غير المشاهير، وتوصل من خلال تحليله لمسودات الأعمال الإبداعية، ومن خلال المنظور الجشطلتي إلى العديد من الحقائق والمسلمات، وللعلم فقد تناول مصطفى سويف (الشعر مثلاً) وتلامذته المتعددين قد تناولوا العملية الإبداعية لمختلف مجالات الإبداع (رواية – مسرح – قصة قصيرة) وغيرها من الدراسات التي سنعرض لها في فصل الدراسات السابقة في مجال الإبداع والتلقي من منظور سيكولوجي.

ثالثًا : النظرية السلوكية في الإبداع :

لعل أهم إسهامات المدرسة السلوكية في الإبداع أنها اهتمت بفكرة البحث العلمي والتجارب العملية المنضبطة عن الجوانب المختلفة للسلوك، ولذلك كانت معظم إسهاماتها في دراسة سيكولوجية المتذوق أو المتلقي، وسيكولوجية الأداء الفني من خلال دراستها لردود



الفعل تجاه العمل الفني وتعد محاولة "فلانتين (1962) Valantine" لدراسة ردود الفعل النفسية تجاه العمل الفني إحدى هذه الدراسات.

ولذا فقد نظرت النظرية السلوكية إلى الخبرة الفنية والتذوقية، من زاوية فكرتها عن المثير/ الاستجابة ودراسة المتغيرات في البيئة المسئولة عن نمو السلوك الجمالي المحكوم عليه من الخارج، وأثر القدوة والمحاكاة في نمو النماذج السلوكية، ونظرت للسلوك على أنه مجرد زيادة كمية وليست عملية تنظيم، كما أنها اهتمت بدراسة العوامل التي تحكم السلوك دون أن تحدد الظروف الخاصة التي تجعل التعبير يتخذ شكلاً دون آخر (عبلة عثمان، ١٩٨٦، ٣٣٢، ٣٣٣).

رابعًا : النظرية المعرفية في الإبداع:

يرجع أصحاب هذه النظرية إمكانية بناء مقاييس للإبداع تستخدم في دراسته بطريقة كمية على مجموعة متباينة، وقد يرجع إلى جيلفورد ومجموعة من تلامذته (١٩٥٠) طرح بعض الفروض عن عوامل التفكير الإبداعي. مصنفاً هذه الفروض تحت ثلاث فئات هي:

١- القدرة المعرفية

٢- القدرة الإنتاجية

٣- القدرة التقييمية.

ورأى جيلفورد أن أفضل منهج يعتمد عليه في اكتشاف السمات الأساسية للسلوك الإبداعي هو منهج التحليل العاملي Factor بناء الأعمال الإبداعية، ولذا كانت بحوث جيلفورد فاتحة لدراسات متعددة في مجال الإبداع مثل دراسة خصائص الأفراد المبتكرين / دراسة في خصائص رسوم الأطفال ومدى قدرتها على إظهار نموهم العقلي وقدرتهم الابتكارية، وكذا تقنين العديد من المقاييس التي اهتمت بالإبداع وقياسه بل وتحديد درجاته (Guilford, et al, 1963)، (Guilford J. p, 1964).

وتنقسم هذه النظرية، ويتفرع منها العديد من النظريات نذكر منها:

أ – **النظرية البنائية:** لجان بياجيه " والتي تنهض على دراسة العمليات الأساسية لنمو الطفل بأنه يبدأ بتكوين خطط إنتاجية Schemas ثم يبدأ في استيعاب خططه الإنتاجية الجديدة من خلال إدماج الخبرات الجديدة في خطط قائمة وأطلق عليه مصطلح "التمثيل" ولذا فإن رسوم الأطفال وكافة نشاطاته الإبداعية ترجع لرغبتهم في تغيير الأشياء المحيطة بهم. ولذا فإن "بياجيه" يختلف مع الجشطالتيين، فالكليات في رأيه ليست فطرية بل إن الفرد يقوم ببنائها من خلال تفاعله مع البيئة. كما أنه رأى أن عالم النفس ينبغي عليه أن يهتم



بالعمليات المعرفية، وهي جوانب من السلوك لا تخضع للملاحظة المباشرة، ولذلك يعارض الاتجاه السلوكي.

ب- نظرية المعلومات Information theory

وهي إحدى النظريات العقلية / المعرفية التي تتبع مجموعة من القوانين الرياضية ونظرت إلى الفن والإبداع على أنه وسيلة اتصال والفكرة العامة لهذه النظرية تشتمل على وجود مدخلات تتمثل في المثيرات والمعطيات والبيانات، وقد فرقت هذه النظرية البيانات Data والمعلومات. فالأولى المدخلات يتم تشغيلها وتحليلها داخل العقل من خلال عمليات تحول أو تجهيز الفرص لتنظيم المعلومات المتناثرة في نظام معرفي غير متناقض يظهر في صورة مخرجات أو معلومات تؤدي إلى عملية تغذية رجعية لعمليات معرفية أكثر تعقيدًا، وبذا تختلف النظرية من حيث المفاهيم والأهداف عن النظرية السلوكية وفكرتها عن الاستجابة التقليدية التي تركز على التحليل الدقيق للسلوك. ولذا تعد هذه النظرية ثورة جديدة بعد الجشطلت على الاتجاه التحليلي والترابطي.

وتقوم هذه النظرية في ظل التشابه بين وظيفة العقل الإلكتروني وبين وظيفة العقل من خلال أربع عمليات أساسية هي:

أ- **الإدخال Input:** ويتمثل في تقديم المثيرات والبيانات والعمليات التي يقابلها الفنان/ المبدع/ الوراثي.

ب- **التخزين Storage:** وهي عملية فعلية ترجع إلى العوامل الذاكرة.

ج- **التشغيل Processing:** وهي عملية عقلية يتم فيها معالجة المدخلات من خلال القدرات العقلية مثل التفكير، التصور، التخيل.

د- **المخرجات Dutour:** ويعني بها النتائج النهائية للعملية مثل عمليتي الابتكار والتذوق.

ه- **التغذية الرجعية Fead Back:** وتنضم إلى رصيد خبرة الفنان أو القائم بعملية التذوق.

وتهتم هذه النظرية بالفن من زاوية أنه وسيلة الانتقال للمعلومات أي كونه وسيلة اتصالية هامة، مثل استخدام الفن الإعلامي أو تنمية التفكير الإبداعي، وقد تمكنت هذه النظرية من تحليل بعض المظاهر البدائية للعمل الفني، إلا أنها كانت غير قادرة على تفسير المعاني المتضمنة في مضامين الفكرة Thematical ولذا يرى ماير ١٩٥٠ أنه على الرغم من أن الفن له صفة المعلومات إلا أن وظيفته لا تقف عند هذا الحد فالفن يوقظ الخبرة الناتجة عن



الإحباطات أو التأكيدات المتوقعة. فقد افترضت هذه النظرية أن العمل الإبداعي يوقظ لدى المستقبل (المتذوق أو المتلقي) توقعات معينة (عبلة عثمان، ١٩٨٦، من ٣٣٣: ٣٣٦). (Meyer, L. B, 1957, Pp, 412-424).

وهكذا نرى أن الحديث عن الإبداع والشخص المبدع إنما هو حديث عن الحياة في صورها وهو بالتالي كما رأينا متعدد الجوانب والمداخل بتعدد أشكال الحياة في مرايا الوجود، وإذا كان الإبداع الفني، بل وكل إبداع لا بد أن يكون معًا "مقدرة وإدراكًا" وصياغة موضوعية وحلاً لإشكال من نوع ما، فإننا لا ننظر إليه الآن إلا من حيث هو فعل أو أداء أو كل مجموعة متناسقة من العمليات توفر عليها عوالم متنوعة، منها ما هو ذاتي يتصل بشخص المبدع، ومنها ما هو منهجي يتصل بطريقته في العمل، ومنها ما هو موضوعي "الظروف القائمة خارجه" زمان ومكان وأشياء وبشر (عزت قرني، ١٩٨٣، ١٨٢). وهكذا يقودنا الحديث عن المبدع إلى الحديث عن النص أو المنتج الإبداعي.



الفصل السادس عشر

مدخل إلى الشخصية الإنسانية



الفصل السادس عشر

مدخل إلى الشخصية الإنسانية

مقدمة :

إن التعرض لموضوع الشخصية Personality يعد من أعقد الموضوعات على الإطلاق في مجال علم النفس فالشخصية هي الموضوع الأول والأخير الذي تنصب معه وفيه كافة الدراسات، كما أن مفهوم الشخصية من المفاهيم المعقدة والتي تختلف العامة وحتى المتخصصين في تقديم تعريف محدد لها يحظى بأغلبية الموافقة. ولعل الصعوبة تنشأ من حقيقة يجب أن لا تتغيب عن الذهن، وهي أن الشخصية (مثلها مثل العديد من المفاهيم في علم النفس مثل الذكاء والقدرات والاستعدادات واللاشعور) مفاهيم افتراضية بمعنى أننا لا نلاحظها بطريق مباشر بل بطريق غير مباشر. وقد حدد لنا كلكهون ومري Kluchhohn & Murray الصعوبات التي تعترض علماء النفس أو غيرهم من التخصصات الإنسانية في تعريف مفهوم الشخصية فيما يلي:

أن الشخصية تتكون من كل منتظم ومتكامل بين أجوائها بعضه وبعض ولا توجد لدينا الوسائل التي يمكن بها معرفة كيف تنتظم هذه العمليات وكل دورنا ينحصر في الاستنتاج بأن هناك تناسق في وظائف هذه الأجزاء.

أن هذه الأجزاء تعمل بشكل متصل ومستمر عبر مراحل حياة الشخص ولا يمكن في الواقع فصل هذه الأجزاء بعضها عن بعض إلا أن تفاعلها دينامي ومتواصل.

إن الشخصية تتحرك وفق دوافع بعضها شعوري والبعض الآخر لا شعوري قد يعود إلى خبرات مبكرة في طفولة الفرد البعيدة، كما قد ينجح الفرد في إخفاء دوافعه وقد لا يكون هو ذاته لا يعي لماذا يسلك سلوكًا ما.

١- أن الشخصية وحدة متكاملة لذا يعتبر تاريخ حياة الشخص كله وحدة لا يمكن تجزئتها وما تجزئ الشخصية إلى مراحل أو جوانب إلا تجزيئًا نظريًا يهدف إلى الدراسة أكثر.

٢- أن التعرض لدراسة مفهوم الشخصية لا يخلو من التحيز؛ لأن كل عالم له شخصية معينة، كما أن العلم أثبت أن الإنسان يدرك ما يريد أن يدركه ويغفل عما لا يريد إدراكه ومن هنا نشأت صعوبات الاتفاق على تعريف محدد كما أن من يتصدى لمفهوم الشخصية يجب أن يأخذ في الاعتبار أن الشخصية تتميز بالصفات الآتية.



التفرد : أي تختلف الشخصية من فرد إلى آخر بالرغم من تشابه الأفراد في الكثير من النواحي.

أن شخصية الفرد (نفسه) تتغير من مرحلة عمرية إلى أخرى ولذا فإن الفهم الدقيق لطبيعة الشخصية. يمكننا من التنبؤ بمسار هذه الشخصية.

٣- أن شخصية الفرد (نفسه) تتغير من مرحلة عمرية إلى أخرى، ولذا فإن الفهم الدقيق لطبيعة الشخصية. يمكننا من التنبؤ بمسار هذه الشخصية.

٤- أن الشخصية هي نتاج للتفاعل الدينامي بين الفرد وطبيعة الوسط الذي يعيش فيه وبالتالي فالشخصية ليست نتاجًا لما يرثه الفرد من والديه وأجداده بل يدخل في تكوينها العديد من المؤثرات البيئية (ثقافية / اجتماعية / اقتصادية / سياسية .. إلخ).

٥- إن الشخصية تعد الوعاء الذي تنتظم فيه الاستعدادات والقدرات والميول ولذا فإن الأفراد يختلفون فيها عن بعضهم بعض؛ لأن الاستعدادات لا تتوزع عند الأفراد بصورة واحدة بل بصورة تأخذ شكل المنحنى الاعتدالي.

٦- لا يمكن الحكم على الشخصية من خلال الحكم على السلوك الظاهر بل لا بد من الأخذ في الاعتبار وجود عوامل أخرى داخلية، ويمكن أن تستخدم تعبير فردية والذي يرى أن الشخصية ما هي إلا الجزء الظاهر من كتل الثلج المخفية داخل المحيط، ولذا فإن كل جانب يؤثر في الجوانب الأخرى من الشخصية سلبًا وإيجابًا.

وهام جدًا كأفراد أن نتعرف على طبيعة شخصياتنا وجوانب القوة والضعف بها حتى نختار ما يتناسب معنا من نواح دراسية أو مهنية أو حتى اختيار للشريك كما أنه من المهم جدًا أن نفهم طبيعة الشخصيات التي تتعامل معها؛ لأنه لا يتحقق للفرد درجة من التوافق والنجاح في سلوكه إلا إذا تحقق له قدر من الفهم الصائب للشخصيات التي تتعامل معها، ويصدق هذا حتى على الأطفال، فهو إذا نظر في وجه أبيه ووجد العبوس امتنع عن ذكر ما يريده والعكس صحيح، وهو بهذا التعرف إنما يمنع عن نفسه سلوكًا لا يريده، ومن حسن الحظ أن هذا الحد اللازم من القدرة على فهم الشخصيات التي نتعامل معها نكتسبه عن طريق الخبرات التراكمية الاحتكاكية (أو حتى عن طريق رأي الآخرين) عبر مراحل نمو الفرد المختلفة وعن طريق عمليات التربية والتنشئة الاجتماعية.



محاولات تعريف الشخصية

أولاً : تعريف الشخصية في اللغة العربية :

تشتق كلمة الشخصية في اللغة العربية من المصدر: شخص أو شاخص بمعنى بـــرز وظهر والبروز هو التل الذي يعلو عن سطح الأرض، ومعنى هذا التعريف أن الشخصية هي ما يظهر من الشخص ويميز شخصيته عن الآخرين.

ثانيًا : الشخصية في اللغات الأوروبية:

الأصل في كلمة الشخصية Personality أنها مشتقة مـــن لفـظ لاتينـــي Persona ومعناها القناع، أو الوجه المستعار الذي يظهر به الشخص أمام الغير وقد نشأ هذا اللفظ – كما نظن – من خلال التمثيل المسرحي – وخاصة في اليونان القديمة – حين كان الممثل يرتـــدي القناع ويخرج إلى النظارة فيستنتجون طبيعة الشخصية التي ينهض بها على خشبة المـــسرح. ويعني ذلك أن الشخصية في اللغة العربية أو حتى في اللغات الأوروبية إنما يركز على طبيعة الدور الذي يؤديه الشخص أمام الآخرين (أي التركيز على المفهوم السطحي أو الظاهري من الشخصية).

ثالثًا : مفهوم الشخصية في حياتنا اليومية :

انتقل تعريف الشخصية – فيما يبدو – من اللغات إلى الرجل العادي، إضافة إلى فكرة "القناع والتمثيل" و "ما الدنيا إلا مسرح كبير" إلى بروز حقيقة أن الرجل العادي أصـــبح لـــه مفهومًا عن الشخصية كأن يقال إن فلانا له شخصية قوية أو ضعيفة أو معدوم الشخـــصية أو "موسوس" الشخصية وكلها تشير إلى الانطباع الذي يتركه الشخص في الآخرين.

رابعًا : الشخصية عند علماء النفس :

تتعدد التعريفات التي قدمت لمفهوم الشخصية عند علماء النفس لدرجـــة أن "جـــوردن ألبورت Gordon Allport" أحصى ما يقرب من (٥٠) تعريفًا قدمهم علماء النفس لمفهـــوم الشخصية عند أصحاب مدرسة التحليل النفسي يختلف عن تعريفه عند علماء السلوكية وهكـــذا مع ملاحظة أن كل تعريف يبرز جانب ويغفل جوانب أخرى من الشخصية.

ونستطيع حصر التعريفات التي قدمت لمفهوم الشخصية في ثلاث مجموعات هي :

الجانب الأول : النظر إلى الشخصية كمثير Stimulus:

وهي تنظر إلى الشخصية على اعتبار أنها مثير أو مؤثر اجتماعي في الآخرين ويتفق هذا المفهوم الدارج عند الرجل العادي حول تعريفه للشخصية، وليس هذا فحـــسب بـــل نجـــد



بعض العلماء يتبنى هذا الاتجاه ومن هذا القبيل ما أورده "البورت" حول اسم "التعريفات الحيوية الاجتماعية" التي تركز على المظهر الخارجي للفرد وقدرته على التأثير في الآخرين، وكذا العالم (ماي May) والذي يعرف الشخصية بأنها ما يجعل الفرد فعالاً مؤثرًا في الآخرين.

ولعل أهم الانتقادات التي توجه إلى هذه المجموعة من التعريفات الآتية:

١- التركيز فقط على أجزاء معينة في الشخصية وتحديدًا على قدرته في التأثير والتأثر في الآخرين.

٢- التركيز على الجوانب الخارجية وليس من حيث تنظيم الشخصية الداخلي؛ فالنظرة إذ تكون سطحية خارجية في حين أن الشخصية – في واقع الأمر – كل لا ينفصل.

٣- أن النظر إلى الشخصية كمثير يجعل للشخص الواحد عدة شخصيات حيث لا يتم تقييمه بنفس المنظور بل بمنظورات متعددة وحسب طبيعة الشخص والذين يتعامل معهم.

٤- أن المجتمع قد يعمل على إبراز بعض الشخصيات وتجاهل بعضها الآخر فصور وأخبار نجوم الفن والرياضة أكبر في المساحة والتأثير بكثير مقارنة بتأثير شخصية العلماء والمفكرين بعيدًا عن الأضواء، لذلك نجد أن وجهة النظر الحيوية الفيزيقية تعارض فكرة التأثير هذه، وتجعل لكل إنسان شخصية بغض النظر عما يحدثه من أثر في الآخرين فالتأثير بحال من الأحوال معيارًا لوجود الشخصية.

٥- أن لكل شخص شخصيته وسماته الخاصة به وأنه من المحال إنكار أن لكل فرد صفات وخصائص متميزة وشخصيته المستقلة عن ملاحظات الناس له وصحيح أن الإنسان يعيش في وسط اجتماعي إلا أنه ليس من الضروري أن يقوم الناس بملاحظة الفرد حتى تصبح له شخصيته.

الجانب الثاني : النظر إلى الشخصية كاستجابة Rasp Responses:

تحاول هذه التعريفات تلافي الصعوبات التي واجهت علماء النفس في تعريف الشخصية كمثير، لهذا ظهر كرد فعل اتجاه آخر ينظر إلى الشخصية كاستجابة فنجد "فلويد ألبورت F. Allport" مثلاً يعرف الشخصية بأنها استجابات الفرد المميزة للمثيرات الاجتماعية وأسلوب توافقه مع المظاهر الاجتماعية في البيئة. فشخصية الفرد هي دالة أو وظيفة لسلوكه واستجاباته للمواقف المختلفة.



وقد ظهرت بعض الاعتراضات على هذه التعريفات أهمها أن نمط السلوك كثيرًا ما ينتج عن أسباب مختلفة، فمثلاً في كثير من اختبارات الشخصية نجد الكثير من الأسئلة والتي من الصعب أن تكون لها إجابات واحدة، بل تتعدد الاستجابات وفقًا لطبيعة الشخصية مثلاً هل يحدث لك أن تنحرف عن طريقك لكي لا تقابل صديقًا والإجابة عن هذا السؤال تتعدد وفقًا لطبيعة الشخص ومن العلماء من أخذ بهذا التعريف أمثال "وودورث" و "ماركوس" حيث عرفا الشخصية بأنها الأسلوب العام لسلوك الفرد كما يظهر في عاداته التقليدية وتعبيراته واتجاهاته وميوله وطريقته وسلوكه وفلسفته الشخصية في الحياة علمًا بأن الشخص الواحد قد لا تتوحد استجاباته على نفس المثير إذا توافر له في مواقف متعددة.

وبالمثل أيضًا نجد أن شخصين مختلفين يمكن أن يستجيبا بالأسلوب نفسه ولكن لأسباب مختلفة أشد الاختلاف. فعدم الثبات في استجابات الفرد الواحد أحيانًا، وتشابه استجابات الأفراد المختلفين أحيانًا أخرى يوحي بضرورة عدم الثقة الكاملة في هذه المجموعة من التعريفات والتي نظرت إلى الشخصية كاستجابة.

المجموعة الثالثة : النظر إلى الشخصية كمتغير يتوسط المثيرات والاستجابات:

أدت الصعوبات التي أثارها التعريف السابق إلى أن يتقدم العلماء خطوة أكثر تحديدًا في النظر أو آلة لفرز الاستجابات بل الشخصية لا يمكن تحديدها بهذا أو ذاك ولكن على أساس أنها حالة من الحالات الداخلية يمكن أن نستنتجها وأنها أساس لسلوك الإنسان وتصرفاته؛ ولذا فإن معظم التعريفات التي تندرج تحت هذه المجموعة تذهب إلى القول بأن هذا المتغير الذي يتوسط المتغيرات والاستجابات ليس عاملاً واحدًا ولكنه عبارة عن تنظيم دينامي متغير ومتفاعل من مختلف أنواع الاستعدادات التي للفرد ويظهر هذا في العديد من التعريفات مثل تعريف وارن وكارميكل حيث يريا أن "الشخصية هي التنظيم الكلي للإنسان في أي مرحلة من التكيف والذي يعد أسلوب من أساليب السلوك العامة التي تميز فردًا عن غيره بل إن كاتل Cattell يضيف بعدًا جديدًا وهو "أن الشخصية تمكنا من أن نتنبأ بما يكون عليه سلوك الفرد في موقف ما "بل يرى أن الشخصية تتكون من ثلاثة أنواع من العناصر هي:

١- **السمات أو العناصر الديناميكية :** وهي الدوافع المختلفة للسلوك وأهدافه سواء كانت فطرية أو مكتسبة.

٢- **السمات المزاجية:** وهي التي تتعلق بالسمات الشاملة التي تميز استجابات الفرد بصرف النظر عن المثيرات.

٣- **القدرات والكفايات العقلية:** وهي التي تحدد قدرة الفرد على القيام بعمل ما وتتمثل في الذكاء والقدرات الخاصة والمهارات.



ولعل أشمل تعريف قدم للشخصية ويحظى بالقبول هو : ذلك التعريف الذي قدمه ألبورت والذي يرى أن "الشخصية هي التنظيم الدينامي داخل الفرد لتلك التكوينات أو الأجهزة النفسية الجسمية والتي تحدد طريقته الخاصة للتكيف مع البيئة.

ومن الواضح أن هذا التعريف يتجنب أوجه القصور التي ذكرناها في تعريفات المجموعات الثلاث لأنه يتميز بالآتي :

١- يوضح فكرة "الدينامية" في الشخصية والتي تعني التفاعل المستمر بين أجزاء الشخصية والتكامل وغيره من العمليات التنظيمية هي المسئولة بالضرورة عن نمو وتكوين الشخصية. ومن ثم فإن التنظيم يجب أن يظهر في اختلال التنظيم خاصة في تلك الشخصيات الشاذة أو المنحرفة والتي تفتقد على هذا التنظيم.

٢- يؤكد هذا التعريف على سمة الأجهزة الجسمية/ النفسية، ويقصد بهذا أن الشخصية تكوين عام تتدرج تحته تكوينات جزئية هي جميع ما يتميز به الفرد من عادات، واتجاهات، وانفعالات، وعواطف، وقيم، وهو يشير أيضًا إلى أجزاء الجسم المختلفة والتفاعل بين الجهازين (الجسمي والنفسي).

٣- أن هذا التعريف لم يهمل أهمية البيئة وأثر عناصر الشخصية في تكوين ما يسمى بتكيف الفرد، وتفاعل الشخص مع البيئة، والنظر إلى الشخص نظرة واقعية على أساس أنه ليس منعزلاً بل يتواجد في حالة تفاعل متبادل مع البيئة ويفهم من ذلك التعريف أن الشخصية استعدادًا يحدد استجابات الفرد لمختلف المثيرات التي تحيط به.

٤- يؤكد تعريف البورت على فكرة "التميز" بمعنى أن الشخصية تكون متفردة ومتميزة من فرد إلى آخر بحيث لا يوجد اثنان متشابهان تمامًا وفي ذلك إشارة إلى طبيعة الفرد من الفردية سواء داخل الفرد الواحد أو بين الأفراد أو الجماعات.

ولعل تعريف البورت يحصل على اعتراف غالبية علماء النفس للأسباب السابقة ولأنه أكد على :

أولاً : أن الشخصية وحدة أو كل أو جشطلت Gestalt ويجب دراستها كتنظيم عام كلي متكامل متفاعل.

ثانيًا : أنه إذا اضطرنا البحث العلمي لتحليل الشخصية إلى عواملها الأولية وأجزائها للتوضيح والشرح، فيجب أن نضع نصب أعيننا دائمًا فكرة أن هذه الأجزاء لا توجد منفصلة بل يوجد بينها تأثير وتأثر وأن امتزاجها هو الحقيقة والواقع.



جوانب الشخصية :

يختلف العلماء في تقييم الشخصية وجوانبها ويذهبون في ذلك مذاهب ونستطيع أن نصنف أو نقيم هذه الجوانب التي تتكون منها الشخصية في الجوانب الآتية:

أولاً : النواحي الجسمية Physical Ph:

وهو عبارة عن الجانب المادي الملموس من الشخصية والذي يمكن رؤيته بالعين المجردة أو يمكن أن نتحسسه ونزنه ونتعرف على وظيفة أجهزته المختلفة من خلال الوسائل العلمية الحديثة، وذلك للتعرف على حالة الجهاز العصبي أو تأثير الغدد الصماء، وحالة الجهاز الهضمي والحواس المختلفة من ناحية حدتها أو ضعفها وكذلك شكل الجسم العام وقوة العضلات.

وتناسب التقاسيم ورنة الصوت وحركة الأجهزة ومدى سرعتها أو بطئها وهكذا، والطبيب هام له جدًا فحص الأجهزة، وذلك لكي تساعده في التشخيص والعلاج وكذا أحيانًا ما يلجأ الأخصائي النفسي إلى تقييم بعض هذه الخصائص الجسمية في الشخصية وخاصة إذا كان مكلفًا باختيار الفرد لعمل ما أو لتوجيهه إلى مهنة ما كما أن الأفراد العاديين يمكن اللجوء إلى تقييم الشخص من خلال النظر إلى الجانب الجسمي وتكوين مفاهيم معينة عنه أحيانًا ما تترسب داخل اللاوعي الشخصي مثل قولنا "أن كل طويل هبيل" و "كل قصير مكير" وهي أحكام تتعلق بنظرة الشخص إلى جانب الطول أو القصر (بالنسبة للقامة) في الشخصية وانعكاس ذلك على سلوك صاحبها.

ثانيًا : النواحي العقلية المعرفية Cong Cognitive

إذا كان الجانب الجسمي يمكن رؤيته بالعين ولمسه وتحليل بعض جوانبه من خلال الأجهزة المعملية. إلا أن هذا الجانب يغلب عليه الطابع المعنوي الافتراضي غير الملموس. ولعل من أهم جوانب الشخصية العقلية والمعرفية تلك الجوانب المتعلقة بالذكاء والقدرات الخاصة والأفكار والمعتقدات والقيم، وهي كلها جوانب لا نراها بطريق مباشر بل بطريق غير مباشر.

فالذكاء والقدرات ما هي استعدادات عقلية وراثية (حيث يغلب عليها الجانب الوراثي وفقًا لقوانين الوراثة) والذكاء قدرة عقلية عامة، إضافة إلى تواجد بعض القدرات العقلية الخاصة (كأن يتفوق الشخص مثلاً في القدرة اللغوية أو الحسابية أو الميكانيكية أو الموسيقية أو الفنية ... الخ) أما الذكاء فإنه يتضح في الجوانب الآتية – على سبيل المثال لا الحصر :

١- القدرة على التعلم وسرعته .



٢- القدرة على معالجة المواقف الجديدة التي يتعرض لها الشخص بنجاح ومهارة.

٣- القدرة على إدراك العلاقات بين الأشياء والموضوعات حتى وإن كانت تبدو للوهلة الأولى متباينة.

٤- القدرة على التعامل بالرموز (أو لغة الرمز).

٥- القدرة على الاستفادة من الخبرات الماضية وتوظيفها في مواجهة الخبرات أو الأحداث الجديدة التي يتعرض لها الشخص عبر مراحل حياته المختلفة.

٦- القدرة على إنجاز الأعمال والواجبات المطلوبة مع عدم تكرار الأخطاء التي وقع فيها في المرات الأولى.

٧- القدرة على الإبداع والابتكار والأصالة أثناء قيام الشخص بأوجه نشاطاته المختلفة.

وإذا كانت ملكة الذكاء والقدرات يغلب عليها الجانب الوراثي فيجب أن نشير إلى الاتجاهات والأفكار والقيم والمعتقدات يكتسبها الفرد من البيئة التي يعيش فيها ووفق مسلمات محددة يضيق المقام من ذكرها؛ لأنها من صميم موضوعات علم النفس الاجتماعي.

ثالثًا: النواحي المزاجية :

هي مجموعة الصفات الانفعالية المميزة للفرد وتتضمن تلك الاستعدادات الثابتة نسبيًا المبنية على ما عند الشخص من الطاقة الانفعالية والدوافع الغريزية والتي يزود بها والتي تعتبر وراثية في أساسها وهي تعتمد على التكوين الكيمائي في الحالات الوجدانية والطباع والمشاعر والانفعالات من حيث قوتها أو ضعفها، ثباتها أو تقلبها ومدى المثيرات التي تثيرها.

وإذا كان ما سبق يؤكد حقيقة الانفعالات إلا أنه ليس معنى ذلك أن الشخص يترك نفسه كيفما اتفق لانفعالاته بل يجب أن تتميز به الشخصية بين "الشخص الناضج انفعاليًا، والشخص غير الناضج، وقد وضع العلماء مجموعة من المحكات يتم بناء على أساسها هذا التصنيف وهي :

١- الشخص الناضج انفعاليًا يكون انفعاله متناسب مع الموقف دون شدة أو نقصان.

٢- الشخص الناضج انفعاليًا يكون انفعاله مع الحدث التاريخي بمعنى أن يحزن في المواقف التي تتطلب ذلك أو العكس.

٣- الشخص الناضج انفعاليًا يكون ثابتا انفعاليًا أي غير متقلب الانفعال والمزاج أو يتحول بسرعة من الفرح إلى الغضب أو العكس.

٤- الشخص الناضج انفعاليًا يكون حساسًا مع ما يحدث في بيئته ويتفاعل معه، أي لا يعاني من البلادة الانفعالية Emotional Hebetude ولعل المعايير السابقة تستخدم



في تشخيص اضطرابات الانفعال Emotional Disorders عند الأشخاص وما إذا كان يعاني من هوس أو اكتئاب أو حالة دورية (هوس / اكتئاب) أو تبلد انفعال أو عدم التوازن... الخ.

رابعًا : النوحي الخلقية Character:

وتشمل الصفات التي يكتسبها الفرد عبر مراحل تنشئته في البيئة التي يعيش فيها، ولعل هذه الصفات تشمل: الأمانة / الخيانة / التعاون / الأنانية / الصدق / الكذب / الإقدام / الإحجام / الرحمة / القوة / العدل / الظلم / التسامح / التعصب / الكرم / البخل / المسالمة/ العدوان.

إضافة إلى أن هذه الصفات المختلفة التي يكتسبها الفرد قد يحدث أن تعدل بعض هذه الاتجاهات أو تشيد حتى تضحى من القيم التي قد يبذل الفرد حياته من أجل الدفاع عما يؤمن به من أفكار واتجاهات.

والخلاصة أننا نعي أن هذا التقييم قصد به فقط التوضيح وأن التفاعل قائم ومستمر بين أجهزة الجسم (أو الشخصية) المختلفة وأن كل جانب يؤثر في الجانب الآخر، كما أنه لا يوجد في عزلة عن الجانب الآخر ولبيان ذلك سنسوق عدة أمثلة:

أولاً : أن وجود أي اضطرابات في إفرازات الغدد الصماء لا يؤثر فقط في الجانب الجسمي بل كذلك يصيب الجانب العقلي، فقد وجدت الأبحاث مثلاً أن نقص إفراز الغدة الدرقية قد يقود إلى التخلف العقلي، ولذا إذا تم اكتشاف هذا النقص – خاصة في الشهور الثلاثة الأولى بعد الولادة – وتم حقن الطفل بخلاصة إفرازات الغدة الدرقية فإن الفرد قد يعالج من هذا النقص.

ثانيًا : العلاقة بين الجسم والنفس وأن أي خلل يؤدي إلى إصابة الشخص بما يسمى بالأمراض السيكوماتية Psychosomatics وهي أمراض جسمية تنشأ بسبب نفسي ويحدث فيها تلف في البناء التشريحي للعضو المريض، بحيث يمكن للأشعة أو التحاليل أو الطب اكتشاف هذا التلف. إلا أن التركيز على العلاج الطبي في حد ذاته لا يقود إلى الشفاء، بل لا بد من اقتران العلاج الطبي بالعلاج النفسي (لمعالجة الأسباب الكامنة خلف اضطراب العضو) ولعل من أشهر الأمراض السيكوماتية: قرحة المعدة وارتفاع ضغط الدم وارتفاع مستوى السكر في الدم وأمراض الحساسية والعديد من أنواع السرطان Cancer والقلب والروماتيزم وغيرها.

ثالثًا : إصابة الفرد بعاهة معينة قد تترك آثارًا بعيدة المدى في النواحي العقلية أو المزاجية أو الخلقية للشخص. فبعض العاهات يكون لها أثر تعويضي ولعل المثل القائل "كل



ذي عاهة جبار" خير مثال يوضح ذلك. فالفرد الذي قد يصاب بعاهة في الجانب الجسمي قد يلجأ إلى التفوق في الجانب العقلي ولعل مثال عميد الأدب العربي / طه حسين وكذا الدكتور/ صلاح مخيمر مثالان يوضحان ذلك وإذا كانت الإعاقة في الجانب العقلي فإن الفرد قد يلجأ إلى التفوق في مسابقات خاصة بالجانب الجسمي .

وهكذا تتعدد التأثيرات فالغبي يؤثر في البيئة الاجتماعية، وكثرة الانفعال وحدته تؤثر في الجانب العقلي (اتخاذ قرارات عشوائية والإصابة بالأمراض الجسمية) والشخص الذكي قد يكون متوافقاً مع البيئة التي يعيش فيها على عكس الغبي مثلاً.

وهكذا يمكن أن تتعدد الأمثلة لكن الحقيقة الثابتة التي لا تنكر أن الشخصية إذا كانت تتكون من أجزاء إلا هذه الأجزاء متكاملة / مترابطة / متفاعلة / تتبادل التأثير والتأثر.

ولا تنمو الشخصية دفعة واحدة وإنما هناك مراحل محددة تتكون عبرها الشخصية، ومن المهم أن نعلم أن كل مرحلة تصحبها العديد من التغيرات، كما تشهد نمو بعض الجوانب وكمون جوانب أخرى. لكن من الضروري أن نعرف الآن ماذا نقصد بالنمو النفسي؟

النمو النفسي :

هو فرع من فروع علم النفس، والذي يتناول بالدراسة العملية (والتي تهدف إلى تحقيق أهداف العلم الثلاث من تفسير وتنبؤ وضبط) مظاهر التغير النفسي التي يجدها الكائن الإنساني بهدف تفسيرها والتنبؤ بها وضبطها وتوجيهها يحقق التطور الأمثل لنمو الطفل، أي موضوع علم النفس هو دراسة النشاط النفسي للفرد في تطوره ونضجه والمدى الزمني لهذا النضج ومدى تأثر هذا التغير بالنواحي الجسمية والنفسية والاجتماعية والثقافية وهكذا حتى يكتمل نضج الكائن الحي ثم يأخذ في الانحدار بعد ذلك حتى تنتهي حياة الكائن الحي.

مبادئ النمو النفسي:

إن من يتصدى لدراسة الشخصية لا بد أن يأخذ في الاعتبار أن هناك مجموعة من المبادئ التي تحكم نمو الشخصية، وأن النمو لا يسير أبدًا بصورة عشوائية بل هو محدد المعنى والدلالة والهدف. ونستطيع تلخيص هذه المبادئ في الآتي :

١- تقسيم نمو الشخصية إلى مراحل زمنية (كمرحلة الطفولة / الرشد / الرجولة ... الخ). ما هو إلا تقسيم تعسفي يقصد به الشرح والتفسير فقط؛ لأنه ليست هناك حدود زمنية فاصلة فصلاً قاطعًا بين كل مرحلة وأخرى. فالمراحل توجد في حالة تداخل أو مع انتهاء مرحلة زمنية ودخول الفرد في مرحلة زمنية أخرى، فإن هذا لا يعني أبدًا انتهاء مراحل وتأثير المرحلة السابقة، ولعل هذا التدخل يعبر عنه المثل القائل "الديك الفصيح في البيضة يصيح" بمعنى أن سمات معينة لا تظهر فجأة وكأنها نبعت من



فراغ بل لا بد أن يكون لها من مظاهر وعلامات قد أفصحت عن نفسها، وأن تجاهل هذه العلامات لا يعد خطأ الكائن بقدر ما يعرفنا بأخطاء الآخرين الذين لم ينتبهوا لهذه العلامات.

٢- أن مراحل النمو توجد بصورة متداخلة مع بعضها البعض مع غلبة المظاهر للمرحلة التي يمر بها الشخص بمعنى أن تقدم الفرد إلى سن المراهقة لا يعني أبدًا بحال من الأحوال اختفاء كل مظاهر وعلامات الطفولة بل نجدها أحيانًا متداخلة في مرحلة أخرى. ولذا نعبر عن هذا التداخل بقولنا أن "فلان عيل" أو أن "فلان هذا رجل" والفرق شاسع بين سلوك الطفل وسلوك الناضج.

٣- أن نمو الشخصية عملية مستمرة تبدأ منذ الميلاد (والصحيح أن النمو يبدأ منذ لحظة إخصاب البويضة) وحتى انتهاء حياة الكائن الحي لكن يجب أن نتذكر أن النمو قد يسرع في بعض المراحل وقد يبطئ في بعضها الآخر، كذلك فإن جميع جوانب شخصية الفرد قد تسرع في مرحلة وتسيطر على مراحل نمو ما وقد تختفي في مرحلة أخرى، في المراهقة مثلاً قد يدخل المرحلة بزيادة في حجم الجسم وظهور خصائص جسمية أخرى (العلامات الثانوية للبلوغ) ثم بعد ذلك يبدأ النمو العقلي وهكذا.

٤- أنه مع النمو تظهر ملامح جديدة وتختفي مراحل أخرى قديمة .. وكل هذه الملامح تصب في تيار النمو المستمر والمتدفق فالطفل مثلاً لا يتقن المشي دفعة واحدة بل لا بد له من الحبو ثم الوقوف والوقوع .. وهكذا بعد سلسلة من المحاولات والخطأ يتقن الطفل في النهاية عملية المشي وقس على ذلك أيضًا عملية الكلام.

٥- أن نمو الشخصية يسير من العام إلى الخاص بمعنى أن أغلب الأطفال في البداية تكاد أن تتشابه في كافة خصائصهم ثم مع تقدمه نسبيًا في العمر يستطيع التخصص وتكوين الملامح الخاصة به. فالطفل يحرك يديه بصورة عشوائية كما يعجز عن (القبض) على أشياء محددة ولكن مع التقدم والنضج يبدأ في الإمساك بأشياء محددة، بل ويحدد طبيعة الأصابع التي يلتقط بها الشيء مثلاً وقس على ذلك علامات الانفعال وكيف أنها تكون متقلبة وسطحية وغير ثابتة ثم مع التقدم في العمر تبدأ في التبلور والظهور والنضج.

٦- العلاقة الإيجابية بين جوانب النمو، بمعنى أن الشخصية – كما سبق وأشرنا تتكون من عدة جوانب، لا يعمل كل جانب بمعزل عن الجانب الآخر بل يوجد تفاعل وتكامل



وتبادل بين الجوانب المختلفة للنمو فالنضج العضلي مثلاً مرتبط بعملية النضج في العضو ثم ينعكس ذلك على النضج العقلي وهكذا.

٧- توجد فروق فردية في معدل النمو وهذا الفارق يظل ثابتًا بمعنى أن هناك العديد من البيانات التجريبية التي أوضحت أن معدل النمو ثابت والأطفال قد نموا في البداية بسرعة، سوف يستمرون على هذا النحو، في حين أن هؤلاء الذين كان نموهم بطيئًا فسوف يستمرون في النمو على نحو بطيء وتبين منحنيات الطول – مثلاً – أن الأطفال الذين كانوا يتصفون بطول القامة في فترة عمرية معينة يتصفون بالطول كذلك في فترات أخرى بينما يظل قصيرو القامة على معدل طولهم في المراحل المختلفة وأن اتجاه الفروق الفردية في معدل النمو الذي لوحظ عند الميلاد يظل ثابتًا خلال مرحلة الطفولة وربما المراحل الأخرى، وليس هذا فحسب بل إن أجزاء الجسم لا تنمو جميعًا بمعدل واحد، كما أن جوانب النمو العقلي لا تتقدم بدرجة متساوية فعند الميلاد تختلف الأجزاء المختلفة للجسم في علاقاتها ببعضها البعض.

ويتم نمو الأوجه المختلفة للنمو العقلي والجسمي وفقًا لمعدلاتها الخاصة وتصل إلى النضوج في أوقات مختلفة. وفي بعض أجزاء الجسم قد يكون النمو سريعًا بينما يكون بطيئًا أو متقطعًا في أجزاء أخرى من الجسم ومن ثم يتغير نمو الجسم النسبي لأعضاء الجسم من فترة زمنية إلى أخرى.

٨- النمو عملية داخلية لا نراها بطريق مباشر بل تأثيراتها بطريق غير مباشر بمعنى أننا لا نرى كيف تقوم المعدة بالتعامل مع الطعام مثلاً ولكننا نستنتج أن هذا الفرد يستفيد من طعامه وأن أجزائه الداخلية تعمل بصورة صحيحة وطبيعية من خلال علامات خارجية جسمية تظهر عليه، أو العكس صحيح، كما نستطيع – بمثل هذا الأمر – أن نعرف – إذا كان عقل الشخص يعمل بصورة طبيعية أو بصورة مبالغ فيها (في حالة الباقرة مثلاً) أو بصورة أقل من المعتاد (كما يظهر في حالات التخلف العقلي).

مطالب النمو :

يعرف "هافيجرست" مطالب النمو على أنه "المطلب الذي يظهر في فترة عمرية معينة من حياة الفرد. ويؤدي التحقيق الناجح لهذا المطلب إلى شعوره بالسعادة وإلى النجاح في تحقيق مطالب النمو اللاحقة، بينما يؤدي الإخفاق في تحقيقه إلى شعوره بالنعاس وإلى عدم الاستحسان من قبل المجتمع وإلى الصعوبة في تحقيق المطالب الأخرى للنمو".

وتتعين مطالب النمو بواسطة القوة الداخلية والخارجية، كما أن لكل مرحلة من مراحل النمو احتياجاتها الخاصة.



وفيما يلي نتناول – على سبيل المثال – أهم مطالب النمو وفقًا لمراحل النمو المختلفة.

مطالب النمو : في المراهقة (١٢ : ١٨):

١- تكوين علاقات جديدة وأكثر نضجًا مع رفاق السن من كل من الجنسين.

٢- تحقيق دور اجتماعي يتعلق بجنسه (ذكر أم أنثى).

٣- تقبل إمكاناته الجسمية واستخدام بدنه انفعاليًا.

نظريات في نمو الشخصية :

توجد العديد من نظريات الشخصية في النمو بحيث بيد أننا سنقصر حديثنا على نوعين فقط من هذه النظريات وهي:

أولاً : نظرية سيجموند فرويد في نمو الشخصية:

تنحصر الفكرة الرئيسية في النمو في وجود مناطق شبقية (لذة شهوية) في البدن تتمخض تنبيهها من إشباعات ليبيدية وتتغير المنطقة الشبقية المهيمنة تبعًا للسن ومستوى النمو فتتغير بالتالي علاقات الكائن مع ذاته ومع العالم الذي يعيش فيه من خلال الدخول في علاقات مع الموضوعات الخارجية.

والنمو في التحليل النفسي يسير وفقًا للمراحل الخارجية:

أولاً : المرحلة الفمية :

أن المصدر الرئيسي للذة المستمدة من الفم هي لذة الأكل؛ إذ إن تناول الطعام يتضمن تنبيهًا لمسيًا للشفتين وللتجويف الفمي، كما يتضمن كذلك الابتلاع أو البصق الرافض إن كان الطعام غير سار.

ويقسم فرويد هذه المرحلة الفمية إلى مرحلتين هما:

أ – المرحلة الفمية الاستقبالية (المص) :

وتحتل الأشهر الستة الأولى من الحياة وفيها يكون المحور الرئيسي للتعامل مع العالم هو الفم، وأسلوب التعامل هو الإدماج بالمص وفي هذه العملية الاستقبالية يتحقق إشباع ليبيدي يوصف بالفمية وعندما يعاني الطفل الإحباط فإنه يمنح نفسه إشباعا ليبديا فيجيب ذاتيًا بمص إصبعه.

ب – المرحلة الفمية السادية (العض):

وتحتل النصف الثاني من السنة الأولى ويكون فيها المحور الرئيسي للتعامل مع العالم هو الفم وأسلوب التعامل هو الاندماج التدميري بالأسنان لموضوع الحي (ثنائية العاطفة) أو



ينشأ العض نتيجة لعملية التسنين وما يليه من إحباطات يتعرض لها الطفل أثناء عملية الفطـــام وما يستتبعه من انفعالات مؤلمة يخبرها الطفل.

ثانيًا : المرحلة السادية الإستية (الشرجية):

وتحتل العامين الثاني والثالث وفيها يكون المحور الرئيسي للتعامل مـــع العـــالم هـــو "الإست" وأسلوب التعامل هو الإمساك أو القذف؛ لأنه بعد تناول الطعام تتراكم المخلفات فـــي النهاية السفلى للقناة الهضمية لتطرد بواسطة الفعل المنعكس عندما يبلغ الضغط على عضلات الشرج العاصرة حدًا معينًا، وهنا يتعرض الطفل لتدخل المجتمع متمثلاً في تعليم الطفل كيـــف ينظف نفسه، ووفقًا للأسلوب الذي تربى عليه يكون الشخص فيما بعد إما عنيدًا شحيحًا قاسيًا، أو يلجأ إلى الخلق والإنتاج.

ثالثًا : مرحلة الذكرية (الأوديبية) :

وتحتل العامين الرابع والخامس وفيها يكون المحور الرئيسي للتعامل مع العـــالم هـــو عضو التذكير قضيبًا كان أم بظرًا، كما أن مشاعر اللذة تكون مرتبطـــة بالاســـتمناء وبحيـــاة التخيل لدى الطفل والتي ترافق نشاطه الشهوي الذاتي والتي تكـــون مقدمـــة للمـــرور بعقـــدة الأوديب والتي تتلخص في أن الطفل يتجه بمشاعره الجنسية إلى الوالد من الجـــنس المقابـــل، وشحنة عدوانية تستهدف الوالد من نفس الجنس، وتظل هذه العقدة مؤثرة في حياة الطفل عبر مراحل حياته التالية وخاصة موقفه من الجنس الآخر، ونحو أصحاب السلطة وهكذا.

كما أن "حسد القضيب" هو المقابل الأنوثي لحصر الخصاء لدى الصبي ويطلق عليهما معًا اسم "عقدة الخصاء" وأن الأنثى تعاني هي الأخرى من عقدة أوديب حين تتجه مـــشاعرها الجنسية إلى الوالد من الجنس المقابل والعدوان إلى الوالد من نفس الجنس وأن هذه الاختلافات في طبيعة عقدتي أوديب والخصاء هي أساس كثير من الفروق بين الجنسين، ويرى فرويد أن كل شخص هو بحكم تكوينه مزدوج الجنسية وأن كل جنس ينجذب إلى أعضاء كل جنس كما ينجذب إلى أعضاء الجنس الآخر وهذا هو الأساس التكويني للجنسية المثلية، وإن كانت الدفعة إلى الجنسية المثلية تظل كامنة عند معظم الناس.

رابعًا : مرحلة الكمون :

وتحتل الفترة ما بين السادسة وسن البلوغ وفيها تضعف الحـــوافز الغريزيـــة بفعـــل الأوضاع الثقافية ويسقط حجاب من النسيان (اميزيا الطفولة) حيث ينسى الطفـــل الانحـــراف المتعدد الأشكال ويستدخل المبادئ الأخلاقية جاعلاً فيها سدودًا حاجزة في وجه الغرائز كمـــا يجب أن ننوه أن الطفل في بداية هذه المرحلة يذهب إلى المدرسة وما يستتبع ذلك من توجيـــه



وتعليم وإرث وتركز على إكسابه ما يجب أن يكون من سلوكيات وأخلاقيات هامة لطبيعة المجتمع.

خامسًا : المرحلة التناسلية :

وتشمل مرحلة المراهقة وما بعدها حيث يتحول الشخص من النرجسية (أي عشق الذات) إلى اختيار موضوعات أصلية بمعنى أن يشرع في حب الآخرين تحدده دوافع الإيثار وليس لمجرد أسباب أنانية ويبدأ في التفكير في تكوين أسرة، والتسامي برغباته وغرائزه وهكذا وفي نهاية هذا العرض المختصر لنظرية فرويد في نمو الشخصية يجب أن نشير إلى أمرين قد أكد عليهما فرويد وهما:

أولاً: بالرغم من أن فرويد قد ميز بين مراحل نمو الشخصية إلا أنه لم يفترض أن هناك توقف قاطع وفاصل أو انتقال مفاجئ من مرحلة إلى أخرى؛ لأن التنظيم النهائي للشخصية يمثل إسهامات جميع هذه المراحل للنمو.

ثانيًا : أن كل مرحلة من مراحل النمو قد ترتبط بنشأة أمراض معينة سواء أكانت نفسية أو عقلية، وأن الطفل حين يعاني من إفراط في الإشباع في مرحلة فإنه قد يثبت عندها، وعندما يواجه إحباطات مرحلة تالية فإنه قد ينتكس إلى مرحلة سابقة وجد عندها الإشباع وتحقيق الرغبات.

ثانيًا : نظرية أريكسون في النمو :

لعل نظرية أريكسون تعد من أقدم وأكثر النظريات شمولاً في تحديد طبيعة النمو؛ لأنه لم يتوقف مثل فرويد عند المرحلة التناسلية وإنما ظل يتابع مرحلة نمو الإنسان حتى وصل إلى مرحة الكهولة ثم الموت، إضافة إلى ذلك أنه قد وازن بين نمو الفرد ونمو المجتمع وأن المجتمعات مثلها مثل الأفراد قد تمر بمراحل الطفولة ثم المراهقة ثم الشيخوخة وهكذا.

ويحدد أريكسون ثمانية مراحل للنمو هي :

المرحلة الأولى : الإحساس بالثقة والأمان في مقابل الشك وعدم الثقة:

وأن الطفل يواجه مشكلة أن يثق في الآخرين أم لا، وأن الفم هو العامل الأساسي في هذه المرحلة ويتفق مع فرويد في تقسيم هذه المرحلة إلى قسمين الأول قبل ظهور الأسنان أي أول ستة أشهر وأن التلاقي من الآخر هو الأساس، أما بعد ظهور الأسنان فإن الطفل يلجأ إلى عض الأشياء وخاصة الثدي مما يجعله يدخل في علاقة صراعية مع الأم وفقًا للإشباع والحرمان في هذه المرحلة يكون تأثيرها فيما بعد على نفسية الطفل.



المرحلة الثانية : الاستقلال التام في مقابل الخجل أو الشك :

يتم الانتقال إلى مرحلة الشرح والتي تعني الانتقال من مرحلة الانتقال الأخذ والاحتواء المتبادل مع الترك والاندماج إلى مرحلة التحكم في المنع والعطاء، وفقًا لأسلوب التربية والتعليم كيفية أن ينظف نفسه تظهر سمة السادية وتكاد أن تكون لازمة لهذه المرحلة. ويبدأ الطفل في الشعور بالاستقلال نفسيًا عن الآخرين ووفقًا للبناء النفسي لمن يتعامل معه يكون التحدي إما بالسماح له بالاستقلال تمامًا وما يتركه ذلك من آثار نفسية تظل تعمل في نفسية الشخص فيما بعد .

المرحلة الثالثة : وفاعلية الإحساس بالذنب :

إذا كان الطفل في المرحلة السابقة قد استطاع أن يؤكد ذاته ووقف على رجليه واستقل عن ارتباطه الكلي بأمه فإنه ينتقل في هذه المرحلة إلى التحدي التالي والذي يدور حول ما الذي يفعله بعد الاستقلال ؟ وهنا يبدأ الطفل في الأخذ بزمام المبادأة واكتشاف العالم الخارجي، كما يعقد مقارنات بين جسده وجسد أمه فهو إما متشابه (في حالة الإناث) أو مختلف (في حالة الذكور) ويبدأ يعي ما يسميه علماء النفس "بعملية التنميط" أي فروق بين الذكور والإناث ويسيطر جانب الاهتمام بالعضو الجنسي، وإذا نجح الطفل في المبادأة ازداد ثقة وزهوًا أما إذا فشل لأسباب متعددة يخلق لديه حالة من الشعور بالذنب.

المرحلة الرابعة : المثابرة وفاعلية الإحساس بالنقص :

في هذه المرحلة لا نجد ارتباطًا وافيًا بين النمو ومنطقة عضلية معينة وهي تقابل مرحلة الكمون عند فرويد حيث يرى الطفل أنه لا مفر من ضرورة استدماج مطالب المجتمع منه كأن يذهب إلى المدرسة أو يأخذ الفلاح ابنه معه إلى الحقل وهكذا، وإذا نجح الطفل في هذه المرحلة يشعر بالرضا عن نفسه وبالقوة الناتجة عن قدرته على التحكم والحصول على المهارات، أما إذا فشل فإنه يشعر بالنقص الذي قد يدفعه إلى ماضي الاستمتاع الأسري في المراحل السابقة وما تبعه من حنان وغيره من المشاعر.

المرحلة الخامسة : الهوية في مقابل ارتباك الأمور :

يعود الجسد للشهوة مرة أخرى وإن كان بصورة كلية إلا أن المحور يرتكز حول الأعضاء التناسلية التي تصبح جاهزة للإنجاب وهنا يشار إلى هذه المرحلة بالتناسلية بدلاً من القضيبية.

وأن الشباب يعيش في هذه المرحلة أزمة الهوية Identity Crisis وهي تلك الأزمة التي تتمثل في السؤال التالي : من أنا وماذا أريد ؟ هذا التساؤل قد يكون بمثابة الصدمة /



الهزة/ الزلزال بالنسبة للشباب حيث يعيد الشباب تشكيل ذاته من جذورها وقد ينجح في ذلك وقد يفشل، كما أن الشاب في هذه المرحلة يعيش بعض المشاكل التي تدور حول اختيار المهنة واختيار الرفيقة أو الرفيق الجنسي وهي مرحلة ما قبل ممارسة المهنة أو الزواج ولذا فهو يضع تصورًا لطبيعة الفتاة التي سيختارها أو المهنة التي سيلتحق بها.

المرحلة السادسة : الألفة في مقابل العزلة :

حيث تدور معركة الشباب في هذه المرحلة حول تأكيد الذات والبحث عن هويته بالانفصال عن أسرته وأن هذا الانفصال إنما يمهد لتكوين حياة أسرية جديدة وبدون هذا الانفصال لن يستطيع أن يحول انتماءه إلى أسرته الجديدة إذ سيبقى متعلقًا بالقديم ولن يستطيع العطاء لزوجته أو أولاده أما إذا كان الشخص في المرحلة السابقة قد وضع تصوراته لطبيعة وصفات الزوجة أو المهنة، فإنه في هذه يتحول من القول إلى الفعل أو من التصور إلى التنفيذ الفعلي ولذا كان من أهم التحديات التي تواجه الشخص في هذه المرحلة هو : هل ينجح في تكوين علاقة حميمة بها ألفة أم يفشل بالإحساس بالعزلة والوحدة أو بتعبير أريكسون هو صراع حول الألفة في مقابل العزلة وكالعادة فإن النجاح في كل نقلة (أو مرحلة) إنما يتوقف على النجاح في المراحل السابقة وهكذا.

المرحلة السابعة : الإنتاج في مقابل الركود :

بعد أن يمارس اختياره في مجال الحب والعمل فيتزوج ويرسخ أساس الاستقرار الأسري ويختار العمل الذي يستطيع من خلاله أن يحقق نفسه فإنه يصل إلى نقطة ويسأل فيها وماذا بعد؟ وهنا يبرز التحدي الذي يجعله يبحث عن الهدف الأوسع من دائرة الأسرة المحدودة فهو يبحث عن الشيء الذي يستطيع أن ينجزه على المستوى الأعلى من التغطية أو الاكتفاء بالارتباط بالأسرة، أن يخشى أن يصبح إنسانا مكررًا روتينيًا ولذا فإنه يبحث عن معنى جديد لحياته وإن كان السؤال معنى لا يدور حول (من أنا؟) ولأنه أقرب إلى (لم أنا؟) أي ما معنى حياتي وماذا أهداف منها ؟ إنه يبحث عن دور أكثر شمولية وذلك بانتقاله إلى العطاء للآخرين، وهذا العطاء نابع من داخله وليس مفروضًا عليه من قبل الآخرين. ووفقًا لعوامل متعددة يكون النجاح أو الفشل في هذه المرحلة والتي يطلق عليها أحيانًا "أزمة منتصف العمر".

المرحلة الثامنة : مرحلة تكامل الذات وتجنب الإحساس باليأس:

وهي المرحلة الأخيرة من حياة الإنسان وقد عاش حياته كاملة وواجه جميع التحديات وأتم كل الإنجازات بأفضل ما يستطيع في وجود المعطيات التي أحاطته بادئًا من تكوينه البيولوجي الجسمي إلى الكيانات الاجتماعية والتاريخية التي تواجد فيها، إنه في هذه المرحلة



يكون مستعدًا أن يتخلى عن جسده برمته فبممارسة وجوده بالأخذ ثم العطاء، والأخذ والعطاء معًا أصبحا جزءًا من تيار مستمر بغض النظر عن وجود جسده، وهو لهذا يستطيع أن يتركه بعد أن كان يتشبث به، ونظرًا لأنه عاش حياته كاملة فلم يعد لديه ما يندم على ضياعه بل وصل إلى حالة السكينة والاطمئنان أصبح راضيًا عن نفسه قادرًا على العودة إلى أصله، ولم يعد له من بقايا الصراع إلا قليل، ولعل هذا التشابه بين نهاية الحياة وبدايتها يعبر عن الجدلية في حياة الإنسان.

ولكن ماذا يحدث إذا فشل الشيخ – رغم هذا الميراث من السنين – في الوصول إلى مرحلة التكامل ؟ إنه يقف أمام هذه الحقيقة يائسًا لأنه غير مستعد للموت ويخافه لأنه غير راض عن حياته ويتمنى لو أنه يستطيع أن يحيا حياة مرة أخرى ولكن يظل الفرق شاسعًا بين الواقع والخيال لأن الأمور كما يقول أريكسون "الذي حدث قد حدث لا أمل في إصلاحه" وإذا استطاع أن يخفي اليأس فإنه يخفيه وراء الاشمئزاز المستمر والدخول إلى مرحلة اكتئاب الشيخوخة وما يصاحبه من دفاعات فاشلة تنهك قواه العصبية والنفسية. وهكذا نرى كيف أن أريكسون صاحب الإنسان عبر مراحل نموه المختلفة بدءًا من لحظة ميلاده (وربما من لحظة إخصابه) حتى مواجهته لحقيقة الحياة الكبرى: تقبل الموت أو رفضه ولكنه واقع لا محالة.

بعض نظريات الشخصية :

ليس من السهولة بمكان تقديم إطار نظري شامل يشمل النظريات التي تناولت الشخصية من وجهة نظرها الفلسفية والفكرية أو حتى الأيديولوجية إلا أن هناك مادة قائمة في علم النفس تسمى "نظريات الشخصية" ولكن نحاول جاهدين تقديم ملخص لبعض هذه النظريات والتي تناولت الشخصية.

ويصنف بيشوف Bischof (١٩٧٠) في كتابه تفسير نظريات الشخصية إلى :

١- نظريات التحليل النفسي وهي في رأيه نظريات نفس فلسفية وتضم نظريات فرويد وموري ويونج.

٢- نظريات نفسية فردية أو نظريات نفس اجتماعية وتضم نظريات أدلر وهورني وмورينو.

٣- نظريات تكافل الذات أو نظريات بيولوجية اجتماعية وتطلق على نظريات أولبرورت وروجرز ومورفي.

٤- نظريات نفس بيولوجية وتمثلها نظرية شلدون.

٥- نظريات النفس الإحصائية وتمثلها نظريات كاتل وإيزيك.



٦- ومن النظريات العامة النظرية الرمزية لكيرت ليفين ونظريات التعليم في الشخصية لمورو والنظرية الإنسانية لإبراهام مازلو أو نظريات البينيات الشخصية لكيلي.

٧- ومن إسهامات الفرويديين المحدثين النظرية الارتقائية لأريكسون، ونظرية العلاقات المتبادلة لهاري ستاك سوليفان، والنظرية التحليلية لإيرك بيرن.

وسوف نكتفي بعرض مختصر لثلاث من نظريات الشخصية وهم:

أولاً : نظرية التحليل النفسي والشخصية:

يرى سيجموند فرويد S. Freued مؤسس مدرسة التحليل النفسي أن الشخصية تتكون من ثلاثة أجهزة هي :

أ- الهي (أو الهو) Id :

وهو يمثل الشخصية عند ولادتها قبل أن تحدث عليها أي تعديلات نتيجة لاحتكاكها بالبيئة. والهي مستودع الطاقة والغرائز وتعمل وفق مبدأ اللذة دون تفكير في أي عواقب أو نتائج، ولذا فإن فرويد يطلق على هذا الجانب من الشخصية اسم "الواقع النفسي الحقيقي" لأنه يمثل الخبرة الذاتية للعالم الداخلي ولا تتوافر له أي معرفة بالواقع الموضوعي.

ولكي يحقق الهو هدفه في تجنب الألم وتحقيق اللذة فإن عمليتين تعملان تحت إمرته وهما "الفعل المنعكس" و "العمليات الأولية" حيث يولد الشخص مزودًا ببعض الأفعال المنعكسة لمواجهة الأشكال البسيطة نسبيًا من الاستثارة.

أما العمليات الأولية فإنها عملية تم من خلالها تفريغ التوتر مثل أن يتخيل الشخص الجائع لون وشكل ورائحة الطعام مثلاً لكن لن يعيش الفرد على الأوهام (تخيل الطعام) وهنا يحدث انتقال إلى المرحلة التالية:

ب – الأنا Ego:

يعمل الأنا وفقًا لمبدأ الواقع والامتثال للظروف والقيود التي يفرضها التعامل مع الواقع الخارجي أو تكون مهمة الأنا الأساسية الحفاظ على الشخصية ضد ما تتعرض له من أخطار وإشباع متطلباتها بشكل لا يتعارض مع الواقع وقوانينه ويجب أن يكون واضحًا في الأذهان أن الأنا يخرج إلى الوجود ليحقق أهداف الهو ولا يحبطها أو أن كل قوته مستمدة من الهو، كما أنه ليس له وجود منفصل عن الهو وأن دوره الأساسي هو المتوسط بين المطالب الغريزية للكائن الحي وظروف البيئة المحيطة.



ج : الأنا الأعلى Upper Ego

وهو جانب من الأنا انشق عنه نتيجة اعتناق الشخص لقيم وعادات وتقاليد وأوامر ونواهي المجتمع الذي يعيش فيه الشخص ولذا فإن الأنا الأعلى يقوم بثلاثة أنشطة هي : مراقبة الذات، وإقامة المثل العليا، والضمير الخلقي، إنه ممثل لجميع القيود الخلقية والمُثل التي ينشدها المجتمع وأن وظائف الأنا الأعلى هي :

١- كف دفعات الهو وبخاصة تلك الدفعات ذات الطابع الجنسي أو العدواني.

٢- إقناع الأنا بإحلال الأهداف الخلقية مقابل الأهداف الواقعية.

٣- العمل على بلوغ الكمال أي أن الأنا الأعلى يميل إلى معارضة الهو والأنا معًا والمفروض أن يكون هناك تآزر وتكامل في عمل هذه الأجهزة الثلاثة إلا أنه قد يحدث أن يسيطر جهاز على الجهازين الآخرين وهنا يحدث العديد من الانعكاسات وردود الأفعال بل والإصابة ببعض الأمراض والسلوكيات كما يرى فرويد أن الشخصية تنمو من خلال مراحل محددة تحدد علاقتها بالعالم الخارجي والداخلي وأساليبها في إشباع دوافعها.

وأهم مرحلة في حياة الإنسان هي الخمس سنوات الأولى وفيها توضح بذور الصحة أو المرض وأن هناك خمس مراحل للنمو وهم المرحلة الفمية / الشرجية / القضيبية / الكمون/ التناسل وأن هناك ثلاث زوايا للرؤية أو وجهات النظر إلى الشخصية وهي :

الوجهة الطبوغرافية (وفيها يقسم الشخصية إلى ثلاث جوانب الهو / الأنا / الأنا الأعلى).

والوجهة الاقتصادية وتعني الناحية الكمية للقوى الداخلية في الصراع فحسبما يكون كم الطاقة الداخلية في هذه القوى تتحدد نتيجة الصراع وكلما تعادلت القوى كان الصراع مستعصيًا على الحل.

أما الوجهة الديناميكية فتعني فهم الدوافع من حيث هي قوى متصارعة تتمخض عن محصلة من العمليات الدفاعية ويعد هذا المفهوم من المبادئ الأولى في علم النفس الإكلينيكي، وأن الصراع ينشأ بين الجوانب الغريزية وجوانب المجتمع.

كما نظر فرويد إلى الشخصية على أنها تتطور وفقًا لأربعة مصادر رئيسية للتوتر هي:

١- عمليات النمو الفسيولوجي

٢- الإحباطات

٣- الصراعات



٤- التهديدات

وهذا فإن الفرد يكون ملزمًا بتعلم أساليب جديدة لحل توتراته، ولعل التعيين والإزاحة طريقتان رئيسيتان يتعلم الشخص عن طريقهما حل إحباطاته وصراعاته وما يعانيه من ضروب الحصر.

ومن المفيد أن نذكر في هذا العرض بأنه لم توجد نظرية من نظريات الشخصية قد تعرضت للانتقادات مثلها وأن الانتقاد لم يأت من أفراد بعيدين عنها بل من أنصار وتلاميذ فرويد وكونوا نظريات في الشخصية خاصة بهم.

ثانيًا: النظرية السلوكية :

مقدمة :

ظهرت المدرسة السلوكية عام ١٩١٣ على يد واطسن في أمريكا وكان ظهورها بمثابة رد فعل لعلم النفس في القرن التاسع عشر والذي كان يدرس الظواهر الشعورية وفي نفس الوقت كامتداد طبيعي لعلم النفس المنعكسات التشريطية الذي ظهر في روسيا في نهاية القرن ١٩ على يدي مجموعة من علماء روسيا نذكر منهم بافلوف، ثورنديك، يختريف وسكنر.

تعريف النظرية السلوكية :

وهي في الحقيقة ليست نظرية واحدة بل مجموعة من النظريات تهتم بالقوى الخارجية (المثيرات) والتي تؤثر في الفرد وتشكل شخصيته والتي يمكن أن نسميها بالنظريات الميكانيكية أو الآلية.

وقد عارض السلوكيون فكرة أن الشخص نمط أو بناء ثابت دائم كما أنهم ذهبوا إلى أن السمات ما هي إلا صفات سلوكية موقفية تعتمد على الموقف الخاص الذي يتعرض له الفرد وليس بناء على استعداد ثابت لديه.

ولا يمكن أن نتحدث عن النظرية السلوكية وتكوين الشخصية دون أن نذكر إسهامات علمائها:

١- ثورنديك :

ويمثل ثورنديك مرحلة الانتقال بين الاتجاهين النقلي والتجريبي الميكانيكي في تفسير السلوك. وقد أقام نظريته في بدايتها على أساس الغريزة، وكان يستخدم المصطلحات العقلية في تفسير السلوك الإنساني، ولكنه بالتحليل بدأ يتحلل من تلك المفاهيم، وفي مراحله الأخيرة



أرجع كل المفهومات التي استخدمها إلى العامل الفسيولوجي، وكذا أرجع مفاهيم عن المحاولة والخطأ والاختبار والربط إلى مبدأ جديد هو الارتباط العصبي.

كذلك أرجع اكتساب العادات أو التخلص منها إلى مبدأ الثواب والعقاب، وفسر الثواب على أساس أنه إشباع الحاجة البيولوجية والعقاب على أنه ألم وضيق أو مؤثر فسيولوجي.

(من أشهر تجاربه .. تجربة الكلب والجرس والطعام).

٣- بافلوف :

وكان له تأثير جد خطير في روسيا؛ لأنه قام بدراسة للفعل المنعكس الشرطي والعوامل التي تدخل في تكوينه وبيان لأثر الدوافع على مدى الاستجابة للمثير، كذلك كان لمفهومه في التعزيز وهو تقوية الرباط الشرطي نتيجة لإشباع الحاجة كان له أثر في اكتساب العادة ويلاحظ أنه كان يفسر السلوك على أنه نوع من الترابط بين المثير والاستجابة ويقوم على أسس فسيولوجية مستندة إلى أحداث مخية افتراضية.

٣- واطسون :

ويعد رائد المدرسة السلوكية في نظر علماء النفس ونلحظ آراءه في النقاط الآتية:

أ- أن أي نظريات تتضمن أشياء مثل ثواب أو عقاب أو إدراك وتفكير.. إلخ تعد نظريات غيبية لا تتمشى مع النظريات العلمية ولا بد من رفضها.

ب – إن تفسير أي سلوك يجب أن يستند إلى عاملين :

الأول : عامل التكرار :

حيث يساعد التكرار على اكتشاف السلوك . وأن الاستجابات الناجحة تعد أكثر الاستجابات تكرارًا.

الثاني : عامل الحداثة أو التقارب الزمني :

أ – أي أن الاستجابة الأخيرة أو الحديثة لها الأسبقية في الظهور على غيرها من الاستجابات السابقة عليها.

ب- أن تفسير السلوك لديه أصبح قائمًا على أساس ارتباط مثيرات باستجابات بشرط التقارب الزمني وشرط التكرار.

ج- اعتبر أن قوائم السلوك الإنساني كله هو أفعال منعكسة وتكوين أفعال منعكسة شرطية.



٤- كلارك هل :

ويعتبر "هل" واضع أساس السلوكية الجديدة فقد كان من أشهر من حاولوا إخضاع هذا الاتجاه الميكانيكي للسلوك في صورة نظرية متكاملة الأطراف قابلة للتحقيق التجريبي في كل جانب من جوانبها، فقد عارض نظرية واطسون وأبقى على كثير من المفهومات التي سبق أن أنكرها واطسون، حيث أبقى على مفهومات مثل الثواب والعقاب والتفكير والبصيرة.. الخ، ولكنه فسر هذه المفهومات جميعًا على أساس فسيولوجي وميكانيكي.

والواقع أن نظرية "هل" تقوم على المسميات الآتية:

١- تفترض النظرية أن السلوك المتعلم هو علاقة بين مثير واستجابة ويطلق على هذا السلوك قوة العادة.

٢- التدعيم شرط ضروري في التعلم، ذلك أن الاستجابة لكي تشتد يجب أن يتبعها اختزال في قوة الدفع.

٣- السلوك الذي يربط بين مثير واستجابة يزداد في اتساعه وباستمرار نتيجة للتدعيم المستمر.

٤- يقاس الأداء لأي استجابة من خلال سرعتها وتكرارها ومقاومتها للانطفاء ولأداء ظاهرة متغيرة وتتحدد على أساس القدرة المؤثرة للمثير.

ويلاحظ أن التدعيم يمثل المحور الذي ترتكز عليه نظرية "هل" والعادة تتكون عن طريق الارتباط الشرطي بين مثير واستجابة.

ويرى أن الدوافع تنقسم إلى نوعين:

وثانوي ← (الجوع / العطش / الجنس)

← (الحاجة على الأمن)

دولارد وميلر: حيث حاولا أن يقوما بنوع من التوفيق بين بعض الأفكار الفرويدية الأساسية مع مفاهيم اللغة وطرائق البحوث في المعملية التجريبية وبين السلوك والتعليم.

وسوف نلخص آراءهما في النقاط الآتية :

١- أن الطفل يولد ولديه دوافع أولية يريد إشباعها لكي يعيش ولكي يشبع هذه الدوافع لا بد أن يتعلم كيف يستجيب لدوافعه عن طريق التعليم والتدريب.

٢- أن كافة سلوكيات الإنسان متعلمة من البيئة التي يعيش فيها سواء كان هذا السلوك سوي أو غير سوي.

٣- أن التعليم لكي يتم لا بد من توافر أربع عوامل هامة وأساسية وهي:



الدافع / المثير / الاستجابة (فعلاً أو تفكيرًا) والتعزيز أو الإثابة.

أي أن التعليم في رأيهما هو عملية تربط من خلالها استجابة معينة بمثير حافز.

مثال : "تجربة الحيوان الذي لا يتحرك في المتاهة مثلاً إلا إذا كان يشعر بالجوع فعلاً".

- ولذلك فإن الشخص في ضوء النظرية السلوكية تشتق أساسها من عملية التعلم كما لاحظنا، وهي بناء على ذلك تتمثل في التنظيمات أو الأساليب السلوكية المتعلمة الثابتة نسبيًا والتي تميز الفرد عن غيره من الناس.
- كما أن منهج البحث في الشخصية لديها قائم على المنهج الذي اتخذته السلوكية وهو الملاحظة والتجريب.
- أن فكرة أو مفهوم العادة الذي ساد في نظريات التعلم لدى السلوكيين كان هو الأساس في بناء الشخصية كما عبر عنه دولارد وميلر. فالعادة تعني حدوث تغيير في سلوك الكائن الحي إزاء موقف معين وتتخذ صفة شبه دائمة وبلغة المثير والاستجابة تعني أنه كلما حدث الموقف المعين (المثير) تحدث الاستجابة المعتادة لدى الكائن الحي ولهذا تتخذ العادة صفة الثبات النسبي.
- أن الشخصية تنمو وتتعدل وتتغير في ضوء ما يتعرض له الفرد من ظروف يمر بها الفرد.

ذلك كانت أهم مبادئ النظرية السلوكية باختصار.

الانتقادات : رغم وجود النظرية السلوكية على الساحة النفسية حتى الآن إلا أنه يوجه لها العديد من الانتقادات ونستطيع حصر هذه الانتقادات في الآتي:

١- لا تؤمن بدراسة الظواهر الشعورية واللاشعورية، وتعتبر أن مثل هذه المصطلحات ما هي إلا خزعبلات وأشياء من الصعب الحديث عنها.

٢- ترفض الوراثة، وترى أن الفرد ما هو إلا حاصل أو مجرد نتاج للتعلم والاكتساب دون أن يكون للفطرة أو الوراثة من أثر في ذلك، ومن هذا فإننا نتذكر عبارة واطسون الشهيرة "أعطني عشرة من أطفال أصنع لك ما تريد" كأن الأمر في نظره يقتصر على إقامة بعض التشريعات تبعًا للمهنة المطلوبة.

٣- إن اهتمامها بالمنهج العلمي يفوق اهتمامها بالإنسان فالمهم هو التجريب. وتوفير كافة شروط الضبط العلمي من هنا يأتي الإنسان في آخر اهتماماتهم.



٤- ترتكز هذه النظرية على السلوك الخارجي باعتبـاره قابـل للملاحظـة والدراسـة. والتجريب وكذا العمليات الفسيولوجية.

٥- إن هذه النظرية نظرية شيئية وليست نظرية دينامية حيث إنها تعامل الإنسان معاملـة (أشياء الطبيعة) بل ولا تدرس منه عبر مثل هذه الأشياء (مسالك خارجية صـريحة وعمليات فسيولوجية).

٦- أن المثير لا بد أن يؤدي إلى استجابة، هذا الربط بصورة آلية يتم دون النظـر إلـى طبيعة المثير ودون التنبه إلى أن المثير الواحد قد يثير استجابات مختلفة فـي أفـراد مختلفين أو لدى الفرد نفسه من حين لآخر.

٧- أن من أهم عيوب هذه النظرية من وجهة نظرنا هو إجراؤها تجارب على الحيوانات، وتطبيق النتائج على السلوك الإنساني.

٨- لا تعترف النظرية السلوكية بالعمليات اللاشعورية وكذا الكبت وترى أن: اللاشـعور عبارة عن مؤثرات لا يستطيع الفرد التعبير عنها لغويًا ومن ثم لا يستطيع تمييزهـا، كما أن عملية الكبت عملية متعلمة أيضًا يلجأ إليها الفرد؛ لأنه تعلم أنها تخفض مـن توتره ودوافعه وخوفه.

٩- ترى أن الفرد يولد مزود بمجموعة من الدوافع الأولية يشتق منها أثناء نمـوه وعـن طريق الخبرة والتعلم مجموعة جديدة من الدوافع الثانوية كالدوافع الاجتماعية ودوافع الحب والانتماء وغيرهما. وتمثل هذه الدوافع الثانوية محل الدوافع الأولية وتسهم في توجيه سلوك الفرد باستمرار نحو تعلم عادات جديدة يتعدل في ضوئها التنظيم الهرمي الأول للاستجابات ويحل محله تنظيم هرمي مكتسب يختلف لدى الأفـراد بـاختلاف الأفراد الذين يمرون بها.

١٠- إن العلاج السلوكي يركز فقط على العرض، باعتبار أن الأعراض شأنها شأن كل السلوك غير التوافقي متعلمة، كما أنها مثل كل أنواع السلوك الأخرى يمكن تعلمه أو التخلي عنه، أو نقول بعبارة واضحة أن العرض هو المرض.

ثانيًا : نظرية التحليل التبادلي Trans actional Analysis Theory

الجزء الأول – النظرية

مقدمة :

تعد نظرية التحليل التبادلي "لأريك برن E. Bern" من أحدث النظريات في علم النفس المعاصرة والتي استخدمت معطياتها استخدامًا واسع الانتشار في العلاج النفسي فـي أوروبـا



والولايات المتحدة الأمريكية. وتعتمد هذه النظرية على منهج في التحليل لا يقيم وزنًا للأحداث الماضية التي تمر بالفرد وإنما تركز جل همها على تحليل ما يمكن أن يمر به مستقبلاً من أحداث لتمكنه من إرادة التغيير وتكوين نسق متكامل من الضبط الذاتي Self-Control بما يمكنه أيضًا من حرية الاختيار.

لمحة تاريخية عن النظرية : فرويد – بنفيلد – برن :

مما لا شك فيه أن النظرية التبادلية تعتمد أساسًا على نظرية التحليل النفسي، وإن كانت تستخدم بعض مفاهيمها للوصول إلى معان مختلفة عنها على نحو ما، فلقد أثبتت نظرية التحليل النفسي أن للإنسان طبيعة تعددية Multipe متغايرة، فهو يحوي في أعماقه عدة أشخاص في شخص واحد.

ويحمل في طياته صراعًا حادا بين الرغبات المتعارضة (الهدم والبناء، الخير والشر) وتلك حقائق أوضحها فرويد في نظريته عند تحليله للصراعات والمخاوف اللاشعورية التي استخرجها في تحليله لمستدعيات مرضاه إكلينيكيًا ومثل هذه المعطيات، هي التي بني عليها إريك برن نظريته في التحليل التبادلي مع اختلاف نوعي في تناوله لها أصلاً وتنظيرًا.

وربما لا يجب أن نعتبر أن نظرية برن نظرية جديدة تمامًا إلا من حيث التناول ولكي نفهم هذا المعنى جيدًا نورد هنا الفرق بين لغة الاتصالCommunication ولغة التخصص العلمي فالمصطلحات وربما الكلمات قد يكون لها معنى في الثانية مختلف على نحو ما عن معناها في الأولى.

وكذلك يمكن القول إن علم الرياضة علم قديم، لكنه يستخدم اليوم لغة جديدة تتمثل في الرياضة الحديثة، ومن ثم يمكن القول إن الجديد في الرياضة هو هذه اللغة الحديثة. وهكذا يثور سؤال هام مؤداه هل يمكن لأي معلومات تتاح في فترة زمنية أن تتميز بالنفع الدائم؟ وبمعنى آخر هل يمكن لمثل هذا النفع أن يتميز بالثبات والصدق بفترات طويلة من الزمان؟ ولو كان الأمر كذلك لما ظهرت نظرية التحليل النفسي بعد السلوكية، ولما ظهرت أي نظرية بعد التحليل النفسي كنظرية.

وقد حاول الطبيب الجراح بنفيلد القيام باختبار إمكانية استحضارات بعض الخبرات المنسية – في اللاشعور – تجريبيًا، وذلك بتنبيه اللحاء الصدغي Aral Temp Cortedx لدى أحد مرضاه المصابين بالصرع البؤري Focal Epilepsy وذلك بصدمة كهربية خفيفة فوجده وقد استعاد ذكريات لا شعورية كانت في طي النسيان نتيجة لكبتها، ولكن الشيء المثير أن حلول مثل هذه الذكريات في حيز الشعور يستتبعه الانفعالات والمشاعر المرتبطة بها، الأمر الذي دعا بنفيلد لأن يشير إلى أن المنح Cortex يقوم بدور جهاز التسجيل الحساس للغاية،



والذي يعمل على تسجيل وتخزين خبرات ومشاعر الإنسان، والتي يمكن بطريقة ما استحضارها في لحظة ما ليعيش الإنسان خبرة الماضي والحاضر معًا في آن واحد. ومن ثم انتهى إلى إقرار أن الشخص يمكن أن يعيش خبرات متعددة في لحظة واحدة.

الفعل التبادلي :

سبق أن أشرنا إلى أن برن هو مؤسس نظرية التحليل التبادلي. وتجدر الإشارة إلى أنه عمل في الأصل بنظرية التحليل النفسي، وجمع وقائع إكلينيكية كثيرة وفق منهجها في تحليل المستدعيات، ساعدته هذه الوقائع على صوغ نظريته في التحليل التبادلي.

وتتلخص نظرية برن في القول بأن الفعل التبادلي ينقسم إلى مثير استجابة وتلك الاستجابة تتحول مرة أخرى إلى مثير يتطلب بدوره استجابة. ولقد لاحظ برن أن الطبيعة التعددية للإنسان تحوي في داخلها ثلاث شخصيات في ذات واحدة بما يؤدي إلى أن يلعب الإنسان ثلاث شخصيات في ذات واحدة بما يؤدي على أن يلعب الإنسان ثلاث أدوار متسقة مع هذه الشخصيات بالتناوب وربما معًا في آن واحد، وهذه المستويات الثلاث في شخصية الإنسان هي:

أ – الوالدية Parent

ب – الراشد Adult

ج – الطفل Child

ولقد اعتبر برن أن الشخصية الإنسانية من هذه المستويات أو الرقائق المتفاعلة بناء على ملاحظاته الإكلينيكية المتعددة والمتجمعة في تلك الحالات التي عالجها تحليليًا. وفضلاً عن ذلك فهو يقرر أن هذه المستويات الثلاث في الشخصية لا تمثل ثلاثة أدوار أو وظائف منفصلة كما هو الحال بالنسبة (للهو والأنا والأنا الأعلى) في نظرية فرويد، وإنما هي وقائع سيكولوجية أو حقائق ظاهراتية (Phenomenological Reulities).

صورة ص ٢٢٩

أ- الوالدية (و):

وهو لا يعني بالوالدية كلا الوالدين بالمعنى الدقيق للوالدين؟ .. وإنما يعني بها تلك الأحداث المبكرة التي وقعت للكائن الإنساني في بيئته المحيطة به والتي تبدأ من الميلاد حتى سن خمس سنوات سجلها المنح واختزنها من الميلاد إلى نحو سن الخامسة من العمر سواء ما حدث منها عن طريق الوالدين أو من يقوم مقامهما.

صورة ص ٢٣٠



ب – الطفل (ط) :

وهو استجابة الطفل لكل ما يراه أو يسمعه من أحداث داخلية (داخله) من الميلاد حتى سن خمس سنوات.

ج – الراشد (ر) :

وهو الجزء الذي يسجل فيه الكائن الإنساني كل الحقائق والوقائع الخارجية المكتسبة من خلال اختباره للواقع الخارجي، وهو يعتبر هذا الجزء هو الجزء المنطقي الوحيد في هذه المستويات الثلاثة للشخصية عند التحرك في البيئة الخارجية المحيطة بالفرد.

لقد أشرنا إلى الوالدية والراشد والطفل ثلاثة مستويات تعمل في داخل الإنسان الذي يقوم المنح لديه بمهام تسجيل الأحداث والوقائع ويختزنها وهي لا تضيع، بمعنى أن الإنسان لا يستطيع – حتى ولو أراد – أن يمسحها من شريط التسجيل مسحًا، لكنه قد يتمكن من إيقاف التسجيل أو تشغيله كلما أراد.

وهكذا حسب هذه النظرية يفترض برن أوضاعا للحياة يلخصها النسق الرياضي التالي:

(١) أنا لست على ما يرام – أنت على ما يرام I'm n't Ok – you'r Ok

(٢) أنا على ما يرام – أنت لست على ما يرام I'm Ok – you'r n't Ok

(٣) أنا على ما يرام – أنت لست على ما يرام I'm n't – Your Ok

(٤) أنا على ما يرام – أنت على ما يرام I'm Ok – you'r Ok

وهو يعتبر الوضع الرابع (الأخير) هو الوضع الأمثل للشخصية السوية على حين أن الأوضاع الثلاث الأولى (١+٢+٣) نتاج تفاعلات الراشد المتمخضة داخل الإنسان (الطفل). ويظل (الطفل) في الوضع الذي اختاره حتى ولو كان راشدًا.. وهذا يفسر كل ما يفعله الإنسان طوال حياته فيما بعد الطفولة وخلال رحلة العمر (١) إلا إذا استطاع بوعي كامل أن يغير الوضع المثبت عليه في أي من الأوضاع الثلاث المشار إليها آنفًا ليصل إلى الوضع (السواء).

فالوضع الأول، وهو السائد في مرحلة الطفولة، يعبر عن حاجة الإنسان إلى إشباع احتياجاته، لكنه لا يستطيع إشباعها بنفس الرغبة المثارة لديه، ولذلك مثلت بـــ (Not. Ok) وكانت هذه المسألة هي مثار الخلاف الحاد الذي نشأ بين الفريد أدلر وفرويد. فعلى حين يرى فرويد أن الجنس Sex هو أساس الصراع في الحياة كان أدلر يعتقد أن مشاعر النقص Inferiority Feelings هي السبب أي (Not. Ok).



أما الوضع الثاني، وهو الذي يبدأ مع نهاية السنة الأولى من العمر، حيث تنتهي أيام سعادة الطفل بتركه فردوس مهده، والتي تنتهي فيها الملاطفة والنشوة المستمدة من هذه المرحلة، قد تؤدي إلى تثبيت على إحساس بالنقص (Not. Ok) (أنا لست على ما يرام – أنت لست على ما يرام). ويرى برن أن الناس كلها مثبتة على هذا الوضع بمعنى أن هذه الحالة أو الوضع يعاني منه كل الناس بدرجات مختلفة.

أما الوضع الثالث، وهو يمثل عند برن ملاطفة – أو تدليل – الذات، وهي البداية الحقة للشخصية السيكوباتية، التي تعبر في ديناميتها عن معاناة الفرد من الحرمان والإهمال الأمر الذي يدعوه إلى الاعتقاد بأن كل الناس ليسوا على ما يرام (أنت لست على ما يرام).

أما الوضع الرابع والأخير فهو في نظر برن الوضع الأمثل الذي يعبر عن سواء الشخص المقترن بسواء الآخرين (أنا على ما يرام – أنت على ما يرام).

(١) فقد يمارس الدور الوالدي مع شخص ما ، على حين يلعب دور الطفل مع شخص آخر وهكذا دور الراشد مع ثالث بالتناوب معًا وفي آن واحد.

ويرى برن أن الأوضاع الثلاثة الأولى (١+٢+٣) تتم في اللاشعور وتعتمد على المشاعر والأحاسيس، بينما الوضع الرابع يتم في حيز الشعور ويعتمد على التفكير والثقة بالذات – الأوضاع الثلاثة الأولى تعتمد على طرح الذات للسؤال (لماذا؟) على حين أن الوضع الرابع يتعلق بطرح سؤال آخر هو لما لا يكون (Why Not) أي هو وضع متعلق بالقرار الممكن اتخاذه؟

تحليل الفعل التبادلي Analysis of the Tran Section

يتكون الفعل التبادلي من مثير موجه (من شخص) واستجابة ناتجة (من شخص آخر).. هذه الاستجابة بدورها إلى مثير جديد قد يستجيب له شخص آخر.. أو هو ذاته. والمفروض في التحليل التبادلي أن يتم تحليل الفعل التبادلي على أساس معرفة أي مستوى من مستويات الشخص هو أصل المثير (الوالدية – أو الطفل – أو الراشد) ومن ثم أصل الاستجابة.

قاعدة التحليل التبادلي :

للقيام بالتحليل التبادلي ينبغي إجراء التحليل في خطوات متوازية من المستويات الثلاث (الوالدية – الطفل – الراشد)، لمعرفة نمط التفاعل القائم بين هذه المستويات، ويمكن تقسيم هذا التفاعل إلى ثلاث أنماط رئيسية هي :

صورة ص ٣٣٣



١- نمط تفاعلي "طفل – طفل (ط ط) ومثل هذا النمط لا يوجد في سلوك الإنسان إلا في مراحل عمرية متقدمة (حينما يتربص كبار السن حافي القدمين على شاطئ البحر) (أو يعبر بالكلمات عن رغبة طفلية) ذلك لأن الطفل يسعى دائمًا للحصول على التدليل ولكنه لا يعطيه أو يمنحه لأحد.

(١) وفي مثل هذا التحليل يمكن الاسترشاد بالأسلوب التعبيري للشخص من ألفاظ وعبارات وإيماءات وحركات الجسم وبتعبيرات الوجه (ويرى برن أنه لا داعي للتعمق كثيرًا داخل الفرد لنبش ذكريات الماضي) لمعرفة المستوى الذي يستجيب به الفرد ردًا على المثيرات، فمستوى الوالدية (و) ويمكن الاستدلال عليه من عبارات لفظية مثل ألم أقل لك ؟ أو .. ألم أقل لك ألا تفعل كذا ؟ كما نجد مفاتيح تمكننا من الاستدلال على مستوى الراشد (ر) مثل كلمات لماذا – أين – متى حدث ذلك ؟ فالقول "أعتقد أن طلبة المدارس الثانوية يجب أن يدلوا بصوتهم في الانتخابات" تدل على مستوى الراشد.

(٢) نمط تفاعلي "والدية – طفل" (و.ط) ومثل هذا النمط يشيع في مواقف سلوكية كثيرة بين فردين، صديقين أو زميلين أو زوجين فنجد زوجًا يلعب مع زوجته دور الطفل المدلل الذي لا يرغب (ولا يستطيع) في تحمل المسئولية على حين تلعب الزوجة معه دور الأم التي تنصحه وتتحمل المسئولية كاملة نيابة عنه. أو قد يحتاج لفترة هذا النوع من العلاقة التفاعلية، حين يصاب بمرض فيفرط في اعتماديته (كطفل) على زوجته التي تمنحه الاهتمام والحنان بدرجة مبالغة فتلعب معه دور الأم.

صورة ص ٣٣٤

(٣) نمط تفاعلي "طفل – راشد " (ط. ر) ومثل هذا النمط من التفاعل الوجداني ينشأ عادة عندما يعم المرء مشاعر فياضة بعدم الرضا، أي عندما يشعر أنه (Not – ok) وفي مثل هذه الحالة، قد يلجأ إلى شخص آخر يجد عنده الأمن والأمان: مثال ذلك: ذلك الرجل الذي يشعر أنه (Not – Ok) في ذلك المستوى الطفلي من شخصيته فيلجأ إلى زوجته التي يستشعر أن مستوى الراشد لديها متكامل فيستعير (الراشد) في بعض المواقف والأحيان فيقول لها ذات يوم : أعتقد أن هذا العمل فوق إمكانياتي، فلن أستطيع القيام به على الوجه الأكمل (مستوى. طفل) فتقول له زوجته (مستوى الراشد) لا تكن أبله.. إنك تستطيع القيام به على أكمل وجه.. وقد يلعب ذلك الدور زميلان في الكلية حين يقترب الامتحان، فيقول الأول الذي يشعر بعجز ما (Not – ok) بمستوى (طفل) لزميله الذي يتوسم فيه (راشد): أنا لن أدخل الامتحان وشاعر بأنني سوف أرسب، فيقول له زميله (الراشد) له لا تكن يائسًا أو متشائمًا بل سوف تبذل مزيدا من الجهد وسوف تنجح.



٤- نمط تفاعلي "راشد – والديه" (ر و) ومثل هذا النمط من التفاعل يحدث عادة بين مستوى الراشد في شخصية المرء ومستوى الوالدية في شخصية الآخر. كمثال حي على ذلك، ذلك الرجل الذي يود التخلص من عادة التدخين، ولديه مبررات قوية لذلك (مستمدة في مستوى الراشد في شخصيته) لعلمه بمدى تأثير التدخين على صحته ثم يلجأ إلى زوجته ويطلب منها (مستوى الوالدية لدى الزوجة) أن تمزق السجائر إذا رأته يحاول أخذ واحدة ليدخنها.

خاتمة :

وهكذا يتضح لنا من العرض السابق كيف أن نظرية التحليل التبادلي (T. Ac. A) تستند في بنائها النظري على أساس من نظرية التحليل النفسي الفرويدي، وإن كانت تتضمن بعض المكونات التي قد تختلف جوهريًا عنها. فإذا ما أمعنا النظر في الجذور الأساسية للنظريتين يسهل علينا أن نجد تشابهًا قويًا، قد يبلغ حد التطابق بين مفهوم الأنا الأعلى Super Zgo لدى "فرويد" ومفهوم الوالدية لدى "أريك برن" فالضمير الخلقي للفرد "الإنسان" إنما تتكون من الأوامر والنواهي التي تقوم بها نماذج الوالدين في تناولهما للطفل تنشئة وتربية في طفولته الأولى، حتى يغدو ذلك الأنا الأعلى لدى الطفل (حين يتكون) وريثًا شرعيًا لتلك الأوامر والنواهي الوالدية. كذلك يمكن أن نلمس بشيء من العمق كيف أم مستوى "الراشد" في نظرية "برن" هو الذي يقابل الأنا Zgo "الذات الشعورية" التي تتعامل مع الواقع (والحقائق الخارجية) في محاولة التوفيق بين مطالب الهو من ناحية ومطالب الأنا الأعلى من الناحية الثانية (في نظرية التحليل النفسي).

وكذلك الحال إذا ما تعمقنا في نظرية التحليل التبادلي، أمكن لنا أن ندرك مستوى الطفل، هو ذلك البديل المكافئ للهو Id لدى فرويد. إن الهو لدى نظرية التحليل الفرويدي، هو ذلك المستوى الغريزي الذي لا يقبل التعديل أو الإلغاء وهو لدى برن ذلك المستوى من الشخصية الذي يمثل المادة الخام قبل تشكيلها.. إنه الطفل في الإنسان.

وهكذا يتبين لنا أن نظرية برن ليست نظرية جديدة تمامًا، كما أنها ليست تكرارًا مطابقًا لنظرية فرويد تمامًا. إنها وإن كانت تستند على معطيات نظرية التحليل الفرويدي وأسسها العميقة إلا أنها تمتاز لتناولها لتلك المعطيات والأسس تناولاً جديدًا تمنح فيه الإنسان حرية الإرادة "Free Well" المفتقدة في نظرية التحليل النفسي التي تعتمد على مبدأ "الحتمية" من ناحية وإجبار التكرار من الناحية الثانية. فالإنسان من منظور "التحليل التبادلي" يمتلك الإرادة الحرة، ولديه دومًا القدرة على التعبير عن إرادة، لو شاء.



كذلك تعتمد نظرية أريك برن هذه على منطقة الشعور (Conscious) في شخصية الإنسان اعتمادًا أصيلاً، بعكس التحليل الفرويدي التي تركز تركيزًا كبيرًا وأساسيًا على اللاشعور.

أخيرًا يمكن أن نرصد أهم الفروق الجوهرية بين النظريتين التحليل النفسي لفرويد والتحليل التبادلي لأريك برن، في أن فرويد ركز تركيزًا أساسيًا على "الجنس Sex" كمحرك أساسي لسلوك الإنسان في سوائه واعتلاله (مختلف الاضطرابات النفسية) بينما تستند نظرية برن على مشاعر النقص والتدني Inferiority Feelings التي تعبر تعبيرًا دقيقًا عن إحساس الفرد بالعجز Not-ok. فأساس فرويد في تفسير علة السلوك واضطرابه عامل الجنس، بينما الأساس الذي ينطلق منه برن للتفسير هو إحساس الإنسان بالقصور والتدني.

وهكذا تنطلق نظرية برن نحو آفاق رحبة في تملك الفرد لحرية الإرادة ومن ثم قدرته على التغيير، فهي نظرية تقدم لأول مرة نموذجًا حيًا لتمكين المرضى من وسيلة فعالة للعلاج، عن طريق تزويدهم بقدر من الاستبصار بمكونات شخصيتهم الثلاثة (والديه- راشد- طفل)، ومساعدتهم على تحرير مستوى "راشد" من المستويين (والديه – طفل) حتى يمتلك الإنسان حقًا إرادة التغيير، طبقًا للواقع الخارجي (والحقائق الخارجية).



الفصل السابع عشر

أساليب الإنسان في التوافق



الفصل السابع عشر

أساليب الإنسان في التوافق

مقدمة :

لكي يتوافق الإنسان مع البيئة التي يعيش فيها فإنه يمر بالعديد من العمليــات النفــسية حيث نجد الإحباط Frustration ثم الصراع Conflate وأخيرًا يلجأ إلى ميكانزمات الدفاع. وسوف نفرد هذا الفصل للحديث فقط عن وسائل الدفاع على أساس أنها خط الدفاع الأخير في تفاعل الإنسان مع نفسه أولاً ثم مع البيئة التي يعيش فيها ثانيًا، فإذا فشل في الدفاع فإنه يدخل لا محالة إلى الاضطرابات بمختلف أنواعها.

ميكانزمات الدفاع :

﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾

هذه حقيقة واضحة وضوح الشمس في كبد السماء. وعلى الإنسان أن يعي ذلك فليس كل ما يتمناه المرء يدركه، كما أن الرياح لا تأتي – دومًا – بما تشتهي السفن، ولقــد علمــت الحياة الإنسان هذه الحقيقة منذ أن أخذ يدب الخطى على سطح الأرض. فتعلم كيف يتكيف مع الظروف المتغيرة وأن يتجنب الألم وينشد اللذة كل ذلك من أجل الحفاظ على حياته وأن يبتعد قدر جهده عن التوترات التي قد تودي بحياته إذا هو استسلم لها. وهذه الأســاليب التكيفيــة أو التوافقية نراها بدرجة أو بأخرى لدى الحيوانات، فمثلاً نجد الفراشات والحرباء. تغيــر مــن لونها تبعًا للوسط الذي تتواجد فيه، ومن هنا فإنهما يتجنبان الخطر الذي قد يداهمهما فــي أي وقت.

نفس هذه الحيل أو الأساليب أو الميكانزمات نجدها لدى الإنسان إلا أنهــا قــد تأخــذ صورة أكثر تعقيدًا ولذلك لتعقد متع الإنسان وقدراته.. تلك الصفات التي ميزه بهــا الله عــن سائر المخلوقات.

وليست هذه الأخطار التي تهدد الإنسان متواجدة دومًا في البيئة الخارجية، بل نجــدها أيضًا داخل الإنسان، توسوس له، وتحرض على فعل أشياء قد لا يعي الفرد بنتائجها إلا بعــد أن يكتشف حقيقة (أن الفأس قد وقعت في الرأس).



ونحن إذ نستعرض معًا مجموعة من الأساليب الدفاعية أو حيل الإنسان مع نفسه ومع بيئته إنما نسير سويًا في استكشاف هذا العالم الغريب / المألوف، والذي من خلالـــه يحـــاول الإنسان قدر جهده أن يتغلب على ما يلاقيه من صعوبات في بيئته والتي قد تكون شعورية أو لا شعورية، أي يعي بها الإنسان ويتصرف وفقًا لهذه المعرفة.

وقد لا يعي ذلك وبالرغم من ذلك يندفع إلى هذه الحيل الدفاعية. لكي يدافع بها عـــن كيانه ووجوده. ألم يقولوا في الأمثال قديمًا إذا (جاء لك الطوفان ضع ابنك تحـــت قـــدميك؟). فالمهم أن تنقذ نفسك، والأهم أن تنجح أو تكلل هذه المحاولة بالنجاح.

وإذا كنا نعلم حقيقة (أن الشيء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده) فإن مقدرة هذه الحيل أو (السلاح الشخصي هذا) يجب أن يتصف بعدة صفات:

- أن تكون هذه الأساليب مستخدمة بالقدر المطلوب.
- أن يكون الإنسان على وعي بهذه الحيل وبأساليبه.

وسوف نتحدث عن بعض هذه (الحيل الدفاعية) لدى الفرد حتى نكون على وعي بها.

١- التعويض Compensation:

خلق الله الإنسان بإمكانيات جسمية وعقلية معينة وعلـــى الإنـــسان أن يـــتفهم هـــذه الإمكانيات ويضع أحلامه وطموحاته وفقًا لها حتى لا يزداد البون اتساعًا بين ما يملك وما يود أن يكون ولعل حقيقة (وفي رواية أخرى على قد لحافك مد رجليك) أنصع بيان على ذلك.

ومن هنا حين تقارن نفسك بالآخرين ستجد بدون شك أنك متفوق فـــي مجـــال وهـــم متفوقون في مجال آخر، وقد يكونوا معك في نفس المجال إلا أن درجة الإمكانيات والتفـــوق تختلف من فرد إلى آخر.

ولذلك في حيلة التعريف يجب أن نفرق بين (الـــشعور بـــالنقص) وعقـــدة الـــنقص، فالشعور الأول شعور صحي وشعوري، حيث يعي الإنسان إمكانياتـــه حـــين يقـــارن نفـــسه بالآخرين. ومن هنا يتقبل هذه الحقائق ويسعى شعوريًا إلى محاولة تعويض ذلك دون أن يطعم هذه المساعي بالحقد والحسد على هؤلاء الآخرين.

وأمثلة (الشعور بالنقص) ومحاولة تعويضه، بل وتحويل الجوانب السلبية إلى جوانـــب إيجابية نجده في العديد من الأمثلة الناصعة البياض:



- فهذا (ديموسشينس) الذي كان حاكمًا أفريقيًا كان مصابًا بعقدة في لسانه ويشكو من ضعف صوته. هذه كانت حقيقة.. فكيف تغلب عليها؟ حاول المران على الخطابة وقد وضع الحصى في فمه بل حاول أن يتغلب على صوت هدير الأمواج على الشاطئ برفع صوته عاليًا حتى يتلاشى تمامًا صوت (هدير أو وشوشة الأمواج) حتى صار أخطب قومه ذلك أنه أيضًا كان حاكمًا لشعبه.

- وهذا (روزفلت) الرئيس الأمريكي السابق كان يُعرف عنه أنه كان يعاني من شلل الأطفال – وهذه حقيقة تقبلها روزفلت. وحاول التفوق، ليس فقط بأن يكون رئيس أكبر دولة في العالم بل تفوق أيضًا في المجال الرياضي.

- وهذا أديب وعميد الأدب العربي الدكتور/ طه حسين، نتيجة لممارسات صحية خاطئة فقد عينيه وهو في ريعان الصبا. وكانت هذه العقبة تقف (كئودًا) أمام رغباته إلا أنه لم يعرها أدنى اهتمامًا. وحول هذا (النقص الجسدي) إلى تفوق عقلي شهد له به الجميع.

- وهذا أيضًا الموسيقار والملحن (عمار الشريعي وسيد مكاوي) قد أصابهما العمى لسبب أو لآخر إلا أنهما لم يستسلما لهذا الواقع. وتفوقا في المجال الموسيقي. قس على ذلك باقي الجوانب. ولو فتشت في حياتك فسوف تجد أن هناك العديد من الأمثلة قد ضربها الذين لم يستسلموا للواقع المُر، وتفوقوا في مجال آخر. ولعل المثل القائل أن كل ذي عاهة جبار خير مثال على ذلك. إذ عندما أعي أن له من نقص في قدرة معينة وأحاول جاهدًا التفوق في هذه القدرة، أو التفوق في مجال آخر أعظم مثال على ذلك. ونجد أن بعض الأفراد الذين يعانون من نقص في درجة الذكاء أو الفهم يتفوقون في المجال الرياضي.

أما (عقدة النقص) فهي شعور غير صحي. إذ يكتفي الإنسان بأن يقارن ما يملكه وما يملكه الآخرون. ثم يكتفي بأن يسخط ويلعن ويضع كافة المبررات على شماعات الآخرين. وإذا حاولت أن تقول له (بدلاً من أن تلعن الظلام أضئ شمعة) فإنه يسخر منك، لأنه لا يملك القدرة على الاستبصار Insight بواقعه ولا يريد لا شعوريًا أن (يعبر) هذه الأزمة التي استسلم لها تمامًا.

فهذا الشخص – مثلاً – الذي عانى في طفولته من الفقر المدقع. فإنه يسعى إلى (تجميع) المال بأي وسيلة وبدون هدف معين. وقد قرأت في رواية البخيل: أن هذا الرجل لا يجد متعته في الإنفاق ولكن في (عد وحصر) الأموال كما أنه اتفق مع ابنته أن الأموال التي يجمعها إذا وصلت إلى حد معين فإنه سينفق ويبدأ رحلة الإنفاق وعندما يقترب من (الرقم



الذي حدده) يبدأ يتراجع ويحدد رقمًا آخر.. وهكذا تستمر هذه (الملهاة/ المأساة) حتى يرحل دون أن يستمتع بأي شيء..

كذلك فإن (المبالغة) في العمل مثلاً قد تكون نوعًا من الشعور أو من عقدة النقص ذلك أن الحياة قائمة على مبدأ (الوسطية) ﴿**وجعلناكم أمة وسطا**﴾، وخير الأمور أوسطها. كذلك فإن الإسلام قد نهى عن التطرف والمغالاة.. ذلك لأن الجسم والعقل والأهل والرب والناس لهم حقوق عليك، والناجح هو من يتقن (لعبة التوازن) بلا إحلال لطرف على حساب طرف آخر.

فالشخص الذي يشعر بعدم (التقدير الاجتماعي) أو (المكانة الاجتماعية) يسعى جاهدًا لأن يبالغ فيما يقوم به من أعمال. علمًا بأن هذا الشعور قد يكون حقيقي، وقد يكون من صنع الشخص نفسه أي متوهمًا. وهذه هي نظرته المتدنية إلى ذاته.

وقد نجد بعض الأفراد ممن يمتلكون صفات ضئيلة في الجمال الجسدي فإنهم يميلون إلى المرح والخفة والدخول المباشر والصادق إلى قلوب الناس. ولعل لو كل منا استعرض بعض الأغنيات عن (البنت السمراء) لوجد ذلك. ذلك لأن مثل هؤلاء الأشخاص أدركوا أن لديهم (نقص) في هذا المجال (البشرة البيضاء) فسعوا إلى البروز في (خفة الروح) ولذلك قالوا في الأمثال الشعبية منذ القدم (يا وحشة كوني نعشة) أي خفيفة الظل والحركة وأن لا تستسلمي لهذه (الوحاشة) بل طوري من شخصيتك باكتسابك خفة الروح لأنك قد حرمتي من نعمة الجمال.

٢- التبرير Rationalization

كل إنسان يريد أن يبدو أمام نفسه وأمام الآخرين إنسانًا لا شائبة عليه، ومن هنا فإن الفرد يلجأ شعوريًا أو لا شعوريًا إلى تبرير أفعاله أمام نفسه أو للآخرين. إما أنه بعبارة – تقديم اعتذار مقبول للنفس أولاً ثم للآخرين ثانيًا.

والتبرير هو محاولة من جانب الشخص لتفسير فعل أو رأي ليس له فعلاً ما يبرره أي استخدام المنطلق العقلي المغلوط لتبرير ذلك دون التعرض – من قريب أو بعيد – للأسباب الحقيقية، لأن ذكرها في العادة قد يجعل الفرد مستهجن في نظر نفسه ونظر الآخرين.

ولذلك يجب أن نفرق – بداية – بين الكذب والتبرير؛ فالأول شعوري يعي به الفرد ويستخدمه في مواقف معينة لكي يحصل على فائدة ما. بعكس التبرير الذي هو لا شعوري ويهدف من ورائه الشخص إلى أن يبدو مقبولاً في نظر الآخرين بغض النظر عن النتائج التي تترتب على ذلك.



والمشكلة أن (الكذب) (ملوش أقدام) كما يقول المثل، وكذلك (حباله طويلة وممتدة) وكلما اكتشف كذب في مكان أو في فقرة سرعان ما يعمد إلى تقديم أكاذيب جديدة. والمشكلة أن الكذب سلوك شائع ومنتشر في جميع الحضارات وبدرجات متفاوتة. وهناك أنواع من الكذب مقبولة وقد تدخل السرور على من يسمعها. فأنت حين تقابل شخصًا ما لم تقابله منذ فترة وتقول له (زارنا النبي – وبالمناسبة هي عبارة شائعة في أغلب قرى ونجوع مصر للذي يهبط فجأة وبدون سابق موعد) فإن ذلك ترحاب بالشخص، وتعبيرًا عن السعادة حتى ولو كانت مزيفة بهذا اللقاء، إلا أنها مقبولة اجتماعيًا. قس على ذلك العديد من العبارات (البليغة) والتي نقولها دومًا لأي ناس نعرفهم، بغض النظر عن درجة وعمق هذه المعرفة.

إلا أن الكذب إذا زاد عن حد معين انقلب إلى ضده، أي تحول الشعوري إلى لا شعوري ولعل في نادرة جحا مثال على ذلك: إذ عندما أراد أن يهرب من عبث الأطفال الأشقياء به. أوهمهم أن هناك وليمة عظيمة ستقام في مكان آخر. وهرع الصبية لإخبار آبائهم. وسارع الجميع إلى الجهة التي كان قد حددها لهم جحا جزافًا. وعندما وجد أن الجميع يهرع اندهش وتساءل: إلى أين يذهبون فأشار إليه أحد الأفراد إلى سبب الركض. فركض خلفهم، بل حاول تجاوزهم حتى يحصل على نصيب الأسد من هذه الوليمة. أما قد نسي أنه هو صاحب هذه الكذبة ولذلك فإن هذه الطرفة على طرافتها توقفنا بطريقة (نفسية وعلمية ومنهجية) كيف يتحول في لحظة الشعوري إلى لا شعوري. فالفرد يكذب ويظل يكذب حتى يصدق نفسه. أما الجوانب اللاشعورية للتبرير فهي كثيرة وتذخر بها أمثلتنا العامية، وليس هذا فحسب بل إنه شائع في جميع اللغات وجميع المجتمعات. بل إنك أحيانًا – إذا تفحصت دراسة التراث لشعب ما من الشعوب – فسوف تجد مثلاً ويناقضه مثلاً آخر. وكل شخص يستعين بالمثل الذي يبرر ما يقوم به من أقوال أو أفعال. فعلى سبيل المثال مثلاً نجد في الأمثال الشعبية المصرية هذا المثل (إن كان لك حاجه عند الكلب – وفي رواية أخرى العبد – قل له يا سيدي) ويناقض هذا المثل، المثل الآخر (بدلاً من أن أقول للكلب (أو للعبد) يا سيدي أقضي حاجتي بيدي). فنجد الشخص في المثل الأول يبرر الذل والمهانة (من الشخص الآخر) وفي المثل الآخر يبرر أيضًا موقفه في تجاهل الشخص الآخر (من تعال عليه، وعدم احترامه) بحجة أنه ليس في حاجة إليه. ولعل هذا التناقض في العديد من الأمثلة الشعبية قد عبر عنه أيضًا في المثل (أفعل أي شيء تقرره، وستجد مثلاً ما سيبرره) وعلى عكس التعويض – الذي سبق الإشارة إليه – فإن التبرير يعمل لتغطية الشعور بالنقص أو عجز في القدرات. فبدلاً من أن يعترف الإنسان بإمكانياته فإنه يلقى التبريرات على الآخرين أو على الواقع الخارجي. فهذا –الأعرج مثلاً يبدو عدم قدرته على الرقص بأن الأكمام قصيرة، أو أن الأرض غير مستوية.



ولذلك فإن حفظ قدراته وعدم إهدارها يدعوه إلى عدم المجازفة بعملية الرقص، وعبر عن ذلك بهذه الأمثال:

- (اللي ما تقدرش ترقص ، تقول الأرض عوجه)
- (إيش حاشك عن الرقص يا أعرج ، قال قصر الأكمام)

أما الحكاية العالمية عن الثعلب والعنب المر فقد نظمها الشاعر العربي قائلاً:

وثب الثعلب يومًا وثبة	شغفًا منه بعنقود العنب
لم ينله قال هذا حصرم	حامض ليس لنا فيه إرب

فالثعلب حين وثب لكي يحصل على (قطفة العنب) وفشل في ذلك فإنه لم يقف مع نفسه وقفة موضوعية على حقيقة إمكاناته وقدراته، وحقيقة الواقع الخارجي. بل جعل العيب في العنب الحصرم المُر ولم يجعله في إمكاناته القاصرة.

كما أن الشاعر العربي صلاح جاهين قد عبر عن ذلك الموقف خير تعبير باللغة العامية إذ يقول:

العنب ده طعمه مُر	قال كده الثعلب في مرة
والدليل على أنه مُر	إنه جوه وأنا بره

إنه نفس المبرر أن هناك مسافة بيني وبين العنب فأنا في جهة والعنب في جهة أخرى ولذلك فلكي أربح وأستريح فإن العنب طعمه مر وحصرم ومن الخطأ أن أبذل جهدًا لكي أتناوله.

والخلاصة أن التبرير حيلة لا شعورية يلجأ إليها الفرد لكي يبدو أمام نفسه وأمام الآخرين إنسانًا لا غبار عليه، كما أن الإنسان حين يلجأ إلى التبرير فإنه لا يدرك العلاقة بين تفسيره وبين واقع شعوره.

والأهم أن نفرق دومًا بين الكذب والتبرير فالأول يكون الفرد على وعي به. والثاني ينتفي الوعي. وأن الخط الواهي بين الكذب والتبرير لا يجب الاعتداد به لأنه قد ينقلب من شعوري إلا لا شعوري.

٣- العدوان Aggression:

يكاد العدوان أن يكون غريزة لدى الإنسان والحيوان. بل إن مؤسس مدرسة التحليل النفسي يعتبرها كذلك، إلا أننا نرى أن العدوان متعلم ومكتسب من البيئة التي يعيش فيها الشخص. فطريقة الضرب أو السب وبألفاظ معينة يتم اكتسابه ويختلف معناه من بيئة إلى أخرى.



والعدوان حيل دفاعية اعتدائية يلجأ إليها الفرد وأيضًا بطريقة شعورية أو لا شعورية فهو الأب الذي يوجه إلى ابنه أشكالاً من العدوان .. بالسب أو الضرب غير المبرح أو الحرمان من أشياء معينة. هذا عدوان واضح وصريح ويهدف إلى هدف معين هو الإصلاح والتنويه.

وأيضًا حثنا الدين الإسلامي على اتباع هذا العدوان الهادف.. فالزوجة الناشز – مثلاً– تلجأ معها إلى عدة أساليب منها النصيحة والإرشاد ثم الهجر في المضاجع وأخيرًا الضرب غير المبرح والذي لا يؤذي ويكون هدفه التهذيب والإصلاح وليس بدافع الانتقام.

كذلك أولادنا يجب أن ننصحهم لسبع سنين بإقامة الصلاة .. ولا نؤذيهم بصورة قاطعة إلا في سن معين . كل ذلك وغيره يهدف إلى تطوير الشخصية وتعليمها أساليب محددة من السلوك القويم.

والعدوان في الغالب وهو – اللاشعوري – يتجه إلى مصدر سبب لك الإعاقة أو أحدث لك تأزمًا، وإذا لم يدرك الفرد هذا الموقف ورد الفعل فإن النتائج تكون وخيمة. وإذا لم يتعلم كيف يتعامل مع انفعالات الغضب والعدوان فإنه قد يندفع في طريق لا رجعة منه إلا بالندم، حيث لا يفيد في كثير من الأحيان.

ولعل خبرة الشعوب بهذه الحيلة.. وكيف أن الكثير يستسهل تفريغ العدوان بلا رادع أو ضابط، وأن الفرد في (هوجة) عدوانه قد يظلم أفرادًا لا ناقة لهم فيه ولا جمل، نجد المثل الشعبي الشهير يقول:

(مالقوش عيش يتعشوا بيه ، جابوا عبد يلطشوا فيه) فبدلاً من أن يوجهوا عدوانهم إلى من تسبب في أزمة الخبز وإشباع الحاجات الفسيولوجية الضرورية، نجد مثل هؤلاء الأشخاص قد اتفقوا بطريقة لا شعورية على توجيه عدوانهم إلى الأخ (عبد) لكي يفرغوا فيه توتراتهم حتى يعود الصفاء النفسي والذهني لهم، وهكذا يعتقدون كذلك قد يتجه العدوان إلى الجمادات، فهذا الرجل الذي تعطلت به سيارته فجأة في منتصف الطريق، وبالكشف وجد أن هناك نقص في الزيت أو المياه أو الوقود، وبدلاً من أن يعترف بخطئه بعدم (التشييك) أو الفحص المعتاد قبل أن يقود السيارة نجده يصب جام غضبه على السيارة أو إطاراتها أو يسب من معه ويتهمه بأنه السبب لأنه كان في عجلة من أمره. وكل ذلك قد يصرفه عما يجب عليه فعله.

ولذلك قالوا في الأمثال أيضًا (العطشان يكسر الحوض) فالرجل إذا لم يجد ماء يشبع به غايته، نشأ لديه التوتر، وقام بالبحث عن الماء فإذا وجد الإناء فارغاً فإنه يقوم بتحطيمه، ولذلك فإن العدوان يذهب بعقل المرء ويجعله يتصرف بصورة عشوائية فجة بدائية.



وقد نجد بعض الأفراد لديهم توتر معين هم عاجزون بطبيعتهم عن التعبير عن هذا الغضب نتيجة وجود قلق زائد أو خوف (فوبيا) اجتماعي من مجرد التواجد مع الآخرين. وبالتالي فإن حقوقهم تستباح دون أن يصدر عنهم أي رد فعل تجاه الشخص الذي سلبهم هذه الحقوق. ولكن يظل العدوان بداخلهم كالجذوة المشتعلة والتي تمزقهم من الداخل فنجد مثل هؤلاء الأشخاص يلجئون إلى الإدمان وهو نوع من العدوان على الذات، بدلاً من أن أدمر الآخر بنفسي؛ إذ إن الآخر دائمًا ما يكون عكازي الذي استند إليه وقت الشدائد. أو قد تزداد عدوانية الشخص على نفسه فيصل إلى درجة الانتحار والتخلص من هذه الحياة التي لا تستحق أن تعاش. وإذا كنا نجد أن الإنسان الخجول أو الذي يعاني من الخوف الاجتماعي يصب عدوانه على نفسه مثله مثل الشخص الاكتئابي، فإننا نجد أن هناك فئات أخرى من الناس أصلح على إطلاق لفظ (سيكوباتيين أو ضد المجتمع) فإنهم يوجهون عدوانهم على الآخرين، إنهم يرتكبون الجرائم ويروعون أمن الناس دون أن يدهس لهم طرف. كما أنهم لا يستفيدون من أخطائهم ويكررونها بصورة لا ابتكار أو إبداع – إن جاز التعبير في هذا المقام – كما أن الردع لا يصلح معهم بل على العكس يكون العقاب أحيانًا مبررًا لهم على الاستمرار في الأفعال العدوانية. طالما أنا أؤذي الآخرين، وقد أخذت عقابًا فلما لا أستمر في ذلك. وندخل في الدائرة المغلقة. وحتى هذه اللحظة ما زال الطب النفسي يقف عاجزًا أمام هذه الفئة (Antisocial) أي ضد المجتمع.

وأخيرًا قد يلجأ الإنسان إلى تصريف عدوانه وتوتراته في أشياء تافهة ليس لها أي علاقة بموضوع التوتر. فنجد شخص ما يتابع ذبابة معينة قد ألقاها حظها التعس في غرفته فإذا به يتحفز ويترك كل ما يشغله أو يستدعي قواته ويقوم بمهاجمة هذه الذبابة (المسكينة) والتي روعت أمنه وهددت استقراره.

ولقد استطاع حكماء الشعب من خلال أمثلتهم التعبير عن هذا الموقف إذا يلخصونه في هذا المثل البليغ (دي مش دبانة، دي قلوب مليانه) أي أن العدوان يكاد أن يفيض داخله، ومن ثم فإنه يتعامل بعنف مع أشياء قد يكون لا دخل لها في ما آلت إليه أموره.

والخلاصة أن العدوان من الحيل الاعتدائية التي قد يلجأ إليها الشخص شعوريًا أو لا شعوريًا ونجد أن الشخص قد يوجه عدوانه إلى نفسه، أو إلى الآخرين، إلى أشياء تافهة ليس لها أدنى علاقة بتوتره، وأن هناك علاقة بين العدوان على الذات والعدوان على الآخر ولذلك قال.. (انك بقتلك الآخر إنما تقتل نفسك).



٤- الإسقاط Projection:

كل إنسان لديه متغيرات وعيوب ولكننا نجد من النادر أن يعترف الشخص بعيوبه ويحاول علاجها أو لا يجعلها – على الأقل – سببًا لعدوانيته ونقمته على نفسه وعلى الآخرين.

إلا أنه في الإسقاط يرفض الشخص الاعتراف بأخطائه وعيوبه وليس هذا فحسب بل يسقط ذلك على الآخرين ويتهمهم بأنهم هم – ولست أنا – أساس ومصدر هذه الأشياء.

ولعل حكمة الدين الإسلامي قد جعلت الإنسان يقف وجهًا لوجه أمام نفسه وأن يتعرف على أخطائه وعيوبه أولاً بأول ويحاول إصلاحها حتى لا تتراكم، ومن ثم يكون علاجها – فيما بعد يستغرق وقتًا طويلاً.

فحساب النفس في الإسلام معروف، وهو واجب يجب أن يتم يوميًا وأن يقوم فيه الشخص بظاهرة (الفلاش باك) أي يستعرض مجمل أنشطته خلال يومه – ويتم ذلك قبل أن يبادر الإنسان في النوم– وسوف يظهر من خلال شاشة العرض.. أحداث هذا اليوم، وما تم فيه من أكاذيب ومظالم وأعمال سيئة أو جيدة، ثم بعد ذلك تبدأ الخطوة الثانية وهي خطوة التقييم ومحاولة الإصلاح... وكلما تم ذلك في وقت مبكر كان ذلك أفضل.

وهذه حقيقة لأن العقد النفسية تتكون لدى الشخص من خلال تراكم الخبرات المؤلمة يومًا بعد يوم حتى تصل إلى ما يشبه (التل) الذي نجد من الصعب زحزحته ولذلك (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم) هو قاعدة إسلامية نفسية موضوعية تقي الإنسان من أن يلقي التهم جزافًا على الآخرين.. حتى يتعايش في سلام مع نفسه لأن هذا هو الأهم، ثم مع الآخرين فيما بعد.

وأحسب أن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه هو قائل العبارة السابقة، والخاصة بمحاسبة النفس ووزن الأعمال قبل أن نصل إلى يوم لا ينفع فيه إصلاح.

ولذلك فإن الإسقاط هو حيلة لا شعورية يقوم بها الشخص بإلقاء اللوم عن نفسه وإلصاقه بالآخرين، ولذلك يشعر بالراحة لأنه تحرر من المسئولية أو بمعنى آخر قد قذف بالكرة إلى ملاعب الآخرين سواء كانوا من المشاركين أو لم يكونوا.

ولو استعرضنا العديد من الأمثلة في حياتنا لأناس نعرفهم أو لسلوكيات بعضنا – وهذا يحتاج إلى درجة من اليقين بما يجول في النفس – فإننا نجد مثلاً أن البخيل لا يمكن أن يعترف بذلك بل يقول أن الآخرين هم البخلاء ولست أنا.



كما أن الشخص الذي يتشكك في إمكانياته الجنسية دائمًا ما يتهم زوجته بأنها تخونه مع غيره، ولذلك جاء في الأمثال (زاني ما يأمن لمراته) كما أن الطالب الذي يرسب في الامتحانات نادرًا ما يعترف أن التقصير كان السبب الرئيسي له – بل نسمعه يقول أنه رسب لأن الملاحظين عليه في الامتحانات كانوا متشددين أو من الديانة الأخرى وأنهم يكرهوننا ولا يريدون أن ننجح. والمشكلة أن هؤلاء الأشخاص قد يجدون من يصدقهم وبالتالي الاستمرار في لعبة إسقاط العيوب والأخطاء على الآخرين.

ولذلك قالوا في الأمثال "أن حجة البليد (أي التلميذ الفاشل) مسح السبورة" فما دام المدرس بعد أن شرح الدرس وانتقل من عنصر إلى آخر واستدعى ذلك منه مسح السبورة تمهيدًا لكتابة العنصر الآخر فإن التلميذ يصرخ بأنه لم يفهم الدرس الأول ما دام هذا المدرس المسكين قد قام بمسح السبورة.

والإسقاط عمومًا يشوه الرؤية الموضوعية المنهجية للعالم الخارجي، وإنما يعكس بعضًا من نفسه في هذه الرؤية، فنجد شخصًا ما مرتش أو يمارس الاحتيال والنصب وتسأله عن ذلك فيأخذ في حصر فلان وعلان وترتان يقومون بالنصب من كل العالم مرتشين ومحتالين، ولذلك فإن الشاعر العربي قد أحسن حين وصف هذا الموقف قائلاً.

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا

كما أن الإسقاط نجده عادة يومية والمفروض أن يتم بصورة ضئيلة أما إذا تزايد فإنه قد يصل إلى درجة من الهذيان والضلالات التي نجدها في صورتها الفجة عند من نسميهم جزافًا "المجانين" فهناك ضلالات العظمة (كأن يظن الشخص أنه هتلر أو نابليون مثلاً ويسير في أقواله وأفعاله على هذه الشاكلة) أو يعتقد أن الآخرين يضطهدونه ويتحدثون عنه ويكيدون له المكائد ويدبرون له المؤامرات.

وما سبق هذا أمثلة واضحة على رؤية الإسقاط في صورته الفجة والتي تصل إلى درجة الاعتقاد اليقيني بالإنكار التي سيطرت عليه ولا يجد منها مناصًا أو فكاكًا.

والإسقاط عمومًا يحمي الشخص من رغباته المستهجنة، فأنا حين أسقط رغباتي على شخص معين أو مكان ما فإن ذلك يولد لدى الراحة وأستطيع أن أمارس لعبة الهروب من الشخص أو المكان الذي أسقط فيه أو عليه رغباتي المستهجنة هذه أما إذا ظلت هذه الرغبات داخلي فإن عملية الهروب تكون مستحيلة؛ لأن هذه الرغبات تعاود الدق وتكدر حياتي ولذلك يقول الشاعر الغنائي معبرًا عن ذلك :

أهرب من قلبي أروح على فين ليالينا الحلوة في كل مكان

مليناها حب إحنا الاتنين وملينا الدنيا أمل وحنان



وأخيرًا فإن الإسقاط لا يقتصر على الأفكار السيئة والأخطاء الشخصية بل قد يكون – وإن كان ذلك يتم بدرجة أقل – إسقاط لصفات طيبة، فالكريم والشجاع والحليم يقطعون صفاتهم هذه على الآخرين، ويظنون أن الآخرين يشاركونهم نفس صفاتهم، وقد يصل هذا الإسقاط إلى درجة السذاجة. وما الصعيدي الذي اشترى الترماي من رجل بندري يعيش في القاهرة إلا مثالاً صادقًا لهذا الإسقاط للصفات الطيبة على الآخرين، فما دمت أنا صادقًا ولا أكذب على الآخرين فإن الآخرين كذلك، وهي مقولة خاطئة عبر عنها المثل الشعبي تعبيرًا صادقًا حين قال: "حرص ولا تخون" لأن الشخص الطيب حين يصدم بالواقع المُر فإنه قد ينقلب إلى الضد ويغير اعتقاده بأن الآخرين خونة ولا يفر من جانبهم بدلاً من أن يعترف لنفسه بسذاجة أفكاره ويدخل في لعبة التمويه على الذات.

٣- التوحد Identification

يلعب التوحد دورًا هامًا في حياة الأشخاص وكذا حياة الشعوب، فعلى مستوى الأفراد نجد الطفل الصغير يتوحد بشخصية والده ويقلده في كافة تصرفاته أثناء الطعام أو الكلام أو ارتداء الملابس... إلخ. ولعل ذلك يساعد الطفل على النضج والتطور، كما أن الشعوب أيضًا تتوحد أو تقلد بعض الشعوب الأخرى خاصة في أمور الصناعة أو الزراعة أو الفكر .. وهي قضية معقدة ومتشابكة ولها العديد من المداخلات. وقد ذكر ابن خلدون شيئًا عن ذلك في مقدمته من أن الشعوب المغلوبة أو الضعيفة غالبًا ما تحاول تقليد الشعوب الأكثر منها رقيًا أو التي تحتلها. لذلك نجد مصطلح "التوحد بالمعتدي" خير مثال على ذلك مثل توحد الشعب اليهودي بالمعتدي الألماني وما كان يفعله فيهم من إحراق في الأفران وتعذيب وتشريد.

وإن كانت آلة الإعلام اليهودية قد ضخمت ذلك إلا أنهم في نفس الوقت قد تقمصوا الشخصية المعتدية وتعاملوا مع الشعب الفلسطيني – صاحب الأرض- أبشع معاملة، كما أننا نجد التوحد واضح وضوحًا بينًا في الحب والعشق، ولعل استعراض بعض الأشعار لبعض المتصوفين يجد ذلك، إذ يذوب المحب في محبوبته، ولا تستطيع أن تفرق بين هذا وذاك لأنهما قد التحما في غطاء واحد (في) كيان واحد.

فهذه رابعة العدوية تقول في أحد أشعارها :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا	نحن روحان قد حللنا بدنا
إذا أبصرتني أبصرته	وإذا أبصرته أبصرتنا

كذلك نجد مظاهر التوحد حين يندمج قارئ رواية معينة ببطلة القصة ونجد قلبه يزداد رجيفًا أو يضحك أو يحزن تبعًا لأحداث الرواية والتي تسيطر على كيانه جاعلة إياه متوحدًا غير مفرق بين ذاته والذات الأخرى. كذلك نجد نفس الشيء في بعض الذين يشاهدون الأفلام



السينمائية أو حتى المسلسلات التليفزيونية.. من توحد ببطلة الفيلم أو المسلسل ويبدأ التجاوب الانفعالي معها تبعًا للأحداث.

وقد يتوحد الآباء بشخصية أبنائهم، مثلما هو الحال بتوحد الأبناء بآبائهم ولعل هذا التوحد يساعد الآباء على تفهم شعور أولادهم حين يجابهون موقفًا من المواقف السارة أو المؤلمة.

كذلك نجد المشاركة الوجدانية واضحة في مواقف الطبيب – خاصة طبيب الأمراض النفسية – في محاولته مشاركة المريض النفسي فهم عذاباته والاستماع إليه وذكره إياه: أنه يعلم جيدًا كم معاناته.

ولذلك لو أردنا توظيف هذا "الميكانيزم" توظيفًا حسنًا، فيجب أن تبرز وسائل الإعلام – في أي مجتمع – النجوم التي نريد أن يقتدي بها الشباب، طالما أن عملية التوحد هذه مستمرة وممتدة. وقد تتوحد بشخصية والديك في سنين عمرك الأولى ثم بعد ذلك تظل تتوحد بشخصيات أخرى إلى ما لا نهاية.

فالتوحد مستمر – ومن هنا يجب "تلميع" النماذج التي يجب الاقتداء بها فقد نعلم شخصية لاعب كرة مثلاً. ونظل نذكر أو ندقق على وسائل الإعلام إبراز هذه القيمة فإذا بالشباب يهمل دراسته، ويطلق شعر رأسه ويريد أن يصبح نجمًا في الكرة. كذلك قد يقدم المجتمع متناقضة إذ "يلمع" شخصية ممثل معين. هذا الممثل يظهر دومًا في وسائل الإعلام أو في اللقاءات التليفزيونية بأنه يدخن .. فينتشر التدخين ثم ندق على وسائل الإعلام أن توضح للناس أن (التدخين ضار جدًا بالصحة) كل ذلك وغيره من أمثلة سلبية أو إيجابية إنما ينطلق من مقولة شهيرة مؤداها "إذا كان رب البيت بالدف ضارب فشيمة أهل البيت الرقص" ذلك وأن الرقص هنا هو السمة الغالبة ولذلك ينتشر هذا السلوك – بغض النظر عن المسميات – بل ويصبح طابعًا قد يصل على درجة "الطابع القوي" لشعب من الشعوب.

جانب آخر سلبي من جوانب التوحد هو الوصول بالشخص الذي تريد التوحد به أو تقليده إلى مرتبة سامية إن لم يكن التقديس. فهذا الشخص كله ميزات، والعيوب لا تمسه لا من قريب أو بعيد. ولعل المثل الواضح على ذلك أن الفرد حين يحب فإنه يتغاضى شعوريًا ولا شعوريًا عن عيوب الطرف الآخر. لذلك حين قال عمر ابن أبي ربيعة "حسن في كل عين ما تود" فإنه كان يقصد إغفال العيوب وإبراز الحسن وإرضاء لنزعة الحب. بل قد يصل الأمر بالفرد إلى المبالغة بحيث لا يرى حسنًا في الوجود ولا تكاملاً إلا في المحبوب؛ إذ نرى قيس ابن الملوح (مجنون ليلى) يقول في محبوبته والتي هام بها حبًا ولم ير امرأة أخرى في الوجود غيرها "محب لا يرى حسن سواها" أي أنه قد نفى أي صفات للحسن، بحيث إنه قد اختزلها



في محبوبته، وبالتالي لم ير واحدة في الوجود ذات حسن أو جمال إلا محبوبته. حتى الخبرة الشعبية قد اكتشفت هذه الحقيقة في قولهم "مراية الحب عمياء" وكذلك في هذا المثل "خنفسة شافت ولدها على الحيط، قالت دا لولي في خيط" وليس هذا فحسب بل إن "القرد في عين أمه غزال" وهي أمثال تعبر كيف أن الإنسان حين يريد الدخول أو تورط فعلاً في اتجاه أو أيديولوجية أو مع شخص معين فإنه يتعامى عن الحقيقة الموضوعية ويظل منشغلاً بقضية: إنني على حق إنني على صواب. وهذا هو عين الخطأ.

٤- الإعلاء Sublimation

الإنسان يولد وهو مزود بمجموعة من الغرائز لا بد من إشباعها حتى تستمر حياته. ولعل أشهر هذه الغرائز، غريزة الجوع والجنس، فالأولى لا بد من إشباعها حتى تستمر حياة الفرد، والثانية ضرورية لاستمرار النوع والبقاء، هذه الغرائز موجودة لدى الإنسان والحيوان، إلا أن الفارق سيظل قائمًا بين إشباع الغرائز لدى الإنسان وطرق إشباعها لدى الحيوان.

فالحيوان يسعى إلى الإشباع الفوري ولا يعرف التأجيل، وهو نفس الأمر الذي نجده لدى الإنسان في أطواره المبكرة.. فالطفل لا يعرف التأجيل، ويريد الإشباع الفوري لدرجة أنه يريد أن يطبق القانون الإلهي "كن فيكون" ولكن مع مرور الأيام وتراكم الخبرات يكتسب عادة التأجيل أو الإشباع أو حتى الإلغاء لبعض الرغبات أو النزعات المستهجنة والتي إذا حاول إشباعها أو حتى الجهر بها فإنه يقابل بالصد والنفور أو حتى العقاب الجماعي. والمجتمع الإنساني قد حدد الطرق واستراتيجيات هذا الإشباع سواء إشباع غريزة الجوع أو العطش أو الجنس أو حتى العدوان.

وهنا نجد أنه في الإعلام يقوم الفرد بالتسامي بغرائزه الفجة ويصل بها إلى درجة من التهذيب والرقي الإنساني. وأنا أرى أنه لولا الإعلاء ما قامت الحضارة الإنسانية. فلو كل فرد سعى جاهدًا إلى إشباع غرائزه الفجة فقط بصرف النظر عن نتائج هذا الإشباع.. لو تصورنا العالم كذلك فسوف تتحول الإنسانية إلى غابة القوي يأكل الضعيف، وكل فرد ينتهز الفرص لافتراس الآخر.. ومن ثم لا يكون هناك وقت لدى الجميع للاستقرار أو حتى لتطوير الحياة الإنسانية إلى الأفضل.

فالعالم الذي يعتكف في معمله بالساعات من أجل التوصل إلى اكتشاف علاج لمرض معين، قد لا يكون هو مصاب بهذا الداء، ولا حتى أحد من أقاربه إلا أننا بلا شك نستفيد كأجيال تعاصره أو تلاحقه من هذا الاكتشاف هنا نجد هذا العالم قد مارس نوعًا من التسامي والرقي والإعلاء بغرائزه، وعكف على دراسة اختراعات أو اكتشافات قد يوفقه الله إليها تفيد البشرية جمعاء.



كذلك الأديب يتسامى بغرائزه وينجح في تصوير مداخل ومتاهات النفس الإنسانية بحيث إننا نجد في الرداء أو العمل الأدبي (بغض النظر عن جنسه) مرآة عاكسة لكل ما يعتمل في النفس الإنسانية من إحباطات وأحلام وأماني.

وأيضًا رجل المصارعة والذي حول قوته الجسمية الخارقة في رياضة مقبولة من الجميع وتجد الاستحسان، يكون بلا شك قد تسامى بدوافعه وغرائزه أفضل من أن يعمل "قاطع طريق" يروع أمن البشر ويحيل حياتهم إلى جحيم.

وهذه النماذج التي تسامت بغرائزها نجدها في العديد من المجالات، وقد لا يستفيد العالم أو المخترع أو المكتشف من اكتشافه بقدر استفادة الآخرين من ذلك. ولعل تجارب رواد الفضاء وما يحتمل أن يتعرضوا له في الفضاء الخارجي من مهالك قد تودي بحياتهم لهو أبرز وأنصع الأمثلة على التسامي بالغرائز ونفض الكسل والحذر إلى التكاسل، بل المغامرة بالنفس من أجل اكتشافات تفيد الإنسانية.

والمشكلة أن بعض علماء النفس يشكك في قيمة الإعلاء، ويذكرون أن بعض الأفراد حين يفشلون في موقف معين فإنهم بدلاً من التسليم بالفشل فإنهم يخلدون إلى العمل الدءوب.

وكأن هذا العمل يعكس تطرفًا مرضيًا عجز الفرد عن حل معضلاته حلاً مرضيًا، فالذي فشل في الحب قد يتجه إلى الأدب أو الغنى، وبذلك يستطيع التعبير عن مشكلته تعبيرًا أدبيًا أو فنيًا فيجد صداه الممتع لدى الآخرين، ونحن نرى أن هذا سلوك لا غبار عليه، وأن الفرق بين الأدب أو الفن الغث والأدب أو الفن الراقي هو في درجة توحد الأديب أو الفنان وقدرته على تحويل الخاص إلى عام. صحيح أنه قد يفشل في تجربة الحب أو الزواج – وهذا شيء وارد – إلا أن المشكلة تظل في تحويل هذه المأساة الإنسانية المتكررة إلى تجربة إنسانية بحيث يستطيع أي شخص حين يقرؤها أو يسمعها أو حتى يشاهدها فإنه يؤكد لنفسه أن هذه حكايته أو قصته أو مأساته.

كذلك فإن الرجل أو السيدة التي حرمت – من نعمة الإنجاب – فإنها تستطيع أن تتسامى برغبتها، وتشبع دافع الأمومة لديها بأن تعمل مثلاً في دور الحضانة أو التدريس أو حتى الملاجئ. وهذا لا شك سلوك أفضل من أن تستسلم لليأس والحقد ويأكل بعضها بعضًا.

كذلك نجد الإعلاء في الأفراد الذين يعتنقون مبادئ معينة ويؤمنون بها وبقيمتها للإنسانية، ويدفعون حياتهم ثمنًا لها.. أمثلة ناصعة تزخر بها سجلات الإنسانية. فهذا سقراط رفض فرصة الهروب التي وفرها له مريدوه وهو في السجن وفضل أن يتجرع السموم إيمانًا منه بمبادئه بدلاً من أن يقول الناس أو الحاقدين عليه أنه هرب. وتاريخنا الإسلامي يفيض



بالأمثلة والبطولات النادرة لأفراد آمنوا بالله ربًا وبمحمد نبيًا وضحوا بكل شيء من أجل المبدأ الذي آمنوا به، ودافعوا عنه، وهانت من أجله النفس والمال والولد.

فالإنسان خليفة الله في الأرض، ومن ثم يجب أن ينطلق ويتسلح بسلاح العلم والعمل من أجل أن ترتقي بالحياة الإنسانية وتصبح أكثر إنسانية وعدلاً وحبًا، ولن يتأتى ذلك إلا بعد أن يرتقي الإنسان بغرائزه ويسمو بذاتيته بحيث يتسق مع الآخرين في بوتقة واحدة.

٥- الإنكار Denial

يعد ميكانيزم الإنكار من الوسائل التي تصور أصدق تصوير حالة الهروب. فكما ذكرنا لا بد أن يتعرض أي إنسان لصراع قائم بين قوتين، قوة تدفعك إلى أن تفعل شيء، وقوة أخرى – أحيانًا بنفس القوة – تدفعك إلى أن تفعل شيئًا مغايرًا تمامًا للفعل الأول. هذا الصراع الدائر رحاه ليل نهار داخل النفس الإنسانية إنما يصور حقيقة إلهية يجب أن نسلم بها، ونتعامل معها بواقعية بدلاً من اللجوء إلى أساليب التخفي والهروب من الإنسان، فالله خلق الإنسان ليعيش في كبد أي في مشقة وتعب، ومن مظاهر هذا الكبد والمشقة هو أن يعايش الإنسان الصراع.

والإنكار هو باختصار إنما يعني إغفال (وتطنين) إحدى القوى التي تشترك في الصراع لدرجة الاعتقاد أنها غير موجودة أصلاً، في حين أن الواقع عكس ذلك.

فالفرد فينا يتعرض لرغبتين متناقضتين كأن يشبع رغباته الشخصية غافلاً – هذا التجاهل له درجات ويبدأ من البسيط وينتهي إلى الإغفال التام – قوانين وعادات وتقاليد المجتمع. وهذا يحدث تعارض بينه وبين الآخرين، إلا أنه ينكر ويتجاهل ولا يربط بين الأضرار التي حاقت به وبين ما يقدم عليه من سلوكيات يهدف فيها إلى امتصاص اللذة الحسية لحسابه الشخصي فقط.

ولعل قولنا (كالنعام يدفن رأسه في الرمال) أصدق تعبير عن هذا الميكانيزم إذ حين يهاجم، يدفن رأسه (أي يتجاهل) ظنًا منه أنه بهذا الفعل قد أنكر ومحا الجانب الآخر من الوجود، رغم أن الواقع يصرح بغير ذلك.

ولعل قصة أي مدمن خير مثال على استخدام هذا الميكانيزم، فالمدمن قد يتعاطى المخدرات لأسباب متعددة، ونتيجة لعوامل عدة يتحول من "مجرد هاو يريد الاستطلاع "إلى" مريض يتناول المخدر بهدف عدم التعرض لآتون الآلام الناتجة عن التوقف عن المخدرات، أثناء هذه الرحلة الطويلة لا بد أن يحدث اضطراب في مختلف جينات حياته مهما كانت درجة مهارة الفرد وقدرته على التخفي لا بد أن يأتي اليوم الذي (يتكشف فيه للآخرين) وتبدأ ضغوط الواقع تنهال فوق نافوخه، أو أن تفارقه إلى الأبد. لكن هذا الصراع – كما أوضحنا – يتجاهله



المدمن ويعتقد أنها مجرد (هلوسات) مآلها الانقشاع بإذن الله، وهنا تتضح الصورة أكثر؛ إذ ينكر ويتجاهل ويتعامى، رافضًا أبدًا أن يربط بين الأضرار التي بدأت تنهال عليه وبين تعاطيه المخدر، معتقدًا أن هذا طريق، وهذا طريق آخر، في حين أن الواقع غير ذلك. بل يصل أحيانًا الأمر إلى درجة التجاهل التام لمشكلة تعاطي المخدرات، والظن بأن اضطراب الأسرة، والديون، والفصل من العمل، والتعرض لتجربة السجن ما هي إلا أحداث منفصلة تمامًا، وأن المخدر بريء منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب. ولا أريد أن يعتقد القارئ أن "الإنكار" قاصرًا فقط على المدمنين.. بل أنت في الواقع تستخدم هذا الميكانيزم بدرجات متفاوتة.. ونحن لا ننكر أيضًا أن الاستخدام القليل له مفيد؛ لأنه يؤدي إلى تجنب الألم مما يساعد على التوافق، كما أنني حين أنكر مؤقتًا صراعًا ما.. إنما يكون بهدف التأجيل ريثما أستعيد وعي وقواي العقلية.. وأبدأ في المبادرة باقتراح أفكار وحلول جديدة لمواقف الصراع التي أتعرض لها.

لكن الاستمرار في خداع النفس أو الهرب من الواقع لا يفيد على الإطلاق بقدر ما يعقد علاقات التواصل بين الفرد ونفسه ثم بينه والآخرين الذين يتواجد معهم.

وإذا اعتبرنا الإنكار نوعًا من الهروب فإننا نتفق مع ضرورة أن يكون هذا التجاهل بهدف وبقصد، وليس هروبًا عشوائيًا.

والمتتبع لبعض سير المعارك الحربية يجد هذا النموذج الجيد من الهروب. فكفار قريش – مثلاً في موقعة أحد حين تأكد نصر المسلمين في البداية– وأثناء هروبهم اكتشفوا أن المسلمين قد تركوا مواقعهم. وتعجلوا تقسيم الغنائم، التفوا إليهم من الجهة المقابلة وغيروا نتيجة القتال لصالحهم.

ولذلك قالوا في الأمثال "الهروب نص الشطارة" لأنك حين تتعرض لموقف لا تستطيع مواجهته لا بد أن تهرب، لأنه من العار عليك أن تموت بعد أن قدرت خطورة الموقف.. وهذا يعتمد على درجة الذكاء والفهم وتوقع واستشراف النتائج.

أيضًا هناك مثل آخر يعجبني – والأمثال هي تبر الشعوب وحكمتها الخالدة – يقول: "إن جار عليك جارك، حول باب دارك" فالمرونة في التعامل مع الأحداث، مع عدم التطرف في الاستجابات العدائية أو حتى الحبية.. كل ذلك هام ومفيد لاستمرار التوازن بينك وبين الآخرين.

والخلاصة أن الإنكار وسيلة دفاعية انسحابية / هروبية عادية وشائعة، ولها درجات، قليل من الإنكار يفيد في تجنب الألم، والقدرة على التوافق بهدف التأجيل حتى يستجمع الإنسان شتات نفسه، ويكون أكثر احتمالاً لهذه المصاعب، أو المصاعب المتوقعة (يعبر عن ذلك بالمثل الشعبي: "اللي تعرف ديته اقتله"، أما إذا زادت شدة الإنكار.. فإن المريض بالضبط



يصبح كالعريان.. يرى الجميع عوراته، وهو يعتقد أنه يرتدي أفخر الثياب، بل ويقنع الآخرون بجمال هندامه ومظهره.. وقد يصل الإنكار إلى درجة أن يعتقد الشخص أو ينكر وجود عضو من أعضاء جسده، وهذه علامة بإصابة الفرد بأحد الأمراض الخطيرة. كالفصام أو الاكتئاب الشديد. لكن هذا قصة أخرى.

٨- الكبت :

- الكبت يعني باختصار : المنع أو الاستبعاد أو النفي.

- وهو حيلة أساسية ركيزة تنهض عليها ومنها كافة الحيل الدفاعية.

- ويلعب الكبت دورًا هامًا في تطور الشخصية الإنسانية ويعني عملية لا شعورية أو لا إرادية بنفي أو استبعاد كافة الأفكار والخبرات والمشاعر المؤلمة من الوعي والشعور بها إلى دائرة اللاشعور أو النسيان. وهنا نقول بأن الكبت هام جدًا في أن "يتناسى" الإنسان كل همومه والأشياء التي تكدر صفو حياته أو تجعله يحتقر ذاته – ينفي الكبت كل هذا حتى يركز الإنسان في واقعه وحاضره.

ومشكلة المشاكل في الكبت أن "هذه المشاعر والأفكار والخبرات التي كبتت واستبعدت" تظل تجاهد وتقاوم من أجل إعادة الظهور مرة أخرى إلى السطح، وهذا يحتاج من الشخص إلى طاقة نفسية لكي تستمر "المكبوتات" خارج نطاق الوعي بها.

وقد تنجح هذه المكبوتات في أن تبعد عن نفسها في مواقف عدة قد يكون الإنسان ضعيفًا فيها أو غير فكرته وهنا تظهر في الأحلام – والتي قد تتحول إلى كوابيس تسبب الانزعاج المؤلم للشخص، أو قد تظهر في "فلتات اللسان" أو "زلات القلم". فرئيسك في العمل مثلاً قد عرضك لبعض الخبرات المؤلمة. فتجد نفسك لاحتياجك إلى العمل – أن تكتسب هذه الخبرة وتزيحها في بؤرة اللاشعورية يتم ذلك كما تؤكد لا إراديًا– إلا أن هذه الخبرة المؤلمة كجمرة النار المتقدة ما أن يلغها أي حير أو حتى قليل من الهواء حتى تشتعل وتتزايد، فتجد نفسك – لا إراديًا – أثناء حديثك معه وقد "زل لسانك" وقلت له كلمة لا تتبينها في حينها.. وتظل تتساءل كيف قلت ذلك، ولعل واقعة القاضي الذي كان متضايقًا من عمله ولا يريد الاستمرار فيه لظروف عدة بدلاً من أن يقول بسم الله نبدأ الجلسة ذكر "بسم الله نعلن انفضاض الجلسة" خير مثال على ذلك.

ولو راجع كل منا نفسه لوجد العديد من المواقف التي تعرض لها لمثل هذه المواقف بأن تريد أن تقول شيء، وغصبًا عنك قلت شيء آخر.. ولو دققت النظر قليلاً في المضمون، وطبيعة علاقتك بالشخص نفسه فسوف تتوصل إلى "عقدة" قد تسببت في ذلك نتيجة لوجود



موقف أو مواقف مؤلمة صدرت من هذا الشخص نحوك سواء أكانت فعلية أم نقلت إليها النميمة.

وليس ما ذكرته آنفًا من الكبت، لأن هناك أيضًا العديد من المواقف التي يظن فيها "الكبت وأفعاله واضحًا – تجد في الأمثلة السابقة التي ذكرتها من زلات اللسان والقلم أو الكوابيس المؤلمة أثناء النوم".

- فالرجل الذي ينسى عيد زواجه، لا بد أن يكون لذلك معنى، ولو راجع العلاقة في العام الماضي بينه وبين زوجته سيجد بلا شك بعض المواقف المؤلمة التي حدثت وكبتها وظن أن الأمور قد انتهت عند هذا الحد إلا أنها للأسف تتفاعل بداخله، وتجعله يقدم على تصرفات قد لا يدرك مغزاها.
- نسيان موعد طبيب الأسنان، نتيجة تجارب مؤلمة معهم سواء "خلع ضرس" أو "رفع عصب" أو حشو أو حتى تنظيف، وأزير الماكينة المزعج.. كل ذلك وغيره قد يكون سببًا – لا شعوريًا – يقود إلى النسيان.
- حتى المدرس الذي ينهال بالضرب والتقريع لتلميذ معين قد أهمل في واجباته أو يكون هذا المدرس قد بالغ في العقاب، أحيانًا حين نفتش في تاريخ حياة الشخص نجد أنه نتيجة لهذا الموقف لأنه خربه وسخر منه وضحك زملاؤه عليه في الفصل قد نجده لا يكره فقط هذا المدرس بل يكره جميع مدرسي المادة. وقد تكون سببًا في رفضه بلا سبب مقنع – إكماله للدراسة.
- كذلك فجأة قد يقابلك شخص ما، ارتبطت به أو عشت معه ذكريات معينة في فصل ما من حياتك.. تنسى اسمه تمامًا.. وتظل "تعصر" مخك بلا طائل.. وهذا يحدث لنا كثيرًا حين نتذكر تواريخ أو أشخاص أو أماكن معينة كانت لها – بدون وعي منا – ذكريات سيئة، ولكن حدث لها كبت، فظلت تتفاعل داخلنا، وتؤثر في سلوكنا دون أن ندري.

ولكن أرجو أن لا يفهم من كل ما سبق أن الكبت أو النسيان نقمة ولكن الكبت أو النسيان "نعمة" في بعض المواقف، بشرط أن نتعامل مع الموقف، وندرسه من كافة الجوانب، بل نواجه الشخص الآخر بحقيقة سلوكه، ولماذا فعل ذلك.. كل هذه "المصارحة" أو "العتاب" يخفف من "الشحنة الانفعالية المصاحبة" مما يجعلك لا تلجأ إلى الكبت ثم بعد ذلك نجد أنه من "تكرار الكبت وتراكماته" قد عميت بصيرتك، وأصبحت هدفًا سهلاً للإصابة بالأمراض النفسية.



ولعل الجانب الأكبر من العلاج النفسي قائم على عملية "رفع الانفعالات المصاحبة للأفكار والمشاعر والخبرات المؤلمة" وبذلك تخفف من حدتها، وتتيح لهذا البركان الثائر داخله أن يخفف من نيرانه وثوراته، فيستطيع الفرد أن يتعايش في سلام مع نفسه. وهذا هو الأساس.

وأخيرًا يجب أن نشير إلى ضرورة أن نفرق بين "الكبت" و "القمع" فالكبت كما سبق وأن بينا لا شعوري، أي يتم بدون وعي أو قصد منك، على عكس "القمع" والذي يتم شعوريًا، أي إراديًا فأنت حين تجلس وتنتابك فكرة ما مستهجنة وتنشئها بإرادتك من تفكيرك .. يكون هذا شعوريًا أما إذا "طنشت" هذه الفكرة وأنكرتها.. فإنها تهرع إلى مخزن المكبوتات وتظل كالنار التي تنتظر الفرصة لكي تشتعل وتحول الهدوء إلى حطام.

* * * * * * * * * * * *

ونكتفي بهذا القدر من ميكانيزمات الدفاع التي يستخدمها الإنسان لكي يتوافق مع ذاته أولاً ثم مع الآخرين ثانيًا.



الفصل الثامن عشر

في الأمراض النفسية والعصبية



الفصل الثامن عشر

في الأمراض النفسية والعصبية

مقدمة :

يخطئ البعض فيسمى هذه الفئة من الأمراض بالأمراض العصبية متـأثرًا بالاعتقـاد الذي ساد في فترة معينة بأن سبب هذه الأمراض يعود إلى اضطراب الأعصاب. ولما أثبتـت العديد من الدراسات خطأ ذلك أضيفت إليها لفظ النفسية؛ لأن الجانب النفسي واختلاله واضح. علمًا بأن هذه الأمراض قديمة قدم التاريخ، بيد أن الدراسة المنظمة لهذه الفئة من الأمراض قد بدأت في منتصف القرن التاسع عشر بالملاحظات الدقيقة التي قام بها "جان شاركوه" و "بييـر جانيت" في باريس إضافة إلى أعمال "سيجموند فرويد" في فينا وبرويـر ووضـعهما كتـاب دراسات في الهستريا وغيرهم الكثير من العلماء.

تعريف العصاب Neurosis:

العصاب هو اضطراب وظيفي في الشخصية بين العادي والذهان، وهو حالة مرضية تجعل الشخص العادي أقل سعادة، ويعتبره البعض صورة منخفضة مـن الـذهان، كمـا أن العصاب لا يتضمن أي نوع من الاضطراب التشريحي أو الفسيولوجي في الجهاز العصبي بل هو اضطراب وظيفي دينامي انفعالي نفسي المنشأ. كمـا يجـب أن نفـرق بـين العـصاب Neurosis والمرض العصبي Neurosis Disease حيث إن المرض الأخير عبـارة عـن اضطراب جسمي ينشأ عن تلف عضوي بسبب الجهاز العصبي مثل الشلل النصفي والصرع. ومن ثم لا بد كما سبق أن شرحنا من ضرورة استخدام مصطلح العصاب النفسي.

وتشترك الأمراض العصابية والنفسية في العديد من الأعراض ونلخصها فيما يلي:

١) وجود مكاسب ثانوية للمرض حيث إن اختبار المرض لا يتم عـشوائيًا بـل يكـون مرتبطًا بمغزى ووظيفة معينة ويظهر ذلك خاصة في الأمراض السيكوسوماتية إذ ما دلالة أن الإصابة بمرض معين يأخذ شكلاً عضويًا.

٢) القلق العام والتوتر والاكتئاب والانشغال الزائد بالأمور الجنسية وعدم النضج الانفعالي والاعتماد على الآخرين ومحاولة جذب الانتباه.

٣) اضطراب التفكير والفهم بدرجة بسيطة، أو عدم القدرة على الأداء الـوظيفي الكامـل ونقص الإنجاز وعدم اكتشاف قدراته أو حتى استخدامها الاستخدام الأمثل.

٤) بعض الاضطرابات الجسمية نفسية المنشأ والشعور بالضعف الجسمي عامة.



٥) التمركز حول الذات واضطراب العلاقات الشخصية والاجتماعية إلى حد ما وعمومًا فإن الصورة الإكلينيكية للأعصاب عادة تتبلور في نهاية المرحلة الثالثة وبداية الرابعة (وفقًا لتصور فرويد) وتكون الأعراض غريبة عن الذات أو مصحوبة بانشقاق في الوعي، كما أنها وإن كانت تعرقل الإنسان عن التكيف واختيار الواقع وعلى درجة من التماسك والقدرة على تحمل الألم الناتج عن الصداع والذي يأخذ صورة القلق إزاء التهديد بالأذى أو الاكتئاب عند حدوث الأذى فعلاً هذا التحمل يتيسر بواسطة استخدام الحيل الدفاعية التي تنتج عنها الأعراض السابق الإشارة إليها – في مرض العصاب النفسي.

من الأمراض النفسية / العصابية :

تتعدد التصنيفات المختلفة التي قدمت للأمراض النفسية العصبية ولذا فسوف نتحدث عن أشهر هذه الأمراض في عجالة.

١- القلق Anxiety

يمثل مرض القلق عنصرًا أساسيًا ومشتركًا في أغلب الاضطرابات النفسية.. فالقلق هو المؤشر الأول لوجود صراع يهدد الذات وهو الذي ينبه الأنا وينذره ومن ثم يكون رد فعل الأنا حشد الطاقة لاستخدام ما لديه من حيل دفاعية لتخفيف حدة القلق. لذا فالقلق هو حالة توتر عام وشامل ومستمر نتيجة للشعور بالتهديد سواء أكان هذا التهديد واقعا فعلاً أم تهديدًا رمزيًا. ورغم أن القلق مرضًا عامًا لبعض الاضطرابات النفسية. إلا أن حالة القلق قد تسيطر فتصبح في حد ذاتها اضطراب نفسي أساسي وهو ما يعرف باسم عصاب النفسي القلق Anxiety Neurosis وهو أشيع حالات العصاب النفسي إلا أن هذا الفرق يكون في الكم. فالقلق العصابي يختلف عن القلق الذهاني في أن الأول يمثل درجة أخف ثم الخوف لا يمس كيان الفرد في أعماقه.

كما يجب أن نفرق بين القلق والخوف. فللخوف أسباب معروفة ومصادره محدودة يمكن معرفتها أما في حالة القلق فهناك خوف ولكن مجهول لسبب ما بل قد لا يوجد من الأساس سبب على الإطلاق.

ويصنف القلق في الفئات التالية :

١- القلق الموضوعي والعادي:

ويتمثل في أن يوجد للقلق سبب واضح وموضوعي ولذا يطلق على هذا النوع من القلق بالقلق السوي: فالقلق قرب أداء الامتحانات أو السفر للعمل في خارج الوطن لا شك أن



ذلك يستدعي قدرا من القلق إلا أنه يكون موضوعيًا وتحت السيطرة ومحدد الأسباب. والمفروض أن تقف حدته أو تتلاشى مع انتهاء الأسباب المولدة له.

٢- حالة القلق أو القلق العصابي :

وهو نوع من القلق يكون داخلي المصدر وأسبابه لا يعلمها الفرد ولذا فإنه يعوق الفرد عن التوافق مع نفسه أو مع الآخرين.

٣- القلق العام أو الهائم:

حيث لا يرتبط بأي موضوع بل يكون غامضًا عائمًا وهائمًا Free – Floating مما يجعل الفرد في حالة عدم استقرار مما ينعكس سلبيًا على الأفراد والآخرين.

٤- القلق الثانوي :

وهنا نجد القلق كمرض عام ويشترك في كافة الاضطرابات النفسية فالقلق هنا ليس أصلاً، بل أحد أعراض المرض.

الصور الإكلينيكية للقلق :

حيث تتبدى في الصور الآتية :

(عدم الاستقرار – تشتت الانتباه – سرعة القلب – عدم المثابرة – العلاقة السيئة بالآخرين – كثرة الأخطاء بالدراسة أو العمل – اضطرابات في النوم – أحلام مزعجة أو كوابيس – اضطرابات في الشهية والهضم مع ما تؤدي إليه من تقلصات واضطرابات في الجهاز الإخراجي).

أسباب القلق النفسي :

تتعدد الاجتهادات والتفسيرات في هذا الصدد إلى درجة التباين :

- **فمدرسة التحليل النفسي الفرويدية :** تربط بين القلق وخبرات الطفولة الناتجة من مرور الفرد بعقدة الخصاء Castrtion Complex أو الشعور بالذنب الذي يحوم حول الرغبات الجنسية.

- **في حين أن أتورانك O. Rank** يعزو القلق إلى عقدة الميلاد ويرى أن عملية الولادة عملية قاسية، وخبرة سيئة للطفل؛ لأنه قد تم فيها انفصاله عن الأم، مع تركه عالمًا آمنًا، ودنيا مطمئنًا إلى عالم مليء بالضجيج والضوضاء. والمنافسة والاعتماد على الذات إلى درجة الدخول في قتال مع الآخرين ومن ثم فإن قلق الانفصال يكون الخبرة الأولى لكافة صور وأشكال القلق فيما بعد.



- **في حين يرى أصحاب الاتجاه التحليلي النفسي الجديد** (ميلاين – آدلر – يونج) أن القلق يرجع إلى فترات الطفولة في علاقة الطفل بوالده معتمدًا كل الاعتماد على الكبار في سد حاجاته، وتعرض الطفل للحرمان والإهمال وفقدان الحب يعد من أهم العوامل التي تستثير القلق.
- **في حين ترى بعض الاتجاهات الأخرى** أن الاستعدادات الوراثية والنفسية لهما الدور الأكبر والهام في تفجير القلق ومرور الفرد بالأزمات والإحباطات والضغوط وعجزه عن مواجهتها أو أن يواجه ضغوطًا أكبر مما يتحمله جهاز العصبي والنفسي ولذا ينشأ عدم التكافؤ والذي يقود الفرد إلى الوقوع فريسة للقلق النفسي أو غيره من الأمراض.
- **وترى بعض الاتجاهات في تفسير أسباب القلق** هو أن الفرد في كل مرحلة عمرية يواجه العديد من الأزمات والضغوط فإذا عبرهما بسلام إلى المرحلة العمرية التالية يكون الفرد بذلك قد نجا من المرض. أما إذا فشل فإن هذا الفشل يثير العديد من الذكريات المحبطة عبر الماضي أو اللجوء إلى الطرق الخاطئة في مواجهة مثل هذه الأزمات والعجز التام عن المواجهة والهروب بطرق شتى.
- **في حين أن بعض الاتجاهات** يركز على أساليب التنشئة الاجتماعية والعلاقة بين الطفل والآخرين. فالطفل الذي نشأ في كنف أسرة متحابة لا شك أن ذلك يغذيه بالخبرات الآمنة. على عكس الطفل الذي ينشأ وسط أسرة متصدعة ومن ثم يغزوه الشعور بعدم الأمان، مما يفقده الثقة بالنفس ومن ثم العجز عن مواجهة أي ضغوط حتى وإن كانت بسيطة.

مآل القلق :

يختلف سير المرض وفقًا للعديد من الأسباب والعوامل كما يجب أن نأخذ في الاعتبار العوامل الحضارية والبيئية في هذا الصدد وعمومًا فإن أحمد عكاشة (١٩٨٠) يرى أنه من خلال خبرته في هذا المجال أن ثلثي مرض القلق العصابي يتحسنون تحسنًا ملحوظًا مع التعرض أحيانًا لبعض الانتكاسات الحقيقية من المرض خلال ثلاث سنوات وقد حدد أهم العوامل التي تؤدي إلى تحسن المرض في :

١- تاريخ عائلي سوي مع اختفاء الأعراض العصابية في العائلة.
٢- شخصية متكاملة ثابتة متزنة سوية قبل المرض.
٣- عدم تعرض المريض لاضطرابات نفسية سابقة قبل مرضه الحالي.
٤- حدة بدء المرض أي أن الأعراض بدأت فجأة وبصورة حادة.



٥- ذكاء فوق المتوسط.

في حين أن العوامل التي إذا اجتمعت تؤدي إلى سوء الحال فهي :

- تاريخ عائلي واضح للعصاب، مثل شخصية عصابية معرضة لنوبات متكررة من الاضطرابات النفسية.
- زحف المرض ببطء على المريض .
- طول مدة المرض فكلما طالت مدة الأعراض قل الأمل في الشفاء.
- وجود الأعراض الإكلينيكية مثل توهم العلل البدنية، اختلال الآنية، الإدمان، الأعراض القهرية المتعددة، أعراض الهيستريا الانشقاقية، حالات المخاوف المرضية الشديدة (أحمد عكاشة ١٩٨٠، ٥٣).

٢- الهيستريا Hysteria

إذا كان القلق قدرًا قد واجه وسيواجه البشرية مصداقًا لقوله سبحانه وتعالى: ﴿**لقد خلقنا الإنسان في كبد**﴾ أي في مشقة وتعب. فإن الهستيريا هي الأخرى قد واجهت البشرية منذ القدم فلقد سمى اليونان هذا المرض بمرض الرحم وسُمي في العصور الوسطى بمرض الشيطان وكثيرًا ما اجتاحت الموجات الهستيرية أديرة برمتها بعدوى الإيحاء ولماذا نذهب بعيدًا ألا نتذكر حالات الإغماء الهستيري التي اجتاحت طلاب المدارس الثانوية في مصر في أوائل التسعينات من هذا القرن؟

ولذا فالهستيريا هي مرض نفسي تظهر فيه اضطرابات انفعالية مع خلل في أعضاء الحس والحركة بمعنى أنها تأخذ شكلا انتقاليًا أو تحويليًا بمعنى أن تتحول الانفعالات والصراعات المزمنة إلى أعراض جسمية ليس لها أساس عضوي وبقصد هروب الفرد من غائلة الصراع النفسي الذي لا يعلم كيف يتخلص منه أبدًا، فإن عدم إدراك الدافع الكامن وراء المرض غير مدرك وهذا ما يميزوا به مريض الهستيريا عن شخص آخر يتمارض وهو يعي طبيعة الدافع الكامن وراء ذلك.

كما أن هذا المرض يصيب السيدات أكثر من الرجال ولعل معنى لفظة "هسترا" في اللغة اليونانية إنما تعني الرحم، مع العلم بأن الاتجاهات الحديثة أثبتت أن الهستيريا لا علاقة لها بالرحم (اهتزازات – انقباضات) وإن كان يصيب أيضًا الرجال وإن كان بنسبة أقل وإن كانت – أيضًا – نسب حدوثها قد قلت مقارنة بالعصور السابقة.

الصور الإكلينيكية للهستيريا:

وتأخذ الهستيريا الأشكال التالية :



الهستيريا التحولية Conversion Hysteria

وتتميز بأن الأعراض قد تأخذ شكلاً جسديًا وقد يؤثر على الحواس مما يؤدي إلى فقدان الحساسية أو العمى أو الصمم، أو يؤثر على الجهاز الهضمي مما قد يؤدي إلى فقدان الشهية أو القيء المستمر. أي أن الكبت قد ينجح في إبعاد الصراع عن الوعي ولكن لا يختفي تمامًا ولكن يظهر في صورة أمراض جسدية ولعل بالفحص الطبي لهذه الأجهزة نجد أنها غير مصابة أصلاً بيد أنها معطلة من الناحية الوظيفية.

واختيار المريض لعضو معين في الجسد لا يتم عشوائيًا بل هو محتم الاختيار ولهذا فهناك ثلاثة احتمالات لذلك:

١) حالة هذا العضو السابقة إذ قد يكون العضو نفسه ضعيفًا فيهيئ هذا الضعف المجال لظهور المرض فيه.

٢) الوظيفة التي أداها العضو المصاب في مواقف سابقة في حياة الفرد مثل مروره بخبرة صادمة أو مؤلمة فإن مجرد استثارة الخوف عنده يعد عاملاً شعوريًا لإثارة العضو.

٣) قيمة العضو الرمزية فالعمى قد يعني لا شعوريًا عدم الرؤية لشخص ما وكذلك شلل الذراع قد يفيد معنى عدم مصافحة الآخرين، أو كفًّا عن العدوان.

كما أن الفرد المصاب يتوقف عن وظيفة عضو معين لا يستشعر ألمًا مثله مثل الشخص العادي في حالة إصابته بل يبدي عدم الاهتمام ولا مبالاة بذلك.

وتشيع اضطرابات الهستيريا بين الأشخاص منخفضي التعليم ذوي المستوى الاجتماعي والاقتصادي المنخفض بدرجة أكبر منها بين الأشخاص مرتفعي التعليم ذوي المستوى الاجتماعي والاقتصادي المرتفع. كما تشيع الاضطرابات الهستيرية أيضًا بين الأشخاص غير الناضجين انفعاليًا، والذين ثبت انفعالهم عند المستويات الطفلية والتي لا تتناسب مع مراحل النمو الراهنة ولا مع مطالب البيئة.

٢- الهستيريا التفككية أو الانشقاقية .Dissociation. H

حيث نجد في هذه الحالات يتم فصل جزء من الوعي عن باقي الوعي دون تحويله إلى أعراض جسدية ولكن إلى حالات يتناقض فيها السلوك أو الوجدان في حالة وعي محدد مع باقي الشخصية التي تجابه هذا التناقض بفصلها عن وعيها وتشمل هذه الاضطرابات: فقدان الذاكرة، الذهول الهستيري، فقدان الذات.



ولعل حالة فقدان الذاكرة أكثر انتشارًا حيث يفقد المريض ذاكرته فيما يتعلق بالتعرف على هويته (من أنا؟) وتفاصيل حياته السابقة (إلى أي عائلة أو مدينة أنتمي) وقد تتذبذب حالات فقدان الذاكرة بين مساحات ضئيلة أو مساحات شاسعة من ذاكرته وتتميز نوبة فقدان الذاكرة بأنها تبدأ فجأة وتنتهي فجأة وغالبًا ما يواجه الفرد بضغوط انفعالية لم يتحملها قبل أن يسقط في نوبة فقدان الذاكرة.

أيضًا فقدان الذات حالة تنشأ عن عملية تفككية حيث اضطراب الشعور بالذات والإحساس بأنه قد تغير أو أصبح شخصًا مختلفًا، وأنه يعاني من حالة مرضية، بل وقد تتعدد الشخصيات حيث ينتاب المريض حالتان منفصلتان من الشخصية الأولى هذه الشخصية اليومية التي يعرفها الآخرون والثانية هي الشخصية المختلفة وعندما ينتاب المريض أي من الشخصيتين يفقد عادة ذاكرته الشخصية تمامًا وتتبادل هذه الشخصيات الأدوار في حياة الفرد.

علمًا بأن هذا النوع من الهستيريا قد آثار خيال وإبداع الروائيين ولعل من أشهر الروايات رواية دكتور "جيكل ومستر هايد" ورواية "سيدة الأقمار" ورواية "إحسان عبد القدوس "أين عقلي" ناهيك عن العديد من الأفلام والمسلسلات المصرية التي تناولت هذه القضية.

وإذا كان ازدواج الشخصية قد ساد في القرن ١٩ لأسباب لا زالت غير معروفة إلا أن هذا الازدواج قد قل الآن كثيرًا، بل نجد أن بعض العلماء يشككون أصلاً في وجود مثل هذه الحالات من ازدواج الشخصية.

ويتميز المصاب بالهستيريا الطفلية في سلوكه بالأنانية، وتجنب تحمل المسئولية، والثرثرة، كما أنه بارع يغالي في التعبير عن انفعالاته، متقلب، شديد الحساسية، يبكي ويضحك لأتفه الأسباب، يميل إلى اكتساب عطف الناس عليه، لا يطيق أن يبتعد عن الأضواء، حيث إن لفت أنظار الآخرين من أهم اهتماماته، كما أن تذبذب انفعالاته تجعله شخصًا لا يستطيع أن يحب أو يكره، كما أنه كثير الشكوى من وجود ألم وأعراض جسدية، كما أن هذه الأعراض تتميز بفقدان العضو للقدرة الوظيفية التي كان يؤديها الفرد – كما سبق وأشرنا للهستيريا التحولية.

أسباب الهستيريا :

تتعدد الاجتهادات في هذا الصدد ويمكن تلخيصها في الآتي:

يرى شاركو Charcot أن الهستيريا تعود في أسبابها إلى ضعف الجهاز العصبي وهذا الضعف يهيئ الفرد لاكتساب الأعراض الهستيرية بالإيحاء ولا يرى أن الأسباب النفسية لها دورًا في هذا المرض.



بيد أن جانيت Janet يرى بوجود أسباب نفسية وأن الهستيريا ما هي إلا ردود أفعال خاطئة مكتسبة وتعود الأعراض الأساسية فيها إلى تغلب اللاشعور على الشعور في حين يرى فرويد Froud أن كل عرض من أعراض الهستيريا إنما يرمز إلى رغبة جنسية مكبوتة، وتكبت هذه الرغبات لأن المجتمع يحرم تحقيقها ومن هنا فإن نتيجة هذا الصراع ينجح في تحويل ما هو انفعالي نفسي إلى مرض جسمي. ويرى بافلوف وهو من أنصار التفسير الفسيولوجي للهستيريا أنها تنشأ نتيجة ضعف قشرة المخ بسبب الاستعداد الوراثي وعادة ما يكون مريض الهستيريا ذا تكوين جسمي نحيف واهن.

مآل الهستيريا :

يلاحظ أن حوالي ٥٠% من مرضى الهستيريا يتم شفاؤهم تمامًا مع العلاج المناسب، وأن حوالي ٣٠% يتحسنون تحسنًا ملحوظًا وأن ٢٠% يتحسنون تحسنًا بسيطًا وتستمر معهم الأعراض.

وعمومًا ما تشفى معظم الأعراض الهستيرية خصوصًا إذا بدأت فجأة واستمرت لمدة معينة قبل العلاج. ومن الأمراض السريعة للشفاء فقدان الذاكرة أو الشرود وأحيانًا يصعب علاج بعض الأعراض الأخرى مثل الشلل والآلام الجسدية خصوصًا إذا كان النفع الذاتي أو الفائدة التي تعود على مرضه لا شعوريًا من المرض أقوى من الدافع للشفاء.

٣- الفوبيا أو الخوف المرضي Phobia

الخوف هو مرض دائم من موضوع أو موقف معين لا يستحق كل هذا الخوف والمريض هنا قد يعاني من نوع واحد من المخاوف تختلف باختلاف المواقف أو الموضوعات. وتبدأ المخاوف من خبرة معينة أثارت خوفًا شديدًا ويغلب أن يكون حدوثها في الطفولة وقد كبتت هذه الخبرة في اللاشعور؛ لأنها تثير الشعور بالذنب وخروجها إلى الشعور يكون مؤلمًا وإذا كنت الخبرة المخيفة تتعلق بموضوع بذاته فإنها تمتد إلى عدة أشياء أو مواقف ترمز إلى الموضوع الأصلي، كما أن الشخص الذي يعاني من الخوف يعلم جيدًا أن خوفه مرضي وسخيف، ولا مبرر له ولكنه عاجز عن مقاومته أو التخلص منه. كما يجب أن نفرق بين الخوف الطبيعي والخوف المرضي، فالأول هو غريزة تنشأ حين يواجه الإنسان ما يخاف مثل حيوان مفترس فإن الخوف شاذ دائم متكرر يضخم من الأشياء التي قد تخيف أو قد يخاف من أشياء وهمية مثل أمنا الغولة، وأبو رجل مسلوخة ، والعفاريت.

ولذا فإن الخوف المرضي يتميز بالصفات الآتية:

١- أنه غير مناسب مع الموقف الذي يثير الخوف.

٢- لا يمكن تفسير هذا الخوف منطقيًا.



٣- لا يستطيع الفرد التحكم في استجابة الخوف إراديًا.

٤- أن هذا الخوف يعود إلى الهروب وتجنب الموقف المخيف.

أنواع المخاوف :

وتنقسم إلى :

الخوف من الأماكن المتسعة والمغلقة:

حيث يخاف المريض من التواجد في الشوارع أو الميادين أو الأماكن الضيقة مثل الزقاق والحارات أو المصاعد وهذا النوع من الخوف ينتشر عند النساء أكثر من الرجال، حيث يخاف المريض من الدخول إلى الأماكن العامة، والقطارات والأتوبيسات، ودور السينما والمسرح وحتى المساجد والكنائس، حيث تبدأ أعراض القلق من الدوار والإغماء وعدم التوازن واختلال الذات مصحوبة ببعض أعراض الاكتئاب وبعض حالات من أعراض الوسواس القهري.

الخوف الاجتماعي :

حيث يخاف المريض من الظهور أمام الناس خوفًا من النقد أو الارتباك ولذا فإن الشخص المصاب بهذا النوع من الخوف يتجنب ما أمكن التواجد مع الآخرين، ولقد قابل كاتب هذه السطور العديد من هذه الحالات والتي لجأت إلى الإدمان هروبًا من هذا الخوف المتمثل في مواجهة أو مقابلة الآخرين مما قد يضطرهم إلى التنازل عن حقوقهم خوفًا من الآخرين وكأنهم – كما يقول – سارتر هم الجحيم.

الخوف من الحيوانات :

حيث يخاف المريض من أي حيوان إذا كانت مستأنسة (مثل القطط والكلاب) ثم يمتل الخوف ليشمل كافة أشكال وصور الحيوانات.

مخاوف نوعية مختلفة :

مثل الخوف من الظلام، الرعد، البرق، العواصف، أو حتى الخوف من الأطباء، أو الممرضين، وذلك للارتباط الشعوري بين رؤيتهم وبين ألم الحقن مثلاً.

الخوف من الأمراض :

حيث يظل المريض متوجسًا وخائفًا من إصابته بالأمراض الخطيرة المميتة مثل الخوف من السرطان أو الموت أو الجنون أو حتى توقف عضلات القلب عن عملها ويظل يفسر أي أعراض ولو بسيطة بأنها كارثة ستحقق ما يخشاه.

المخاوف القهرية:



وتختلف عن باقي المخاوف في أنها عادة ما تركز على النتائج وليس على المواقف فالمريض مثلاً لا يخاف الكلاب ولكن من الاحتمال أن يؤدي ذلك لاحتمال تلوثه ونجاسته، أو قد يخشى السكينة لاحتمال أن يصيب بها نفسه أو قد يصيب بها الآخرين وهكذا.

وهكذا تتعدد صور وأشكال المخاوف ويمكن أن نضيف الخوف من الرقم (١٣) والذي قد يكون شكلاً معاصرا من الخوف البدائي من تعدي الحدود المحرمة وقد يكون في هذا التغير شيء من الصحة إلا أنها قديم الحدود عن العلاج.

أسباب الخوف أو الفوبيا :

تتعدد الأسباب ويمكن حصرها في :

١- أساليب التربية الخاطئة والتي تتمثل في الحكايات المخيفة التي تشوه البناء النفسي لهم، فالعفاريت والأشباح وأمنا الغولة وأبو رجل مسلوخة وأشياء خرافية لا وجود لها في الواقع إلا أن "حكي" هذه الأشياء للطفل قد يترك آثارًا سيئة لا تمحى من نفسيته.

٢- اضطراب الظروف الأسرية ووجود الطفل في بيئة يكثر فيها الشجار، والعنف الأسري، والطلاق، والحماية الزائدة، والإهمال واللامبالاة والترك، والمبالغة في العقاب، أو التساهل إلى درجة الفوضى، كل هذه الأساليب الخاطئة إنما يشوه البناء النفسي للفرد وتجعله عاجزًا عن بث الثقة في نفسه وبالتالي مواجهة الآخرين.

٣- انتقال الخوف – من موضوعات وأشياء أخرى – من الكبار إلى الصغار، وقد قابل كاتب هذه السطور حالة الطفل لديه أربعة سنوات ويخشى من كل رجل يرتدي زي الضابط أو العساكر سواء إن كان رجل مرور أو شرطة أو حتى أمن، أو في الجيش وبتحرى الأسباب اكتشف أن والدة هذا الطفل كانت تهدده دومًا بأنها ستحضر له العسكري يضربه أو يسجنه إذا لم يكف عن الشقاوة.

٤- في حين أن مدرسة التحليل النفسي تفسر المخاوف بأنها حيلة لا شعورية يلجأ فيها الإنسان إلى استخدام تكتيك الإزاحة، حيث تزاح المهددات الداخلية إلى مهددات خارجية أي تنتقل الانفعالات من مصدرها الأصلي إلى مصدر بديل. فخوف هانز الصغير كان في الأساس خوف من الأب ورغبة في قتله مع ما ولد ذلك الشعور بالإثم لدى هانز، إلا أنه نقل كل ذلك إلى الحصان وكأن الخوف من الحصان هو بديل رمزي عن الخوف من الأب.

٥- أما المدرسة السلوكية فترى أن الخوف ينشأ نتيجة للتعليم الشرطي، حين يتعرض الشخص لمثير ما، ويصدر استجابة معينة، هنا ينتقل الخوف من المثير الأصلي الذي سبب الخوف إلى مثير اقترن به شرطيًا ولذا فإن واطسن قد أجرى تجربة على طفل



صغير يدعى "ألبورت" حيث أكسبه الخوف من أي حيوانات لها فراء، ثم قام بعدة تجارب لإزالة هذا الخوف مؤكدا على فكرة المدرسة السلوكية والذي ينحصر في المثير – الاستجابة.

مآل الخوف أو الفوبيا :

بداية يجب أن نفرق بين استجابة الخوف في حد ذاتها وبين أن يكون الخوف مجرد استجابة واحدة مصاحبة لمرض القلق النفسي أو أي أمراض نفسية أو عقلية أخرى قد تتستر خلفه. عمومًا إن مآل المريض إلى تحسن طالما أنهم منتظمون في العلاج ويشفيه الدواء النفسي مع ضرورة تدريب المريض على الاسترخاء والعمل على توكيد الذات، ومواجهة المواقف المخيفة إما تدريجيًا أو بالغمر وهي أساليب علاجية سنتعرض لها فيما بعد تفصيليًا.

وعمومًا فإن اهتمام علماء النفس بدراسة المخاوف يزداد بصورة كبيرة، متمثلاً في ذلك الكم من الأعداد الهائلة من الكتب والمقالات والبحوث الميدانية، فضلاً عن الكثير من الدراسات قد وضحت العلاقة بين العمر والمخاوف وكذلك عدم وجود فروق ملحوظة بين الجنسين في المخاوف خلال فترة الطفولة إلا أنه يبرز بعد ذلك بوضوح خلال مراحل النمو المختلفة بحيث تزداد المخاوف لدى الإناث وتقل عنها لدى الذكور. وإن كنا نؤكد أن لكل بيئة مخاوفها الخاصة بها.

٤- عصاب الوسواس القهري

Obsessive Compulsive Neurosis

الوسواس Obsessive هو عبارة عن محتويات ذهنية غريبة عن الذات وتفرض وجودها على الوعي رغم مقاومته لها، وتتصف بالإلحاح والتكرار، كما أنها تبدو خالية من المعنى.

أما القهر أو القسر Compulsion فهو عبارة عن الفعل المقابل أو البديل للمحتوى الذهني حيث يقوم الفرد بأفعال أو حركات تبدو عديمة المعنى أو الهدف وغريبة عن الذات وتقابل بمقاومة من الذات حينما يتحول الفعل القهري إلى حركة محددة متكررة وبدون مقاومة تذكر من الذات فإنه يصبح ما يعرف بالأزمة .Tic أي أن الوسواس فكر بينما القهر سلوك. ويتميز مرض الوسواس القهري بالآتي:

أ- وجود أفكار أو اندفاعات أو مخاوف أو طقوس حركية مستمرة أو دورية.

ب- يقين المريض بتفاهة هذه الوساوس ولا معقوليتها وأنها لا تستحق كل هذا الاهتمام إلا أنها بالرغم من ذلك تفرض سيطرتها عليه سواء كانت في صورة أفكار أو أفعال.



ج- مقاومة المريض المستمرة والدءوبة لهذه الوساوس وعدم الاستسلام لها.

د- إحساس المريض بسيطرة هذه الوساوس وقوتها القهرية عليه مما يترتب عليه شلله الاجتماعي وآلام نفسية وعقلية شديدة.

أسباب الوسواس القهري : يمكن حصر هذه الأسباب في العوامل الآتية :

١- يلعب العامل الوراثي دورًا هامًا في نشأة الوسواس القهري، فقد وجد أن الأولاد المرضى بالوسواس القهري يعانون من نفس المرض – وكذلك الإخوة والأخوات، وهذا غير باقي أفراد العائلة الذين يعانون من الشخصية القهرية. وقد وجد عكاشة (١٩٨٠، ٩٧) في دراسة له أن التاريخ العائلي لمرضى الوسواس القهري في مصر يظهر في ٢٦ مريضًا من ٨٤ حالة أي حوالي ٣٠% أي أن النسبة قريبة من النسب الأخرى في بلاد العالم.

٢- ترجع مدرسة التحليل النفسي مرض الوسواس القهري إلى وجود اضطرابات في المرحلة الشرجية في تكوين شخصية الفرد، وقوة الأنا الأعلى للفرد لكل تصرفاته، بل إن فرويد قد أرجع بعض حالات الوسواس والقهر إلى خبرة جنسية مثلية سلبية تكبت وتظهر فيما بعد معبرًا عنها بأفكار تسلطية وسلوك قهري.

٣- في حين أن المدرسة السلوكية ترجع الوسواس القهري إلى مثير شرطي للقلق وأن ارتباط الفكر الوسواس بمثير غير شرطي فإن يصبح أيضًا مثير للقلق أو يكون السلوك القهري ويثبته ويصبح نمطًا سلوكيًا متعلمًا.

٤- ويرى البعض أن سبب مرض الوسواس القهري يعود إلى وجود بؤرة كهربائية نشطة في لحاء المخ وتسبب هذه البؤرة حسب مكانها في اللحاء حركة أو اندفاعًا، وتستمر هذه البؤرة الكهربائية في نشاطها رغم محاولة الفرد مقاومتها؛ ولذا فإن المريض يدرك بخطأ الفكرة على عكس الحال في مريض الاضطهاد البرونويدي والذي يؤمن بصحة الفكرة إلى درجة اليقين.

٥- يُرجع البعض الإصابة بمرض الوسواس القهري إلى سمات الشخصية والتي تتميز بالصلابة وعدم المرونة وصعوبة التكيف والتأقلم مع الضوابط المختلفة مع حب النظام والروتين وضبط المواعيد، والدقة في كل الأعمال والاهتمام بكل التفصيلات والثبات في المواقف الشديدة، وهذه السمات وإن كانت مطلوبة في العديد من المهن مثل رجال الأعمال والمديرين والإداريين والماليين، وكبار الضباط والبوليس وموظفي الأرشيف إلا أن مثل هذه الشخصيات تتعرض للعديد من الاضطرابات مثل:



- القلق النفسي وخاصة القلق في هيئة عصاب الأعضاء كعصاب الجهاز الهضمي أو القلبي أو البولي أو الدوري أو التناسلي.
- توهم العلل البدنية وأنهم عرضة للأمراض الخبيثة والبحث عن أي أعراض لكي يبدءوا في سلسلة من الأبحاث والفحوص الطبية والتنقل بين العيادات والمستشفيات.
- عصاب الوسواس القهري.
- اكتئاب سن اليأس.
- اختلال الآنية والشعور بالتغير في النفس والإحساس بأن العالم قد تغير.
- الأمراض السيكوسوماتية.

الأعراض الإكلينيكية :

حيث تقسم إلى :

١- الأفكار والصور Ideas and Images:

حيث تسيطر على المريض فكرة خاصة أو صورة لمنظر ما حميد أو كريه أو جمل معينة تتردد في مخه، ورغم أن المريض يحاول جاهدًا مقاومة هذه الفكرة إلا أنها تسيطر عليه.

مثال أحد المرضى سيطر عليه فكرة أن اللصوص سيقتحمون عليه الشقة من الباب، ورغم ذهابه عدة مرات للتأكد من أنه أغلق الباب جيدًا إلا أن الفكرة تزداد بأن اللصوص مثلاً سيقتحمون الباب أو يرفعونه نهائيًا، كما قد تسيطر عليه صورة لمنظر ما قد شاهده.

٢-الاندفاعات Impulses

يسيطر على المريض اندفاعًا لأن يقوم بأعمال معينة قد لا يكون راضيًا عنها ولكنه يفعلها قسرًا، أو عادة ما تكون هذه الاندفاعات في هيئة عدوانية أو انتحارية فقد يحس المريض بالرغبة في إلقاء إخوته من الشرفة، أو البحث عن الأوراق الملقاة في الشارع بحثًا عن اسم الجلالة أو الرغبة في عد الأدوار التي تتكون منها العمارة، أو حتى عد كافة العمارات الموجودة في شارع معين. ثم ينتابه الشك بأنه أخطأ في العد فيعاود العد والإحصاء مرة أخرى، وهكذا بالرغم من قناعة المريض بتفاهة هذه الأفكار إلا أنه يفعلها قسرًا وربما باندفاع شديد.

وتعد من أشهر الأعراض القهرية وأكثرها شيوعًا وتتلخص في رغبة جامحة للقيام بحركات معقدة هادفة إلى التخلص من إلحاح فكرة معينة ولعل من أشهر الأمثلة على ذلك: غسل الأيدي مئات المرات، وكذلك تكرار الوضوء، حيث إن المريض لا بد أن يبدأ يومه



بطقوس معينة فيدخل الحمام حيث إنه يمكث بداخله خمس ساعات على الأقل حيث ينظف نفسه ثم يشك في عملية التنظيف فيعاود التنظيف مرة أخرى وهكذا.

ولعل هذا الاستغراق في أولى هذه الطقوس ينهك قوى المريض ويحد من علاقاته، بل ويؤثر في عمله، ولنا أن نتخيل مصابًا بالوسواس القهري ويقوم بهذه الطقوس فمتى إذًا يذهب إلى عمله؟ ومتى يعمل حتى يستريح ؟ إنها حياة شاقة مرهقة، ولكن لا يجد مما ليس فيه بد.

٣- المخاوف القهرية :

سبق أن تحدثنا عن الخوف والفرق بين الرهاب والخوف القهري ونؤكد هنا أن المخاوف القهرية مرتبطة دائمًا بالأفكار أو الصور والاندفاعات، والطقوس الحركية في منظومة متناغمة ومن هنا تكون المخاوف وسيلة للهروب من الموقف القهري الذي تسببه الأعراض الأخرى. وهكذا يتبدد وقت المريض وطاقته في الخوف من نتائج وأفعال معينة، مع تصوير ما قد يمكن أن يلحق به مع ضرورة الانعزال.. وهكذا يحدث إهدار لطاقة الفرد، وشلل في علاقاته الاجتماعية.

٤- اجترار الأفكار Rumination

حيث تسيطر على المريض أفكار فلسفية لا جدوى منها، مثل: خلقنا الله فمن خلق الله؟ أو لماذا نعيش ولماذا نموت؟ وإذا كانت الحياة فناء فلماذا أصلاً من الأساس نولد؟ وهل التاريخ الذي ندرسه حقيقي أم مزيف.. وهكذا يظل في حالة حوار عميق دائم مستمر. علمًا بأننا كأفراد أسوياء قد تسيطر علينا بعض هذه الأفكار إلا أننا سريعًا ما ننجح في فهمها ومواصلة الحياة.

ولقد وجد عكاشة (١٩٨٠، ١٠٥) من خلال الدراسة على عينة مكونة من ٨٤ حالة مصرية وجد الآتي:

أفكار وصور ٢٣، اجترار الأفكار ٤٣، اندفاعات ٤٠، مخاوف ٤١، طقوس حركية ٣٧، ويغلب على مرضانا في مصر طابع الطقوس الحركية وخصوصًا المتعلقة بالنظافة والتلوث وما يتبعها من مخاوف متعددة وسبب ذلك عائد إلى الناحية الدينية وخاصة حض الدين الإسلامي على الوضوء خمس مرات، وكذا النظافة عقب عمليات الإخراج والطمث أو حتى الجماع الجنسي قد ترتبط هذه العمليات في أذهان البعض بالحرام وضرورة الطهارة ووجوب التخلص من النجاسة، وهذا شيء لا بأس به إلا أن المأساة في الاستغراق.

مآل الوسواس القهري :

كان ينظر فيما مضى لمآل الوسواس القهري على أنه أسوأ من باقي الأمراض العصابية، أما الآن فالمسائل تكاد تعادل باقي الأمراض العصابية إلا أنه يعتبر من أصعبها



علاجًا وخاصة في الحالات الشديدة ويمكن القول بأن حوالي ٢٠% من الحالات تشفى، ٤٠% تتحسن، وأن ٤٠% لا تتغير حالاتها.

وعمومًا فكلما كان المرض قد ظهر حديثًا أو أن هناك أسبابا بيئية واضحة له، وكلما كان المريض متعلمًا متوافقًا كلما كان ذلك أفضل ومؤشرًا هامًا في الشفاء.

الاكتئاب العصابي Depression

يتعرض الإنسان في حياته إلى سلسلة من التغيرات في مزاجه سواء أكانت هذه الانفعالات سارة أو مؤلمة. بيد أن تشخيص الاكتئاب مثلاً لا بد من استمرار الوجدان لمدة طويلة في حالة الاكتئاب. وكما أن القلق حالة انفعالية أولية تكون مصاحبة أو سابقة لحالات العصاب أو الذهان المختلفة فإن الاكتئاب هو الآخر يعد حالة انفعالية أولية ومصاحبة أيضًا لحالات العصاب والذهان وإن كانت طبيعته مختلفة عن طبيعة القلق. والاكتئاب العصابي يكون له سبب حقيقي في حياة الفرد إلا أن استجابة الفرد للموقف كانت استجابة حادة، ولولا وجود استعداد لدى الفرد للاكتئاب والعصاب النفسي للتغلب على الموقف وليجابه المشكلة بحب عملي. والاكتئاب هو حالة من الحزن الشديد والمستمر تنتج عن الظروف المحزنة والأليمة وتعبر عن شيء مفقود، وإن كان المريض لا يعي المصدر الحقيقي للحزن. ومن هنا تتعدد التصنيفات والتعريفات التي قدمها العلماء لتصنيف الاكتئاب بدءًا من الاكتئاب العادي والذي ينتج من المرور بخبرة الاكتئاب المزمن والعصابي وانتهاءً بالاكتئاب الدوري أي الاكتئاب مع هوس (وهو ما سنشرحه فيما بعد).

الصورة الإكلينيكية لمرض الاكتئاب العصابي :

يتميز الاكتئاب العصابي بهبوط الانفعالات، الأمر الذي يصفه المريض بالشعور بالحزن، أو بهبوط المعنويات، وأحيانًا لا يستطيع المريض أن يعبر بوضوح عما يشعر به وأحيانًا يربط المريض اكتئابه بحادثة أو فكرة مؤلمة قد خبرها الفرد في حياته أو بيئته. ولذا فإن مرضى الاكتئاب يفقدوا الحيوية والنشاط والمثابرة في عملهم، ويبدو كل شيء مظلم، وينظر إلى الحياة بمنظار أسود، وهنا قد تأخذ هذه المنظومة النفسية الفلسفية أشكالاً فسيولوجية، فتقل – أو تنعدم – شهيته للطعام مما يقلل وزنه، وكذلك تنعدم أو تقل الرغبة الجنسية، ولذا فإنه كثيرًا ما يشكو من الألم والتعب والإرهاق وأحيانًا ما ينخرط في البكاء دون سبب كما يشعر بعدم أهمية أي شيء في الحياة، كما تنشأ حالات من الشعور بالذنب مع تقليل واضح من إنجازاته أو تضخيم فشله رافضًا التركيز على أي إنجازات له.

أسباب الاكتئاب : تتعدد الأسباب ووجهات النظر في :



١- أرجع بعض أسباب الاكتئاب إلى عوامل وراثية مهيئة، وإن كانت نسبة ذلك ضئيلة جدًا.

٢- يرى أصحاب المنظور الفسيولوجي التركيز على العمليات الكيميائية داخل الجهاز العصبي والمخ مع زيادة تناقص مركبات الكاتيكولامين.

٣- وعمليات الهدم والبناء (الميتابوليا) وما الذي يحدث أثناء تغير وإفراز هرمونات الانفعال والحالة الجسمية والتواجدية والعقلية المصاحبة لهذا التغير.

٤- أما أصحاب المنظور الطبي النفسي فيركزوا على أعراض الاكتئاب بوضعها اضطرابًا وجدانيًا تصحبه أو تسبقه أعراض فسيولوجية.

٥- ينظر أصحاب نظرية التعليم السلوكي إلى نموذج التدعيم، حيث يحدث الاكتئاب نتيجة تناقص التدعيم الإيجابي وتزايد التدعيم للأحداث الصادمة أو المرهقة والذي ينتج عنه اضطراب معرفي يتمثل في توقع كل ما هو سلبي في المواقف التي يوضع فيها الفرد أو توقع الفشل واستبعاد النجاح وتشويه المدركات وتحريف خبرات الذاكرة لتتمثل على نحو سيئ.

٦- في حين أن تيار التحليل النفسي قد ركز على الاكتئاب من حيث هو ناتج من وجود صراع بين الرغبة ونقيضها، بل إن هذا المرض قد أبدع فيه فرويد وربطه بالعديد من المفاهيم حيث ربط بين الاكتئاب والمرحلة الفمية، وكذلك مع النرجسية وما يتعلق بالموضوع بالإضافة إلى الارتباط المنظم بين الأنا العليا والعدوانية العدائية والذنب الناتج في إطار العدوانية فضلاً عن طبيعة الدفاعات ودور الماسوشية.. وغيرها من المفاهيم التي ارتبطت بالاكتئاب. (عبد الله عسكر، ١٩٨٨، ٨٣: ١٣٠).

مآل الاكتئاب العصابي :

يشفى معظم المرضى في فترة تتراوح بين شهرين وأربعة شهور ويلعب الزمن دورًا هامًا في النسيان للصدمة التي أحدثت الاكتئاب فقد تأتي الصدمات دفعة واحدة مما يتطلب ذلك حزنًا واكتئابًا أشد. وعمومًا فإن مآل الاكتئاب العصابي أفضل في الشفاء من الاكتئاب الذهاني أو حالات الهوس.

عصاب الإجهاد أو الوهن النفسي Neuraesthenia

كان تشخيص هذا المرض بالنيورسنيا سائد بين الأطباء حتى القرن التاسع عشر على أساس أنه تشخيص جامع شامل بكافة الأمراض العصابية والأمراض النفسية. بيد أن الأطباء قد توقفوا عن ذلك تمامًا في الوقت الراهن.



والإجهاد أو الوهن النفسي هو إحساس مستمر ودائم بالضعف النفسي العام والإرهاق، والإعياء التام العقلي والجسمي مما يجعل المريض في حالة من الخمول والكسل والتعب المستمر لأقل مجهود ينهض به، ولذا فإن هذه الأعراض يجمعها الأطباء فيما يسمى بمتلازمة التعب أو الإنهاك.

أسباب الوهن النفسي:

تتعدد الأسباب ويمكن إجمالها فيما يلي :

- يرجع فرويد الضعف أو الوهن النفسي إلى الكبت الجنسي والانحرافات الجنسية المفرطة، والصراعات الجنسية والإفراط في ممارسة العادة السرية مع ما يثيره ذلك من مشاعر بالإثم والذنب.
- يرجع البعض الأسباب إلى طبيعة التكوين الجسمي. حيث يصيب هذا المرض الأفراد ذوي التكوين الجسدي النحيف مع اتصافهم بشدة حساسية الجهاز العصبي وكذلك معاناة الشخص من الصراع النفسي نتيجة تضارب الرغبات بين الإقدام والإحجام، والفعل وعدم الفعل، كذلك الإحباط المتكرر، وعدم إشباع حاجات الفرد والفشل والحرمان.. وما يجره ذلك من تبديد طاقات الفرد وإنهاكه.
- الأعمال الشاقة والمرهقة تحت الضغوط الشديدة، والدخول في منافسة مع الآخرين وقد لا يكون الفرد مهيئًا من الناحية الفسيولوجية أو النفسية لمواجهة كل هذه الضغوط والأعباء مما يوقعه فريسة للوهن والإجهاد النفسي.
- **الصورة الإكلينيكية للوهن النفسي:** تتعدد الصور ويمكن حصرها في :

الأعراض أو الصور الجسمية :

وتشمل التعب المستمر (دون أساس عضوي) والشعور بالضعف العام والآلام في أي جزء من الجسم، وزيادة سرعة دقات القلب، والدوار والعرق، واصفرار الجلد وبرودة الأطراف وزيادات الحساسية مع فقدان الوزن أو الصداع واضطرابات الجهاز الهضمي وانتفاخ البطن والإمساك.

الأعراض والصور النفسية:

وتشمل التوتر والقلق وعدم الاستقرار والشعور بالضيق وتدهور أو انخفاض الروح المعنوية والتشاجر المستمر، والشعور بالإحباط وعدم وجود طموحات، والاستغراق في الأحلام البسيطة، وضعف الذاكرة، والحساسية الشديدة تجاه أي نقد، والهروب من مواجهة



المشكلات، ونقص الثقة في الذات، والاعتماد على الآخرين، وتوهم المرض وسرعة التهـيج والغضب.

مآل الوهن النفسي :

إذا كان الأطباء قد جمعوا كل الأمراض النفسية في هذا المرض فإن استخلاص فئـة هذا المرض يقتضي الحذر والتحديد الواضح ويرى عكاشة (١٩٨٠، ١١٥) بضرورة التفرقة بين هذا المرض والأمراض الآتية:

- فقر الدم ونقص الفيتامينات
- الأمراض المزمنة من عدوى أو حميات.
- اضطرابات عمليات البناء والهدم في الجسم خصوصًا مـع أمـراض الكبـد والكلية.
- الأمراض النفسية والعقلية المختلفة والتي يكون العبء النفـسي ثـانوي لهـا كأمراض الهستيريا أو الاكتئاب أو الفصام، وعمومًـا فـإن مـآل الـضعف العصابي حسن كلما كانت العوامل المسببة واضحة والاتزان قـائم. فالعمـل الشاق، أو الدخول في منافسات غير واضحة مع الآخرين يمكن أن تعدل مـع استبصار المريض من خلال دخوله في فنيات العلاج النفسي المناسبة في مثل هذه الحالات.

ونكتفي بهذا القدر من العرض لأشهر الأمراض النفسية مع الأخذ فـي الاعتبـار أن هناك العديد من الأمراض العصابية والنفسية مثل عـصاب الحـرب والحـوادث، والقـدر، والتفكك.. وهي أمراض لا نقلل أبدًا منها، وإن كانت نسبة حدوثها أقل وتحدث فـي ظـروف معينة أو تحتاج إلى تدخل نفسي وعلاجات أخرى مناسبة لها .

* * * * * *



الفصل التاسع عشر

في الأمراض العقلية والذهانية



الفصل التاسع عشر

في الأمراض العقلية والذهانية

مقدمة :

يطلق العامة لفظ مجنون على كل إنسان مصاب بالاضطراب في الإدراك أو الوجدان أو التفكير أو السلوك، بالرغم من أن كلمة جنون لا يوجد لها مقابل في التصنيف النفسي أو العقلي، كما تمتد أحياناً هذه التسمية لتشمل كافة الأشخاص المضطربين نفسيًا، ولا شك أن ذلك ناتج من نقص الوعي النفسي للأمراض.

تعريف الذهان :

الذهان هو أكثر الاضطرابات العقلية خطورة متمثلاً ذلك في وجود خلل دائم في الشخصية ويعوقها عن أداء عملها، إضافة إلى أن الشخص المصاب بالذهان يتميز بالخصائص الآتية:

١- اضطراب واضح في السلوك مثل الانطواء، إهمال الذات، العمل، اهتمامه بأشياء بعيدة عن طبيعته مثلاً بالجهاز التشريحي للنمل.

٢- تشويش في محتوى (مجرى التفكير) وأسلوب التعبير عنه.

٣- تغيم الوجدان ، ويتمثل ذلك في أن انفعالات المريض تتميز بالخلط وعدم الموازنة.

٤- افتقاد المريض إلى الاستبصار بطبيعة وخطورة المرض، ومن هنا فإن الشخص الذهاني لا يشكو ولا يسعى إلى العلاج، بل يشكو منه المحيطون به وهم الذين يجبرونه على العلاج.

٥- حدوث تغيرات جوهرية في بنية شخصية المريض، واكتسابه عادات وتقاليد وسلوكيات تختلف عما كانت قبلها.

٦- اضطراب في الإدراك مع وجود ضلالات وهلاوس يعتقد بصحتها المريض.

٧- البعد عن الواقع بل وقطع الصلة به.

وعمومًا فإن الاضطرابات الذهانية تصيب ما يقارب الـ ٥٠: ١٠% من مجموع السكان.

تصنيف الذهان :

ويصنف العلماء مرض الذهان إلى قسمين :



الأول : ذهان عضوي Organic Psychosis:

والذي ينشأ نتيجة أسباب عضوية مصدرها إما تلف في المخ أو في الأعضاء الأخرى من الجهاز العصبي؛ ولذا فهناك أنواع مختلفة من الذهان العضوي منها: ذهـان الـشيخوخة، والصرع، والذهان الناجم عن أورام في المخ والعدوى والزهري مثلاً، وهناك أيضًا الـذهان الناتج عن إصابات المخ والحوادث والإدمان والكحوليات.

وتعتبر الأذهنة العضوية الناتجة عن تلف في مركز المخ من أكثـر أنـواع الـذهان العضوي شيوعًا، ولها أعراض تميزها عن الذهان الوظيفي في المحاور الآتية:

١- **اضطراب الذاكرة** : خاصة الذاكرة القريبة مع خلط الذكريات بعضها بالبعض الآخـر بالرغم من تباين المسافات الزمنية بينها.

٢- **التغيرات الوجدانية** : مثل فقدان الاهتمام بالبيئة المحيطة بالشخص وعدم الاكتـراث لما يحدث ولعل ذلك يميز ذهان الشيخوخة.

٣- **التدهور العقلي العام** : كالعجز عن التجريد، وفهم الأفكار الجديدة والعجز عن الحكم الجيد على الأمور، الإصابة بالخمول، وخاصة في حالات الذهان العضوي الناتج عن تحليل المراكز العصبية نتيجة للشيخوخة.

٤- **النوبات الصرعية** : حيث تؤدي إصابات المخ أحيانًا إلى اضـطرابات فـي النـشاط الكهربائي وإيقاعات في المخ مما يسبب النوبات الصرعية.

٥- **اضطرابات الانتباه** : كالتشتت السريع للانتباه والهذيان مع وجود صعوبة في التركيز في موضوع محدد.

٦- **عدم الوعي بالزمان والمكان** : خاصة في حالات الذهان العضوي الناتج من إصابات المخ أو الحوادث الخطيرة التي تنتهي إلى إصابات في المراكز العصبية (عبد الستار إبراهيم، ١٩٨٨، ٥٧: ٥٨).

الثاني : الذهان الوظيفي Functional Psychosis

حيث يكون السبب الأساسي نفس المنشأة وهو المرض العقلي الذي لا يرجع إلى سبب عضوي ولذا فنجد اضطرابًا واضحًا في مثل هؤلاء الأشخاص المصابين بهذا المرض مثـل العجز عن العمل، صعوبة التوافق مع الذات أو الآخرين، اضطرابات حاسـمة تـشمل كافـة جوانب الشخص.

وعمومًا فإن هذا الذهان يتميز عن العصاب بالآتي :

١- عدم الاستبصار بالمرض والعجز بالتالي عن الإحساس بوجود مشكلة.



٢- فقدان الصلة بالواقع والانسحاب منه وصنع عالم خاص به.

٣- الاختلال الواضح في إدراك الزمان والمكان بل والهوية / الذات .

٤- قد يكون خطرًا على نفسه وعلى الآخرين مما يستدعي ضرورة حجزه في مصحة عقلية حماية له وللآخرين.

مآل الذهان بصفة عامة :

مآل الذهان الوظيفي أفضل من مآل الذهان العضوي وقد وجد أن العلاج المبكر، والتعاون التام مع المريض وأسرته والفريق العلاجي في متابعة المريض يكون أفضل، لدرجة أن ٨٠% من مرضى الذهان الوظيفي يمكن أن يتم شفاؤهم بين بضعة أشهر وعام. على عكس الحال كلما كان العلاج متأخرًا، أو وجد فجوة أو عدم تعاون بين أسرة المريض والمعالج.

ويعد الذهان المزمن من أصعب المشكلات التي تواجه المشتغلين بالعلاج النفسي، وإذا أزمن الذهان حدث في حياة المريض (انهيار إجمالي) وعادة ما ينظر إلى مريض الذهان على أنه مريض "مقيم" في مستشفى الأمراض النفسية العقلية.

وسوف نتحدث عن فئات من مرض الذهان الوظيفي :

١ - الفصام Schizo Phernia

للفصام تاريخ طويل من اهتمام البشرية ولذا فقد وصف بعدة طرق، لكن أول محاولة عملية جادة كانت لكرايبلين الذي أطلق عليه اسم العته المبكر Demntia Preacax عام ١٨٩٩، حيث وصف دمج مجموعة من الأعراض الذهانية التي يتميز صاحبها بتدهور في وظائف التفكير والإدراك والمزاج والتي كان يرى أنها تظهر في فترة مبكرة من الشباب.

إلا أن بلويلر قد اعترض على هذا التصنيف مستندًا إلى أمرين:

الأول : أن اعتقاد كرايبلين بأن هذا المرض لا يظهر إلا في الشباب.. هذا الاعتقاد غير صحيح لأنه يمكن أن يظهر المرض في أي فترة من فترات العمر.

الثاني : لم يوافق على أن العته المبكر هو ذهان للشباب يقابل ذهان الشيخوخة بين المسنين ولذا فإن الصور الإكلينيكية لهذا السبب تتفق مع الصورة الإكلينيكية لذهان الشيخوخة واقترح استخدام مفهوم الفصام Chizo – Phrenia لوصف هذه المجموعة من الأعراض والتي تتميز بانقسام وظائف الشخصية والتي تعد القاسم المشترك في كل الاضطرابات النفسية.

الصور الإكلينيكية لمرض الفصام : يحمل المرشد الإحصائي الأمريكية الثالث DSM III(1980) الصور الإكلينيكية لاضطرابات الفصام :



١- **وجود هواجس لا أساس لها من الصحة أو الواقع:** كأن يعتقد المريض أن قوى خارجية تسيطر عليه، وأن الأفكار التي تذاع على الهواء، وأن مخابرات الدول المتقدمة تتسابق للتصنت عليه، ويطلق الأطباء النفسيون على هذا النوع من الاضطراب العصبي اسم "اضطراب في محتوى التفكير".

٢- **اضطراب في شكل التفكير :** حيث نجد اضطرابًا في شكل التفكير وفي التداعي، وكذلك الانتقال من موضوع إلى آخر دون أي روابط ومع استمرار التدهور قد تصل إلى درجة عدم فهم ما يقوله لأنه يقدم شكلاً من أشكال الجمل غير المترابطة.

٣- **اضطرابات عمليات التفكير :** ويقصد بها العجز عن الاستمرار في موضوع واحد إضافة إلى تشتت التفكير نحو جوانب هامشية لا علاقة لها بالموضوع الأصلي.

٤- **اضطراب الوجدان** والذي يأخذ شكلين:

أ- التبلد الانفعالي ويظهر في عجز المريض عن الانفعال الشديد المناسب للموقف.

ب-عدم ملاءمة الانفعالات للحوادث الداخلية أو الأفكار الداخلية.

٥- **الاضطرابات الحسية والحركية:** مثل الجمود في المشي، أو السير جيئة وذهابًا بطريقة منتظمة دون هدف واضح.

٦- **العجز عن اتخاذ القرارات :** وذلك ناتج عن عجز الفصام عن ضبط سلوكه.

٧- **وجود هلاوس :** أي إحساسات حسية لا أساس لها من الواقع ومنها الهلاوس السمعية والبصرية والشمية والتذوق واللامسية دون أن يكون لها أساس واقعي.

مدة انتشار الفصام :

ليس من السهولة بمكان حصر أعداد الفصاميين في أي مجتمع، كما أن الفصاميين المتواجدين في أي مستشفى نفسي ليسوا هم المؤشر الوحيد على هذه النسبة، ويصيب الفصام عادة بين ٣٠: ٨٥% من مجموع أي شعب، فإذا كان تعداد الشعب المصري مثلاً سنويًا مليون، فيكون عدد الفصاميين حوالي ستمائة ألف مريض بالفصام وهي نسبة لا يستهان بها كما يمثل مرض الفصام حوالي ٦٠-٧٠% من المرضى نزيلي مستشفيات العقول، والانفصام أكثر انتشارًا في الرجال قبل سن الثلاثين وأكثر انتشارًا في النساء بعد سن الثلاثين. وقد وجد أن الذين يهاجرون إلى بيئات وثقافات مختلفة اختلافًا شاسعًا عن بيئاتهم يكون أكثر عرضة للفصام.

كما ينتشر الفصام في الأماكن المزدحمة بالسكان حيث الفقر والجهل والمرض والجريمة وأحيانًا وجود قيم مختلفة للقيم العامة للمجتمع، ولذا كان الفصام أكثر انتشارًا في



الطبقات الاجتماعية الاقتصادية الدنيا، كما أنه أكثر انتشارًا بين العزاب عن المتزوجين وكان يعتقد أن الفصام لا يغزو المجتمعات المتخلفة، بيد أن الدراسات قد أثبتت خطأ هذا الاعتقاد، وأن نسبة الانتشار واحدة وإن اختلفت المظاهر.

كما يزدهر الفصام في فصلي الربيع وأوائل الصيف وذلك كمعظم أمراض الذهان الحادة والتي تنتشر في هذه الفصول، كذلك تنتشر بين مواليد فصل الشتاء ويظهر في أصغر أبناء العائلات المتعددة الأفراد. وكانت هذه النتائج تحتاج إلى المزيد من الدراسات المدنية والملاحظات الإكلينيكية.

أسباب الفصام :

يحصر معظم الأطباء أسباب الفصام في ثلاث مجموعات هي :

أولاً : العوامل البيولوجية :

نشأ الاعتقاد بأن للفصام أسبابًا وراثية من ملاحظة ارتفاع معدل حدوثه في عائلات معينة دون أخرى فإذا كانت نسبة حدوث الفصام بصفة عامة أقل قليلاً من ١% تقريبًا ٠,٨٥% إلا أن معدل حدوثه في عائلات معينة – قد تمت ملاحظتها عبر ثلاثة أجيال – وجد أعلى بكثير – أي بنسبة من ٤–١٠% داخل العائلة الواحدة إلا أن الأمر ليس بهذه البساطة ولذا فقد نشطت الأبحاث بل وتضاربت في هذا الصدد.

ويعتقد كثير من الباحثين أنهم قد وجدوا تغيرات كيميائية حيوية محددة في الفصاميين وهذا يثير تساؤلاً : هل الفصام كان سببًا أم نتيجة لهذه التغيرات؟ أم من المعلوم أن كل ما يحدث في المخ له مقابله الكيميائي الحيوي أو الفيزيائي الحيوي. صحيح أن هناك تغيرات تحدث في الفصام إلا أن ذلك ما يزال يحتاج إلى العديد من الاتجاهات والدراسات.

ثانيًا : الأسباب النفسية :

وتعد الأسباب الأحداث السيكولوجية هامة جدًا لإحداث الفصام مثلها في ذلك مثل التهيئة البيولوجية فالأوضاع الأسرية وخبرات الطفولة والمراهقة والشباب المبكر تكون سلسلة من الأسباب والنتائج تؤدي إلى أسلوب في الحياة يتميز بعدم الاستقرار وبأنه عرضة للتغيرات المرضية ويعود يحاول طول حياته المستمرة بالقابلية العالية للتغيرات المرضية – بناء دفاعات نفسية، أي وسائل نفسية يسعى عن طريقها إلى حماية إحساسه بهويته وينفرد بالذات. وعندما يثبت فشل تلك الدفاعات، ويصبح غير قادر على قبول نفسه على الإطلاق، يلجأ إلى ما يمكن تسميته بالدفاع الذهاني وهنا يظهر أعراض الفصام وتسمح له بأن يستمر في الحياة بعدد أقل من الألم.



ثالثًا : الأسباب الاجتماعية الثقافية :

إذ من المفروض أن الفقر والحرمان والضغوط الاجتماعية والهجرة، والانتماء لأقلية اجتماعية، والحياة في الأحياء الفقيرة، من شأنه أن يزيد معدل حدوث المرض بيد أن تزايد حدوث معدل الفصام في المراكز الحضارية الكبيرة وبخاصة المراكز الصناعية. والخلاصة أن العوامل الاجتماعية الناتجة من الإحساس بالمعاناة وذلك لا شك يمهد السبل أمام حدوث الفصام، والخلاصة أن الفصام حالة ذات أسباب متعددة متشابكة، تتأثر فيها العوامل البيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية الثقافية.

أنماط الفصام :

يتميز عادة بين أنماط الاضطراب الفصامي إلى

١- الفصام البسيط Schizo Pherinia ويتميز بالآتي :

١- يبدأ من سن مبكرة من ١٥-٢٥ سنة، أو يزحف ببطء تدريجيًا حتى ينتهي بتدهور مستمر في الشخصية.

٢- يتميز هذا النوع من الفصام بالاضطرابات الوجدانية والإرادة ولا تظهر أي أعراض كتانونية أو اختلالات أو هلاوس.

٣- وينتشر هذا النوع بين أقرباء مرضى الفصام وبين موظفي الدرجات السفلى، وبين المدخنين، والمجرمين، والمنحرفين جنسيًا، كما يكثر بين متوهمي العلل البدنية.

ولذا فإن هذا النوع من الفصام يعد من أصعب الأنواع تشخيصًا.

الفصام الهيبفريني :

ينشأ هذا النمط خلسة أو عادة ما يبدأ مع بداية المراهقة، وأحيانًا قد يكون المرض سريع الظهور وإن لم يعالج مبكرًا فسوف يحدث تدهورًا تامًا في الشخصية. ويتميز هذا النوع بالآتي :

١- اضطرابات شاملة في التفكير، خاصة صعوبة التفكير، فإذا كان الفصام يهاجم الشخص في سن مبكر، فلنا أن نتوقع حدوث تدهور فجأة في مستوى الطالب الذي كان متفوقًا دراسيًا أو مهنيًا.

٢- اضطرابات الإرادة والسلبية .

٣- اضطرابات الوجدان من التبلد وعدم مناسبة الانفعال.

٤- الهذاءات المتغيرة وأحيانًا الهلاوس السمعية.



٥- اضطرابات السلوك.

٦- تأرجح بعض الأعراض القهرية والغامضة تتحول إلى ضلالية وهلاوس.

٧- الاختلال الآني والعالم الخارجي حيث يبدأ المريض في الشعور بأنه قد تغير وأن العالم من حوله قد تغير، ويبدأ في الإحساس وكأنه في حلم دائم.

٨- يبدأ المرض بطريقة غامضة قبل ظهور الاضطرابات السابقة، فمن توهم علل بدنية وتركيز على العادة السرية أو الصمت أو الخوف من الأمراض خصوصًا الدرن والسرطان، بل وأحيانًا ما يبدأ المرض بأعراض عصابية غامضة أو انحراف وزيادة في الطاقة الجنسية (عكاشة ١٩٨٠، ١٨٣: ١٨٤).

٣- الفصام الكتاتوني "Cetstonoic S":

ويتميز بأطوار من الذهول أو الهياج، وفي كليهما يسود العناد والذاتية أو قد يوجد تبادل بين قلة الحركة أو انعدامها من ناحية والنشاط الزائد الاندفاعي من ناحية أخرى. ويظهر المرض غالبًا ما بين ١٥: ٢٥ سنة وتنشأ الكتاتونية في معظم الأحيان حادة ويرسبها غالبًا أو يسبقها خبرة انفعالية مؤلمة.

٤- الفصام البارانويدي "s" Paranoid

وتعد الهذاءات من الخصائص الواضحة في هذا النمط من الفصام، إضافة إلى الهلاوس، واضطراب التداعي والانفعال والعناد وغالبًا ما تتميز شخصية المريض بافتقارها إلى العلاقات الطيبة مع الآخرين، والبرود والعزلة والتشكك، والاستتباء، كما قد تتميز الشخصية بالعنف وكثرة الجدل والاستهزاء والتحكم والعداء مع السلطة ويظهر فصام البارانوية إلى الظهور في سن متأخرة إلى حد ما عن أنماط الفصام الأخرى، ويأخذ شكلين : فصام العظمة، وفصام الاضطهاد.

٥- الفصام غير المتميز Undifferemtated type

وهذه الفئة تشمل كافة الأعراض التي يصعب وصفها في أي فئة من الفئات السابقة. مع وجود أعراض وعلامات مميزة في هذه الفئة مثل الأعراض السابقة للاضطراب العقلي، والانفصال عن الواقع والسلوك المضطرب بأشكاله المتباينة.

المآل : نجد أن نسبة الشفاء التام حوالي ٢٥% ونسبة الأزمات في مرضى الفصام، ويمكن لمرضى الفصام الذين تلقوا العلاج السليم الخروج من المستشفى في حدود ٦-١٢ شهر ويلاحظ أن الفصام الكتاتوني هو أحسن الأنماط الإكلينيكية للفصام من حيث المآل يليه الفصام



الهزائي، ثم الفصام البسيط. كما أن مرض الفصام من أكثر الأمراض في الفعلية التي يحدث فيها انتكاسات ولا شك أن تقدم أساليب العلاج وتنوعها قد عجل بتواجد أساليب جديدة تساهم في الشفاء، فضلاً عن أن العلاج المبكر ومساعدة الأسرة للفصامي مع الفريق المعالج تساعد على الشفاء.

الذهان الوجداني : ذهان الهوس والاكتئاب Manid Depressive Psychosis:

يعد هذا الذهان من أقدم الأمراض التي عرفتها الإنسانية، لدرجة أن أعراض هذا المرض قد وصفها أبقراط في القرن الرابع قبل الميلاد وإنما مصابًا بالميلانكوليا (الاكتئاب) والهوس. ومنذ القرن الأول الميلادي والأطباء يرون أن الاكتئاب والهوس مظهران لمرض واحد ومع ذلك نجد من يقتضي على الوصف، ويرون أن الاكتئاب مرض، والهوس مرض في حد ذاته، ورأي ثالث يرى أنها عملية واحدة ذات قضيبين يحتل الهوس أحدهما والاكتئاب القضيب الثاني.

وعمومًا فإن هذه المجموعة من الأمراض تتميز بالآتي :

١- اضطراب أولي في الوجدان ينبع منه جميع الأعراض الظاهرة وتتأرجح بين النقيضين من الاكتئاب والهوس والرغبة في الانتحار إلى المرح والنشوة.

٢- يتميز الذهان الوجداني بنوباته المتكررة، الدورية، والتي يكون المريض بينهما في حالة سوية تامة.

٣- يشفى المريض بعد كل نوبة دون اضطراب أو تدهور في التكامل العام لشخصيته.

ويعرف ذهان الهوس والاكتئاب بأنه مرض ذهاني يشاهد في الاضطراب الانفعالي أو تتولى فيه الدورات المتكررة من الهوس والاكتئاب أو يكون خليطًا من أدوار الهوس والاكتئاب.

مدى انتشار المرض:

إن اضطرابات المزاج من أكثر الأمراض شيوعًا ومؤلمة عن ما لديه من المعاناة والآلام النفسية بين ألف من الأفراد.

ويشيع اضطراب الهوس والاكتئاب بين أفراد نفس الأسرة وأن العامل الوراثي قد يكون إحدى أسباب الاضطراب. فقد ذكر أن حدوث الذهان، والهوس، والاكتئاب، بين إخوة المريض تعادل (٢٥) مرة ضعف حدوثها بين مجموع العام. كذلك وجد أن الاضطراب والهوس والاكتئاب يحدث بين الطبقات العليا بمقدار ثلاثة أضعاف حدوثها بين مجموع العام.



كما أن الاضطراب يحدث بين الإناث بمقدار ضعف حدوثه بين الذكور تقريبًا. ومتوسط السن التي تنشأ فيها المرض عند الإناث أقل منه عند الذكور.

كما وجدت الأبحاث علاقة بين المرض والبناء الجسمي البدين وقد وجد أن المــريض يتسم قبل المرض بالاكتئاب أو المرح أو الإثارة أو دورية الانفعال. أي تظهر النوبة الأولــى بين سن ٢٠: ٣٥ سنة. ويذهب بعض الأطباء إلى القول إن ذلك يحــدث بــسبب اضــطراب العمليات الكيميائية أو التنظيمية في الجسم كما وجدت الأبحاث أن هذا المرض أكثر انتــشارًا بين المثقفين كما أنه نادر الحدوث في المجتمعات المختلفة ذات الإيقاع الحــضاري البطــيء. كما أن أصحاب هذا المرض يشكلون نسبة لا يستهان بها من المترددين على العيادات النفسية.

أسباب ذهان الهوس والاكتئاب:

يعزو البعض إلى العامل الوراثي الدور الحيوي في إحداث هذا المرض – وقد تعددت الأبحاث في هذا الموضوع مركزة على الإخوة أو التوائم المتشابهة بهــدف معرفــة العامــل الوراثي حيث أوضحت هذه الدراسات أن نسبة الإصابة بالاضطرابات الوجدانية بين التــوائم المتشابهة تصل إلى ٦٨% وبين التوائم المتآخية حوالي ٢٣% كما أشارت العديد من الأبحاث إلى الحقائق أو المؤشرات الآتية:

أ- وجود عاملين من الفصام والاضطراب الوجداني، وإذا تــزوج مريــضان أحــدهما أخصائي، والآخر مصاب بذهان الوجدان فسيكون أطفالهم فصاميين، أو وحدانيين، أو مزيج بين الاثنين.

ب-وجود علاقة ارتباطية بين الإصابة بمرض الذهان الوجــداني وســمات الشخــصية النوابية، والتي هي في التحليل النهائية استعداد وراثي.

ت-وجود علاقة بين الاضطرابات الوجدانية وأمراض الشرايين وخاصة تصلب الشرايين أو ارتفاع ضغط الدم وأمراض القلب والبول السكري.

١- التكوين الجسدي :

أثبتت العديد من الأبحاث في هذا الصدد أن هذا المرض يــصيب فــي الغالــب ذوي التكوين الجسدي "المكتنز" حيث يميل الجسد إلى البدانة، قصر الرقبة، دوران الوجــه، كبــر البطن، على الأطراف ضعيفة إلى حد ما، كما يرتبط هذا المرض والشخــصية أو الجــسم أو الأمراض الروماتيزية والسكر وأمراض القلب والشرايين.

٢- الأسباب النفسية :



حيث تتعدد الاتجاهات النفسية في هذا الصدد، وتراوحت ما بين إحباط لدوافع المريض إلى تحد لقدرات الفرد إذ عدم التوافق بين قدراته وإنجازاته أو الحرمان الأبوي ما بين فترة الطفولة ونشأته، بل إن فرويد يعزو هذا المرض إلى فقدان موضوع الحب مع ما يترتب عليه من نكوص في المرحلة العمرية. بل إن القضية التي تثار هي : هل هذه الأسباب أو العوامل النفسية هي نتيجة أم سبب للمرض؟

٣- اضطرابات الغدد الصماء :

حيث لاحظ العلماء المؤشرات الآتية :

- تزايد الأعراض الاكتئابية أثناء الطمث وفترة ما قبل الطمث على ما يرافق ذلك من الصداع، وتوتر وسهولة التهيج العصبي.
- تزايد أعراض الاكتئاب أثناء سن اليأس وتحديدًا حيث تتوقف نشاط الهرمونات الجنسية.
- تظهر أعراض الذهان الدوري بكثرة بعد الولادة، وأثناء التغيرات الفسيولوجية والهرمونية وكذلك مع تناول حبوب منع الحمل.
- حين يحدث زيادة في إفراز هرمون الدرقية يصاب الفرد بحالة من الانبساط الحاد.
- معه زيادة إفراز الغدد الأدرينالية يصاحب ذلك أنواع من الذهان الدوري من الاكتئاب أو الانبساط.



الأعراض أو الصور الإكلينيكية

أمكن حصرها في الفئات التالية :

أولاً : الاكتئاب الذهاني ويشمل :

١- الأعراض الاكتئابية :

شدة الأعراض الاكتئابية تحدث وتتزايد في فترة الصباح الباكر ثم يحدث تحسن تدريجيًا أثناء النهار حتى تقل حدتها ليلاً. مع ما يرافق ذلك من فقد القدرة على التمتع بالمباهج والأشياء التي كانت تسعده من قبل، وانخفاض الروح المعنوية، والانقباض، واليأس، والدخول في نوبات بكائية، والحزن الشديد، وفقدان الأمل بالنفس والحياة.

٢- الأعراض النفسية : وتأخذ المظاهر الآتية :

- الوظائف الفعلية تتأثر بالاكتئاب ويتجلى ذلك في البطء أو قلة الانتباه، كثرة السرحان، انعدام التركيز، وتشتت الانتباه، وصعوبة التركيز.
- الإجهاد الشديد عند التفكير مع مرافقة ذلك للمخاوف؛ فالمريض يظل مكتئبًا حين يخرج واحد من أولاده لشراء شيء من عند البقال، ويظل يفكر في كوارث ستحدث لهذا الابن. ولا شك أن ذلك يرهق المريض، ويشل علاقاته الاجتماعية.
- توهم العلل البدنية، هي من الأعراض الأكثر شيوعًا ولذا فإن هؤلاء المرضى يبدءون جولات لا تنتهي على عيادات أطباء الباطنة وكافة التخصصات.
- الشعور بعدم الأهمية وانخفاض الذات.
- الضلالات ويعني بها اعتقاد المريض بصحة أشياء معينة، وينتشر هنا هذاءات العدمية وتعني الإحساس بفقدان أو غياب أحد أعضاء الجسم أو توقفه عن العمل. فيتوهم المريض مثلاً أن رأسه فارغة أو أن قلبه غير موجود في صدره، وهكذا يدخل في دائرة المؤامرة وأن هناك جهة أو جهات معينة قد قامت بالسطو وخطف قلبه أو عقله مثلاً ويدخل في حالات الاضطهاد. وهكذا تتشعب وتتشابك الأمور.
- اختلال الآنية والعالم الخارجي: حيث يعتقد أنه قد تغير وأن العالم أيضًا قد تغير وأن الأمور لم تعد كما كانت من قبل.
- الهلاوس والخداعات: حيث تظهر الهلاوس السمعية والبصرية التي يتوقف محتواها مع طبيعة التفكير الاكتئابي الوسواسي، فنجده يسمع أصواتًا تصرخ فيه: أنه لا يستحق الحياة، وأن الموت ينتظره وهكذا.



٣- الأعراض الفسيولوجية:

وتأخذ عدة أشكال مثل اضطراب دورة النوم، وفقدان الشهية، والإمساك، والضعف الجنسي، واضطراب الطمث أو الدورة الشهرية عند السيدات.

٤- الأعراض السلوكية :

وتتمثل في مظهر المريض الخارجي حيث يكون مجدًا للحزن والكآبة وهكذا رفضه الذهاب إلى العمل والمشاركات الاجتماعية، ويقل نشاطه الحركي، بل قد يقدم على الانتحار، ولا شك أن ذلك من أخطر الأعراض شيوعًا (عكاشة ١٩٨٠، ٢١٤: ٢٣١).

ثانيًا : الهوس الذهني :

ويأخذ المظاهر الآتية :

١- تزايد شديد في مستويات النشاط المختلفة مثل :

أ- **النشاط الحركي :** والذي يتمثل في التوتر وعدم المثابرة على عمل واحد، النشاط الجسمي الزائد الحد بطريقة قد تؤدي إلى إعياء المريض والإرهاق.

ب- **النشاط الاجتماعي :** مظاهر غير ملائمة كالاتصال بالآخرين في أوقات غير مناسبة والرغبة في تجديد علاقات قديمة، الإسراف، الكرم المفرط مع وجود ميل للتحكم في الآخرين، عدم مراعاة مشاعرهم.

ج – **النشاط الجنسي :** حيث المبالغة في الممارسة، مع ميول استعراضية، التبرج والتزين المفرط وأحيانًا العري، استخدام الإيحاءات الجنسية سواء بالحديث أو الإشارة مع الآخرين.

٢- طريقة التحدث مع الآخرين تتميز بارتفاع الصوت والسرعة، ومن الصعب مقاطعتهم، وكثيرًا ما تمتلئ لغته بالكثير من أفكار العظمة، مع وجود طريقة مسرحية في عرض الأفكار والانتقال من موضوع إلى آخر بصورة سريعة يصعب معها متابعته.

٣- سرعة انتشار التهور أو قد يتخذ شكل الإغراق في نشاطات تكون أحيانًا وخيمة العواقب مثل : الإدمان والغزوات الجنسية، واستثمار النقود في مشاريع خاسرة.

٤- تشتت الانتباه بسبب سرعة التداعي والتحول في تفاصيل خارجية غير ملائمة.

٥- تناقص أو انعدام الحاجة إلى النوم (عبد الستار إبراهيم، ١٩٨٨، ٥٥).



ثالثًا : الذهان الدوري :

ولعل أهم خاصية أساسية له هي : الانتقال الشديد من حالات وجدانية متطرفة إلى حالات وجدانية أخرى معارضة، والذي يتخذ غالبًا شكل دورات متكررة تتمثل في الانتقال من حالات الهوس إلى حالات الاكتئاب الشديد أو من المعروف الآن أن ما يقرب من ٢٥% فقط من حالات الذهان الوجداني حالات دورية من الهوس والاكتئاب بينما تحتل حالات الهوس الخالص ٣٠%، والاكتئاب الخالص غير المصحوب بهوس ٤٥% وبالرغم من اشتمال الذهن الدوري على نوبات من الهوس والاكتئاب بينما يمثل حالات الهوس تكون أقل كثيرًا من دورات الاكتئاب وتتميز الشخصية الذهانية الدورية بوجه عام بالتذبذب الانفصامي الشديد، والتقلب المزاجي وتشتت الانتباه وضعف الذاكرة القريبة ضعفًا شديدًا مع الميل إلى المبالغة الشديدة وفي الاستجابات الانفعالية.

وهكذا يتضح مما سبق أنه قد تم تقسيم المرض إلى ثلاث فئات :

١- الاكتئاب ٢- الهوس ٣- الذهان الدوري

ولذا فلكي يتم تشخيص المرض، لا بد أن تكون الدورات الوجدانية هذه (هوس- اكتئاب- أو العكس) ذهان دوام نسبي لا يقل عن سنتين. وسوف نشير في عجالة إلى طبيعة كل شيء.

أولاً : نمط الهوس ينقسم إلى :

- **الهوس البسيط** : حيث يتسم المريض بخفة الروح واللطافة والرضا عن الذات والثقة بالنفس والطاقة التي لا حدود لها. كما يكون زلق اللسان وعدوانيًا وشرسًا ويحب الجدل، وينفق نقوده بإسراف حتى إنه قد يرهن ممتلكاته كما يسهل تشتت انتباهه غالبًا، ويشيع تذبذب الانفعال الفجائي، كما يعمل بطاقة كبيرة ويكون فضوليًا يتدخل في شئون الآخرين بل قد يناقش الغرباء في أخص خصوصياته دون تحفظ.
- **الهوس الحاد** : حيث تتزايد مؤشرات الحماس والمرح الشديد فيأخذ المريض في الغناء والرقص والصفير والابتهاج إلى حد الإزعاج، يثير مرض أفكار العظمة، ربما هذاءات عابرة عن الثروة والقوة، وقد يتخلل المرح هذا نوبات من الغضب خاصة إذا أحبطت رغباته فيتحول إلى شخص عصبي اندفاعي ينتقم من الآخرين أو يسخر منهم في صورة مبالغة فيها.
- **الهوس الهذياني** : حيث يتميز باضطرابات عادة شديدة، بل يفشل في التعرف على الآخرين، فيتعرف على الشخص الغريب وكأنه معروف له من قبل وذلك بسبب



ملاحظة لبعض أوجه الشبه، بينما لا يستطيع التعرف على أوجه الاختلاف، بل قد يصل إلى تشتت للانتباه فلا يتعرف على مفردات البيئة التي يعيش فيها. وإذا أصبح الهوس حادًا وخطيرًا إلى هذا الحد فمن الأفضل حجزه في مستشفى عقلاني لأنه يكون خطرًا على نفسه وعلى الآخرين.

ثانيًا : النمط الاكتئابي : وينقسم إلى :

- **اكتئاب بسيط :** حيث يفقد المريض الثقة في نفسه، كما يفقد طعم الحياة، ويشعر بعدم الأهمية والإجهاد، ويظهر نفورًا متزايد النشاط ويرغب في أن يترك بمفرده، ويجد صعوبة في القيام بواجباته العادية، كما تتشابه بعض الشكوك والضلالات، وتكثر الشكوى الجسدية من الآلام أو الإصابة بأمراض معينة خطيرة ويعاني من اضطراب النوم، وفقدان الشهية والإمساك، والملل.
- **الاكتئاب الحاد :** هنا تتطور أعراض الاضطراب، فنلاحظ انحناء الجسم وانثناء الرأس وضمور الوجه وتجاعيد على الجبهة كما يفقد وزنه وتقل رغبته الجنسية أو قد يصاب بالعنة، كما تنتابه حالات من الخوف والذي يدور حول وقوع الحوادث.
- **الاكتئاب الذهولي :** وهو أشد حالات الاكتئاب حيث لا يوجد نشاط حركي تلقائي فيلزم فراشه ولا يتحرك ولا يتكلم ولا يأكل، ويضطرب نومه ويكون شديد الانشغال بالموت وما بعده، وهلاوس تشبه الأحلام.

مآل ذهن الهوس الاكتئابي :

أن مآل المريض يكون جيدًا عادة في حالة حدوث نوبة واحدة، ولكن من الواضح أن تكرار النوبات من الأمور الشائعة في هذا المرض، كما أن من خصائص هذا المرض إن لم يترك أثرًا في الشخصية أثناء النوبة أو عقبها، ولكن تكرار النوبات قد يترك اضطرابًا في المبادئ والحكم، ويصبح الشخص أقل قدرة على مواجهة ضغوط الحياة. والسن الذي تحدث فيه أول نوبة يكون ما بين ٢٠: ٢٥ سنة، بينما تحدث أول نوبة من الاكتئاب في السن التي من ٣٠ سنة تقريبًا، وكلما حدثت النوبة مبكرًا لكل من الهوس والاكتئاب كلما كان مسار المرض سيئًا حيث تحدث نوبات أخرى. وإذا كانت النوبة الأولى من نمط الهوس فإنها تتكرر في معظم الأحيان. وإذا كانت النوبة الأولى من النوع الاكتئابي فإنها قد لا تتكرر، كذلك فإن سمات الشخصية قبل المرض تكون من أحد المشاكل الهامة في التنبؤ بمسار المرض. فإذا كانت شخصية المريض قبل المرض تتسم بالمرونة والتحمل والمسالمة. وله اهتمامات خاصة شاملة ومتنوعة مع الإحساس بالأمن والثقة في النفس، كلما كان ذلك مؤشرًا جيدًا لمسار المرض. والعكس صحيح فيما يتعلق بعكس هذه السمات في نمط الشخصية.



الفصل العشــرون

العلاجات النفسيـة



الفصل العشــرون

العلاجــات النفسيــة

مقدمة :

انبثق مفهوم العلاج من مهنة الطب، والتي اقتضت تصنيف الناس إلى فئتين : مرضى ومعالجين، وبصرف النظر عن حقيقة وواقعية هذا التقسيم إلا أنه ضروري الفهم.

وإذا كانت العلاجات تتنوع، فيجب اختيار نوع العلاج المناسب لحالة المريض بصورة واقعية. إذ قد يحدث في كثير من الأحيان أن يستسهل المعالج / الطبيب إعطاء علاج معين أو إعطاء المريض علاجًا يفضله الطبيب لا المريض.

وإذا كان الهدف من العلاج هو القضاء على الألم فليس هذا هدفًا واقعيًا؛ لأن القــضاء على الألم معناه القضاء على اللذة، ولذا فإن تحمل المريض لدرجة من الألم، ومعرفته أبعــاد وحقيقة المرض الذي يعانيه يكون هذا مصدرًا لتفهم المريض لحالته – حتى وإن كانت سيئة.

وقد تبدو مثل هذه التساؤلات أو الأطروحات فلسفية، بيــد أن المبالغــة فــي الطــب والذهاب إلى المعالج بحجة الإسراع في القضاء على الألم قد حول هــذا المنظــور للأشــياء المألوفة إلى أشياء مرضية يكتنفها المرض والتوتر والقلق فلقد مارســت البــشرية علاجــات للعديد من الأعراض مثل: الصداع، الانتفاخ، الإمساك على مدار آلاف السنين وبطرق فعالة. وقس على ذلك عمليات الولادة وكيف تحولت من عملية بشرية متكررة تتم دون تلــك الهالــة المحيطة بها الآن إلى عملية يكتنفها القلق والغموض والهلع.

كما أن تقسيمات العلاج إلى سطحي ومتعمق، أو عضوي ونفسي أو بيئي ما هــي إلا تقسيمات هدفها أن نفهم طبيعة العلاج وطبيعة الشخص ومدى مناسبة العلاج لشخص معين في بيئة معينة. فبمجرد الاستماع إلى المريض وشكواه قد يريحه، وأن المريض الذي يطلب دواءً معينًا ويستجيب له الطبيب هذا يريحه. كما أن تدعيم المريض وتشجيعه يترك آثارًا جانبية في نفسية المريض مع ما يترتب على ذلك من تغيرات فسيولوجية وكيميائية تنعكس بلا شك على نفسية المريض.

تعريف العلاج النفسي :

تتعدد التعريفات التي قدمت لمفهوم العلاج النفسي ومنها أن العلاج النفسي هو مداواة للنفس المضطربة بأساليب مختلفة من أهمها أسلوب الاتصال اللفظي، ويــؤدي العــلاج إلــى التأثير في نفس المريض وفي عقله وفي سلوكه وتتلخص ملامح العلاجات النفسية في :



١- استخدام القياس النفسي في كثير من الأحيان لقياس بعض الخصائص وذلك في الأشخاص الذين يعانون من مشكلات انفعالية.

٢- رغبة المعالج في مساعدة المريض.

٣- اتجاه المعالج إلى احترام شخصية المريض بالرغم مما فيها من انحرافات.

٤- العمل على مساعدة المريض على اجتياز الأزمة وتوجيهه الوجهة السليمة، ذلك أن من خواص الموقف العلاجي وجود شخص مضطرب يرغب في الشفاء، وشخص آخر متخصص يهدف إلى العلاج، وقد يتنوع هذا الموقف ويصبح لدينا أكثر من طبيب، أو أكثر من مريض وهكذا.

العلاج النفسي بين الفردية والجماعية :

حقيقة يجب أن نؤكدها أن الإكلينيكي يقوم بأدوار متعددة من ضمنها العلاج النفسي، بل ويجب أن يناضل الإكلينيكي والأخصائي النفسي في القيام بهذا الحق، كما أنه لا يوجد علاج نفسي واحد، بل إن هناك وجهات نظر متعددة ومتنوعة لكل منها أساليبها في العلاج ومحاكاتها في النجاح والفاعلية وإذا كان من الصعوبة عرض كافة النظريات التي تنهض على العلاج وفنياتها إلا أننا سنعتمد في هذا الحيز على ما قدمه Kendell Pnarton FAREL 1983 في تقديم الخصائص العامة المشتركة بين مناهج العلاج النفسي، وأهدافه، وعوامل فاعليته ونجاحه في الشخصية والسلوك من خلال عرض للمراحل الرئيسية وهي :

العام	مراحل التطور
١٧٩٣	بينيل Pinel العالم الفرنسي والذي دعا إلى تحرير المرضى العقليين من القيود ودعا إلى ضرورة الالتزام بقواعد أخلاقية / إنسانية في علاج المرضى
١٨٢٤	تود Todd يؤسس مكاناً أو مستشفى لخدمة المرضى العقليين وفق بعض القواعد الأخلاقية / الإنسانية والعلاج البيئي
١٨٤٠	بداية إنشاء المستشفيات العقلية
١٨٩١	برنهايم Bernhiem يقدم وصفاً للعلاج بالتنويم المغناطيسي
١٨٩٥	برويز Brem وفرويد S. Freud يضعان طريقة الطرح وأهميته الفعالة في العلاقة بين المريض والمعالج.
١٨٩٦	ويتمر Witmer يدعو إلى العلاج التربوي في العيادات النفسية.
١٩٠٠	فرويد يصوغ نظرية في الأحلام والتداعي الحر الطليق حيث أهميتها في العلاج النفسي



١٩٠٥	ورشتسر وبرات يبدآن طريقة العلاج الجمعي Group - The nap
١٩٠٥	فرنز يبدأ في تعليم المرضى بالاضطراب العضوي المصحوب بفقدان القدرة على الكلام كي يستعيدوا قدراتهم على استخدام اللغة.
١٩٠٦	جانيبه Janet يحاول الاهتمام بالاضطرابات السيكوباتية حيث يقترح إعادة تعلم استجابات المنافسة في المواقف الاجتماعية كطريقة لضبط الاندفاع والتهور لدى هذه الفئة.
١٩٠٨	ديبوا Debois يدعو إلى العلاج من خلال أسلوب الكلام لإقناع المريض بالتغير الإيجابي الفعال.
١٩٢٠	واطسون ورابنر Rayner يصفان نموذجا لحالة مرضية وكيفية اكتسابها الخوف وفق قواعد التشريط والتعلم البافالوفي.
١٩٢٢	أدلر يبدأ العلاج الأسري من خلال إجراء المقابلات العلاجية.
١٩٢٨	يبدأ ظهور تكنيك العلاج باللعب من خلال أنا فرويد
١٩٣٢	مورينو يقدم مفهوم العلاج الجمعي ومن قبله العلاج بالسيكودراما.
١٩٣٤	آلن Allne يقدم ما يسمى بالعلاج السلبي والذي أثر في كارل روجرز فيما بعد.
١٩٤٢	كارل روجرز يؤسس طريقة العلاج المتمركز حول العميل.
١٩٤٦	بفضل ألكسندر وفرانش تظهر طريقة التحليل النفسي المختصر لتصحيح الخبرات الانفعالية
١٩٤٨	ليفين وزملاؤه يقدمان قواعد جماعات التدريب T. Grops
١٩٤٨	يتسلهايم وزميله سيلفيتر يطوران قواعد العلاج البيئي Mitiev Therapy
١٩٤٩	سالتر يدعو إلى العلاج النفسي من خلال فنية الفعل المنعكس الشرطي وينشر كتابًا بنفس العنوان مما أدى إلى بلورة العلاج التوكيدي والتعليمي فيما بعد.
١٩٥٠	دولارد وميلر حاولا التوفيق بين نظرية التحليل النفسي والتعلم من خلال ما قدماه عن الشخصية والعلاج النفسي.
١٩٥١	ظهور العلاج الجشطالتي بفضل جهود العالم بيرلز Berls
١٩٥٢	ايزنك والذي قدم انتقادات لاذعة إلى العلاج بالتحليل النفسي.
١٩٥٣	فرانكل ودعوته إلى العلاج بالكلام كمنهج من مناهج العلاج النفسي الوجودي.



١٩٥٣	سكينز يطبق نظرياته وتجاربه في التشريط الإجرائي في ميدان العلاج وتعديل السلوك
١٩٥٤	سوليفان يقدم منهجه في العلاج بين الأشخاص Interpersonol
١٩٥٨	اكرمان يقدم منهج العلاج الأسري، مع وضع القواعد له.
١٩٥٨	وولبي يقدم مفهوم العلاج من خلال الكف – المتبادل.
١٩٥٨	ألبرت أليس يقدم قواعد العلاج العقلاني Retionali.T
١٩٦٣ ١٩٧٠	ظهور العلاج الجنسي Sextherapy بفضل ماسترز وحرمه.
١٩٦٤	ظهور العلاج بطريقة التحليل التبادلي / التفاعلي Transactional بفضل جهود بيرن Bern
١٩٦٨	وضع أسلوب اقتصادي، التدعيم في العلاج بفضل جهود كلامن أيلون وأزريني.

(نقلاً عن Kendal, p, c. etc, 1983, pp: 35-36)

طبيعة عملية العلاج النفسي :

لكي نفهم طبيعة عملية العلاج النفسي يجب أن نعرف :

١- لا بد أن يفرق الأخصائي الإكلينيكي بوضوح بين العلاج النفسي وبين بعض الإجراءات التي قد تكون علاجية (مثل العلاج بالعقاقير / الصدمات الكهربائية... إلخ). والتي تؤدي إلى تخفيض الأعراض وليست إزالتها.

٢- أن العلاقة في العملية العلاجية علاقة مهنية – وليست علاقة شخصية ، لها الخصائص الآتية :

أ- أن الرغبة في الفهم والاحترام والميل إلى المساعدة أمور تتجلى بصورة أكبر في شخص قد تدرب على هذه العلاقة والمعالج من ثم يكون أكثر الناس فهمًا لطبيعة هذه العلاقة.

ب-أن العلاقة المهنية تكون في الأساس موجهة لصالح المريض.

ج- أن العلاقة المهنية تتضمن مجموعة من الإجراءات المنظمة وفقًا لطبيعة ونظام العلاج وليس وفقًا للأهواء ولمصالح الشخصية (جدول مواعيد، زمن الجلسة، إجراءات الجلسة العلاجية، الفنيات... إلخ).



٣- من الضروري أن نحدد أهداف العلاج النفسي بوضوح وهذا يقتضي تحديدًا للأهداف على المستوى القريب، وللأهداف على المستوى البعيد، كما أننا يجب أن نؤكد أن العلاج النفسي في كثير من الحالات لا يؤدي إلى الشفاء الكامل كما أن نجاحه يتوقف على مساعدة المريض وأسرته في العملية العلاجية.

٤- لا بد من التفرقة بين المنهج العلاجي العميق الذي يهدف إلى التوصل إلى الجذور التي أحدثت الاضطراب أو المشكلة، والمناهج العلاجية المساعدة (والتي تهدف إلى معاونة المريض/ هنا والآن) في التغلب على أزمته الراهنة والعودة به إلى حالته السابقة قبل تفجر المشكلة أو الأزمة.

٥- تحديد معنى إستراتيجية العلاج وتكنيكه، وعلى المعالج أن يكون مدربًا على ذلك. ولعل الإستراتيجية تعني هنا ما يود المعالج الوصول إليه في مرحلة معينة من مراحل العلاج. أما التكنيك فيعني كافة الوسائل والطرق التي يحاول من خلالها تحقيق هدفه. (الزيادي، ١٩٨٨، ٣٣٤: ٣٤٠).,

أهداف العلاج النفسي :

يسعى العلاج النفسي – بصفة عامة إلى نمو الشخصية وسيرها نحو النضج Maturity والكفاءة وتحقيق الذات Self Actualization، ويتحقق ذلك غالبًا عن طريق المرور بالعمليات الآتية:

١- زيادة وعي الفرد واستبصاره وفهمه.

٢- حل أو تصفية الصراعات التي تسبب عجزه أو ألمه.

٣- زيادة قبول الفرد لذاته.

٤- توفير أساليب أكثر كفاءة للتعامل مع المشكلات والأزمات.

٥- تقدير عام للذات وبنائها عن طريق الملامسة وبث الشعور بالأمان.

خطوات العلاج النفسي :

يسير العلاج النفسي وفقًا للخطوات الآتية :

١- خلق وجود علاقة علاجية :

ويتضمن هذا إعداد حجرة العلاج بحيث تكون مناسبة وبها كافة الشروط المريحة لإتمام عملية العلاج، وعلى المعالج منذ البداية أن يحدد الوقت والتكاليف حتى تكون الأمور واضحة منذ البداية.



٢- الارتياح الانفعالي أو التنفيس الانفعالي:

حيث يسمح المعالج للمريض في هذا الجو الآمن أن "يفضفض" عما يرهقه ويؤلمه من مشاعر دون خجل أو خوف ولا شك أن هذا "التنفيس" هام وضروري في العملية العلاجية، إنه يساعد المعالج على الكشف عن صراعات المريض وتوتراته مصدر إحباطاته.

٣- الاستبصار :

ما إن تصبح صراعات المريض مكشوفة في العلن، وتتحول من الشكل الخفي إلى الشكل العلني حتى تتم عملية الاستبصار من خلال تكنيك التفسير الذي يطرحه المعالج.

٤- إعادة التعليم الانفعالي:

من العمليات التي تساعد في الشفاء إعادة تعلم المريض انفعاليًا وتقتضي هذه العملية إزالة تلك العادات الانفعالية الخاطئة التي تعلمها المريض وتعليمه عادات أخرى أكثر إيجابية وتوافقًا وتكيفًا.

٥- توقف العلاج :

عندما تحل صراعات المريض، ويحقق مزيدًا من التوافق الشخصي والاجتماعي، عندئذ يتوقف العلاج، بل ويصبح سهلاً خاصة إذا كان المريض يشعر بالثقة في نفسه، وأن يعتمد على نفسه، علمًا بأنه سيحدث طرح ومضاد للطرح في العملية العلاجية ويجب أن يكون المعالج على علم بكافة وسائل التعامل مع مثل هذه الأمور وتفسيرها للمريض (عبد الرحمن محمد عيسوي، ب: ت ٢٠: ٢٣).

تصنيف العلاج النفسي :

يصنف العلاج النفسي في الغالب إلى ثلاث فئات هي :

أولاً : العلاج العضوي :

وهو الذي يعتمد أساسًا على إحداث تغييرات عضوية في جسد المريض، وقد تكون الوسائل مؤثرات عضوية مباشرة مثل استخدام الأدوية أو الكهرباء أو حتى الجراحة النفسية، ويمكن تقسيم العقاقير النفسية تبعًا لأسس مختلفة، غير أن التركيب الكيميائي أكثر هذه الأسس دقة حيث تقسم الأدوية أو العقاقير إلى :

١- **المهدئات** : وهي عقاقير تحدث تهدئة واضطراب للحركات الإرادية وتقود إلى التخدير.



٢- **المهدئات الكبيرة :** وهي عبارة عن عقاقير تحدث تهدئة إلا أنها لا تصل إلى التحذير ولها مفعول مضاد للذهان.

٣- **المهدئات الصغيرة:** عقاقير تحدث تهدئة، لا تصل إلى التخدير، ولكن ليس لها مفعول مضاد للذهان.

٤- **العقاقير المضادة للاكتئاب :** أو العقاقير المضادة للقلق.

٥- **العقاقير المنشطة :** وهي تزيد من النشاط وتوقف النوم والجوع.

٦- **عقاقير هلوسة :** وتحدث حالة من الاضطرابات والتشويش.

في حين أن العلاج بالصدمات الكهربائية (E. C. T) فهو إمرار تيار كهربائي في المخ ينتج عنه حالة من التشنج الشامل للجسم. مع حدوث تغيرات عضوية ونفسية. ومن التغيرات العضوية تنبيه الجهاز السمبتاوي بصفة عامة ولذلك يوصي بالصدمات الكهربائية في حالة الاكتئاب المصاحبة للفصام وفي حالات الهوس.

ثانيًا : العلاج البيئي :

وينهض هذا العلاج على إحداث تغييرات في البيئة إما بطريق مباشر أو غير مباشر، ففي الحالة الأولى قد ينصح المعالج بتغيير معين عن طريق المريض نفسه الذي يحدث تغييرات في بيئته تؤدي إلى تغييرات في نفسه. كما قد يستعين المعالج ببيئات مختلفة للعلاج مثل المستشفى أو الملجأ أو المصحة أو فصول دراسية معينة مثل تلك الخاصة بالمتخلفين عقليًا وهكذا. وإذا اتضح من خلال سير العملية العلاجية أن الاضطرابات تحدث بسبب أن الوالدين قساة أو مدمنين أو ذهانيين أو مضطربين على أي نحو خطير فهنا يكون من الأفضل الانتقال إلى بيئة أخرى أو إن كان ذلك يحتاج إلى معالج مرن ومتفهم لطبيعة ونظام الحضارة والثقافة التي يتعامل من خلالها مع مرضاه.

ثالثًا : العلاج النفسي :

أي إحداث تغيير في نفس المريض بواسطة طرق ووسائل نفسية، أي بدون وسائل كيميائية أو بيئية إن كانت تستخدم أحيانًا كعناصر مساعدة وليست أساسية، وليس من السهولة بمكان التعرض لكافة قضايا وتصنيفات العلاج النفسي في هذا السياق. بيد أننا سنتحدث عن أشهر طرق العلاج النفسي في عجالة.

أولاً : العلاج بالتحليل النفسي التقليدي :

مؤسس هذه الطريقة هو سيجموند فرويد ويهدف علاج التحليل النفسي إلى تعديل أبعاد الشخصية ودفاعاتها، وإزالة الأعراض، والفكرة الأساسية تقوم على أن الخبرات التي تسبب



الاضطرابات النفسية تحدث أثناء السنوات السبع الأولى من الحياة، كما أن الاضطرابات تنشأ من خلال علاقات المريض بوالديه في هذه الفترة، وأن معظم الاضطرابات الانفعالية التي تسبب الاضطرابات النفسية توجد في اللاشعور أو يمكن الكشف عنها بوسائل متعددة منها: تحليل الأحلام والتي تفصح تدريجيًا عن كم المخاوف والخبرات المؤلمة التي كبتها الشخص، ويركز التحليل النفسي على الماضي وليس على الحاضر مؤكدًا أن المريض إذا استطاع حل مشاكل شخصيته الأساسية التي تنشأ في طفولته فإنه يستطيع أن يتعامل بنضج مع أي موقف راهن، ويقوم المحلل في العلاج النفسي التقليدي بدور سلبي، بينما يقوم المريض بكل الحدث، ومن وقت لآخر يحاول المعالج أن يتدخل لكي يوضح العلاقة بين حدثين أو موقفين أو أكثر حتى يحدث استبصار لدى المريض، وبشرط أن يكون المريض مستعدًا للوصول إلى هذا الاستبصار ولا يسبق المحلل الأحداث حتى لا يرفض أو يقاوم المريض هذا الاستبصار. ولذا فإننا في إطار العلاج بالتحليل النفسي نجد مثل هذه المفاهيم: التفريغ أو التطهير الانفعالي، التداعي الحر أو الطليق، تحليل الطرح، تحليل المقاومة، تحليل الأحلام، والهفوات والزلات (اللسان / القلم) التفسير التحليلي.

استخدامات التحليل النفسي :

أثبت التحليل النفسي فاعلية في الجوانب الآتية :

١- حالات الهستيريا، القلق، الخوف، عصاب الوسواس القهري، الاكتئاب، حالات اضطرابات الشخصية، حالات الإدمان.

٢- حالات مختارة من الأمراض النفسية والجسمية.

٣- حالات الانحرافات الجنسية والجناح.

ويفضل عدم استخدام التحليل النفسي في :

- حالات الذهان.
- حالات الاكتئاب الذهاني .
- السيكوباتيين
- حالات الضعف العقلي.
- حالات المسنين أو الأطفال أقل من ١٥ سنة.
- حالات الأقارب والأصدقاء.

مزايا التحليل النفسي :

١- يهتم التحليل النفسي بعلاج الأسباب وليس الأعراض.



٢- يتناول الجوانب اللاشعورية إلى جانب النواحي الشعورية.

٣- يحرر الفرد من دوافعه الدفينة.

٤- يؤدي إلى إعلاء الدوافع المكبوتة.

٥- يعود بالشخصية المفككة إلى حالة من التكامل والنضج.

عيوب التحليل النفسي :

١- يستغرق وقتًا طويلاً وجهدًا ومالاً.

٢- يحتاج إلى خبرة واسعة وتدريب عملي بل يشترط في المعالج أن يمر بعملية العلاج لذاته قبل أن يمارس العلاج مع الآخرين (حامد زهران، ١٩٩٧، ٢٣٤: ٢٣٥).

ثانيًا : العلاج السلوكي :

يقوم العلاج السلوكي على أساس من النظرية السلوكية التي ترى أن سمات شخصية الفرد تتشكل وتتغير عن طريق ما يتعرض له الفرد من تدعيم وانطفاء لأنماط سلوكه المختلفة والعلاج السلوكي يتناول أعراض اضطراب السلوك مباشرة أكثر من تناوله العمليات المرضية اللاشعورية المسببة للأعراض، ولا يستخدم الاستبصار كأساس للعلاج، ويركز على السلوك غير المناسب والذي يمكن قياسه وملاحظته ويستخدم المعالجون السلوكيون أساليب متنوعة للعلاج منه: خفض الحساسية حيث يقوم العلاج على تعريض المريض على مراحل متزايدة إلى الموقف الذي يسبب له الخوف أو القلق، وأسلوب الكف المضاد، حيث يدرب الفرد الذي يعاني من القلق الشديد على إحداث حالة من الاسترخاء العضلي والانفعالي. وفي أسلوب التدعيم، يثاب المريض على السلوك المرغوب فيه وخاصة حين لا يؤدي طقوس وسواس معين، وفي أسلوب الانطفاء يزول العرض السلوكي غير المرغوب فيه تدريجيًا عندما لا يأتي بفائدة على المريض، وأسلوب الاشتراط السلبي حين يكرر مثير سلبي للسلوك الذي نرغب في التخلص منه، وأسلوب الغمر (عكس أسلوب خفض الحساسية التدريجي) أو التكرار للازمة معينة حتى يتم التخلص منها. وفي كل الأحوال لا بد من اختيار الأسلوب الذي يتناسب وإمكانيات كل شخص، وفقًا لطبيعة العرض أو المشكلة التي يعاني منها (عبد الستار إبراهيم ، رضوى إبراهيم ، عبد العزيز الدخيل، ١٩٩٣).

مزايا العلاج السلوكي :

١- يعتمد على الدراسات والبحوث التجريبية المعملية المضبوطة القائمة في ضوء نظريات التعليم.

٢- يركز على المشكلة أو العرض مما يسهل وجود محك على نتيجة العلاج.



٣- يستغرق وقتًا قصيرًا لتحقيق أهدافه مما يوفر الوقت والجهد والمال.

٤- يتيح علاج أكبر عدد ممكن من المرضى وفي كافة المستويات.

٥- يمكن أن يتعاون فيه كل من الوالدين والأزواج والممرضات بعد تدريبهم.

عيوب العلاج السلوكي :

١- أحيانًا يكون العلاج وقتيًا وعابرًا (لأنه يركز على العرض وليس السبب).

٢- السلوك البشري معقد لدرجة يصعب معها في كثير من الأحيان عزل وتحديد أنماط بسيطة من العلاقات بين المثير والاستجابة.

٣- النموذج السلوكي المبني على أساس الاشتراط لا يمكن أن يفسر جميع أنواع السلوك البشري والاضطرابات السلوكية.

٤- يركز على الأعراض ، والأمر في الأمراض النفسية والانحرافات السلوكية ليس بهذه البساطة. (زهران، ١٩٩٧، ٢٥٦: ٢٥٧).

ثالثًا : العلاج العقائدي الانفعالي :

صاحب هذه الطريقة هو ألبرت أليس الأخصائي النفسي الإكلينيكي بولاية نيويورك الأمريكية والذي بدأ كمحلل نفسي إلا أنه تخلى عن التحليل النفسي لاستغراقه وقتًا طويلاً ولا يؤدي إلى نتائج علاقة واضحة، وكان أول كتبه ١٩٦٢ "العقل والانفعال في العلاج النفسي" يوضح فيه منهجه في العلاج الذي يذهب إلى أن البشر يكونون في أسعد حالاتهم عندما تكون لهم أهداف مهمة يسعون بإيجابية لتحقيقها، والعقلانية هي الوسيلة التي تساعد البشر على تحقيق أهدافهم بينما اللاعقلانية تحول بينهم وبين تحقيقها، وللعقلانية ثلاث خصائص أساسية، فهي عملية ومنطقية وواقعية بينما اللاعقلانية غير علمية وغير منطقية وجامدة ولا تتفق مع الواقع. ويرى أليس أن الفرد يميل وبقوة إلى التفكير والتصرف بطريقة لا عقلانية ومع ذلك فهو قادر على أن ينظر في أفكاره وسلوكه بطريقة نقدية، ويذكر أليس أن اللاعقلانية تؤدي إلى تطور التفضيلات الفردية والاجتماعية وتحولها إلى مطالب واجبة على:

أ- الإنسان   ب- الآخرين   ج - الدنيا بأسرها

الاضطراب النفسي :

يميز أليس نوعين من الاضطراب النفسي يرتبط الأول بالمطالب التي نفرضها على أنفسنا وما تؤدي إليه من انتقاد الذات ولومها عندما نفشل في تحقيق هذه المطالب المطلقة مثل "يجب" ألا أخطئ عندما أتحدث أمام زملائي" ويرتبط النوع الثاني بالمطالب المطلقة التي نفرضها على الآخرين والدنيا مثل "يجب ألا يسخر مني زملائي إذا أخطأت". بينما البديل



الصحي للأول هو قبول الذات دون شرط مع الاعتراف بنقائضها وضعفها مع السعي للتغلب على ذلك. وبالنسبة للثاني فهو تنمية القدرة على تحمل الإحباط والانزعاج من أجل التغلب على المعوقات أمام تحقيق الأهداف والأغراض الأساسية. ويؤكد أليس على مبدأ التفاعل النفسي؛ إذ إن أفكار وانفعالات الإنسان لا يمكن علاجها باستقلال عن بعضها البعض فهي عمليات نفسية متداخلة ومتفاعلة فعندما يفكر المرء في شيء ما مثل لأن التحدث أمام زملائي أمر فظيع لأنه يعرضني للسخرية فهو يميل للتفاعل معه (الشعور بالخوف) إلى التصرف بطريقة معينة (تجنب الحديث – العقاب .. الخ).

الإطار النظري للعلاج العقلاني الانفعالي :

يلخص أليس الإطار النظري لأسلوبه العلاجي في ثلاثة حروف هي .A. B. C وتعني:

١- A هي الحرف الأول من كلمة Antecedents وتشير إلى الأحداث والمواقف التي تظهر فيها المشكلات النفسية وهي قد تكون أحداث داخلية أو خارجية. والأحداث الخارجية هي التي يمكن أن يراها الآخرون فضلاً عن صاحب المشكلة مثل (التحدث أمام الآخرين في امتحان شفهي) أما الأحداث الداخلية فهي أفكار المرء المتعلقة بالأحداث الخارجية مثل (الحديث أمام الآخرين أمر بغيض).

٢- B وهو الحرف الأول من كلمة Beliefs وتشير إلى معتقدات المرء ووجهات نظره في الحياة وهي قد تكون مرنة أو جامدة وعندما تكون جامدة يطلق عليه المعتقدات اللاعقلانية وتكون في صيغ لغوية تبدأ غالبًا بـ (يجب، لا بد) وعندما يتمسك الفرد بهذه المعتقدات فإنه يميل إلى استنتاج أفكار لا عقلانية منها، فإذا أخذنا الاعتقاد العقلاني مثل "يجب" أن أتقن كل شيء أقوم به وإلا كنت فاشلاً لا قيمة لي (يميل أصحاب هذا الاعتقاد إلى استنتاج أفكار مثل "يجب" ألا أخطئ أثناء التحدث أمام الآخرين، وإلا أصبحت موضوعًا لسخرية المعلم والزملاء "أو" أن التحدث أمام المعلم والزملاء أمر بغيض لا أتحمله وعندما تكون المعتقدات مرنة يطلق أليس عليها المعتقدات العقلانية وهي غالبًا ما تأخذ شكل الرغبة أو أمنية أو التفضيل إلا أنها لا تتحول إلى مطالب وشروط مطلقة لازمة. وعندما يتمسك المرء بهذه المعتقدات المرنة فإنه يميل إلى استنتاج أفكار عقلانية منها. فإذا أخذنا الاعتقاد الذي يقول "أفضل" ألا أكون موضوعًا لانتقاد أو سخرية الناس فإن صاحبه يميل إلى استنتاج أفكار مثل "بالرغم من أنني لا أحب أن أكون موضوعًا لسخرية المعلم أو الزملاء إلا أنني أستطيع تحمل ذلك.



٣- C هي الحرف الأول من كلمة Consequences وتشير إلى النتائج الانفعالية والسلوكية لمعتقدات الشخص بخصوص (A) أي الأحداث. ويرى أليس أن النتائج الانفعالية التي تنشأ من المعتقدات الجامدة اللاعقلانية هي نتائج تثير الاضطراب ويطلق عليها النتائج السلبية غير المناسبة أما النتائج التي تنشأ عن المعتقدات المرنة العقلانية فهي لا تؤدي إلى الانفعالات السلبية غير المناسبة تكون غير وظيفية؛ لأنها تؤدي إلى الشعور بألم نفسي كبير وانزعاج نفسي شديد يدفع الإنسان إلى التطرف بأسلوب ضعيف منكسر وتحول بينه والتصرف بطريقة تحقق أهدافه. وفي المقابل تثبت الانفعالات السلبية المناسبة إلى أن يحقق أهدافه ويواجه العقبات وتدفعه أيضًا إلى مواجهة الموقف وتحثه على التصرف من أجل تحقيق هذه الأهداف.

العناصر الأساسية في العلاج العقلاني الانفعالي :

أولاً : أهداف العلاج العقلاني الانفعالي :

١- الانفعال بأسلوب عقلاني (منطقي مرن واقعي).

٢- الانفعال بأسلوب مناسب للمواقف والأحداث.

٣- التصرف بأسلوب فعال لتحقيق الأهداف والأغراض الأساسية ويحث العلاج العقلاني الانفعالي المرضي على فهم وتبني الأفكار الأساسية الثلاثة التالية:

أ- أن الأحداث الماضية أو الحاضرة لا تسبب الاضطرابات السلوكي والانفعالي بل إن المعتقدات اللاعقلانية ذات الصلة بالأحداث هي التي تؤدي في المقام الأول إلى المشكلات السلوكية والانفعالية.

ب- بغض النظر عن الكيفية التي تم بها الاضطراب النفسي في الماضي، فإن الاضطراب الحاضر إنما يعود إلى استمرار المريض في التفكير بالمعتقدات.

ت- بالرغم من أن الإنسان يميل إلى الاضطراب النفسي من جراء الأفكار والأفعال المنكسرة والضعيفة الهازمة لذاته فإنه يستطيع التغلب على مشكلاته واضطرابه إذا ثابر على تحدي المعتقدات اللاعقلانية ومقاومتها بطريقة مخالفة لها.

ثانيًا : العلاقة العلاجية :

العلاقة العلاجية في العلاج العقلاني الانفعالي علاقة مساواة وتكافؤ فالمعالج والمريض بشر على قدم المساواة وإن اختلف في التعليم والتدريب ومهارات حل المشكلات.



ويسعى المعالج إلى أن يرضى المريض عن نفسه ويتقبلها بالرغم من نقائضها وعيوبها التي جاء ليتخلص منها ما استطاع. ويلاحظ أليس أن الاضطراب الانفعالي قد يتضمن أو ينشأ عن اتجاه جاد في الحياة وإن كان يبالغ في ذلك ويتصرف بطريقة ضارة لذا يسعى المعالج العقلاني الانفعالي إلى أن يكون مرحًا خفيف الظل محاولاً أن يوضح بأسلوب مرح الجوانب الساخرة أو الفكاهية لمعتقدات اللاعقلانية.

ثالثًا : الأسلوب العلاجي :

يوصي أليس باتباع أسلوب علاجي إيجابي موجب مع معظم المرضى خاصة في المراحل الأولى في العلاج حيث يحث المعالج المريض على التفكير في المعتقدات اللاعقلانية وراء مشكلاته الانفعالية والسلوكية ويقل الدور التوجيهي للمعالج في المراحل الأخيرة في العلاج حيث يدفع المريض إلى تحمل المزيد من مسئولية التفسير العلاجي .

رابعًا : التأكيد على تحدي المعتقدات اللاعقلانية:

يهتم العلاج العقلاني الانفعالي اهتمامًا كبيرًا بمساعدة المرضى على تحدي معتقداتهم اللاعقلانية مستعينين بالوسائل والتقنيات المعرفية والانفعالية والتحليلية والسلوكية. ويتمثل في تدريب المرضى على :

١- الكشف عن وجود المعتقدات اللاعقلانية.

٢- التمييز بين المعتقدات العقلانية واللاعقلانية.

٣- مجادلة وتحدي المعتقدات في ضوء محكات المنطقية والواقعية والفائدة والنفع.

خامسًا : التكامل في الأساليب والتقنيات :

لا يكتفي العلاج العقلاني الانفعالي بالوسائل المعروفة وإنما يعتمد على استخدام العديد من التقنيات الأخرى وأهمها:

١- **الطرق المعرفية** : وتشمل على التحليل الفلسفي والمنطقي للأفكار، والمعتقدات غير المنطقية، والتعليم والتوجيه، وتفسير الاستنتاجات غير الواقعية، ووقف الأفكار، والإيحاءات والتشتيت المعرفي.

٢- **الطرق الانفعالية:** وهي التي تتعامل مع مشاعر وانفعالات المريض مثل التقبل غير المشروط للعميل، ولعب الأدوار، والنمذجة، والمرح، ومهاجمة الشعور بالخزي والدونية وهو ما يساعد المرضى على إظهار أنفسهم والتعرف على المشاعر السلبية لديهم.



٣- **الطرق السلوكية** : ومن بينها الواجبات المنزلية النشطة التي يكلف بها المريض مثل مواجهة المواقف التي يخاف منها، وقراءة بعض الكتب، كذلك أساليب الاشتراط الإجرائي مثل العقاب والتعزيز والتشكيل السلوكي كذلك الاسترخاء.

٤- **التخيل العقلاني والانفعالي:** ويطلب من المريض أن يتخيل نفسه في موقف الانفعال الكدر ثم يتخيل نفسه وقد غير من هذا الانفعال إلى انفعال أقل (تغيير الغضب إلى الضيق) وفي كل مرة يسأله المعالج عن شعوره ثم يعود فيطلب منه أن يحدث نفسه بعبارات تخفف الانفعال مثل "إن ما حدث لي ليس بدرجة السوء التي أتعودها". ويستمر التدريب على هذا داخل الجلسة وخارجها حتى يصبح ذلك عادة عنده.

سادسًا : أهمية الواجبات المنزلية :

يرى أليس أن المرضى الذين يطبقون ويمارسون ما تعلموه أثناء جلسات العلاج الانفعالي أكثر من أولئك الذين لا يفعلون ذلك؛ لذا يعطي المعالج العقلاني الانفعالي اهتمامًا كبيرًا لمفهوم الواجبات المنزلية ويبذل وقتًا كافيًا في شرح الأسباب التي تجعل من الواجبات المنزلية ركنًا أساسيًا في العملية العلاجية وفي شرح طبيعتها ومناقشتها مع المريض ومراجعة أدائه لها، ويهتم بالعوامل والأسباب التي تعوق المريض عن القيام بالواجبات المنزلية ويعمل معه على التغلب عليها.

سابعًا : خصائص المعالج العقلاني والانفعالي :

وتتمثل في :

١- الاستمتاع بدوره التوجيهي في علاقته بالمريض.

٢- الاقتناع بالفلسفة العلمية وبصفة خاصة الالتزام بالمبادئ.

٣- أن يكون معلمًا صادقًا ومتحدثًا لبقًا.

٤- لا يذكر أخطاءه في العلاج لو حدثت ويتقبل نفسه ويرضى عنها باعتبارها قابلة للخطأ وإن كان يسعى دائمًا إلى تجنب الأخطاء وتقبلها.

٥- يستمتع بحل المشكلات.

٦- يتمتع بروح مرحة يجيد استخدامها في العملية العلاجية.

ثامنًا : خطوات العلاج العقلاني الانفعالي :

١- تأسيس العلاقة العلاجية والسؤال عن المشكلة النفسية.

٢- تحديد المشكلة والاتفاق مع المريض على العمل من أجل حلها.



٣- فحص النتائج الانفعالية (C)

٤- فحص المواقف والأحداث (A)

٥- الاتفاق على الأهداف.

٦- الكشف عن صلة المعتقدات (B) بالانفعالات_(C)

٧- فحص المعتقدات اللاعقلانية وكشف صلتها بالمشكلات الانفعالية والسلوكية.

٨- التأكد من فهم المريض لطبيعة الصلة بين معتقدات اللاعقلانية واضطرابه الانفعالي.

٩- تفنيد المعتقدات اللاعقلانية.

١٠- تعميق الاقتناع بالمعتقدات العقلانية.

١١- الواجبات المنزلية.

١٢- مراجعة قيام المرضى بالواجبات المنزلية.

١٣- إنهاء البرنامج العلاجي.

رابعًا : العلاج بالسيكودراما :

يعرف العلاج بالسيكودراما بأنه الطريقة النشطة بالوصول إلى أعماق النفس، ولقد ولد هذا الاصطلاح من كلمتين هما النفس Psyco ودراما ومعناها الفعل أو الحركة. أي حركة النفس. وهو نوع من العلاجات النفسية التي تستخدم الأساليب الحية للمسرح للاقتراب من الديناميات النفسية للفرد. ولذا فإن هذا النوع من العلاج ينهض على أداء الفرد أداءً حركيًا لموقف ما وسط مجموعة من الناس. إنها تصور حياة البشر في أشكالها المتعددة.. موتهم.. حياتهم.. الحب.. الكره.. القوة.. الضعف.. إلخ.

وتأتي تلك المواقف من أي مكان .. من الماضي .. من الحاضر أو المستقبل .. من الواقع أو من الخيال وباختصار فإنه يمكننا القول بأن العلاج بالسيكودراما هو شكل حي من أشكال استكشاف النفس. إنه مزيج من العلم والفن "علم النفس والمسرح" ويستعمل مادته العلاجية من أي شيء يدور داخل نفس الإنسان. وفي أثناء التمثيل يمكن أن يقوم المعالج بالآتي:

١- لفت نظر الجماعة لمشاهدة مفاتيح لحلول معينة في لعب الدور كمشاهدة الحركات التعبيرية.

٢- يستطيع أي ممثل أو أي عضو أن يوقف التمثيل ويرفع إصبعه، فيوقف المعالج العرض، ويسمح له بالحديث وذلك لإتاحة الفرصة أمام الممثلين للتعبير عن مشاعرهم عما يقومون به ولإمكان إشراك المشاهدين.



٣- بعد انتهاء التمثيل يعبر كل ممثل عما يشعر به أو فكر فيه أثناء لعب الدور وكذلك تعبر الجماعة عن ردود الفعل عندها، ولا مانع من ظهور خلافات في الرأي بين أعضاء الجماعة.

كما يعتمد لعب الدور على عدة افتراضات منها:

١- أن الحياة كلها مسرح All Life is a Stage وأن الحياة الاجتماعية ما هي إلا عبارة عن لعب دور. ويوصف الناس بالنجاح إذا لعبوا أدوارهم بطريقة جيدة.

٢- أننا نفهم المشاكل بطريقة أفضل إذا عرضت علينا، وإذا أصبحت حقيقة، وأننا في الحياة نتعلم من النماذج أو من المثل التي نشاهدها كما أن العلاج السيكودرامي مجموعة من العناصر الأساسية والتي بدونها لا يمكن اعتباره علاجًا سيكودراميًا. كما يحتوي على عدد من الخطوات المحددة التي تعطي في النهاية ثقلاً مميزًا لهذا النوع من العلاج.

وتتلخص عناصر العلاج السيكوردامي في النقاط الآتية :

المسرح – المخرج (حيث تتحدد وظائفه في : وظائف مسرحية – وظائف علاجية) – البطل – الأنا المساعدة . كما أن العلاج بالسيكودراما له العديد من الخطوات يضيق المقام عن حصرها. (محمد رياض، ١٩٩٤).

العلاج النفسي الجمعي :

هذا شكل من أشكال العلاج، ففي خطوات واسعة عقب الحرب العالمية الثانية حيث ينتج العلاج للفرد من خلال الجماعة. وقد أثبت هذا العلاج أهميته في عملية التطبيع الاجتماعي أو في تعريف المريض بأن للآخرين مشاكل تشبه مشاكله وأن يصبح عضوًا في جماعة وأن يتوحد بها، وأن يجد التعضيد والمساعدة في حل مشاكله وأن ينمي أساليبه في إقامة علاقة شخصية مع الآخرين متخلصًا بذلك من عزلته.

ويفيد العلاج الجماعي في شفاء جماعات معينة من المرضى من ذوي المشكل الخاص مثل:

١- المرضى العقليون السابقون.

٢- مدمنو المخدرات والخمور.

٣- مرضى السمنة.

٤- المنحرفون جنسيًا.

٥- المجرمون والجانحون.



٦- المراهقون.

٧- الشيوخ والكبار.

٨- الأرامل والمطلقات.

وإذا كان أحد مصادر المرض النفسي هو اختلال علاقة الفرد بالجماعة وينعكس هذا الاختلال في ثلاثة مجالات محدودة هي : المجال الجسمي البيولوجي ، مجال العلاقات الثقافية المحيطة، أي تقبل القيم والمعايير السائدة، والمجال الثالث هو مجال العلاقات بالآخرين خاصة أقرب المحيطين من الأهل والأقارب والأصدقاء والزملاء، ولعله من الحقائق البديهية أن الإنسان يولد ويعيش ويموت في جماعات، بل إن الجماعة هي المتحكمة في معظم، إن لم يكن كل، ما يحدد هوية الإنسان، فهي التي تمنحه عقيدته واسمه ونوع دراسته ومهنته، بل وزواجه، وطريقة دفنه، والتصرف في الميراث وتظل علاقة الفرد بجماعته والتأثير المتبادل بينهما هي محور نشاط العمل. من هنا جاء اهتمام المعالجين باستخدام أثر الجماعة في علاج الفرد.

ويمكن القول بشكل عام إن كافة أشكال العلاج النفسي تتضمن استخدام أساليب وإجراءات معينة وضعت لتعديل شخصية الفرد، ونظرته إلى العالم واتجاهاته وأفكاره ووظائفه السيكوفسيولوجية أو سلوكه. وهذه الخاصية تميز العلاج النفسي من غيره من أنواع العلاجات الأخرى كالطب أو الترويح أو ممارسة الشعائر أو ممارسة الرياضة، وهناك خمسة أشكال أساسية في العلاج النفسي: العلاج النفسي الذاتي، والازدواجي، والجماعة الصغيرة، والجماعة الكبيرة، وهناك تصنيف آخر يقسم الجماعات العلاجية إلى ثلاث أنواع هي: جماعات العلاج النفسي Psychotherapy وجماعات التدعيم Suppoht وجماعات العون الذاتي Self Help.

مسلمات العلاج الجماعي :

ينهض العلاج الجماعي على المسلمات الآتية:

١- الفرد في حد ذاته أكثر أهمية من المجموع.

٢- قائد الجماعة ليس عضوًا فيها.

٣- باب الجماعة العلاجية مفتوح ولكل من يريد الدخول.

٤- ليس للجماعة العلاجية في حد ذاتها أهداف.

٥- يعالج الفرد من خلال تواجده في الجماعة.

٦- التفاعل داخل الجماعة هدف في حد ذاته.

٧- لا يسعى المعالج الجمعي إلى زيادة مستوى الضغط الطبيعي داخل الجماعة.



٨- ليس الجماعة مكانًا للاعتراف.

٩- الامتعاض والانتقاد والتركيز على أشخاص خارج الجلسة، وتبادل الأحاديث الجانبية، والتركز على موضوعات بعينها، ليست سياقًا ملائمًا لجلسات العلاج الجمعي.

١٠- ما يدور في الجلسات العلاجية الجمعية أمر غير قابل للتداول.

١١- يلتزم أعضاء الجماعة بالتعبير عن أنفسهم فقط.

١٢- لا تتخذ المشاعر في الجلسات العلاجية وضعًا أفضل من الأفكار.

١٣- لا يعتبر تماسك الجماعة هدفًا علاجيًا.

١٤- متابعة ما يحدث من جلسة إلى أخرى هو جزء لا يتجزأ من العملية العلاجية.

١٥- في كل جلسة من جلسات العلاج الجمعي يتلقى عضو أو أكثر عنوانًا علاجيًا.

١٦- لا يوجد ارتباط موجب بين الفاعلية وبين ما يحس به العضو من ارتياح.

١٧- ليست الانفعالات السلبية خلال جلسات العلاج الجمعية شيئًا سيئًا كما أننا لا نتجنبها.

١٨- لا يوجد جدول أعمال للجماعة العلاجية.

١٩- كافة أنواع السلوك في الجماعة العلاجية، ليست شرًا وليست خيرًا.

٢٠- تقاس مدى فاعلية الجماعة العلاجية بما يحدث خارجها من تغيرات إيجابية.

فنيات قيادة الجماعة العلاجية :

يقوم المعالج النفسي الجمعي باستخدام الفنيات الآتية :

١- تعيين وتوضيح وتسمية وتأمل المشاعر.

٢- تعيين وتوضيح وتسمية وتأمل السلوك.

٣- تعيين وتوضيح وتسمية وتأمل المعلومات المعرفية.

٤- توجيه الأسئلة وإثارة الموضوعات واستخراج المادة الملائمة للعملية العلاجية.

٥- المواجهة من خلال :

أ- التباين بين ما يقوله العضو الآن وما سبق أن قاله في مرات سابقة.

ب-التباين بين ما يقوله العضو وما يفعله.

ت-التباين بين أقوال العضو ومشاعره.

٦- تلخيص ومراجعة المواد الهامة التي طرحت.

٧- التفسير.



٨- إعادة الصياغة.

٩- الربط بين الأشياء .

١٠- تقديم المعلومات .

١١- المبادأة.

١٢- التضمين والتشجيع والتدعيم.

١٣- التدخلات العلاجية : حيث يتدخل المعالج في المواقف الآتية :

أ- حين يتحدث فرد باسم الجماعة كلها.

ب-عندما ينصب أحد أعضاء الجماعة نفسه متحدثًا باسم زميل له.

ج- عندما يركز أحد الأعضاء على أشخاص أو ظروف خارج أعضاء الجماعة.

د- عندما يبدو التناقض بين أنواع السلوك.

ه- عندما يدخل عضو ما الملل على الجماعة من خلال تكرار ما يقوله:

١٤- الصمت داخل الجماعة.

١٥- التعرف على السلوك.

١٦- استخدام رسائل واضحة ومختصرة ذات معنى.

١٧- التركيز والتصويب.

١٨- تجنب الأحداث والوقائع التي قد تؤدي إلى تفجر الجماعة.

١٩- وضع الأهداف.

٢٠- تيسير الوصول إلى النهاية.

كما تتعدد أيضًا الفنيات، ولذا فإن هذا النوع من العلاج يحتاج إلى حسم العديد من القضايا مثل: عدد أعضاء الجماعة – طبيعة المشاكل التي تعاني منها الجماعة – مهارات القائد أو المعالج النفسي الجمعي ، مدة العلاج النفسي وهكذا (لطفي فطيم، ١٩٩٤).

ومن خلال خبرة – كاتب هذه السطور – في استخدام فنيات هذا العلاج يستطيع القول بأنها أحرزت تقدمًا هائلاً خاصة في علاج المدمنين، فمشاكلهم تقريبًا واحدة. أما فيما يتعلق ببعض المدمنين الذين كانوا يعانون من نقص في توكيد الذات أو الخجل، فكان يجرى عليهم علاجًا فرديًا، وبعد أن يستعيدوا الثقة بالنفس، كان يدخلهم إلى العلاج النفسي الجمعي حتى يجتازوا هذه الأزمة ويحدث التفاعل بينهم من خلال التواجد داخل الجماعة، والتي تعاني من نفس المشكلة وما يتفرع عنها من مشكلات نفسية أخرى.





المراجع



أهم المراجع

أولاً : المراجع العربية

١- أحمد فارق : التحليل النفسي بين العلم والفلسفة، الأنجلو المصرية، ١٩٦٧، القاهرة.

٢- أحمد عزت راجح: أصول علم النفس، ط٢، ١٩٨٥، دار المعرفة، القاهرة.

٣- أيزنك: الحقيقة والوهم في علم النفس، ترجمة قدري حفني، رءوف نظمي، دار المعارف، ١٩٩٦، القاهرة.

٤- أنستازي، جون فوي: سيكولوجية الفروق بين الأفراد والجماعات، ط١، ترجمة السيد محمد خيري، مصطفى سويف، الشركة العربية للطباعة والنشر، ب ت، القاهرة.

٥- أحمد عكاشة : الطب النفسي المعاصر، الأنجلو، ط٦، ١٩٩٢، القاهرة.

٦- أحمد عكاشة : علم النفس الفسيولوجي ، ط ٦ ، دار المعارف، ١٩٨٢، القاهرة.

٧- أمال صادق / فؤاد أبو حطب: مناهج البحث وطرق التحليل الإحصائية، الأنجلو، ١٩٩١، القاهرة.

٨- انتصار يونس : السلوك الإنساني، دار المعارف ، ١٩٩٣، القاهرة.

٩- جورج بولتزير: أزمة علم النفس، ترجمة لطفي فطيم، مراجعة مصطفى زيور، دار شهدي للنشر، ط٢، ١٩٨٦م.

١٠- حامد زهران: الصحة النفسية والعلاج النفسي، ط٤، عالم الكتب، ١٩٩٧، القاهرة.

١١- سعد جمال: المرجع في علم النفس، مكتبة المعارف الحديثة، ١٩٨٥، القاهرة.

١٢- عبد الحليم محمود السيد : الإبداع والشخصية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٢.

١٣- عبد الحليم محمود السيد وآخرون: علم النفس العام، ط٣، ١٩٩٠، دار غريب، القاهرة.



١٤- علاء الدين كفافي : الصحة النفسية ، ط٤، ١٩٧٧، هجـر للطباعـة والنشر والتوزيع والإعلان، القاهرة.

١٥- عبد الرحمن العيسوي : علم النفس علم وفن ، دار المعارف، ١٩٨١، القاهرة.

١٦- عبد الرحمن العيسوي : علم النفس العام، دار المعرفـة الجامعيـة ، الإسكندرية، ٢٠٠٠.

١٧- ديوبولدفان دالين: مناهج البحث في التربية وعلم النفس، ترجمة محمد نبيل نوفل وآخرين، ط٢٤، ١٩٩٠، الأنجلو، القاهرة.

١٨- ممدوحة محمد سلامة: مقدمة في علـم الـنفس، الأنجلـو، ١٩٩٦، القاهرة.

١٩- محمد رمضان محمد: مناهج البحث وعلم النفس، ١٩٩١، جامعة عين شمس، القاهرة.

٢٠- محمد حسن غانم : علم النفس الفـارق، ٢٠٠٢، جامعـة حلـوان، القاهرة.

٢١- محمد حسن غانم : ديناميات الاحتياجات / الضغوط ومراكز الـتحكم لدى مدمني المخدرات، دراسة حضارية مقارنة دكتوراه غير منـشورة آداب عين شمس، ١٩٩٦، القاهرة.

٢٢- محمد حسن غانم ديناميات صورة السلطة لدى المـسجونين، دراسـة نفسية مقارنة، ماجستير غير منشور، آداب عين شمس ١٩٩٠، القاهرة.

٢٣- محمد حسن غانم : علم النفس الإكلينيكي – المستوى الأولى : التقييم، ٢٠٠٣، جامعة حلوان.

٢٤- محمد حسن غانم : علـم الـنفس الإكلينكـي – المـستوى الثـاني: التشخيص، ٢٠٠٣، جامعة حلوان.

٢٥- ميشيل أرجابيل: علم النفس والمشكلات الاجتماعيـة، ترجمـة عبـد الستار إبراهيم، دار الكتب الجامعية، ١٩٧٣، القاهرة.

٢٦- محمود الإبياري: أسس علم النفس العام، ط٢٢، مكتبة سعيد رأفـت، ١٩٧٨، القاهرة.



٢٧- محمد الطيب ومحمد منسي : علم النفس العام، ط٤، الأنجلو، ١٩٩٣، القاهرة.

٢٨- فرج طه: علم النفس وقضايا العصر، ط٢، ١٩٨٤، دار المعرفة، القاهرة.

٢٩- فرج طه وآخرون: موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، دار سعاد الصالح، ١٩٩٣، القاهرة.

٣٠- هول، ولندري: نظريات الشخصية، ترجمة فرج أحمد وآخرين، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧١، القاهرة.

٣١- نجيبة الخضري : علم النفس والأخصائي الاجتماعي، مكتبة عين شمس، ب ت، القاهرة.

٣٢- يمنى الخولي : فلسفة العلم ، ١٩٩٦، ط ٢، دار الغد للثقافة والنشر، القاهرة.

٣٣- يوسف عبد الفتاح محمد : الاضطرابات الوجدانية والسيكوماتية وعلاقتها بالاتجاه نحو المرض النفسي لدى عينة من الجنسين في دولة الإمارات العربية المتحدة، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ٤٨٤، صيف ١٩٩٤، الكويت.



ثانيًا : المراجع الأجنبية:

34-Egsenck, H: (1961) Hand book of abnormal psychology, New York, Banic Books.

35-Hilgavj. R. of Power, H (1974). The ovies of learning, New Tersey, Prentic –

Hall. Miller. R (1993) the study of social Relationships: situation Identity, and social, interaction, in: kock, s: Psychology A study of science, vol (5), New York, MC GVAW – Hill.

Hopec & Holland, M.

36-Daridg. M (1995), Psychology, New York, Worthpublishers.

37-Myers, D. G (1993) the pursuit of happinerss, New York, Avon Books.

38-Brody, N (1992). Intelligence, Snded. San Diego. Academic Press.

39-Fancher, R. E (1985) The Intelligence men New York, : No toon.

40-Staub, E (1993) Societal – cultural Familial and Psychological origns of yauth uiolence paper presented of the American Psychology Associatino convertion, 1999. (Personality contemporary theary and Research).

41-Aekerman. M (1995). Good and day humers, Brocke mical of Personality and its dis orders Psychology science.

42-Wainer. H. A. of Rvbin, M (1969). Motivation of Research and development entrep renenurs. Journalo FA pplid Psychology.



43-ANASTASI, A (1992). Psychological Terting, Yrjed, New York the McMillan Co.

44-Bram ner, K. M; 4 bvego, p. j., of snowstorm E. I (993) Kherapeutic counseling and psycho therapy. Prentice – Hall, mic.

45-Sve. D., Sve. D of Sve. S (1990) Understanding abnormal beharioe (3 RJED) Boston. Houghton. Mifflin Company.

46-Corsini, R. J of Wedding, D (Editors) (1995) Current psy chotheropies (5th. Ed) ET ascy, F. E peacoclr publishers, mic.

47-Allport, g. Pattern and geowth in Personality, N. Y Holt Rinehart and Sin ston, 1961.

48-Collet, R: (ED) Handbook of Modern Personlity theory, Urlana, University of Iuinios Pren, 1971.

49-Kendlen, H: Basic Psychology, London, W. A Bewja Mine, Inc, 1974.

50-Wilson, G: Personality in: H. Eysenck. G Wilson (E.D.S) A text book of Human Psychology, Battivore, university Payx Pren 1976.

51-Spiegel, J. Bell, n: the Family of the Psychology, in Arieti (ED) American Handbook of Psychology, Basic Books in n.y, 1967.

